موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الثالث

القابض الباسط الخافض الرافع المعز

المذل السميع البصير الحكم العدل

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوْسُوعَة

أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ

وَأَثَرِهَا فِي اسْتِخْلَافِ الإِنْسَانِ فِي الأَرْضِ

الجُزْءُ الثَّالِثُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد - بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي

ص.ب : 311 - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْـــرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الموضوع	رقم الصفحة
القَابِضُ	7
البَاسِطُ	41
الخَافِضُ	89
الرَّافِعُ	135
المُعِزُّ	179
المُذِلُّ	219
السَّميعُ	257
البَصيرُ	307
الحَـكَمُ	351
العَدْلُ	397

القابض جل جلاله

القبض : فعل يستوجب قوة . ولا يتم إلا بطرفين غير متساويين : قوي وضعيف ، غني وفقير ، خائف ومخيف ، محتاج ومحتاج إليه ، مهيمن ومهيمن عليه ، مسيطر ومسيطر عليه ، ولذا فالقبض فعل يترتب عليه الأخذ والاستسلام مع القبول بالاشتراطات ، وقد يترتب علىٰ فعل القبض الندم والاستغفار ، وفي بعض الأحيان لا يتم ذلك بيسر ، وقد لا يتم إلا للقابض المطلق الذي يمتلك فعل الأمر (كن فيكون كل شيء كما يُراد له أن يكون) .

القبض في لسان العرب : « يطلق علىٰ التقتير ، والتضييق ، وعلىٰ الجمع ، كما في قبض ٱلله السماء والأرض » (1) .

ويقول أبو حامد الغزالي : القابض هو « الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويقبض الرزق عن الفقراء حتىٰ لا يُبقي طاقة ، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله » (2) .

وقال ابن القيم في نونيته :

هـو قـابـض هـو بـاسـط هـو خـافـض هـــو رافـــع بـــالعـــدل والميـــزان (3)

---

(1) لسان العرب المحيط ، الثالث ، 11 .

(2) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ . مصدر سابق ، ص 62 .

(3) حصة بنت عبد العزيز ، مرجع سابق ، ص 59 .

القبض في اللغة كما يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : هو « الإمساك عن الشيء ، ومن الشيء »[1] .

ويقول الإمام مجد الدين بن الأثير الجزري : « القابض هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ، ويقبض الأرواح عند الممات »[2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] . قال النحاس : (ما قدروا ٱلله حق قدره) ما عظموه حق عظمته بشركهم معه ما خلق[4] . لم يعظموه وهو المهيمن ، والمسيطر بقدرته علىٰ الأرض السمٰوات السبع وهو علىٰ كل شيء قدير . إنه المُنزَّه عن انعدام القدرة والقوة المطلقة التي بها يوم القيامة يطوي السمٰوات بيمينه وكأنها شيء صغير ، وسيكون المشهد واضحاً ، أمام الذين آمنوا ، ولم يشركوا مع ٱلله أحداً .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ ﴾[5] . المنافقون والمنافقات حالهم واحد ، فلا فرق بينهم حيث انعدام الصدق بقولهم ، لما لا يفعلون ؟ فهم الذين يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، أي : يأمرون بما لا يُرضي ٱلله جل جلاله ، ولا يُرضي المصلحين في الأرض ، ولا يُقدِّرون أعرافهم التي ارتضوها بينهم ناموساً أخلاقياً وإنسانيّاً ،

---

(1) محمد بكر إسماعيل ، مرجع سابق ، ص 93 .
(2) يوسف المرعشلي ، ولله الأسماء الحسنىٰ ، مرجع سابق ، ص 127 .
(3) الزمر ، 67 .
(4) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . الجزء الخامس عشر ، ص 277 .
(5) التوبة ، 67 .

وفوق ذلك يملأ أنفسهم الشح ، فيقبضون أيديهم عن العطاء ، وأفعال الخير ، فهـٰؤلاء ومن هم علىٰ مثلهم نسوا ما أمر ٱلله به أن يُفعل ، فنسيهم ٱلله تعالىٰ من فضله مما يجعلهم من المحرومين من مغفرة وجنَّةٍ عرضها كعرض السمـٰوات والأرض .

القبض فعل مؤقت لا يدوم بالمطلق فإن دام ؛ أصبح سكوناً ، والسكون ليس بقبض . فمن يقبض عليه العطش ، سيكون في حالة ظمأ إلىٰ أن يرتوي بالماء ، وحينها تزول الشدة التي كانت بأثر العطش ، والجوع قبض علىٰ الجائع ، وبالأكل يُسدُّ الرمق ، ويتحقق من بعده الإشباع ، وتزول الكروب التي هي بفعل الجوع ، وهـٰكذا المرض قبض لا يدوم بالمطلق أمام قوة الشفاء المندفعة تجاه المريض الذي يعاني من شدة قبضة المرض ، وآلامه الموجعة . وبالمطلق الحياة والموت بيد القابض المطلق ووجودهما مؤقت ، فكما تقبض الموت علىٰ الحياة يقبض البعث علىٰ الموت مما يجعل كل منهما ليس بدائم أمام القابض الدائم جل جلاله ، ولذا فالقاعدة : (وراء كل قابض قابض إلىٰ القابض المطلق) .

وبناء علىٰ هـٰذه القاعدة ، يستمد القابض بالإضافة قوته وقدرته من القابض المطلق ؛ حتىٰ تعمَّه صفة القبض التي تجعله علىٰ حالتين من السلوك ، هما :

ـ القابض علىٰ من هم أقل منه قوة ومقدرة ، فالإنسان قوته تتمركز علىٰ ملكاته واستخداماته العقلية التي تجعله مسيطراً علىٰ من لا يفوقه قوة عقلية حتىٰ وإن كانت له قوة بدنية ، أو قوة سامة أو مؤذية .

ـ مقبوض عليه من قبل من يفوقه قوة ، أي : يفوق قوته الفردية بقوة فردية كما هو الحال أثناء المبارزات والألعاب الرياضية ، وبالقوة المجمَّعة أو المجتمعة كما هو حال تفوق سلطان الدولة ، وقوتها علىٰ قوة الفرد ، أو الجماعة المحدودة ، وكذلك كما هو الحال أثناء الحروب التي تدار رحاها

بالقوات المُجمَّعة مما يجعل النصر تحت قبضة القوي ، والهزيمة تلحق من كان أقل قوة وفطنة ، وهـٰكذا لو تدخلت قوات أخرىٰ مُجمَّعة لتسند القوة المنهزمة ، فتقلب الموازين التي تجعل من القابض بالقوة مقبوضاً عليها بما يفوقها من القوة .

والقابض : مالك القوة والقدرة المتحكم في الشيء ، يفعل ما يُريد متىٰ يشاء ، وكيفما يشاء ، وهو المسيطر الذي لا يفلت من قبضته أحد ، ولذلك : فوق كل ذي قوة قوي .

والقابض المطلق : هو القوي المطلق ، ولذلك لا قابض بمطلق إلا القوي المطلق جل جلاله .

والقابض : الآخذ بعناية مع معرفته للغاية من وراء القبض ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [1] . ووفقاً لقاعدة ما يجب ، فمن ينتهي عمره لابدَّ من قبض روحه ، وأخذها منه أخذاً ، وهـٰكذا يصبح الأخذ في مقابل العطاء ، أي : إن الذي أعطىٰ أخذ ، وأنه في الحالتين قادر ، في الحالة الأولىٰ : أعطىٰ ، وفي الحالة الثانية : أخذ ما أعطىٰ .

والفعل المترتب علىٰ الأخذ هو الاستسلام ، والقبول بإرادة ، أو بغير إرادة ، وذلك وفقا لقانون المشيئة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [3] .

المؤمن بأن ٱلله تعالىٰ واحد أحد لا شريك له في الملك يؤمن بأن الموت

---

(1) طه ، 96 .

(2) غافر ، 55 .

(3) لقمان ، 17 .

حقٌّ مثلما الحياة حقٌّ ، ولذلك يسلم وجهه لله رب العالمين . أما ضعيف الإيمان ، والذي لا إيمان له ، فقد يتكبر ويتجبر وكأنه مالك الملك ، وحين يأتي موعدُ قَدَره ؛ يجد نفسه ضعيفاً أمام قَدرة القوي المتعالي .

إذاً القبض لا يتم إلا بقوة ، فالذي يعمل يقبض معاشاً ، أو مرتباً (مترتباً) علىٰ ما بذله من جهد ، ولذلك يُعد القبض حقًّا ، أي : إن قبض الأرواح حقٌّ مثلما قبض المعاش حقٌّ ، والقبض علىٰ المفسدين في الأرض حقٌّ ، ولهـٰذا لا يمكن أن يستخلف الخالق فيها مفسداً ؛ وذلك لأن الغاية من الاستخلاف في الأرض هو الإصلاح ، وبما أن الغاية من وراء الاستخلاف هو الإصلاح ؛ إذاً من يفسد فيها ليس من الذين يراد لهم الاستخلاف فيها .

ولأن وراء كل شيء غايةً ، فإن الغاية من وراء القبض هي الانبساط ؛ فالقبض علىٰ اللصوص والمجرمين من أجل أن تطمئن النفوس ، وتمتدَّ في حركتها دون خوف ؛ وهي آمنة علىٰ ممتلكاتها وأعراضها وأرواحها وأوطانها . وهـٰكذا القبض علىٰ الحياة بالموت ، والقبض علىٰ الموت بالحياة دروس تجعل الخليفة في حالة اتعاظ وخشية من الكفر ، والطغيان ، والتكبر ، والتمرد بغير حق ، وكذلك يمدُّه بالأمل في البقاء الدائم مع الحي الدائم إن لم يُفسد في الأرض . وإن أفسد فيها ؛ فبقاؤه الدائم سيظل في الجحيم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (1) .

ولأن من وراء القبض بسطٌ ، وانبساطٌ ، وغايةٌ ، فيقبض الإنسان يداه ليجمع قوته فيها من أجل غرضٍ ، وغايةٍ تجعله من بعدها في حالة امتداد حر ، وهـٰكذا إنْ قَبَضَ الإنسان لأحدىٰ قدميه رفعها عن الأرض ليخطو عليها إلىٰ الأمام دون تردد ، وهـٰذه الحركة هي التي تجعل القدم الأخرىٰ في حالة امتداد وملاحقة حتىٰ يأتي دورها في مبادلة الانقباض بالانبساط . وبحركة ذاتية

---

(1) النساء ، 56 .

متناسقة تنقبض أبصارنا ما بين الرمشين حتىٰ يمتد نظرنا ، وتنبسط رُوآنا ، ونتمكن من التمييز بين الجميل والأجمل منه ، ولنشاهد آياته العظام في المكان والزمان عبر الحركة .

القبض حركة بها يتم تجميع القوة من أجل أن يمتد المتحرك ، ويبسط جسمه أو يبسط جناحيه كما هو حال الطائر الذي لا يمكن أن يطير في السماء إلا بحركتي الانقباض ، والانبساط . قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [1] .

القبض قوة من ورائه قابض ، ولذا فبالقبض يتم إظهار القوة وتوظيفها ، وهـٰذه تأخذ إحدىٰ الصفتين :

الصفة الأولىٰ التوظيف الحسن : أن تفعل خيراً للناس ، وأن تعمل في الأرض ، ولا تفسد فيها ، ولا تسفك الدماء بغير حق ، فتنال الجزاء الأوفر والأجر الحسن قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [3] .

الصفة الثانية التوظيف السيئ : أن تفسد في الأرض ، وتسفك الدماء فيها بغير حق ، وأن تشهد زوراً ، ولا تستغفر من بعده ولا تتوب ، وأن تأكل أموال الناس بالباطل ، وأن لا تنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وتشرك بالله ولا تؤمن به وبما أنزل ، أو تقنط من رحمة ٱلله عز وجل ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَن

(1) الملك ، 19 .
(2) الرعد ، 29 .
(3) النمل ، 11 .
(4) الزمر ، 53 .

يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [1] .

وفي القبض قال ابن منظور : « القبض جمع الكف علىٰ الشيء ، وقبضتُ الشيء قبضاً : أخذته » [2] .

قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [3] . يقبض بمعنىٰ : يضيِّق ، ويقتِّر علىٰ الذين لا يقرضون ٱلله قرضاً حسناً ، ويوسِّع علىٰ الذين لا يقبضون أيديهم علىٰ ما يفيد وينفع الآخرين ولهم فيه حق ، فحاله كحال من لا يتصدَّق ، ولا يزكِّي ولا يعمل خيراً لمن هو في حاجة لأن يُفعل له خيرٌ يرضاه ٱلله تعالىٰ .

القابض المطلق له صفة الأصل ، والقابض بالإضافة له صفة التبعية التي بها يُستخلف في الأرض ، فلو لم يكن تابعاً ، ما كان خليفة . ولذلك فالقابض المُطلق خالق ، والقابض بالإضافة مخلوق ، وعليه لا يستوي الخالق تعالىٰ مع الخليفة المخلوق خلقاً ، وبذلك يتضح الفارق الكبير بين من هو أصل وبين ما هو ليس بأصل . فالأصل قابض بالقانون المطلق ، وغير الأصل قابض بالقانون النسبي .

ولذا فكل من يستطيع أن يقبض يستطيع أن يبسط سواء بالقانون المطلق أو بالقانون النسبي ، مع وضوح الفارق من غير مقارنة في القوة والمقدرة والاستطاعة والدوام ، ولذلك فالفرق كبير بين من هو أصل في المُلك وبين من هو خليفة فيه . فالخليفة خلقه مبني علىٰ الحاجة ، ومن يُخلق عليها سيظل في حالة عوز إلىٰ أن تتم عملية الإشباع ، ولذا يتوجه الخليفة لله تعالىٰ ليستمد منه مفاتيح الرزق ، والعيش حتىٰ تُشبع حاجته ليجد له مكانةً علياً في الدارين .

---

(1) الحجر ، 56 .
(2) لسان العرب ، ج 3 ، ص 7 .
(3) البقرة ، 245 .

ومع أن الحاجة عوز إلا أنها رابطة صلة بين المُسْتَخْلِفِ والمُسْتَخْلَفِ (بين الخالق والمخلوق) ولذلك فمن وراء كل قبض حكمة ، وهي الطاعة وعدم الاستغناء عن مشبعات الحاجات المتنوعة والمتعددة والمتطورة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] وقال جل جلاله : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [3] وقال خير من لا يقارن قوله بقول : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [4] .

وعليه فالحِكم التي من وراء القبض كثير ، ومنها :

1 ـ القبض من أجل الشفاء :

المرض قبض علىٰ الصحة والسلامة ، والقبض علىٰ المرض ومسبباته يفسح المجال أمام امتداد الشفاء في العقل والبدن . قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [5] وقال تعالىٰ : ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [6] .

2 ـ القبض من أجل الارتواء :

القبض علىٰ العطش يُتيح الفرصة للارتواء ، ولذلك فالقبض فعل خير من أجل القضاء علىٰ العطش ، ولهـٰذا فإن القبض علىٰ من يريد أن يُفسد الماء الذي

---

(1) النور ، 14 .
(2) الإسراء ، 67 .
(3) البقرة ، 243 .
(4) النساء ، 83 .
(5) الشعراء ، 80 .
(6) يونس ، 57 .

منه الناس يشربون هو فعل حق يستوجب الجزاء الموجب ، فمن يقدم علىٰ فعل شرٍّ ، ويتم القبض عليه فللقابض ثواب من ٱلله بأسباب قبضه علىٰ المفسد الذي لولا القبض عليه ؛ لأفسد الماء الذي منه يشربون . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [2] .

3 ـ القبض من أجل الإشباع :

القبض علىٰ الآفات الضارة للحرث والزرع والطير والحيوان والتحكم في أمرها يُمكِّن الخليفة من أن يُعمِّر الأرض ، ويُصلحها ، وهـٰكذا إذا قَبضَتْ الأرض من مُصلِحِيها جهداً وعناية ، أينعت ثمار نباتاتها وقُبض منها خيرٌ كثيرٌ . قال تعالىٰ : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [4] .

4 ـ القبض من أجل الترابط والتعاون :

القبض علىٰ التفكك يفتح بأفعال المؤازرة آفاقاً واسعة للتواصل والترابط والتعاون ، ولذا تبرز الشخصانية علىٰ حساب الجماعية ، والمجتمعية ، والإنسانية كلَّما ساد الفكر الأنانيُّ في القول والفعل والسلوك بين الأفراد ، مما يجعل الخصام والصدام يدور بين أبناء البلد الواحد والوطن الواحد ؛ حتىٰ الضعف والوهن .

---

(1) القمر ، 27ـ 31 .

(2) البقرة 60 .

(3) الروم ، 50 .

(4) الروم ، 9 .

إنَّ القبض علىٰ الوهن والضعف والتفكك يقوي اللُّحمة ، ويمدها بالقوة التي تمكنها من تحدِّي الصعاب في سبيل بناء قيمي مؤسس علىٰ الفضيلة بين الأنا ، والآخر . قال تعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (2) .

5 ـ القبض من أجل اليقين :

القبض علىٰ الظن والباطل اللذين فيهما من الإثم ما يُرجِّح أقوال الزور وأفعاله ، فكلما اندحر الظن والباطل ؛ امتدَّ اليقين واستوىٰ علىٰ الأرض بين المستخلفين فيها ، إنه القبض الموجب الذي به يُحق الحق ، ويُزهق الباطل . قال تعالىٰ : ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (4) .

ولأجل اليقين يجب القبض علىٰ الشرك مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (6) .

---

(1) المائدة ، 2 .
(2) الكهف ، 94 ، 95 .
(3) الفتح ، 6 .
(4) الإسراء ، 81 .
(5) الرعد ، 36 .
(6) النساء ، 48 .

6 ـ القبض من أجل الأمان والطمأنينة :

القبض علىٰ الخوف الذي من أسبابه الظلم والاستعباد والإذلال والقهر والمغالبة بغير حق يجعل الأمان والطمأنينة في حالة امتدادٍ بين من يُراد لهم أن يكونوا خلائف يرثون الأرض ويعمرونها بالعمل الصالح ولا يسفكون الدماء فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1] . ولذلك ستكون هـٰذه القرية ، وأيَّة قرية غير آمنة ، ولا مطمئنة علىٰ مثل هـٰذا الحال ما لم تؤمن بأنعم ٱلله وتقدرها حق قدرها ، ولا تفسد في الأرض حتىٰ لا يحق القول عليها ، ويذيق ٱلله ساكنيها لباس الجوع والخوف . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[2] .

7 ـ القبض من أجل التطلُّع :

القبض علىٰ الانطواء والنكوص والانسحاب من ممارسة القيم والفضائل الخيِّرة يوقظ قوىٰ المستخلفين في الأرض ، ويدفعهم إلىٰ كلِّ ما من شأنه أن يُحقق لهم الأمل ، ويُمكِّنهم من التطلُّع إلىٰ ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[3] . وحال القبض من أجل التطلع كحال من يقبض قدمه إلىٰ أعلىٰ ليمدَّها بكل قوة إلىٰ الأمام ، أو كمن يقبض يده لأجل أن يمدَّها إلىٰ الأمام لتؤدي وظيفة واجبِ القيام .

---

(1) النحل ، 112 .

(2) الفجر ، 27ـ30 .

(3) الكهف ، 46 .

8 ـ القبض من أجل الاستيعاب :

ولأن ٱلله خلق الإنسان ، وعلَّمه البيان ليميز بين ما يجب ويقدم عليه ، وبين ما لا يجب ويبتعد عنه ، وتركه إرادياً ليُقدِمَ أو يُحجِمَ دون إكراه ، وخلق الرزق حق لكل من يؤمن ومن يكفر أو يشرك دون أن يستثني أحداً بالحرمان من الرزق الذي كتبه للمخلوقات ، والعباد كافة ، ومع أنه يعلم بمن يكفر وبمن يسلم وجهه إليه ويؤمن به ، إلا أنه مستوعب لهم جميعاً، وفاتح أبواب الاستغفار والرحمة والتوبة لكل من يريد أن يكفِّر عن سيئاته وأخطائه . وفوق كل ذلك جعل الخالق تعالىٰ الإنسان خليفة له في الأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

إنَّ القبض علىٰ الحسد ، والحقد ، وإقصاء الآخرين يفسح مجالات الاستيعاب الواسعة ، ويؤدي إلىٰ الحوار والنقاش والتفاوض من أجل تحقيق المصالح المشتركة علىٰ الأرض دون أن يكون ذلك علىٰ حساب ما أمر ٱلله به ، وما نهىٰ عنه ، ودون أن يكون علىٰ حساب القيم والفضائل الأخلاقية التي ارتضاها الناس ، ولأن ٱلله تعالىٰ خلق كلَّ شيء ، وجعل لكل شيء رزقاً ونصيباً في الأرض التي استخلفهم فيها ، فإن القاعدة هي : الاستيعاب ، والاستثناء هو : الإقصاء . ولهـٰذا فالقبض يُعدُّ ضرورة من أجل تعميم القاعدة : (الاستيعاب) .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

---

(1) البقرة ، 30 .

صَغِيرًا ﴾ [1] . فسحة كبيرة لأجل الاستيعاب فمهما يعمل الوالدان من أعمال دون الشرك بالله فاستيعابهما وجوبيٌّ علىٰ كل طائع لأمر ٱلله تعالىٰ . وهـٰكذا الحال مع الآخرين حتىٰ المخالفين في الدين لا إكراه لهم فيه ، ولهـٰذا ينبغي علىٰ المؤمن أن يقبض علىٰ إكراه الآخرين إذا أراد أن يكون من الخلفاء في الأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [2] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ ﴾ [3] .

9 ـ القبض من أجل العدل :

القبض علىٰ الظلم يفسح المجال أمام سيادة العدل الذي به تستوي كفتي الميزان بشعرة التمركز في منتصف مسافة السويّة التي تشير إلىٰ ثبوت الاتزان دون ميلٍ ، ولا تحيُّز ، مما يجعل العدل قرارَ حكمٍ لإحقاق الحق وإزهاق الباطل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [4] وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [5] .

10 ـ القبض من أجل الاعتدال :

الاعتدال توسط في الأمر دون مبالغة مما يجعل القبض علىٰ المبالغة مُظهِراً للحقيقة ، والفرق بين العدل والاعتدال : العدل يستوجب طرفين ،

---

(1) الإسراء ، 23ـ24 .
(2) البقرة ، 256 .
(3) النحل ، 125 .
(4) النساء 58 .
(5) الأنعام ، 152 .

والاعتدال قد يتعلَّق بطرف واحد ، أو شخص واحد ، كحالة الاعتدال في الأكل والشرب ، والاعتدال في القول والفعل ، وفي الأخذ أو العطاء حتىٰ لا يغلب الظاهر علىٰ حقيقة ما يكمن من ورائه . ولذا فالاعتدال يستوجب القبض علىٰ الشح والتبذير . قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ (2) .

11 ـ القبض من أجل الحرية :

القبض علىٰ العبودية ، والإكراه ، والإجبار ، والإرغام يفتح مساحات وآفاقاً لممارسة الحرية بكل إرادة ، وبما أنه لا إكراه في الدين ، إذاً لا إكراه في أي شيء غيره مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (4) ، وقوله عز وجل : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (5) ، ويقصد بالأمر أيَّ أمر يتعلَّق بشؤون الناس (سياسة داخلية ، أو خارجية ، أو أمر سلم ، أو أمر حرب) ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة ، بما أن الأمر يتعلق بهما معاً ، ولا إلزام لشورىٰ لمن لا يتعلَّق الأمر به .

12 ـ القبض من أجل الطاعة :

ولأن وراء كل قبض بسط ، فإن وراء كلٍّ منهما حكمة ، والحكمة منها

---

(1) الإسراء ، 29 ، 30 .
(2) الشورىٰ ، 27 .
(3) البقرة ، 256 .
(4) يونس ، 99 .
(5) الشورىٰ ، 38 .

ما نعلمه ، ومنها ما لا نعلمه ، وذلك وفقا لما تنص عليه القاعدة : (وراء كل فعل فاعل ، ووراء كل فعلٍ غاية) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [1] . القرىٰ التي أهلكها ٱلله تعالىٰ هي حِجر ثمود ، وقرىٰ لوط ، وغيرها من القرىٰ المجاورة لبلاد الحجاز ، التي أخبارها تتواتر من جيل إلىٰ جيل حتىٰ جاء القرآن شاهداً عليها [2] . و(صرَّفنا الآيات) تعني : وأظهرنا الشواهد ، والأدلة المثبتة لذلك ، وبيّناها لأهل تلك القرىٰ آيات باقيات في الكتاب والذكر الحكيم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ولعلَّ المشركين يتعظون ويرجعون عن شركهم وفسادهم في الأرض . ومن وراء القبض علىٰ المعصية أن يرجع العاصون عن عصيانهم ، ويطيعون ما أمر ٱلله به ، وإن لم يرجعوا ؛ فإن عقابهم كما جاء في الآية السابقة موعظة ودرس لمن يأتي من بعدهم حتىٰ يتعظوا ، وإن عصوا فالقبض آتٍ لا محالة كما أتىٰ علىٰ الذين أشركوا من قبلهم . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [3] ، ولذا فالقبض علىٰ الكذب ، والظلم ، والسوء يترتب عليه فعل النجاة والطاعة . فالحمد لله ربِّ العالمين علىٰ كل آية قبض من أجل خيرٍ وبسطٍ !

---

(1) الأحقاف ، 27 .

(2) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السادس عشر ، ص 209 .

(3) الفرقان ، 35 ، 40 .

13 ـ القبض من أجل ممارسة الحق :

الحق يؤخذ ، وتتم المطالبة به في حالة عدم إعطائه بإرادة ، ولهٰذا لا يسعىٰ الخليفة في حياته إلا وراء حق ، سواء بنيله أو بالاستشهاد دونه ، فالحق يعلو ولا يعلىٰ عليه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، ولذا فالقبض علىٰ الباطل حق وفقاً للقاعدة : (إحقاق الحق حق ، وإبطال الباطل حق) . وعليه ما لم يتم القبض علىٰ الباطل ؛ لا يمكن أن يتمكن الخليفة من ممارسة حقوقه والعيش السليم .

الباطل أساس الفتنة والفرقة والاقتتال فمن قضىٰ علىٰ باطلٍ نال أجراً كثيراً وفسح مجالاً واسعاً لبسط رحمة ٱلله علىٰ العباد . ولذا فالحق لا يُكتم ، بل الحق يُظهر ولو كره المجرمون . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

الحقوق ينبغي ألا تكون مطالباً ، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقا للحاجة ، فالسلطة حق ، والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكر من أحد ، ولا ينبغي أن تكون مِنَّة من أحد .

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق ، أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي :

1 ـ **الرغبة** : القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد ، أو موضوع بعينه ، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه ، وهـٰذا ما يجعل روح التجاذب تُحرِّض علىٰ المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرضي .

---

(1) البقرة ، 42 .

(2) آل عمران ، 71 .

2 ـ **الإرادة** : تُعد الإرادة نشاطاً عقلياً علىٰ درجةٍ عاليةٍ من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ، ويتمكن من خلالها من الإقدام علىٰ الفعل ، وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة علىٰ الفعل والسلوك .

3 ـ **الطلب** : نظراً للإحساس بالحاجة ، والتعرف علىٰ بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمُشبع حق لا يمكن التخلي عنه ، ولا يهدأ البال وتطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا .

وعليه فإن الحقوق كما ورد في لسان العرب المحيط هي : « جمع حقٍّ ، وهي نقيض الباطل » [1] .

14 ـ القبض من أجل أداء الواجب :

الواجب التزام يؤدىٰ مقابل حقوق تمارس ، فالله تعالىٰ خلق كل شيء ، وفضَّل الإنسان علىٰ ما خلق ، ثم جعله خليفة في الأرض ، وهـٰذه جميعها فضائل من ٱلله عز وجل ؛ ولأنها فضائل فعلىٰ الخليفة أن يؤدي واجبه نحوها بالإيمان والطاعة ، ولذا يجب القبض علىٰ الشرك ، والعصيان، والكفر لتُفسح مساحة الإيمان في صدور العباد ، حتىٰ تعم الرحمة بينهم في القول والفعل والسلوك . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن ﴾ [2] ، طاعة ٱلله واجبة بالمطلق ؛ لأنه الخالق ، والمستخلِف ، وطاعة الرسول واجبة ؛ لأنه المبشر ، والمرشد ، والمنذر ، والمحرض علىٰ أفعال الخير وفقاً لاختيار ٱلله له ، ولهـٰذا فطاعة الرسول طاعة لأمر ٱلله له في الاختيار ، وطاعة للرسالة التي هي من عند ٱلله تعالىٰ .

---

(1) لسان العرب المحيط ، الأول ، ص 680 .

(2) النساء ، 59 .

وطاعة أولي الأمر منكم : تعني طاعة من ارتضيتم فيما رضي به منكم ، أي : إن طاعة من ارتضىٰ أن يكون أميناً علىٰ الأمر الذي هو منكم واجبة ، وذلك لارتضائه بالأمانة التي في حمْلها مسؤولية ، وتحمَّل أعباء ، والأمر هو المتعلق بممارسة الحقوق ، وأداء الواجبات ، وحمْل المسؤوليات في حالتي السلم والحرب وفي مجالي السياسات الداخلية والخارجية . وفي الآية السابقة قد ارتبطت الطاعة بالأمر الذي هو من الذين يعنيهم ، وهـٰذه الطاعة مشروطة بالأمر الذي هو من قِبَلِ الذين يعنيهم الأمر ، ولا علاقة لها بمن لا يتعلق الأمر بهم ، ولا علاقة لها إن لم يلتزم الذي تولىٰ الأمر ، وحاد عنه ، أي : لا طاعة لولي إن لم يكن أميناً علىٰ الأمر الذي كُلِّف به منهم .

وطاعة أولي الأمر منكم لا تتعلق بالوالدين ، فالوالدان هم أولي أمركم ، والفرق كبير بين أولي الأمر منكم ، وبين أولي أمركم ، فأولي أمركم : هم الذين تولوا أمركم وأنتم لم تختاروهم ، فأنتم الذين لم تبلغوا النضج الذي يُمكنكم من العناية والرعاية والخدمة ، ولهـٰذا أولي أمركم هم الذين يتولون كل ذلك مع السهر دون انتظار لمقابل منكم ، إنهم آباؤكم الذين قال فيهم تعالىٰ : ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] لذلك فإن أولي أمركم ليسوا بأولي الأمر منكم ؛ فأولي الأمر منكم هم الذين يُقدِّمون الخدمة بمقابل ، أمَّا أولي أمركم فهم الذين يتولونكم بالرعاية والخدمة والمعيشة دون أن ينتظروا منكم مقابلاً ، ولذا فإن طاعتهم واجبةٌ في غير معصية ٱلله تعالىٰ .

وبما أن الحقوق تؤخذ ، وتُستلم فإن الواجبات تؤدىٰ في مقابل الاستلام

---

(1) الإسراء ، 23 ، 24 .

والأخذ ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب ، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع علىٰ أخذ الحقوق ؛ فإن ذلك يجعل المستلم طرفاً سالباً ، والذي يغيره إلىٰ حالة الإيجاب هو أداؤه للواجبات ، ولهـٰذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت ، وهـٰذا لا يعني : أن الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوِّن ممارسة الديمقراطية بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية ، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه لا واجب إلا بالإضافة إلىٰ التزامٍ ، ومسؤولية . ولذا لا يمكن أن يؤدىٰ الواجب بنجاح إلا وتحمل المسؤولية جزءاً من أدائه ، وهـٰكذا حال المسؤولية هي الأخرىٰ لا تؤدىٰ بنجاح إلا والواجب يصاحبها ، وهـٰذه نتيجة التداخل العلائقي الذي يعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قيم يستدل بها أو يستدل عليها . والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا ، أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابد أن يحدث الحوار بينهما ، مما يؤدي إلىٰ القبول والتقارب والتفاعل ، أو يؤدي إلىٰ الرفض والابتعاد و الفرقة أو الانسحاب ، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوَّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع ، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب علىٰ ذلك بالضرورة أخذٌ كما هو مبين في الحقوق ، وعطاءٌ كما هو الحال في الواجبات ، وهـٰذا يعني : أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار ، وأخذ ، وعطاء ، أي : في اتخاذ القرار مسؤولية ، وفي الأخذ حقوق ، وفي العطاء واجبات ، وعليه لا يمكن أن يتمَّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما ، ولو أخذنا وليَّ الأمر علىٰ سبيل المثال : نجد : أنه مسؤول علىٰ أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم ، وما يعد واجبات علىٰ وليِّ الأمر تجاه الأسرة هي ذاتها تُعد حقوقاً بالنسبة لهم ، وهـٰكذا في حالة التبادل يظل لوليِّ الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها ، وفي ذات الوقت تعد

واجباً ، وعلىٰ أفراد الأسرة أداؤها ؛ ولذلك الحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع وزواياه بعضها بعضاً .

ولكي تؤدىٰ الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها ، وهي :

1 ـ **الاعتراف** : يدل الاعتراف علىٰ تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله علىٰ ما يجب ، وما لا يجب ، ثم التمسك بما يجب ، والامتناع عما لا يجب ، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدي إلىٰ التمسُّك بها عن إرادة .

2 ـ **القدرة** : إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائماً ما لم تتوفر إلىٰ جانبها المقدرة البدنية ، والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفَّز للظهور بعد تهيُّؤ .

3 ـ **الإقدام** : يُعَدُّ الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ ؛ حيث الإقبال علىٰ أداء السلوك المحقق للفعل ، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة .

15 ـ القبض من أجل حمْل المسؤوليات :

القبض علىٰ الخيانة والغش ونقض العهود يجعل الخليفة مسؤولاً أمام ٱلله ، وأمام الذين يتولىٰ أمرهم بالرعاية وأمام نفسه ، والذين تربطه بهم علاقة ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ (2) . يقال كما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : في الذين

---

(1) الإسراء ، 34 .

(2) الأحزاب ، 15 .

عاهدوا ٱلله : هم سبعون رجلاً بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة ، وقالوا : اشترط لنفسك ، ولربك ما شئت . فقال : « اشترط لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً . واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ، وأموالكم ، وأولادكم » . فقالوا : فما لنا إن فعلنا ذلك يا نبي ٱلله ؟! قال : « لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة »[1] . ولذلك جاء قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولًا﴾ .

عرفنا التداخل المعرفي في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات المتعلقة بتحقيق الذات المتوازنة ، وعرفنا : أن الحقوق يترتب عليها مطلب أو أخذ ، وعرفنا : أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء ، وهي تستوجب حماية أو حراسة تكون سنداً لها وتبعد عنها المخاطر ، وإن لم يتوفر ذلك ؛ تصبح الحقوق والواجبات كما يقولون في مهبِّ الريح ، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة ، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولاً ؛ لا يمكن أن يؤتمن جانبه ، وهـٰكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولاً ؛ لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة ، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدىٰ بأمانة ، وهـٰكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة .

ولذا تكمن المسؤولية في تحمُّل المخاطر ، أو الأعباء المترتبة علىٰ أداء الفعل ، أو السلوك سواء كان حقاً ، أو واجباً ، ولهـٰذا فهي عبء يستوجب التحمُّل ، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنىٰ علىٰ معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية ، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب ، وبين الحلال والحرام ، وبين القوة والإرادة ، ثم أخذ القرار ، وتحمّل الأعباء المترتبة علىٰ ذلك .

---

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . الجزء الرابع عشر ، ص 150 .

إن تحمُّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهـٰذه المبررات هي :

1 ـ **الصلاحيات** : المسؤولية تتطلب صلاحيات لكي يتمكَّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل ، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً ، وعليه من يردْ أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون واعياً قبل أن يفعل .

2 ـ **الاختصاصات** : هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به ، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعَدُّ ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة ، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب ، حيث تعد مثل هـٰذه الأفعال أفعالاً سالبةً أو منحرفة . وعليه لكي تؤدىٰ المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات .

3 ـ **الوعي** : ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان ، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل ، ويدل علىٰ إيجاد علاقة بين الذات والموضوع ، وبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيين والمعرفة ، كما أنه يتمكَّن من التمييز بين الأفعال الموجبة ، والأفعال السالبة ، والتمييز بين كل مفضَّل ومرغوب ، وبين ما هو غير ذلك ، ومرفوض ، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكِّن الإنسان من التفهُّم والاستيعاب ، كما أنها تمكِّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي .

4 ـ **القدرة** : القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمُّل لما يجب أن يتمَّ تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفير الاستعداد للقيام بالمسؤولية في

حدود المقدرة ، والقدرة متنوعة ومتعددة المستويات فهي علىٰ المستوىٰ النفسي والبدني والمادي والمعرفي .

16 ـ القبض من أجل غرس الفضيلة :

القبض علىٰ الفسق والفساد والرذيلة يُمتِّنُ العلاقات بين الأفراد ويفسح المجال لامتداد الفضيلة بين الجماعات والمجتمعات ، ويغرس الثقة في نفوس النشء ، ويُسهم في بناء الحضارات ، وصناعة التاريخ ، ويرسي قواعد التفاهم والتواصل بين الأمم والشعوب . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [2] ، وقـــال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [3] .

17 ـ القبض من أجل السلامة والمعافاة وطهارة النفس :

القبض علىٰ المرض ، وما يؤدي إلىٰ المرض يزيد الجسم والعقل بسطة ، ويحفظ البيئة ، ويظهر سلامتها للحركة والسكون ، وينمي القدرات والاستعدادات ، ويظهرها إلىٰ ما تأمله الأنفس ، وتتطلع إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ

---

(1) الرعد ، 25 .

(2) التوبة ، 8 .

(3) فاطر ، 10 ، 11 .

﴿ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (1) . القبض علىٰ الفتنة بإطفاء نارها ، وإصلاح ذات البين ، والقضاء علىٰ ما توسوس به الأنفس من ظنون ، والقبض علىٰ ما يلقي الشيطان من فتنة مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) .

18 ـ القبض من أجل إصلاح الأرض وإعمارها :

خلق ٱلله الإنسان في أحسن تقويم ، واستخلفه في الأرض ؛ ليكون قادراً علىٰ أداء المهمة التي من أجلها خُلق ؛ ولذلك نهىٰ سبحانه وتعالىٰ عن الإفساد فيها ، وأمر بإصلاحها ، لتكون النعم بين الناس رحمة . ولذلك كان القبض علىٰ الإفساد رحمة تنشر المودة بين الناس وتُمكِّنهم من إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولذا حرّم ٱلله سفك دماء الناس بغير حق : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

(1) التوبة ، 124 ـ 126 .
(2) الحج ، 52ـ54 .
(3) البقرة ، 84 ، 85 .

يُصْلِحُونَ ﴾ [1] وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [2] .

19 ـ القبض من أجل المحبة :

القبض على الكره والبغضاء يفسح مجالات المحبة والمودة بين الذين يرثون الأرض بالحق ، ويستخلفون فيها ، قال تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [5] .

20 ـ القبض من أجل التوبة والهداية :

القبض على المعصية والذنب يُمكِّن العباد من معرفة الحق الذي يجاز عليه بالاستخلاف في الأرض والجنة بعد توبة وهداية وإيمان راسخ لا تهزه ريح . قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [6] ، وقال

---

(1) الشعراء ، 151 - 152 .
(2) الأنبياء ، 105 ، 106 .
(3) آل عمران ، 119 ، 120 .
(4) البقرة ، 256 .
(5) الشورىٰ ، 33 .
(6) طه ، 82 .

تعالىٰ : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [3] .

21 ـ القبض من أجل الموت :

يقبض ٱلله الحياة بقبضه علىٰ الروح التي في الأنفس ليتوفاها ، فالموت مرحلة لا مفرَّ منها من مراحل البقاء المؤقت ، فكما أن الحياة مؤقتة ؛ كذلك الموت مؤقت ، وهـٰذه رحمة من ٱلله تعالىٰ علىٰ عباده ؛ ليتقوا ، ويتعظوا . قال تعالىٰ : ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [5] . فالذين لا يعلمون بهـٰذا الأمر هم غير المؤمنين ، وهـٰؤلاء سيجدون ما عملوا من عمل حاضراً أمامهم يوم القيامة ، ولذا فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن عمل مثقال ذرة شراً يره ، وحينها الندم لا ينفع النادمين . قال جلَّ جلاله : ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ [6] .

22 ـ القبض من أجل الحياة :

وبما أن الحياة الدنيا مؤقتةٌ ، والموت هو الآخر مؤقت ؛ فلا باقي إلا وجه الحي الدائم الأول والآخر جل جلاله ، ولذا فالموت مقضي عليه

---

(1) المائدة ، 39 .
(2) هود ، 61 .
(3) النساء ، 78 .
(4) الأعراف ، 24 ، 25 .
(5) الجاثية ، 26 .
(6) آل عمران ، 185 .

لا محالة ، وحين يقبض ٱلله عليه تُطوىٰ صفحات المرض والألم والموت عن جميع المؤمنين وتبقىٰ مفتوحة علىٰ الذين بربهم يكفرون في نار جهنم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (1) ، ويومها يصبح اليوم الدائم الذي يرىٰ فيه المؤمن ربه وهو في جنَّة النعيم . فلو لم يتم القبض علىٰ الموت لكان المرض والألم مصاحباً للإنسان حتىٰ في حياته الأخرىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (4) . وعليه فالقاعدة هي : (لا بقاء دائم إلا من بعد موت الموت) .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (5) . قبض الظل لم يكن بيدٍ مباشرة ، بل بفعل مباشر من ذات عَلِيَّه ، فهو مع حركة الشروق والغروب حاله بين بسط وقبض ، في الصباح يمتد مع الشروق طولاً ، وعند الظهيرة ينقبض تحت القدمين ، ومع الغروب يميل ميلاً طويلاً . والشمس هي التي جعلت الظل في حالة حركة مع المتحرك ، وهي التي جعلته في بعض الأحيان يفوق المتحرك طولاً وفي البعض الآخر يساويه ، ثم ينقصه كثيراً ثم تمده في البسط ثانية ، وهكذا فإن القابض هو الباسط جلَّ جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً

(1) النساء ، 56 .
(2) الروم ، 40 .
(3) النجم ، 44 .
(4) هود ، 7 .
(5) الفرقان ، 45 ، 46 .

وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) القرض عطاء في الزمن الحاضر يضاعف بإرجاعه في الزمن المستقبل . إنه عطاء المكاسب الكثيرة ، وبدون شك عطاء في زمن الشح يكون الجزاء عليه مضاعفاً في زمن الفيض . فالله الغني ليس في حاجة لعبدٍ ، ولـٰكن ٱلله جعل العباد في حاجة إليه ، وهم في حالة امتحانات ، فمن ينجح في إيمانه بالله يستجب ، فيعطي وهو يعرف أنه يعطي لمن لم يكن في حاجة ، ولـٰكن ليثبت طاعته الإيمانية بالفعل والسلوك ، فيتصدق في سبيل ٱلله ؛ أي : في سبيل طاعة ٱلله جل جلاله ، يتصدق علىٰ من هم في حاجة سواء في حالة الحرب ، أو في حالة السلم ؛ لأجل أن يُجازىٰ الجزاء الأوفر في الآخرة بالجنة . وجاءت الصيغة بالقرض ؛ لأن العود من القرض مؤجل ، فهو المترتب علىٰ الفعل السابق مع الثبات والديمومة علىٰ العطاء دون كلل ولا ملل .

وحظ الخليفة من هـٰذا الاسم العظيم ، أن يكون فاعلاً للخير ، وقابضاً علىٰ الشر ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ، وأن لا يتجاوز حدود القبض في كل حق وواجبٍ ومسؤولية ، وأن لا يتعدىٰ حدود ٱلله تعالىٰ ويتقيه في نفسه وزوجه ونسبه وجنسه ودينه ، وفي قوله وعمله وسلوكه .

أن يكون قابضاً ما استطاع علىٰ الحسد والحقد والظلم والقهر والذل حتىٰ ينبسط الإيمان في قلبه ، وتنبسط المودة مع ذوي العلاقة به ومع بني جنسه ، وينبسط العدل بين الناس حتىٰ تكون شعرة اعتدال الميزان في مركز اعتدال الكفتين .

ولهـٰذا فإن القبض فعل من أجل إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وكسر القيد الذي به تُكبّل حرية الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ومن يفعل ذلك يكون القابض بالإضافة ، والخليفة في الأرض ، والوارث فيها ، ومن المرضيِّ عنهم في الجنة .

---

(1) البقرة ، 245 .

القابض بالإضافة هو القابض من أجل الحياة المطمئنة ، فهو كلما قبض علىٰ فساد أو مفسدين أو أسهم في تحقيق ذلك ؛ أطمأنت نفسه ونفوس من تربطه بهم علاقة ، واستقر الأمن في البلدان والأوطان ، وانبسطت الحرية بين الناس علىٰ بساط من المودة .

وعليه : القَبْضُ خِلافُ البَسْط ، والانْقِباضُ خِلافُ الانْبِساط ، وفي أسماء الله تعالىٰ القابِضُ هو الذي يُمْسِكُ الرزق وغيره من الأَشياء عن العِبادِ بلُطْفِه وحِكمته [1] ، فهو اللطيف الخبير بكل أمرٍ كبيراً كان أو صغيراً دقيقاً ، وتظهر لقبضه جل جلاله مظاهر ، منها :

ـ **قبض الله الأَرض ، والسماء** : قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [2] ، وقبضه للسموات والأرض بجمعه لهما ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] ، فالله خلق السموات والأرضين لحكمة يعلمها ، ويريد لنا بها خيراً ؛ لنكون سعداء في الدنيا قبل الآخرة ، فسبحانه من رب كريم ! والله تعالىٰ لم يخلق أشياء أخرىٰ بديلة لهـٰذه السموات وهـٰذه الأرض إلا لعلمه بما هو مناسب ، وصالح لنا ، وجعلنا نتكيف معه ، فكيف يستطيع من لم يتكيف أن ينظر في السماء وما حوته من فضاء هائل وكيف يستطيع أن يثبت قدميه فوق الأرض وما حوته من مساحات شاسعة ؟ ! قال تعالىٰ : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

(1) لسان العرب ، ج7 ، ص213 .
(2) الحج65 ، 66 .
(3) الزمر67 .

ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

ـ **قبضه للشرِّ ، وبسطه للخير** : قال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (4) .

ـ **قبضه وبسطه في العلاقات بالكراهة والمحبة** : فالخليفة يكره ويحب في ٱلله ، أي : تكره ما يكرهه ٱلله ، ولـٰكن في الحق ، لا في الباطل ، وتحب ولـٰكن في الحق . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ

---

(1) الأنعام70 ـ 73 .
(2) البقرة245 .
(3) الأنعام17 ، 18 .
(4) يونس107 ، 108 .

لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (1) . سبحانه وتعالىٰ حبب للمؤمنين الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۞ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (2) ، وبذلك يكون علىٰ الخليفة العمل علىٰ توحيد العباد علىٰ محبة رب العباد ؛ حتىٰ يتحقق فيهم قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (3) .

ـ **قبض المال وبسطه** : قال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (4) . أَي : يُضَيِّقُ علىٰ قوم ، ويُوَسِّع علىٰ قوم ، وكل ذلك بعلمه وقدرته ، وللخليفة أن يراعي هـٰذا التوزيع في مستخلفيه ، فيؤدي ما فرضه ٱلله عليه من زكاة ، وعن قلب طاهر نظيف ، ودون رياء ، أو طمع في عرض من أعراض الدنيا ؛ لأنه سبب من أسباب ضياع الأعمال . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي

(1) المائدة54 ـ 57 .
(2) الحجرات 7 ـ 10 .
(3) الحجرات 13 .
(4) البقرة245 .

سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] .

ـ **قَبْض جناح الطائر قوة** : وقبَضَ الطائرُ جناحَه : جَمعَه بقوة ، ثم فرده ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [3] ، فقوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي : تارة يصففن أجنحتهن في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً ، وتنشر جناحاً ، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ ، أي : في الجو ، ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي : بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ، وبما مَدَّهُنَّ به من قوة : ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ أي : لا يغفل ، فهو لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه جل جلاله ! فالله تعالىٰ هو الذي جعل للطائر قوة تحمل جسمه مهما كان جسمه كبيراً ، أو صغيراً ، وجعل له من القوة ما يقاوم به الهبوط الذي يعرف الآن بقوة الجاذبية ، فجعل له من القوة ما يقاوم بها العلو والانخفاض ، فسبحانه من خالق قدير ، وللخليفة القابض أن يستفيد من هٰذه القوة ؛ ليدرسها ، ويتعلمها ، ويعلمها لغيره ، وما ينتج عنها من نظريات يستفيد منها الإنسان في مجال الطيران المدني ، والحربي ، وبما يخترق به العالم الخارجي ، والذي لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن

(1) البقرة 262 ـ 264 .
(2) النحل 79 .
(3) الملك 18 ، 19 .

﴿ ... تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (1) .

ـ **قبض السمك في الماء** : فالله القابض جل جلاله مثلما خلق الكائنات على اليابسة ، خلق مثلها في البحار والمحيطات من المخلوقات ، والناظر لذلك بتمعُّنٍ ؛ يرىٰ عجباً ، فهـٰذا الجسم الذي خلقه جل جلاله ، وجعله قادراً علىٰ تحدي قوة الماء ، وما به من أمواج عاتية قادرة علىٰ إغراق أكبر السفن ، فهـٰذه المخلوقات قادرة علىٰ تحدي الماء ودونما دفع لخارجه ، وكيف خلق هـٰذه الكائنات ، وكساها قشوراً تساعدها علىٰ العوم والانزلاق بين الأمواج ، وكيف جعل لها من القدرة علىٰ صيد فريستها وبكل سهولة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

اللهُمَّ يا القابض أسألك أن تقبض علىٰ كلِّ همٍّ وغمٍّ ؛ حتىٰ تفرج الكروب عنا ، وتمحو الذنوب ! اللهُمَّ اقبض علىٰ المرض ، والألم حتىٰ يأتي الشفاء وتستريح الأبدان ، وتطمئن الأنفس ! اللهُمَّ إنك القابض علىٰ الظلم فاقبض حتىٰ يعم العدل ، وأنك القابض علىٰ الكره فاقبض ؛ حتىٰ تسود المحبة !

اللهُمَّ إنك القابض للحياة الدنيا والباسط للحياة الآخرة فاجعل لنا نصيباً في الدنيا ونعيماً في الآخرة ! اللهُمَّ إنك تقبض لتبسط فاقبض علىٰ أسباب التعب والعناء والضيق ، وابسط اللهُمَّ لنا العمل الصالح ، والرزق الحلال !

---

(1) الرحمن33 ،34 .

(2) النحل13 ،14 .

اللهُمَّ إنه لا قابض للحسد والحقد والكره والضغينة إلا أنت ، فاقبض لتسود بيننا المودة والمحبة والرضا والتسامح إنك سميع قريب مجيب الدعاء يا ٱلله !

اللهُمَّ إنك القابض علىٰ الشر والحياة فاقبض علىٰ كل شر وعلىٰ كل حياة شرك وكفر وذل وخيانة إنك أنت القابض سبحانك جل جلالك !

✍ ✍ ✍

الباسط جل جلاله

الباسط : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويزيده بسطة لمن يشاء ، ويقدر عليه ، والبسط كما يقول العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : نقيض القبض ، وبسط الشيء : نشره .

الباسط جل جلاله : هو الميسِّر للأمر ، وهو المُغني الذي يكفي برحمته الواسعة عن كل عوز .

ويقول أبو حامد الغزالي : (الباسط) : هو الذي « يبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ، ويبسط الأرزاق للضعفاء ، ويبسط الرزق علىٰ الأغنياء حتىٰ لا يُبقي فاقة ، ويبسط القلوب بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله » [1] .

وقال ابن الأثير : الباسط ، « الذي يبسط الرزق لعباده ، ويوسعه عليهم بجوده ورحمته » [2] .

الباسط : الموسِعُ في الرزق قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [3] ، وهو الموسع في الخلق قال تعالىٰ : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [4] ، وهو الموسع في العلم ، والجسم قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) الصحاح للجوهري ، ج 3 ، ص 1116 .
(2) ابن الأثير ، جامع الأصول ، ج 4 ، ص 178 .
(3) سبأ ، 39 .
(4) الأعراف ، 69 .

ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ (1) . فالباسط هو موسع العطاء لمن يشاء من عباده مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ (2) .

الباسط الذي بيده الأمر والمُلك والقدرة ، وهو المُوسع بمقدار وفقاً لما يُشبع الحاجة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ ﴾ (3) . خبرة ٱلله بعباده خبرة خَلقية فهو يعلم ما يسرُّون ، وما يخفون في صدورهم ، وما يظهرون ، ويعلنون بأفعالهم وأقوالهم ، وهـٰذه المعرفة لا تتيسر إلا له جل جلاله . ولهـٰذا لو بسط ٱلله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، وذلك لعدم تقديرهم للرزق الذي يبسطه لهم عز وجل ، مما يجعل المفسدة متحركةً في عدم تقديرهم للرزق الذي بُسط لهم ؛ ولمعرفته الواسعة بهم وبأحوالهم لا يُنزِّل الرزق عليهم إلا بمقدار الحاجة للإشباع . ولأجل الطاعة سيظل التنزيل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير .

الباسط جل جلاله لو لم يُنزِّل كل شيء بمقدار ؛ لفسدت الأرض بجهود من لا يقدِّرون ما أنزل ٱلله عليهم من رزق وخير ، قال تعالىٰ في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخِركم ، وحيكم وميتكم ، وإنسكم وجنّكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنيِّ جواد ماجد ، أفعل

(1) البقرة ، 247 .
(2) المائدة ، 64 .
(3) الشورىٰ ، 27 .

ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري بشيء إذا أردته أن أقول لـه : كـن فيكـون »[1] . فـالبـاسـط عـز وجـل كمـا يقـول الشيـخ متـولـي الشعراوي : هو الذي يعطي الرزق اختبارا . فمن قدَّر الرزق الذي بُسط له قُدِّر من الباسط سبحانه وتعالىٰ ، ومن لم يُقدِّر ذلك لن يجد منه قدرا ولا جزاء وافرا ، وهـٰكذا كان كل شيء بمقدار .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾[2] . فالذين ينقضون عهد ٱلله هم الذين لا يُدركون الفعل المترتب علىٰ نقضهم لميثاق ٱلله تعالىٰ ، وهم الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد ، ويجهلون حقيقة الأمر الذي بسببه نقضوا عهد ٱلله ، وهـٰؤلاء وما يفعلون هم الذين يقطعون ما أمر ٱلله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، وبنقضهم لعهد ٱلله وقطعهم لِما أمر به أن يوصل مع الأرحام لا يعدون من المستخلفين في الأرض ، وذلك لانتهاجهم سبيل الفساد فيها . و ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ تأكيد علىٰ إبعادهم عن الاستخلاف في الأرض الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ لعباده المصلحين فيها ؛ وأيضا تأكيد علىٰ إبعادهم عن الجنة ، ولذا فهم الذين خسروا الدنيا ، وليس لهم في الآخرة من نصيب .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ الرزق خير متاح لإشباع حاجات متطورة ومتنوعة ومتعددة ، والرزق بَسطهُ ٱلله لإشباع هـٰذه الحاجات المتطورة عبر الزمن ، مع تقديره تعالىٰ لدرجات الإشباع المتنوعة والمتباينة من حالة لأخرىٰ ، ولذا فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقبضه عمن يشاء ،

(1) محمد متولي شعراوي ، أسماء الله الحسنىٰ . القاهرة ، مرجع سابق ، ص 247 .
(2) الرعد ، 25 ، 26 .

وهـٰذه من قدرته جل جلاله ، فهو القابض ، والباسط في ذات الحين سبحانه لا إلـٰه إلا هو مالك الملك يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء وهو علىٰ كل شيء قدير ! ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (1) .

إذاً (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تدل علىٰ أن ٱلله تعالىٰ يُريد أن يكون الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم خليفةً له في الأرض ليعمرها ، ويصلح فيها ولا يُفسد ، ولهـٰذا بسط له الرزق لعله يتذكر ويؤمن ولا يُشرك ، ويعلم أنه لن يكون صاحب الأصل في إيجاد الرزق وخلقه ، بل التابع في إيجاد الرزق مما رزقه الباسط له من عقل وقدرة ، وما أمدَّه به من ثروة ونبات وحيوان وذللَّها له لتكون بين يديه ، ويكون خليفة ٱلله عليها ، ولهـٰذا ينبغي أن يُقدِّر ويعدل ولا يُفسد فيما استخلفه ٱلله فيه . فالخليفة ليس بأصيل في الأرض بل إنه المستخلف فيها ، ولأنه كذلك فعليه أن يستمد صفاته من صفات من هو أصيل ، والأصيل هو الخالق ، وليس المخلوق ، فالإنسان من حيث إنَّه مخلوق لا يختلف في خلقه عن أي مخلوق آخر صغر ، أو كبر ، ولـٰكن من حيث التميز والتفوق فكان للخالق فيما خلق شؤون ، ولذا خلقه في أحسن تقويم ، وأراده أن يكون خليفته في الأرض ، وجعل هـٰذا الاستخلاف امتحاناً له ، فمن آمن بذلك ، وأصلح كان خليفة في الأرض ، ومن أشرك ولم يؤمن كان من المفسدين فيها وليس له في الآخرة من نصيب . ولهـٰذا لا يستوي الأصيل بمن هو غير أصيل ، فالباسط المطلق هو الخالق المطلق وهو الأصيل ، والباسط بالإضافة هو المخلوق وهو الخليفة الذي ليس له صفات إلا من خالقه ، ومن يستمد صفاته من غير خالقه ليس له من الخليفة من شيء .

ومع أن الإنسان خلق في أحسن تقويم ، إلا أنه خلق علىٰ الحاجة ،

---

(1) آل عمران ، 26 .

ولهـٰذا فهو لم يكن في الأرض أصيلا . ولذلك فمن يُخلق علىٰ الحاجة سيظل دائماً في حاجة لمن بيده مسببات ، ومبررات إشباعها ، فالمؤمن يُدرك : أن الباسط تعالىٰ هو الذي بيده مفاتيح الرزق ، فيتوجه إليه بالطاعة والعبادة حتىٰ يستمد صفات استخلافه منه ، فيعمل صالحاً حتىٰ يتمكن من الإشباع ، ويتطلع إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأنفع وأفيد .

يقول الشيخ الشعراوي : « فإذا كان الحق سبحانه وتعالىٰ الذي لا تنفد خزائنه يعطي بمقدار ، فلا يبسط علىٰ الناس جميعاً ، ولا يقبض عنهم جميعاً ، فمن باب أولىٰ أن يكون الإنسان كذلك »[1] . فالخليفة وحده هو الذي يتخذ صفاته من صفات مستخلفه ، أما أولئك المبذرون ، والمشركون ، والمفسدون ، ليس أمامهم من يتخذ صفة منه ، ولذا فهم المتبدلون والمنافقون والمتظاهرون بما لا يُرضي مَنْ خلقهم في أحسن تقويم وبسط لهم الخير ومع ذلك هم يجحدون .

الخليفة هو المؤمن الذي مهما امتلك من خير ورزق وعلم وصحة وقوة يؤمن : أنه لا زال الفقير لله تعالىٰ ، فهو لا يستغنىٰ لحظة واحدة عن الباسط جل جلاله الذي خلقه وخلق له رزقاً . أما أولئك الذين يفرحون بالحياة الدنيا علىٰ حساب الحياة الآخرة ؛ فلن يجدوا الحياة الدنيا إلا متاع الغرور : ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾[2] الذين فرحوا بالحياة الدنيا هم كما جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : مشركو مكة ، الذين فرحوا بالحياة الدنيا ، ولم يعرفوا غيرها . وفي توصيفه تعالىٰ للحياة الدنيا والآخرة ، قال : ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ وهـٰذا الأمر يدل علىٰ صغر الدنيا وما فيها من خيرات وكنوز ، فهي متاع إذا ما قورنت بالآخرة ، أي : وكأنها

(1) الشعراوي أسماء الله الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص 248 .
(2) الرعد 26 .

قطعة من بين أمتعة الآخرة المتعددة ، وفي هـٰذا تبيان لصغر الدنيا وما بسطه ٱلله فيها من خير إذا ما قورنت بما بسطه جل جلاله من خيرات كثيرة في الدار الآخرة ، فالدنيا وما فيها من خير لا تساوي إلا وحدة صغيرة من وحدات الخير الكثير المتعددة في الدار الآخرة .

اللهُمَّ يا الباسط يا ٱلله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا ، واجعل لنا هـٰذا النصيب مفتاحاً من المفاتيح المدخلة للجنة ، ولا تجعله قفلاً بيننا وبين أبوابها ونعيمها ، أنت ولينا نفوضك أمرنا يا ٱلله يا بصيراً بالعباد !

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [1] . مشيئة ٱلله هي التي بها يُبسط الرزق لمن يشاء تعالىٰ ، وبها يُقبض عمَّنْ يشاء جل جلاله ، فالمشيئة هو يعلمها ، ونحن لا نعلمها ، ولـٰكننا نؤمن : أن ما يشاؤه ٱلله تعالىٰ هو الخير كل الخير في ذاته . ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ خبرة الباسط جاءت من إلمامه بطبيعة ما خلق ، فهو يعلم بالحالة التي عليها خُلِقَ المخلوق ، وقُدِّر ، ولأنه هو خالق العباد ، فهو لا يجهل أمرهم وما هم عليه ، إنه يخبر أحوالهم ومكامن أسرارهم ، وما تعلنه أنفسهم ، وما تسره أو تخفيه ، ويعلم فوق ذلك ما سيفكرون فيه قبل أن يأتي زمن تفكيرهم فيه ، إنه علاَّم الغيوب جل جلاله !

ففي صحيح البخاري قال النبي ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب ؛ لابتغىٰ ثالثا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » [2] . وقال أيضاً رسول الله ﷺ وفقاً لما رواه البخاري ، ومسلم عن أبي هريرة : « ليس الغنىٰ عن كثرة العَرَضِ إنما الغنىٰ غنىٰ النفسِ » [3] .

---

(1) الإسراء ، 30 .

(2) يوسف المرعشلي ، ولله الأسماء الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص 131 .

(3) المرجع السابق ، ص 132 .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[1] . بطبيعة الحال بما أن ٱلله هو القادر المطلق ؛ فهو الباسط المطلق ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر عليه كيفما يشاء متىٰ ما يشاء سبحانه بكل شيء عليم ! ولأنه القادر علىٰ أن يبسط الرزق لمن يشاء ؛ فهو القادر علىٰ أن يقبضه عمن يشاء ، ولذلك فهو القابض الباسط : ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[2] . فعل القبض دائماً يترتب علىٰ فعل البسط ، ولهٰذا فالأساس هو البسط ، وهو القاعدة ، أما الاستثناء فهو القبض ، فالباسط هو الذي بسط الوجود بدايةً ونهايةً ، ثم بسط الحياة قوة فاعلة في الامتداد والحركة ، ثم بسط التكاثر والترابط والتصاهر ، ثم بسط العلم والمعرفة ، ثم حصر ذلك بين البداية والنهاية ، فبسط الموت لتقبض علىٰ الحياة ، وبسط المرض ليقبض علىٰ الصحة ، وبسط الجهل ليقبض علىٰ العلم ، وأخيراً سيقبض علىٰ الموت (يموت الموت) لتبقىٰ الحياة بساطاً دائماً بلا نهاية لمن آمن واتقىٰ وعمل صالحاً في الحياة الدنيا .

وعليه في الأساس الخلقي البسط هو القاعدة ، وسيظل البسط حياةً سرمدية باقية بعد القبض علىٰ الموت بموتها ، مما يجعل العودة الباقية للصحة الباقية والفرحة الباقية والنعيم الدائم والجنة الواسعة والفيض الكثير في كل خير ، فبعد موت الموت لا وجود للألم ، ولا للمرض ، ولا للحاجة ، ولا للفقر ، ولا للجهل ، أي : لا مكان لممارسة العيوب ، والنقائص ، فإن كنت الخليفة فبدخولك إلىٰ دار الكمال ترىٰ وجه ربك الأعلىٰ جل جلاله .

ولهٰذا فإن الغنىٰ والبسط في الحياة الدنيا ليسا بصفتين أصيلتين في أفعال الإنسان ، فهما يفتقدان لصفة الديمومة التي يتصف بها الباسط المطلق سبحانه

---

(1) العنكبوت ، 62 .

(2) البقرة ، 245 .

وتعالىٰ ، فكما أن الفقر قابل للتبدل كذلك الغنىٰ ، فليحمد الغني ربَّه تعالىٰ علىٰ ما بسط له من رزق حتىٰ يستمر غناه وينال أجره مرتين : في (الدنيا والآخرة) وليدع الفقير ربه أن يخرجه من ديار العوز ، والحاجة ، ويبسط له الرزق الذي يخرجه من أزمات الفاقة . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (1) .

هـٰذه الآية الكريمة لا تستوجب القنوط من رحمة ٱلله فالله الباسط للرزق قادر علىٰ أن يخرج الفقير من فقره ، فالمؤمن لا ييأس بما أنه يؤمن بالله الباسط الرازق الغني ، فكم من فقير أصبح من الأغنياء في الدار الدنيا ، وكم من غني في الدار الدنيا سيكون من الفقراء في الدار الآخرة إذا لم يؤمن به واحداً أحداً ، وإذا لم يستغفر ربه ويتب إليه إذا ما أخطأ . الآيات كثيرة بين أيدي الناس ، الفقر والغنىٰ آيتان من آيات ٱلله العظام ، اللتان يُدركهما الخليفة ، وهو يعلم : أن من فقد بصره أصبح فقيراً لما يُرىٰ ، ومن أصبح مريضاً بعد أن كان غنياً بالصحة والعافية يُعد في حاجة للصحة وهو فقير لها ، ومن كان معاقاً وشفي من إعاقته بأسباب التقدم العلمي من فضل ٱلله عليه أصبح غنياً بعد فقره للسلامة التي تساويه بالمعافين من الإعاقة ، ومن كان غنياً وتعرض لكارثة قد يكون عضواً في طبقة الفقراء بعد أن كان عضواً فعالاً في طبقة الأغنياء ، وهـٰكذا كل ما ليس بأصيل يتبدل بمعطيات التبدل ومتغيراته المتصلة والمنفصلة ، ولا قوة إلا بالله ربُّ العالمين ، ومن يقنط من رحمة ٱلله ليس بخليفة !

فالخليفة دائماً هو غنيٌّ ولا يمكن أن يكون من طبقة الفقراء ، فهو الغني بإيمانه وإدراكه لرحمة ٱلله تعالىٰ ، وهو ليس في حاجة لأحد غير ٱلله تعالىٰ ، وهو الباسط يديه أمام ٱلله ليشكره علىٰ ما أعطاه من نعم العقل والبصر والسمع وهو المؤمن بأنه لن يموت قبل أن تتم أيامه التي ضمنها له ٱلله تعالىٰ ، وهو

(1) الروم ، 37 .

يعلم : أنه سيعيش في رحمة ٱلله مكفولاً ، وسيأتيه رزقه من غير أن يحتسب ، وذلك لإيمانه المطلق بمن يرزق من يشاء بغير حساب . ألا يُعد مثل هـٰذا المؤمن من الأغنياء ؟ في مقابل من يمتلك ثروةً واسعةً وهو يعاني مما يعاني من أمراض ، أو خوف دون أن تنفعه أمواله وما يكتسب ؛ إلا يعدُّ هـٰذا ومن هم علىٰ شاكلته هم الفقراء الذين هم في حاجة ؟ ولو أدركوا ؛ لأدركوا رحمة ٱلله .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [1] . بَسْطُ السحاب في السماء : امتداده مساحات كافية للحركة والانتقال والتلاقح من أجل الولادة (ولادة المطر) التي تخرج من خلال السحب الكثيفة التي جعلها ٱلله كسفاً ، أي : متراكمة شفافة وهي تموج بالحركة والمطر المنهمر من نسيجها المنفوش . ولأن ٱلله يرسل الرياح لتثير سحاباً ، وتنقله حيثما يشاء به لينزله رحمة علىٰ من يشاء من عباده الذين يستبشرون فرحة بسقوطها علىٰ أراضيهم لتنبعث الحياة فيها قويةً ؛ حتىٰ تمدهم بالنعيم الذي يجعلهم علىٰ حالة نقلة من الحاجة والفاقة إلىٰ الإشباع والادخار .

ولأن ٱلله هو الباسط فهو الموسع الذي يرسل الرياح لتثير سحاباً في السماء رحمة علىٰ العالمين ، ولأنه الباسط فبقدرته يجعل الرياح مثيرة للسحاب علىٰ كامل الأرض ، ولـٰكن لحكمته جعل كل شيء بمقدار ، ولكل شيء حين ، ولذا فإنه قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [2] . إنه تقدير دقيق لعدم حدوث الخلل ، ولهـٰذا بسط ٱلله كل شيء بمقدار ما تتطلبه الحاجة والظرف ، وذلك

---

(1) الروم ، 48 .
(2) الشورىٰ 27 .

حتىٰ لا يعبث العباد بما بسط لهم من نعيم وخيرات حسان .

ولأن الباسط هو الذي مدَّ كل شيء بمقدار ، وحسب الحاجة ، لذا فحسب الحاجة قد مدَّ الباسط الظل ثم قبضه قبضاً يسيراً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [1] بدون شك الامتداد والحركة هما اللذان جعل التعاقب كل يوم بين الليل والنهار مما جعل الظل أمام الشمس غير ساكنٍ (علىٰ حالة من الامتداد والانقباض) ولهـٰذا فكان للبسط نهاية ، وللقبض نهاية وفقا لقاعدة : (كلٌّ في فلك يسبحون ، ولكلٍّ بداية نهاية) .

البسط والقبض صفتان لذات واحدة ، ولذا فهما يتزامنان في أداء الفعل وممارسته ، وهـٰذا الأمر يجعل الرحمة ظاهرةً في تزامنهما ، فعلىٰ سبيل المثال : من البشر من يمتلك مالاً وعلماً وقوة ، فمع أن هـٰذه علامات خير (العلم ، والمال ، والقوة) إلا أنه إذا كان المستخدمون لها ليسوا علىٰ خير ، ستكون نتائجها مؤذيةً علىٰ الآخرين ، مما يجعل القبض علىٰ المفسدين في الأرض رحمة علىٰ المصلحين فيها ، أي : في الزمن الذي يتم فيه القبض علىٰ المفسدين في الأرض في ذات الزمن يسعد المصلحون فيها ، وينبسطون رحمة . ولنأخذ قصة السيد الخضر مع موسىٰ عليهما الصلاة والسلام حينما خرق السفينة وقتل الغلام ، وأقام الجدار الذي كاد أن ينقضَّ لولا أن بناه السيد الخضر ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ بالرغم من اعتراضات سيدنا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ المتوالية ، والتي جاءت الإجابات عليها في قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ

---

(1) الفرقان ، 45 ، 46 .

لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [1] .

من هـٰذه الآيات الكريمة نلحظ تزامن القبض مع البسط ، فالقبض علىٰ السفينة بإعابتها بسط بقائها للمساكين الذين هم في حاجة ، ولو أخذها الملك غصباً لفقدوا مصدر عيشهم الذي لم يرتق بهم إلىٰ مستوىٰ الوفرة .

أما القبض علىٰ روح الغلام غير الخيِّر وقتله ؛ فقد بسطت أبواب الرحمة علىٰ أبويه بإنجاب أبناء مؤمنين صالحين عوضا عن الابن الكافر .

أما الجدار فكان بناؤه من أجل أن يحفظ الكنز الذي دفنه أبوهما من قبل أن يموت ، ولأنهم صغار ولم يبلغا سن البلوغ التي تمكِّنهما من الاعتماد علىٰ نفسيهما أقام السيد الخضر هـٰذا الجدار الذي كاد أن ينقضَّ لولا أن بناه . ولهـٰذا كان القبض علىٰ انقضاض الجدار بسطة بقاء الكنز مستوراً ومحفوظاً عن أعين السرَّاق الذين لو سقط الجدار ؛ لتمكنوا من أخذه وسرقته دون أن يحس اليتيمان أو يعرفا : أن لهما من أبيهما كنزاً ينقذ حياتهما ، ويحقق لهما بسطة الحياة بعد أن يقبض عنهما آثار الحاجة والفاقة .

الحِكم التي تؤخذ من القبض والبسط :

ـ **حكمة التفكر** : قال تعالىٰ : ﴿ **فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [2] .

التفكر في القصص يجعل المتفكرين يتَّعِظون في حياتهم حتىٰ لا تتكرر لهم تلك المواقف التي لا ترضي ٱلله ، ولا ترضي عباده الصالحين ، ولذا فالتفكُّر فيما قد جرىٰ يُمكِّن من التفكر في المستقبل ، ولهـٰذا فالتفكر في حقيقة أمره هو من اجل المستقبل الأفضل .

(1) الكهف ، 79ـ82 .

(2) الأعراف ، 176 .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) . في هـٰذه الآية الكريمة مواعظ لمن يتعظ حيث الحياة زائلة ، فلا ينبغي الاغترار ، بل يجب التفكر في المستقبل الذي هو آتٍ لا محالة ، فمن ثقلت موازينه سيكون في عيشة راضية ، ومن خفت موازينه ستكون أمه هاوية أي نار حامية ، ولهـٰذا يجب علىٰ الخليفة أن يتعظ ولا يغتر وأن يفكر في مستقبله ويعمل من أجله ، وإلا سيكون من الخاسرين مثل الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وظنوا : أنهم قادرون علىٰ البقاء قوة ، ولما جاء الأمر للأرض والحرث والزرع كان كل شيء حصيداً ؛ وكأن لم يكن ، لذا علىٰ الخليفة ومن يراد له أن يكون خليفة أن يتفكر حتىٰ يتعظ بما هو خير في الحياة الفانية من أجل حياة باقية لا تزول .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) . في هاتين الآيتين الكريمتين مواعظ لأولي الألباب ، فالذين قالوا : إن ٱلله أعظم من أن يكون رسوله بشر ، أي : إنهم يودون أن يكون رسولهم مَلكاً من الملائكة ، وهـٰذا الحال هو الذي كان عليه مشركو مكة الذين أنكروا نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وقالوا : إنه بشر والله تعالىٰ لا يمكن أن يكون رسوله بشراً ، فجاء قوله لهم : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : اسألوا الذين نزلت عليهم الرسالات السابقة ليخبروكم بحقيقة الأمر ، وهي : أن جميع الأنبياء كانوا بشراً . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ

(1) يونس ، 24 .
(2) النحل ، 43 ، 44 .

إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الذكر هو القرآن الكريم ، الذي فيه تبيان ما قد سبق تنزيله في الرسالات السابقة علىٰ الرسالة المحمدية الخاتمة وذلك بالنسخ والتبيان للأحكام التي لم تُفصَّل من قبل ، وفي هـٰذا الأمر لعلهم يتعظون بما يتفكرون .

ـ **حكمة التذكر** : قال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (1) . ولأن الحياة تجارب وخبرة جعل ٱلله العمر الذي يناسب ذلك حتىٰ لا يكون الصغر حُجَّة علىٰ القصور عن الفهم والإدراك . واللوم هنا جاء علىٰ الذين عُمِّروا ، ولم يتعظوا مما رأوا بعد أن عايشوا وعرفوا ، وبعد أن جاءهم الأنبياء والرسل وبينوا لهم الصواب من الخطأ (الحلال من الحرام) ومع ذلك لم يتعظوا ، فقال لهم عز وجل : فذوقوا العذاب بما كفرتم وأشركتم . ولذا فالعذاب حق علىٰ من لا يتعظ ويتقي ٱلله ربه ، وهـٰذا الحق هو الذي يبسط السعادة في نفوس المؤمنين الذين يتذكرون .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (2) . كم هي من مقارنة رفيعة المعنىٰ والدلالة فالكلمة الطيبة كما فسَّرها المفسرون هي كلمة التوحيد (لا إلـٰه إلا ٱلله) ، والكلمة الخبيثة هي (الشرك بالله) والشجرة التي جاءت للمماثلة اعتبرها البيضاوي شجرة النخيل الشجرة المباركة الضاربة في الأرض ،

(1) فاطر ، 37 .

(2) إبراهيم ، 24ـ27 .

والشجرة الخبيثة قال شجرة الحنظل التي تنبت علىٰ سطح الأرض ، ولم تتمكن من ضرب عروقها فهي علىٰ عكس حال شجرة النخيل المباركة [1] .

يُفهم من هـٰذه المقارنة بما لا يدع مجالاً للشك أن الكلمة الباقية والخالدة في الدارين هي كلمة الحق (لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول ٱلله ﷺ) ولهـٰذا فليتذكر أولوا الألباب لعلهم يُرحمون .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [2] . كتاب موسىٰ هو التوراة الذي جاء بعد أن هلكت أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط عليهم جميعا الصلاة والسَّلام .

و(بصائر للناس) أنوار تنير قلوب الناس المهتدين إلىٰ الحق والطريق المستقيم ، ليميزوا بين الحق والباطل ، والخطأ والصواب ، ففي كتاب موسىٰ الهداية إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وإلىٰ العمل الذي يُسهم في إصلاح الأرض ، ولا يُسهم في الإفساد فيها ، والرحمة هي مجموع أفعال الخير بين الناس ، وهي التي يتم نيلها بالاتعاظ وتوحيد ٱلله واحداً أحداً لا شريك له .

ـ **حكمة الاتعاظ** : الأخذ بالموعظة الحسنة ينجي من الانغماس في الرذائل ، ويصوِّب إلىٰ ما هو أفضل ، وأنفع ، وأفيد ، وأجود . المواعظ دروس من الحياة تفيد من له آمال أو غايات في عالم الوجود (القريب أو البعيد) فالدار الدنيا مليئة بالمواعظ التي لو أخذ بها ؛ لأدت بصاحبها إلىٰ دخول الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [3] . النص القرآني ضميره في هـٰذه الآية يعود علىٰ موسىٰ ، عليه

(1) تفسير البيضاوي ، ج1 ، ص333 ، 334 .
(2) القصص ، 43 .
(3) الأعراف ، 145 .

الصلاة والسلام ، والألواح هي التي كتبت عليها المواعظ التي فيها الحكم النافعة لموسىٰ ، ومن اتبعه من المؤمنين ، وقوله : (من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) تدل علىٰ كل ما يجب الأخذ به ، وعلىٰ كل ما يجب الابتعاد عنه ، فالمواعظ تحتوي فيما تحتوي من مضامين الأوامر والنواهي والحلال والحرام ، وكل ما ينظم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات من قيم وفضائل وشرائع ، وكل ما يؤدي إلىٰ النصيحة والتذكير بالعواقب ويرشد إلىٰ أفعال الخير وأعماله .

وقوله تعالىٰ : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ تعني : خذها بشوق وإرادة قوية ، وجد ، وعزيمة ولا تتردد ولا تتأخر في أخذها وأخذ المواعظ والحكم منها ، وفوق ذلك : لا تنس قومك ، فأنت مأمور مرتين : المرة الأولىٰ ، بأخذها كاملة دون تفضيل ، أو اختيار . والمرة الثانية ، أن تُبلِّغ قومك بها وبما فيها من مواعظ ، ليأخذوا بإرادة ودون إكراه المواعظ الحسنة التي تحتويها الألواح التي بين يديك يا نبي ٱلله يا موسىٰ عليه أفضل الصلاة والسلام . ولذلك فالأخذ بأحسنها تدل علىٰ الأخذ بالأوامر والعمل بها ، وترك النواهي والحياد عما تنهىٰ عنه . وقوله : ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ الفاسقين الذين حق عليهم القول كقوم عاد وثمود وقوم صالح ، ولوط ، أو الذين يحق عليهم كفرعون ، ومن تبعه من قومه من المشركين .

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) . مع أن نص المخاطبة يدل علىٰ المطلقية بقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إلا أن البعض يقول : إن المخاطبة كانت لقريش ، والموعظة هي التي جاءت شافية لما في الصدور من تساؤلات واستغرابات أو ضغائن ومكائد ، وظنون وسوء اعتقاد ، وخلاف واختلافات في المطالب

(1) يونس ، 57 .

والرغبات وإظهار الحقائق ، وفيما يجب وما لا يجب . والموعظة التي وردت في هـٰذه الآية الكريمة هي الموعظة المطلقة ، وهي القرآن الشامل والجامع لكل حكمة وموعظة ، والكاشف عن محاسن الأقوال والأفعال والأعمال ومقابحها ، وذلك بما يحفِّز عليه ، ويُرشِّد به ، ويحرِّض عليه من حلال وخير ، وما ينهىٰ عنه ويحذِّر منه ويجنب عنه من مكروه وحرام ، ونحن نقول : إن قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ هي عامة لكل الناس دون تخصيص لقريش .

وقوله : ﴿ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي : إن هـٰذا القرآن الموعظة يهدي للتي هي أحسن ، فينقل الإنسان من حالة الضلال إلىٰ حالة الهداية ، ومن الشرك إلىٰ الإيمان بالله واحداً أحداً لا شريك له في الملك سبحانه جل جلاله ! في هـٰذه الآية تخصيص للمؤمنين دون غيرهم ، وذلك لأنهم المؤمنون الذين يدركون رحمة ٱلله عليهم ، وهم مهتدون إلىٰ الجنة .

ـ **حكمة النقلة** : النُّقلة متعدية بالحالة التي كان عليها الخليفة إلىٰ حالة الهداية التي هي أكثر تفضيلاً إذا ما قورنت بالحالة السابقة علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ واحداً أحداً لا شريك له . والنقلة الإيمانية : بلوغ مستوىٰ قيمي أفضل في زمن قياسي قد يكون وفقاً لِما هو متوقع ، وقد يكون وفقاً لغير المتوقع ، مما يجعل غير المتوقعين في حالة استغراب وكأنهم لا يُصدِّقون ما يحدث أو ما حصل بالفعل . وهـٰذه النقلة هي التي تتزامن مع قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] . إنه أمر القبض والبسط علىٰ من يشاء ولِما يشاء ، ومتىٰ ما يشاء ، وكيفما يشاء سبحانه علىٰ كل شيء قدير .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ

(1) البقرة ، 117 .

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾[1] . التسخير جاء مطلقاً ليشمل كل ما خلق ٱلله تعالىٰ وبسط في السمٰوات والأرض ، سواء الذي تَمكَّن الإنسان من كشفه ومعرفته أو الذي سيتمكن عبر الزمن بالبحث العلمي من بلوغه وتسخيره فيما يفيد بني آدم وينفعهم ، وكلَّما تمكن الإنسان من المزيد المعرفي ؛ تحققت له النقلة العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإنسانية ، التي تنقله من مستوىٰ أقل إلىٰ مستويات أكثر رفعة وعلواً ، وكلَّما تأخر الإنسان عن ذلك ؛ تأخر . وبما أن ٱلله تعالىٰ قد سخَّر لنا ما في السمٰوات والأرض ، إذاً لِما لا نبحث ونتعلم حتىٰ تتحقق لنا النقلة ، كما تحققت من قبل حين انتقل أباؤنا الذين سبقونا بالإيمان من الجهالة إلىٰ الهداية ، ونشروا الدين ، وبشروا بالرسالة الخاتمة حتىٰ انتشرت في المعمورة . وقوله : ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ ﴾ أي : إنه أظهر نِعَمَهُ بالتمام والكمال لتعم الناس جميعاً ، وبذلك الدين الإسلام يُعد الشامل لنعمه وفضائله التي تحقق لبني آدم النقلة إذا ما اهتدوا . وبدون شك من النعم ما هو ظاهر للمشاهدة والملاحظة ومنها ما هو كامن مثلما يكمن الزيت في حبة الزيتون أو بذرته ، ومثلما تكمن الحقيقة في العلل والأسباب ، ومثلما تكمن الإبل والسماء والجبال والأرض في الكيفية التي عليها ، وبها خلقت ، ومثلما يكمن الإنسان في المعنىٰ الذي يجب أن يكون فيه إنسان .

فالظاهر هو ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعاً للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها ، وهٰكذا تُحلل المعلومات وفقاً للبيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كَمّاً ، أو فعلاً ؛

(1) لقمان ، 20 .

والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية ؛ والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهـٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الظاهر هو المبسوط الذي لم يعد مخفيّاً عن المشاهدة والملاحظة مما يجعله بيِّناً للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، وهو قابل للامتداد والحركة ويتجسَّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية . الظاهر ما ليس بكامن ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ حيز الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة التي عندما تُغرس في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها وتنبسط للمشاهدة والملاحظة ، وتنقبض النواة وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تُثمر .

وعليه ، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خيِّر ، أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة . وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غايةً لإصلاح الظاهر . ولهـٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر ، بإصلاح الكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً ، أو فيه القدوة ، ولـٰكنه في الواقع قد يكون غير ذلك ، فالابن ، أو الابنة كثيراً ما يكونان أمام أسرتهما ، وخاصة الوالدين مبسوطان علىٰ الخُلق والالتزام والأدب ، ولـٰكنهما في حقيقة الأمر قد لا يكونان كذلك ، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن

أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية ، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضبان من هـٰذا الادعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر علىٰ الظاهر قد لا يؤدي إلىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلاً وصورة ، وقد يكون قولاً ، أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد ، والظاهر إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، وذلك لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته ، قد لا يؤدي إلىٰ نتائج علمية يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموساً ، ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي بالمس يتم التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديد درجتها بدقة ، ولـٰكن الذي يُريد أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها ، فعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلىٰ مريض مصفرِّ الوجه ، هل يتوجهون هـٰؤلاء الأخصائيون إلىٰ معالجة الاصفرار الظاهر ؟ أم إلىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل وأسباب ؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشر إلىٰ البحث عن كامن ؛ لأن الإصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب إذاً لابد وأن تكون من ورائه أسباب ، ومسببات له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر ٱلله في الكبد ، أو المرارة ، وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان ، أوالقانون ، أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلىٰ الهلاك ، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك دون أن يكون له وجهة نظر في ذلك .

أما الكامن فهو الذي لم يُبَحْ به بعد وهو المقبوض عليه مع وجوده يشغل حيزاً ، وهو المضمون الذي عليه الظاهر ، ولهـٰذه المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يُهتمُّ بالظاهر والكامن في التعرف علىٰ الأشياء ، أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية .

الكامن ما ليس بظاهر ، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه : (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس . ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي : الكمون هو أن تكمن بعض الأشياء في بعض . وفي نظرية التعلم : هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة [1] .

ولذا فإن الكمون هو مكمن انقباض الحقيقة ، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالانبساط والحركة ، فهو الموجود في الذهن ، أو العقل ، ويشغل حيزاً ، ولا تراه العينان ، ولـٰكن يدركه كل عقل ناضج سليم . وهـٰكذا تكمن الأسرار في الصدور حتىٰ يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة .

الكامن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان ، ولهـٰذا لا ينبغي أن يغفل الأخصائي الاجتماعي أثناء قيامه أو إجرائه لمقابلات مهنية مع العملاء عمّا يرد عن فلتات اللسان ، إلىٰ جانب ما يتمكن من معرفته بالأساليب الإسقاطية أو عن طريق استخدام التصانيف القيمية ، وأساليب التحليل العلمي مع الملاحظة والمشاهدة الواعية .

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف علىٰ جوهره ، علىٰ أسراره وخفاياه ، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته ، وعليه : إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاته ، بل الغاية تكمن فيما وراءه . ولذلك

---

(1) عقيل حسين عقيل ، الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية . الجزء الأول ، القاهرة ، الدار الدولية ، 2007 ، ص 96 .

فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف علىٰ البصمة ، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً ، وثانياً معرفة علاقته بالفعل المرتكب ، أو السلوك . وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلىٰ ارتكابه ، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث . وعندما يختفي الشيء عن الحس ، ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ ؛ يكون كامناً في الشيء ذاته . وليس معنىٰ ذلك : أن الكامن هو الذي لا يشاهد ، فكثيراً من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها ، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها ، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة ، ولم يتمَّ القبض عليه ، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة ، وكأنه لم يكن سارقاً ، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية ، تم القبض عليه ، فكان هو السارق .

إذاً الإنسان كظاهر يكمن ، وينقبض في بصماته ، كما تكمن المطر في السُحب ، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون ، وهـٰكذا يكمن الكائن في النطفة ، وتكمن السنبلة في البذرة .

وبناء علىٰ ذلك قد يكون الكامن مشاهداً ، وقد لا يكون كذلك . وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها ، والمجتمع في حشوده . ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع ، تكوينات لا يمكن أن تشاهد ، ولـٰكنها تُلحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرىٰ الزواج بأم عينيه ؟ . فالزواج لا يمكن أن يخضع للمشاهدة أو الرؤية ، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) علىٰ موضوع متفق عليه بعقد شرعي ، ويعلن عنه ، ويُدعىٰ الناس إليه . إذاً الذي تتم مشاهدته ، هو الزوجان الذكر والأنثىٰ ، والعقد المكتوب بينهما علىٰ ورق ، والناس الذين حضروا لأجل ذلك ، وهـٰذا كله لم يكن الزواج ، بل هـٰذه مراسم الزواج . الزواج مودة ، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلىٰ التباس بعضهما حباً واشتياقاً وتقديراً وإيماناً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ (2) وفقاً لاتفاق علىٰ مستقبل مشترك ، يجعل الآخرين شاهدين علىٰ ذلك بأنه الحق ، ومحرضين عليه .

إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة ، وذكر وأنثىٰ ، وهـٰذه تُلحظ ، ولا تشاهد بالعينين . والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ ، ولا يشاهد ، وهـٰكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما ، ولا يخضعان للمشاهدة ؛ لأن الذي يشاهد هم الأفراد ، كبار وصغار ، ذكور وإناث ، وحشود من البشر ، وهـٰؤلاء لم يكونوا هم الأسرة ، ولا المجتمع ، مع أنهم عناصر تكوينهما ، فبدون علاقات مشتركة ذات معنىٰ لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنىٰ للأسرة ، أو المجتمع ، ولهـٰذا تتكون معارفنا من ظاهر ، وكامن ، وتوحُّد بينهما . فنحن نعرف الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، ونعرف الخال والجد ، ونعرف أيضاً : أنَّ جميع هـٰذه المعاني غير قابلة للمشاهدة العينية ؛ لأنها كامنة ومترتبة علىٰ علاقات يمكن ملاحظتها .

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية ، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية . ولـٰكن من أجل المعرفة العلمية ، ولكي تكون متكاملةً ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات ، ألاَّ يغفل البحاثة والمحللون العلميون والمفسرون الموضوعيون عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتىٰ لا تكون المعرفة قاصرة .

وللمزيد التوضيحي أتساءل : هل العبادات كدلائل كامنة هي العبادات

(1) الروم ، 21 .
(2) فاطر ، 11 .

كسلوك مشاهد ؟ فالحج علىٰ سبيل المثال ، هل هو ما نشاهده من سلوك ، أم أنه أكثر من ذلك ؟ .

إنَّ ما نشاهده أثناء أداء فريضة الحج هو مشاهدة حشود من البشر ، ترتدي زياً موحداً (الإحرام) وتتبع سنَّةً واحدةً في مواقيت معينةٍ ، وأماكن محددة ، ويلحظ عليها التعاون ، والانضباط ، والمساواة في أداء الفرائض ، وأنه لا رئيس لهٰذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم . فهل هٰذا السلوك المشاهد ، والملاحظ هو الحج ؟ . في اعتقادنا السلوك الظاهر ، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج ، ولم يكن الحج في ذاته . فالحج فريضة وعقيدة وإيمان بوحدانية ٱلله ، واعتراف بقدسية ذلك المكان الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان ، ويقيناً بأن ما قام به محمد ﷺ من سنة عملية ، هو الحق الذي يستوجب الاتباع . ولهٰذا لو لم يكن هناك مدلول كامن لفريضة الحج ؛ ما كان هناك ظاهر سلوكيٌّ له .

وعليه لا تحدث النقلة إلا بدليل ظاهر ، وآخر كامن ، أي : إنها لا تحدث إلا بنية صادقة ، وعزيمة واعية ، وقرار مسؤول ، وعمل نافع .

ولذا فإن النقلة تقع في دائرة البسط ، ولا تتحقق إلا بعد تطلُّع وإصرار وعزيمة عن وعي وإرادة مع تحدٍ لكل الصعاب حتىٰ مغالبتها وتحقيق الأمل . فالذين تتغير أحوالهم من مستوىٰ قيمي منخفض إلىٰ مستوىٰ قيمي أكثر رفعة ورقياً هم الذين يصنعون النقلة ، وهم الذين يستمدُّون صفة بسطهم من صفة الباسط المطلق جل جلاله ، وهم المهتدون .

وعليه فالقاعدة : (الذي يبسط هو الذي يقبض) ولذا قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [(1)] . فقوله : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(1) الشورىٰ ، 27 .

وَلَٰكِن ﴾ أي : لو كانت من صفاته البسط فقط ؛ لكان الفساد في الأرض بين الناس فتنة علىٰ ما بسط لهم من رزق ، وذلك لانعدام تقديرهم لفعل الباسط ، وللرزق المبسوط . ولهـٰذا يُحمد ٱلله تعالىٰ علىٰ أن من صفاته الحسان صفة القبض التي تجعل القوة في حالة اتزان ، فلا يسود الاستثناء علىٰ حساب القاعدة (الذي يبسط هو الذي يقبض) وهو الذي يعدل ، ويُقدِّر كل شيء تقديراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ تدل هـٰذه الآية الكريمة علىٰ أنه يُنزِّل كل شيء وفقاً للحاجة وما يُشبعها حتىٰ لا يطغىٰ العباد بما بسط لهم من رزق ، ولهـٰذا علىٰ العباد المؤمنين الإكثار من حمد ٱلله ، وشكره علىٰ نعمه ، وما يجود عليهم منها من خيرات ، وفضائل وإلا فسيكونون من النادمين .

وبما أن القاعدة : (الذي يبسط هو الذي يقبض) إذاً ٱلله وحده هو الباسط القابض وهو المقتدر بالمطلق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ (1) ولأنه المقتدر علىٰ كل شيء ولا شريك له في الملك خلق كل شيء وقدره تقديرا مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ (2) . إذاً لا بسط إلا بمقدار ، ولهـٰذا لا مبسوط بالمطلق إلا الباسط المطلق جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ . في هـٰذه الآية الكريمة مثلماورد القبض فعلاً ، كذلك ورد البسط فعلاً ، ولم يردا اسمين ، ولأنهما فعلان فهما يؤكدان علىٰ صفتين من صفاته المتعددة ، فكما أن من صفته القبض فهو أيضاً من صفة البسط ، ولهـٰذا كانت لأفعاله صفات يتصف بها في الفعل والقوة والإرادة دون أن يشركه أحد فيها ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو فعَّال لِما يُريد وهو السميع العليم !

---

(1) الكهف ، 45 .

(2) الفرقان ، 2 .

ومع أنَّ الفعلين : (يقبض ، ويبسط) وردا في الآية السابقة بمعنيين متباينين ، إلا أنهما لذات علية واحدة ، ولذلك كلما تعددت الصفات الحسان تعددت أفعالها الحسنة والمتصف والفاعل واحد . ومع أن القبض لا يعني البسط إلا أن القابض هو الباسط جل جلاله . ولهـٰذا فمن صفات ٱلله الحسنىٰ تلازم الصفتين دون تفرد في الذكر الحكيم ، وهما : (القابض ، الباسط) حتىٰ إن بعض علمائنا الأجلاء رأوا : أنه لا فاصل بينهما أبداً ، ونحن ولأجل التدقيق في ما تدل عليه كل صفة من صفات ٱلله ، أسمائه الحسنىٰ ارتأينا أن نخصَّ كل صفة من صفاته بالبحث ، والتفحُّص ، والتحليل الموضوعي لأجل إزالة اللبس ، والغموض اللذين قد يعلقان بأذهان بعض الباحثين ، وذلك لِما يدلُّ عليه فعلا القبض والبسط من تباين في المعنىٰ والدلالة . ولهـٰذا قلنا : مع أنهما فعلين علىٰ معنيين متباينين إلا أنهما معاً لفاعلٍ واحدٍ أحد . وعليه فإن جميع أسماء ٱلله الحسنىٰ وما تؤدي إليه من أفعال هي متصلة ، وغير منفصلة ، فكما أن الذي يقبض هو الذي يبسط كذلك الذي يقبض ويبسط هو الذي يُهيمن ، وهو الملك ، ومالك الملك ، والرحمـٰن الرحيم .

وبناء علىٰ ما تقدم وكما سبق أن بينا فمن يريد أن يكون خليفةً لله في الأرض عليه بشيئين اثنين :

الشيء الأول : أن يستمدَّ صفاته من صفات خالقه تعالىٰ .

والشيء الثاني : أن يصلح الأرض ، ولا يفسد فيها .

فالله الذي بسط لنا الأرض والسماء بسط لنا خيراً كثيراً ، ولأجل ذلك إذاً من مهام الخليفة في الدار الدنيا أن يعمل خيراً كثيراً يرضاه ٱلله الذي بسط له السمـٰوات والأرض وما فيهنَّ من خير كثير .

ولأن ٱلله بسط لعباده الرزق لأجل أن يعيشوا حياةً طيبةً ، ولا يُفسدوا في الأرض ، ويسفكوا الدماء فيها ، لذا فمن يرد أن يكون خليفة لله فعليه أن يعمل

عملاً صالحاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) . وقال عز وجل : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (3) . هٰذه مجموعة من الآيات العظام والحُجج النبيلة فيها ؛ فإن لم تكن حُججها بيد من يُراد له أن يكون الخليفة فبالضرورة ستكون حججها دَيناً عليه .

لقد بسط ٱلله لنا الجسم لنمشي سوياً تمييزاً لنا عن تلك الزواحف ، وتلك التي تمشي مكبة علىٰ وجهها ، لذا فليحمد الخليفة ربه الذي لم يجعله زاحفاً ، أو يمشي مكباً علىٰ وجهه مثلما تزحف الأفاعي ، أو تمشي البهائم التي لا تستطيع أن تنظر إلىٰ المستقبل الأفضل ، ولا تتمكن من إحداث النقلة التي تحيد بها من الظلمة إلىٰ النور .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (4) البسط أساس الوجود وهو السابق علىٰ القبض ، واللاحق عليه ؛ سابق له من حيث أولا : إن ٱلله قد مدَّ الكون بأمره ، فكانت السمٰوات المبسوطة ، والأرض المبسوطة . ثم ثانياً يتم فعل القبض ، فتصبح الأرض تحت قبضته والسمٰوات مطويات بيمينه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(1) النور ، 55 .
(2) العنكبوت ، 7 .
(3) غافر ، 58 .
(4) نوح ، 15ـ20 .

﴿ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) . ثم ثالثاً : يبسط الحياة ، ويبعث عباده من جديد لحياة دائمة بعد حساب عادلٍ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (2) . وهٰكذا حال الوجود : حياة ، ثم موت ، ثم بعث الحياة وبسطها من جديد . ومن تُبعث له الحياة من جديد فلن يموت أبداً .

ولأن القبض والبسط من صفات ٱلله الحسنىٰ ؛ لذا فهو باسط الحياة ، وقابضها ، ثم باسطها من جديد ، وباسط الرزق ، وقابض الحاجة ، والفاقة ، وباسط الطمأنينة ، وقابض الخوف ، وباسط الخوف في قلوب الضالين ، وقابضه من قلوب المؤمنين ، باسط المحبة في قلوب الوالدين والأخوة وفي قلوب الأبناء رحمة ، وباسط القلق فيهم محبة بينهم وخوف علىٰ كل منهم من الأذىٰ والألم والمرض والحاجة ، وهٰكذا هو باسط كره المظالم بين المؤمنين

(1) الزمر ، 67 .
(2) الزمر ، 68 ـ 75 .

رحمة . إنه باسط الحق والعدل ، وقابض الباطل والظلم ، وإنه باسط الليل سكناً ، والنهار مبصراً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾ (1) . وهو الذي بسط لعباده الشمس والقمر دائبين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (2) . سبحانه جل جلاله باسط السمع ، وقابض الصم ، وباسط البصر ، وقابض العمي ، وباسط الكلم ، وقابض البكم ، وباسط الجمال علىٰ حساب القُبح ، وباسط الحركة علىٰ حساب السكون ، وباسط الفوز علىٰ حساب الهزيمة .

وعليه فالعلاقة ارتباطية بين البسط ، والقبض ، فبسط اليد علىٰ حساب قبضها ، وقبضها علىٰ حساب بسطها ، والتوسط في البسط والقبض خير ، وهـٰكذا يبسط الرزق والغنىٰ علىٰ حساب الشح والفقر ، والتوسط في الإنفاق خير . ولأن بين البسط والقبض تزامن ؛ لذا كلما فاز فريق في ميادين المنافسة والصراع ؛ انهزم في ذات الوقت الفريق المقابل له في المنافسة أو الصراع ، وكلما شفي المريض ؛ انبسطت الصحة في بدنه ونفسه وانقبض الألم والحسرة منهما ، وهـٰكذا كلما بُسطت الخطىٰ في اتجاه التقدم إلىٰ الأمام ؛ طويت المسافة وقُبضت بين نقطة الانطلاق ونقطة النهاية . وعندما تُفك القيود من الأيدي وتُهدُّ السجون وأركانها القابضة تَبسط الحرية جناحيها وتقوىٰ الإرادة علىٰ أدائها وفقاً لحقوقٍ تمارس ، وواجبات تؤدىٰ ، ومسؤوليات يتم حمْلها ، وهـٰكذا تكون الولادةُ باسطةَ فرحةٍ ، والمعاناةُ باسطةَ ألمٍ ، والمحبة بين الناس قيمة وفضيلة .

وتفصيلاً لما أجمل في الصفحات السابقة ، وتوضيحاً لما أغلق علىٰ البعض لأن بحثنا هـٰذا موجه لأصناف عدة منهم علماء الدين والفلاسفة وطلاب

---

(1) يونس ، 67 .
(2) إبراهيم ، 33 .

العلم وخاصة المسلمين وعامتهم وأهل الفكر والرأي وأهل الديانات الأخرىٰ فمن وجد شيئاً أغلق عليه فهو لغيره ، ولا ينكره حتىٰ يتبين مخرجاً لنفسه أو مدخلاً يلج منه إلينا ، فنقول : إن من معاني الباسط منه ما يعود علىٰ ٱلله ، ومنه ما يعود علىٰ الخلق ، والكلمة تأتي بالمعنىٰ الحقيقي والمجازي أو تنصرف إلىٰ دلالة أخرىٰ لا علاقة لها بما نبحثه .

والبَسْطةُ الفضيلة وفي التنزيل العزيز قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ وقرئ بَصْطةً قال الزجاج : أَعلمهم : أَن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم ، فاعْلَمَ : أَن العلم هو الذي به يجب أَن يقَع الاخْتيارُ ، لا المال ، واعلم : أَن الزيادة في الجسم مما يَهيبُ .

ومن الانبساط السرور ، وإِنه ليَبْسُطُني ما بسَطَك ، ويَقْبِضُني ما قبَضَك ؛ أَي : يَسُرُّني ما سَرَّك ، ويسُوءُني ما ساءك . وفي حديث فاطمة ـ رِضْوانُ الله عليها ـ : « يبسُطُني ما يبسُطُها » . أَي : يسُرُّني ما يسُرُّها ؛ لأَن الإِنسان إِذا سُرَّ ؛ انبسط وجهُه واستَبْشر ، وللتوضيح أعرض الآتي :

1 ـ (هو الذي يَبْسُطُ الرزق لعباده ويوسّعه عليهم بجُوده ورحمته) [1] . فالله يجعل الرزق سهلاً ميسوراً ؛ لأنه خلق أسبابه ، وما علىٰ الإنسان إلا أن يسعىٰ ليحصل عليه بأسباب ٱلله علىٰ مراد ٱلله ، فبسط الرزق ؛ أي : سهّل الحصول عليه قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

---

(1) لسان العرب ، ج 7 ، ص 258 .

(2) الشورىٰ ، 11 ، 12 .

نعم ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالله وحده خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (1) . ورد الفعل المباشر للمؤمن في كل وقت أن يقول : (الحمد لله) ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهنا يؤكد ٱلله للخليفة المتخلق بأخلاق الكتاب المقدس ، وأخلاق النبي الأعظم ﷺ : ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فهو الغني الذي منح غناه لخليفته علىٰ الأرض ببسط أسباب الرزق له والغني عمن سواه ؛ لأنه يملك الغني ؛ لأنه لا يفتقر إلىٰ أحد والكل يفتقرون إليه ، وهو الذي لا يفيده عبادة عابد ، ولا يضره معصية عاصٍ تصديقاً لما جاء في الحديث القدسي : عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنْ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ

---

(1) لقمان ، 25 ، 26 .

ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا ؛ فَلْيَحْمَدْ ٱللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ) [1] .

فإن ادعىٰ مدع بأنه يستطيع أن يمنع رزقاً ، أو يبسطه ، أو لديه القدرة علىٰ منع ما أراد ٱلله أن يبسطه للناس ؛ يكون الرد عليه من كلام ٱلله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأن ٱلله له ما في السموات والأرض وهو وحده الـذي يملـك تسخيـر الشمـس ، والقمـر لمصلحـة الخليفـة الـذي يصلـح ، ولا يفسد ، ويبسط الرزق لعباد ٱلله بأسباب ٱلله علىٰ مراد ٱلله ، ولا يقبضه عن خلق ٱلله اعتقاداً بأن الرزق من ٱلله ولا حرماناً لعباده من رزقه ؛ لأن ٱلله وحده الذي أنزل الماء من السماء ، ووحده الذي يسخر الشمس والقمر لتنظيم حركة الحياة علىٰ الأرض من خلال تنظيم الوقت ، ومعرفة الفصول ، وتعدد المناخ لتهيئة الأرض لتبسط نباتها بقوته جل جلاله في الوقت الذي حدده له من قبل ذلك ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [2] فبسط ٱلله الوقت ليمكن الإنسان من تقدير الجهد الذي يستطيع بذله ، وقياس المدة التي يحتاجها هـٰذا الجهد ، وتقدير الوقت الذي يحتاجه الجسم من السكون ليعيد مزاولة الحركة مرةً أخرىٰ بتجدُّد .

ولذا فالذي يملك الملك هو الذي يبسط الرزق ، ولا ينازعه فيه أحد . قال تعالىٰ في آية أخرىٰ تعطي الدلالة نفسها : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ

(1) صحيح مسلم ،ج 12 ، ص 455 .
(2) التوبة ، 36 .

ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

بل والأكثر من ذلك إن سئل أحد من المنكرين في قضية بسط الرزق وأسبابه عن طريق إنزال الماء من السماء الذي يحيي الأرض ومن عليها ، فتكون الإجابة السابقة ، ٱلله الذي فطر السموات والأرض والله الذي أنزل الرزق من السماء واستودعه في الأرض ، وهنا تطمين لمن يسير في طريق الخلافة اقتداءً بالنبي ﷺ (الحمد لله) تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ومن البسط أن ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لتسكنوا إليها ، وتنتشر منكم الذرية ، فكان من الباسط جل جلاله الرزق مبسوطاً لما خلق ولمن خلق ، ولذا فإن الزوجين هما أساس الانبساط في الأرض التي جعل فيها الباسط خليفة له لتعمر ، وتصلح ، ولا تفسد ، ولا تسفك دماً بغير حق ، ولذلك فالباسط هو الذي مد الأرض ، وجعل فيها من كلِّ الثمرات زوجين اثنين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ ﴾ ومن جميع أصنافها نوعين ، ذكراً وأنثىٰ ، لتبقىٰ ، وتنمو لمنافعكم الكثيرة ، جعل ذلك لأجل الإنسان ؛ ليعينه علىٰ تحمُّل المسئولية في الإصلاح ، ولهٰذا قال : (يذرؤكم فيه) يبسطكم ، ويبثكم ، ويكثركم ، ويكثر أنعامكم ، ويبسط النعم لكم ، سبحانه إنه هو الباسط المطلق الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ ﴾ فليس يشبهه تعالىٰ ، ولا يماثله

(1) العنكبوت ، 61 ـ 63 .
(2) الرعد ، 3 .
(3) الذاريات 49 .

شيء من مخلوقاته ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ؛ لأن أسماءه كلها حسنىٰ ، وصفاته صفات كمال وعظمة بالمطلق ، فليس كمثله شيء ، لانفراده بالعزة والعبودية ، وتوحده بالكمال من كل وجه . ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات والمطالب وهو الكفيل بإشباع كل الحاجات ، وهو ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴾ للحال الظاهر والحال الباطن ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ إنه المتصف بالكمال والعظمة والجلال (له مقاليد السموات والأرض) فله وحده دون شريك مفاتيح الرزق في السموات وفي الأرض ، لذا فهو وحده الذي يبسط الرزق ويقدر : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وإنه بكل شيء عليم ، ولهـٰذا فهو الباسط لكل شيء لمن شاء قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ .

وفي ثنائية الخلق ؛ لأنه قال تعالىٰ : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (1) فقد بسط ٱلله الهداية وأسبابها فمن قبلها ؛ كان سعيداً ، ومن رفضها وحرم منها ؛ كان شقياً ، لذا فمن يختار الدنيا علىٰ لقاء ٱلله وعلىٰ الثواب الجزيل في الآخرة فهو لا محالة في النهاية يكون شقياً ، ومن يختار الهداية والطاعة والإصلاح والخلافة ؛ فهو سعيد ، ومن ينتفع بأسباب الرزق المبسوط له من ٱلله في رغبات فاسدة ، وفي الفساد في الأرض ؛ فهو شقي محروم من بسط الرحمة له في الآخرة كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (2) .

2 ـ الباسط هو الذي يبسُط الأَرواح في الأَجساد عند الحياة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (3) ٱلله سبحانه وتعالىٰ خلق الإنسان ولم يك شيئاً ، وبسط

---

(1) هود ، 105 .

(2) الرعد ، 26 .

(3) الانفطار ، 6 ـ 8 .

له الروح ، وبسط له أسباب الرزق فلمَّا اشتدَّ عوده ، وقويت بنيته ؛ توهم غروراً ، ولذا نزلت الآيات السابقة في أبي الأشدين أسيد بن كلدة من كفار مكة ؛ وقد قتل يوم فتح مكة ، فالمتوهم : أنه خلق عبثاً لابد أن توقفه هـٰذه الآية ، ويتفكر في الباسط الذي بسط له الرزق ، ومن أول الأرزاق رزق الحياة ، فلو شاء ٱلله لكان سقطاً أو لم يُقدِّر خلقه من الأساس ، ففي هـٰذا وحده ما يجعل الإنسان يخر ساجداً شاكراً لله تعالىٰ علىٰ نعمة بسطه له مع عالم الأحياء ، ثم فلينظر إلىٰ الرزق المبسوط له ، والنعيم الموعود في الجنة لمن آمن وعمل وأصلح ، فمن الثابت بالنص القرآني : أن من اغتر بعقله وخرج عن الأمر الإلـٰهي قبض ٱلله عنه نعمة الصورة الجميلة . ولنبصر ما قاله ٱلله في كتابه الكريم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [1] .

ولا لعنة أكبر من قبض نعمة مبسوطة بالرحمة إلىٰ نعمة مقبوضة تتحول إلىٰ لعنةٍ ، وطردٍ من رحمة ٱلله ، وهـٰؤلاء أشرُّ من في الأرض .

وهنا قبض النعمة بشكل مركب :

1 ـ لعنة ٱلله علىٰ العاصي .

2 ـ وغضب ٱلله الموجب لعذابه .

3 ـ ومسخ الصور شر عقاب لهم سبق العذاب في الآخرة . وهـٰذا العذاب قبض لما بسطه لهم حين خلقهم في صورة حسنة .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ

---

(1) المائدة ، 60 .

مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [1] وهنا يوجه ٱلله سبحانه سيدنا محمد ﷺ أن يتوجه بالسؤال إلىٰ الذين غضب عليهم ولعنهم وقبض عنهم نعمة بسط الرزق ، وكان ذلك امتحاناً لهم ، فلما اختاروا الرزق المادي علىٰ عبادة ٱلله ، وتوجهوا للصيد غضب ٱلله عليهم ومسخهم كما بينا من قبل .

ولعل المتأمل لهـٰذه القصة يتدبر : أن الخليفة الذي يخلف ٱلله في الأرض اقتداء بالرسل وبرسالة الإسلام علىٰ وجه التحديد لابد أن يكون عالماً بالتاريخ ، فلولا أن علم ٱلله رسوله الكريم ﷺ بتاريخ القرية المغضوب عليها ما كان يسأل عنها ، فالعلم يسبق السؤال ، والسؤال لابد أن يكون هادفاً ليفضي إلىٰ نتيجة وتحويل في فكر المسؤول إلىٰ الصواب ، وعلىٰ هـٰذا فالسائل في مقام التعليم دائماً ما يعرف الإجابة ، وهـٰذا من أسباب بسط العلم ونشره ، ولنضرب لذلك مثلا من كتب الصحاح :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ . قَالَ : مَا الإسلامُ ؟ قَالَ : الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ . قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنهُ يَرَاكَ . قَالَ : مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ قَالَ : مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلا ٱلله . ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ثُمَّ

(1) الأعراف ، 163 ـ 166 .

أَدْبَرَ ، فَقَالَ رُدُّوهُ . فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا . فَقَالَ : هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ ، قَالَ أَبُو عَبْد ٱلله : جَعَلَ ذَلِك كُلَّهُ مِنْ الإِيمَانِ [1] .

فالشاهد : أن السائل علم بالإجابة ، وهـٰذه وسيلة لبسط العلم لا لقبضه ، وهـٰذا النمط العلمي موجود في القرآن الكريم باتساع ، ولنرىٰ مثلاً قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَلَمْ تَـرَ ﴾ فقد وردت هـٰذه الصيغة إحدىٰ وثلاثين مرةً ، ولا بد لنا أن نقف عند مثل هـٰذه العلامات والإضاءات في القرآن الكريم لنتعلم منها كيف نبسط العلم ، ونبسّطه في آن واحد ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [2] .

وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [3] .

وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [4] .

وهـٰكذا في بقية القرآن الكريم .

وقد يكون السؤال للإعجاز ، وهنا علىٰ الخليفة أن يبحث ، ويتعلم

---

(1) صحيح البخاري ،ج 1 ، ص 87 .

(2) البقرة ، 243 .

(3) البقرة ، 246 .

(4) البقرة ، 285 .

ليبسط العلم لمجموعته ، وليسد الثغرات على بغاة الفساد الذين يدعون : أن العلم لهم لا لغيرهم ، ومن أمثلة ذلك سؤال الكافرين عن أصحاب الكهف ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (1) .

فالكافرون من أهل الكتاب والمشركون من العرب تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادراً على تخليق السموات والأرض ، ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمئة سنة وأكثر في النوم العميق .

وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هٰذه القصة مشروحاً فقال : كان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وكان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، ورستم ، واسفنديار ، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه ٱلله ، وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام ، فقال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ورستم ،واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاًمني ؟ ! ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلوهم عن محمد وصفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما إلى المدينة ، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد ، فقال أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث : عن فتية

---

(1) الكهف ، 9 .

ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب ؟ وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ، وما هو ؟ فإن أخبركم ؛ فهو نبي ، وإلا ؛ فهو مُتَقوِّل ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة ؛ قالا : قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد ، وأخبروا بما قاله اليهود ، فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه ، فقال رسول الله ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ومكث رسول ٱلله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتىٰ أرجف أهل مكة به ، وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة ، فشق عليه ذلك ، ثم جاءه جبريل من عند ٱلله بسورة أصحاب الكهف ، وفيها معاتبة ٱلله إيَّاه علىٰ حزنه عليهم ، وفيها خبر أولئك الفتية ، وخبر الرَّجل الطواف .

ولأن الباسط الذي يبسط الروح في الأجساد ؛ فقد سئل النبي ﷺ عن الروح وتولىٰ ٱلله الإجابة عنها بأن ألهم النبي ﷺ الرد : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾ الظاهرُ : أن السؤالَ كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبِّرُ البدنِ الإنساني ، ومبدأُ حياتِه ، روي : (أن اليهودَ قالوا لقريش : سلوه عن أصحاب الكهفِ ، وعن ذي القَرنين ، وعن الرّوح ، فإن أجاب عنها جميعاً ، أو سكت ؛ فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض ، وسكت عن بعض ؛ فهو نبيٌّ ، فبيَّن لهم القصتين ، وأبْهم أمرَ الروح) وهو مُبْهمٌ في التوراة . ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾ أُظهر في مقام الإضمارِ إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه . ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ كلمةُ : (مِنْ) بيانيةٌ والأمرُ بمعنىٰ الشأنِ والإضافةُ للاختصاص العِلْميِّ لا الإيجادي لاشتراك الكلِّ فيه ، وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفىٰ كما في الإضافة الثانيةِ من تشريف المضافِ إليه ،

---

(1) الإسراء ، 85 .

أي : هو من جنس ما استأثر ٱلله تعالىٰ بعلمه من الأسرار الخفيةِ التي لا يكاد تحوم حولها عقولُ البشر . ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يمكن تعلُّقُه بأمثال ذلك روي : أنه ﷺ لما قال لهم ذلك ؛ قالوا : نحن مختصُّون بهٰذا الخطـابِ . قـال ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ : (بـل نحـن وأنتـم) . فقالوا : ما أعجبَ شأنَك ؟ ! ساعةً تقول : (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) وساعةً تقول هٰذا ، فنزلت : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (1) . وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولِهم ، فإن الحكمةَ الإنسانيةَ أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقةُ البشريةُ ، بل ما نيط به المعاشُ والمعادُ وذلك بالإضافة إلىٰ ما لا نهايةَ له من معلوماته سبحانه قليلٌ يُنال به خيرٌ كثيرٌ في نفسه أو بالنسبة إلىٰ الإنسان ، أو هو من الإبداعيات الكائنةِ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير تحصّلٍ من مادة ، وتولُّدٍ من أصل كأعضاء الجسدِ حتىٰ يمكن تعريفُه ببعض مبادئه ، ومآلُه : أنه من عالم الأمرِ لا من عالم الخَلق وليس هٰذا من قَبيل قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (2) فإن ذلك عبارةٌ عن سرعة التكوينِ سواءٌ كان الكائنُ من عالم الأمرِ أو من عالم الخلقِ . وفيه تنبيهٌ علىٰ أنه مما لا يحيط بكنهه دائرةُ إدراكِ البشر ، وإنما الممكن هٰذا القدرُ الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي : إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرُق الحواسِّ ، فإن تعقُّلَ المعارفِ النظرية إنما هو من إحساس الجزئياتِ (3) .

وفي هٰذا المقام الذي نوضح فيه بسط الأرواح في الأجساد نتوقف في

---

(1) لقمان 27 ، 28 .

(2) يس ، 82 .

(3) تفسير أبي السعود ، ج 4 ، ص 222 .

خشوع أمام الآية الكريمة التي تذهل العقل إجلالاً ، وتزيد البصيرة والبصر نوراً ، وتدفع بيقين ثابت لا يتزعزع إلىٰ أن ٱلله الذي يبسط الأرواح في الأجساد قادر علىٰ قبضها ، وقادر علىٰ بسطها مرة أخرىٰ سبحانه لا إلـٰه إلا هو ! يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

البسط نقيض القبض :

البسط والقبض قاعدة ممتدة في دائرة الوجود الحيِّ ، وهـٰذا المعنىٰ موجود في كل الكون ، وتتعدد مظاهره ، فالغنىٰ بسط وقبض ، والفقر بسط وقبض ، والعلم بسط وقبض ، والعمر بسط وقبض ، والكون كله بسط وقبض . فترميش الأهداب الراعية للعينين في حالة الصحوة هي في حالة بسط وقبض إلىٰ النوم الذي تنبسط فيه الأجفان حتىٰ الصحوة ثانية ، وهـٰكذا حركة المشي أو السير علىٰ الأقدام هي حالة من الامتداد (انبساط) وانكماش إلىٰ النهاية ، ولذا فالحياة امتداد متصل إلىٰ النهاية والموت انكماش متصل إلىٰ النهاية ، فنهاية الحياة الموت ، ونهاية الموت البعث ، وعليه لا انبساط مستمر إلا بالحياة ، ولا انقباض مستمر إلا بالموت ، ولهـٰذا فالخلق بين بسط وقبض إلىٰ النهاية .

وبناء علىٰ ما تقدم فإن البسط والقبض كل منهما مكون تركيبي ، أي : إن البسط والقبض هما في دائرة الممكن بين سالب وموجب ، وبين متوقع وغير متوقع ، فبسط اليد علىٰ ممتلكات الآخرين فعل سالب يمتد في دائرة الممكن ، وبسط اليد علىٰ المُلك الحق ، هو حق ، والقيام به فعل موجب في دائرة الممكن المتوقع .

(1) يس ، 77 ـ 79 .

وعليه إن لم تسد قيمة التقدير بالبسط والقبض بين الناس فقد يؤديا إلىٰ سالب ، ولهـٰذا فقبض الحق من السيادة مظلمة ، وبسط الظلم علىٰ حساب الحق مظلمة ، وبسط الخوف علىٰ حساب الطمأنينة مظلمة إن لم يكن ذلك الانبساط حق ؛ أي : يكون حقاً عندما يكون الخوف من ٱلله طاعة له ، فتكون الطاعة في هـٰذه الحالة في حالة انبساط موجب في دائرة الممكن . وفي بعض الأحيان يكون بسط الرغبة في غير محله مما يجعل القبض ضرورة أو واجباً ، ولهـٰذا يقول تعالىٰ : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (1) .

ومن مظاهر البسط ما يمكن أن يغطي كل ألوان الحياة ، فبسط الفلاح باهتمامه بزراعته ، وبسط العامل بإتقان عمله ، وبسط العالم بنشر العلم النافع ، وبسط الحاكم بالعدل ودفع الظلم عن المظلومين ، وهـٰكذا لا يكاد يخلو مجال من مجالات الحياة إلا وفيه بسط ، أو قبض .

والخليفة دائماً في حالة بسط وقبض ، بسط للحق ، وقبض للظلم ، بسط للعدل ، وقبض للباطل والانحياز بغير حق ، ولهـٰذا لا يسمىٰ من المستخلفين أحد إلا إذا كان من الذين يستمدُّون صفاتهم من خالقهم الباسط بالمطلق ، ولهـٰذا يصبح الخليفة في دائرة النسبية باستمداده للصفات الحسان من ٱلله جل جلاله .

والخليفة هو الذي يبسط الرزق ، ولا يشحُّ في بسط يد العون لمن هم في حاجة ، فيُبسط له الرزق من الباسط المطلق بدون حساب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (2) .

---

(1) البقرة ، 216 .
(2) النور ، 38 .

ومن الهدي النبوي نلمح تلك الرحمة العامة : عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلالِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ ، وَالشَّوْكَةَ ، وَالْعَظْمَ عَنْ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ » [1] .

ومن البسط أن بسط ٱلله الأرض لعباده : وفي هـٰذا المعنىٰ توسعة علىٰ عباده ، فإن هم ضاق عليهم الرزق في مكان ساروا في أرض ٱلله يصلحونها ، ويبتغون فيها الرزق ؛ لأن الذي بسطها بسط فيها الرزق ؛ والذي يفهم هـٰذا المعنىٰ هو مَنْ سار في طريق الخلافة الحقيقية لا مَنْ خنع ، وقنع بالأخذ والفقر وتباطأ وكسل ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [2] .

الله وحده هو الذي جعل لكم الأرض سهلةً ممهدةً تستقرون عليها ، فامشوا في نواحيها ، وجوانبها ، وكلوا من رزق ٱلله الذي يخرجه لكم منها ، وإليه وحده البعث من قبوركم للحساب والجزاء . وفي الآية إيماء إلىٰ طلب الرزق والمكاسب ، وفيها دلالة علىٰ أن ٱلله هو الإلـٰه الحق وحده لا شريك له ، وعلىٰ قدرته ، والتذكير بنعمه ، والتحذير من الركون إلىٰ الدنيا [3] .

البسط في دائرة الممكن بين المادي ، والمعنوي :

البسط المادي نراه في المال ، والجسم ، والبسط المعنوي نراه في العلم والفكر . ولذا فالبسط المادي في المال مع قارون الذي طغىٰ بماله ،

---

(1) سنن الترمذي ، ج 7 ، ص 213 .

(2) الملك ، 15 .

(3) التفسير الميسر ، ج 10 ، ص 205 .

وادعىٰ : أنه من علمٍ عنده وليس من عند ٱلله ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (1) .

ولما بغىٰ قارون ؛ أهلكه ٱلله ، فكان حاله بسط ثم قبض ، وهنا قال الذين في نعمة البسط ، وهو الفقر الذي لا يؤدي إلىٰ معصية ، كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (2) .

ومن البسط المادي البسط الجسدي بالقوة الجسدية التي لابد للإنسان أن يستخدمها في الخير والنفع ، ولنأخذ علىٰ ذلك مثالاً من كتاب ٱلله للفقير الذي منحه ٱلله بسطة في الجسم للهيبة وللجهاد في سبيله ، ثم أتم عليه ذلك البسط بأن بسط عليه في العلم ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ ﴾ طالوت علم عبري كداود ، روي : أن نبيهم ﷺ لما دعا ٱلله أن يملكهم أتىٰ بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل . ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ

---

(1) القصص ، 76 ، 77 .

(2) القصص ، 82 .

(3) البقرة ، 247 .

ٱلْمَالِۚ ﴾ يعني : نحن الأغنياء ، وهو الفقير لا مال له يعتضد به ؛ فكيف يكون ملكا ؟ ! قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً رَاعياً ، أو سقاء ، أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك ، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب والملك في أولاد يهوذا ، وكان فيهم من السبطين خلق . ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه ؛ رَّد عليهم ذلك وفقاً للآتي :

أولاً : بأن العمدة فيما اصطفاه ٱلله سبحانه وتعالىٰ وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم .

ثانياً : بأن الشرط فيه وفور العلم ؛ ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية ، وجسامة البدن ؛ ليكون أعظم خطراً في القلوب ، وأقوىٰ علىٰ مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، لا ما ذكرتم . وقد زاده ٱلله فيهما .

ثالثاً : أن ٱلله تعالىٰ مالك الملك علىٰ الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء .

رابعاً : أنه واسع الفضل يوسع علىٰ الفقير ، ويغنيه ، عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ لما طلبوا منه حجُة علىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ اصطفىٰ طالوت وملكه عليهم : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ ويريد به صندوق التوراة ، وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين . ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الضمير للإتيان أي : في إتيانه سكون لكم ، وطمأنينة ، أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكنون إليه ، وهو التوراة . وكان موسىٰ عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمَّه ، فتسكن نفوس بني إسرائيل ، ولا يفرُّون . وقيل : صورة كانت فيه من زبرجد ، أو ياقوت لها رأس ، وذنب كرأس الهرة وذنبها ، وجناحان ، فتئن ، فيزف

التابوت نحو العدو ، وهم يتبعونه ، فإذا استقر ؛ ثبتوا ، وسكنوا ، ونزل النصر . وقيل : صورة الأنبياء من آدم إلىٰ محمد عليهم الصلاة والسلام . وقيل : التابوت هو القلب ، والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص ، وإتيانه مصير قلبه مقراً للعلم والوقار بعد أن لم يكن ، و الله أعلم [1] .

والرحمة بسط من ٱلله ، والقنوط قبض للبسط من العبد بعدم الفرار إلىٰ ٱلله الباسط ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] .

والوسطية هي مطلب الإسلام ، فلا إنفاق بإسراف ، ولا بخل بإفراط ، والعدل في ذلك حُجَّة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [3] فالمطلوب « الاعتدال في النفقة ، فلا ينبغي أن يقتر علىٰ من يعول في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [5] . وقد قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله » . وقال ﷺ « دينار أنفقته في سبيل ٱلله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار

---

(1) تفسير البيضاوي ، ج 1 ، ص 279 .

(2) الروم ، 36 ، 37 .

(3) الإسراء ، 29 ـ 30 .

(4) الأعراف ، 31 .

(5) الإسراء ، 29 ـ 31 .

تصدقت به علىٰ مسكين ، ودينار أنفقته علىٰ أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته علىٰ أهلك » [1] .

والابتعاد عن البخل ؛ لأن البخل من المهلكات ، ولـٰكن ما حدُّ البخل ، وبماذا يصير الإنسان بخيلاً ؟ وما من إنسان إلا وهو يرىٰ نفسه سخياً ، وربما يراه غيره بخيلاً ، وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم : هـٰذا بخل ، ويقول آخرون ليس هـٰذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً ؛ فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل ، ولا معنىٰ للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حدُّ السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول كما يقول المستخلفين فيها : (إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوىٰ) ، ونقول : (التوسط خير في بسط الخير ، والعدل حق ، ومخافة ٱلله أكبر ، ومن يراعي ما يجب ويقدم عليه ، وما لا يجب ، ويمتنع عنه ، ويجتنبه ، ويتقي ٱلله ، يجد له مخرجاً ، ويرزقه الباسط بغير حساب) . وقال قائلون البخيل هو الذي يستصعب العطية ، وهو أيضاً قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أن يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهـٰذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا في الجود ، فقيل الجود عطاء بلا منن وإسعاف من غير روية . وقيل : الجود عطاء من غير مسألة علىٰ رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء علىٰ رؤية : أن المال لله تعالىٰ ،

(1) إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص399 .

والعبد لله عز وجل فيعطىٰ عبد الله مال ٱلله علىٰ غير رؤية الفقر . وقيل : من أعطىٰ البعض ، وأبقىٰ البعض ؛ فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقىٰ لنفسه شيئاً ؛ فهو صاحب جود ، ومن قاسىٰ الضر ، وآثر غيره ؛ فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئاً ؛ فهو صاحب بخل [1] .

وجملة هٰذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل ، بل نقول : المال خلق لحكمةٍ ، ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلىٰ ما خلق الصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلىٰ ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود . وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [2] ، فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه ، وهو يصابرها ؛ فهو متساخي ، وليس بسخي ، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له ، وهو صرفه إلىٰ ما يجب صرفه إليه .

اللهُمَّ ابسط لنا ما تحب ، واقبض عنا ما تكره ، بحق ما بسطت من نعم علىٰ من أحببت من الأنبياء والمرسلين وعبادك الصالحين الذين استخلفت ! اللهُمَّ ابسطنا بالإيمان ، واحفظنا بآيات القرآن ، وابسط أنفسنا بالأمن

---

(1) إحياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 445 .
(2) الفرقان 67 .

والاطمئنان ! اللهُمَّ إنك أنت الباسط للحق ، فاجعل لنا الحق بساطاً لا نحيد عنه ، ولا يحيد عنا ، واجعل لنا الرزق بساطاً كما تشاء يا من ترزق من تشاء بغير حساب ! اللهُمَّ اقبض عنا العناء والشقاء والبلاء والغفلة عن ذكرك وحبك يا من بعث المرسلين والأنبياء منذرين ومحرضين ومبشرين بما تحب وترضىٰ ! اللهُمَّ ابسط مكرك وكيدك بالماكرين والكائدين بغير حق ، اللهُمَّ ابسط النور في أبصارنا وأسماعنا وجميع حواسنا وفي أنفسنا واجعله ربيع قلوبنا إنك أنت الباسط جل جلالك ! اللهُمَّ ابسط الرعب والخوف والذل في أعدائنا وحسادنا وابسط في نفوسنا القوة والهيبة في طاعتك أنت ربي سبحانك جل جلالك ! اللهُمَّ يا باسط يا ٱلله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا ، واجعل لنا هـٰذا النصيب مفتاحاً من المفاتيح المدخلة للجنة ، ولا تجعله قفلاً بيننا وبين أبوابها ونعيمها ، أنت ولينا نفوضك أمرنا يا ٱلله يا البصير بالعباد !

الخافض جلّ جلاله

الخافض : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وفعله فعل الحق ، فالله تعالىٰ من صفاته لا يرفع إلا من جعل نفسه في محل الرفعة ، ولا يخفض أحداً إلا من وضع نفسه في محل الخِفضة ، والخافض هو من يمتلك القوة التي بها يتم فعل الخفض العادل ، ولهـٰذا فإن ٱلله لا يظلم أحداً ، فهو يرفع أهل الطاعة ، ويخفض أهل المعصية .

قال القرطبي في تفسير أحكام القرآن : « الخفض ، والرفع : يستعملان عند العرب في المكان ، والمكانة ، والعزَّة والمهانة » [1] .

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل في كتابه : « أسماء ٱلله الحسنىٰ آثارها وأسرارها » : « الخافض : معناه الوضع ، والذل ، والإهانة ، والنقص ، والحط من علو ، والهبوط من سمو ، وهو الذي يخفض أهل المعاصي بالانتقام ، فلا تراهم يرفعون الرأس أبداً ؛ وهو الذي يخفض الأغنياء بأموالهم إن اغتروا بها ، ولم يشكروه عليها » [2] .

الخافض : هو الفاعل لِما يؤدي إلىٰ خفض بسبب دون ظلم . خافض التوتر بأسباب الرضا التي تدفع بالمتوترين إلىٰ قول الحق ، أو فعل الحق أو الاثنين معاً ممَّا يجعل الاستجابة ذات أثر موجب علىٰ من ساد بينهم توتر .

---

(1) مصدر سابق ، ص 194 .

(2) محمد بكر إسماعيل ، أسماء الله الحسنىٰ آثارها أسرارها . مرجع سابق ، ص 98 .

والخفض تقليل الشيء ، أو التقليل منه ففي حالة تقليله يصبح علىٰ حالة من النقيصة ، وفي حالة التقليل منه ، يصبح علىٰ حالة من التخفيف والخفض ، مثل تخفيف التوتر ، أو تخفيف الألم ، والمرض .

قال ابن القيم في نونيته :

هو قابض هو باسط هو خافض هو رافع بالعدل والميزان [(1)]

وفي لسان العرب المحيط ، الانخفاض : هو « الانحطاط بعد العلو » [(2)] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [(3)] . تشير هـٰذه الآية الكريمة إلىٰ العلاقة القيمية بين الأبناء والآباء ، وجاءت الرحمة في موضع التشبيه ؛ وكأنها ذات الجناحين : جناح الذل ، وهو جناح اللين ، وجناح القوة ، وهو جناح القسوة ، وجاء فعل الأمر بخفض إحدىٰ الجناحين وهو : جناح الرحمة ، الذي يملأه اللين والرقة الذوقية في اختيار أساليب التعامل والملاطفة السلوكية المُمكِّنة من اكتساب ودِّ الأبوين دون رفع لتوتراتهما . ومن هـٰذه الآية الكريمة تُستمد وجوبية الطاعة لثلاثة أوامر ، هي :

ـ **الأمر الأول** : طاعة ٱلله عز وجل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [(4)] .

---

(1) منهج الإمام ابن قيم الجوزية ، رسائل جامعية . مشرف بن علىٰ بن عبد الله ، ولله السماء الحسنىٰ . الرياض ، دار ابن الجوزية ، الطبعة الأولىٰ ، 2005 ، ص 427 .

(2) لسان العرب المحيط ، مصدر سابق ، الرابع ، ص 155 .

(3) الإسراء ، 24 .

(4) المائدة ، 7 .

ـ **الأمـر الثـانـي** : طـاعـة الأمـر (أمـر الـرحمـة) مصـداقـاً لقـولـه عـز وجل : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] .

ـ **والأمر الثالث** : طاعة الوالدين في غير معصية ٱلله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [2] . وقوله جل جلاله : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ في هـٰذه الآية الكريمة أمران للأبناء في حق الأبوين هما :

أ ـ الأمر بخفض جناح الذل لهما من الرحمة : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ .

ب ـ الأمر بالدعاء لهما بالرحمة التي لهما سابق فضل بها برعاية الأبناء : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

وعليه ففي هـٰذه الآية الكريمة يكون العلو بأسباب الانخفاض ، أي : إذا لم يخفض الأبناء جناح الذل من الرحمة للوالدين الذين هما علىٰ طاعة ٱلله تعالىٰ ، لا يمكن أن تُعدَّ مراتبهم من ضمن مراتب العليين . وهـٰذا يعني : أن الترفُّع علىٰ الوالدين انخفاض قيمي يجعل الأبناء في مستويات أسفل

---

(1) لقمان ، 3 ،

(2) الإسراء ، 23 ، 24 .

(3) العنكبوت ، 8 .

السافلين . ولذا فإن الانخفاض لهما رفعة وعلوٌّ ، ومقربة من ٱلله وطاعة لأمره جل جلاله ! اللهُمَّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ، واجعل لي من رحمتك الواسعة رحمة من رضائهما ، واغفر لي ولهما الذنوب ، وارحمنا ، وتب علينا ، إنك أنت الرحمـٰن الرحيم .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ (1) . الواقعة هي القيامة التي لا شك في وقوعها ، فعندما يحين وقتها ، لا تتأخر ، ولا تتقدم والله عليم حكيم في وقوعها . والوقوع هو الذي ستكون فيه الواقعة خافضة لمن خفت موازينه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ (2) . وتكون فيه رافعة لمن ثقلت موازينه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (3) . في هـٰذه الآية تشير الموازين إلىٰ من ثقلت حسناته ، وزادت في الميزان الذي به يتم نيل الجزاء الأوفر من ٱلله تعالىٰ في مقابل قول الحق ، وفعل الحق اللذين يُرضيان ٱلله ، فيجازي عليهما بالنعيم والجنة .

قال عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : « الخافضة الرافعة : هي التي خفضت أعداء ٱلله في النار ، ورفعت أولياء ٱلله في الجنة » (4) .

وقال قتادة : « الخافضة الرافعة : هي التي خفضت أقواماً في عذاب ٱلله ، ورفعت أقواماً إلىٰ طاعة ٱلله » (5) .

وقال محمد راتب النابلسي في موسوعة أسماء ٱلله الحسنىٰ : « الخافضة

---

(1) الواقعة ، 1ـ3 .
(2) القارعة ، 8ـ11 .
(3) القارعة ، 6 ، 7 .
(4) تفسير القرطبي ، الجزء السابع عشر ، مصدر سابق ، ص 194 .
(5) المصدر سابق ، ص 194 .

الرافعة : هي التي تخفض أقواماً بمعاصيهم فيصيرون إلىٰ النار ، وترفع أقواماً بطاعاتهم فيدخلون الجنة » [1] .

الخفض ، والرفع أفعالهما لا يتمان إلا بقوة الرافع الخافض ، وفي كلتا الحالتين المترتب علىٰ الخفض ، والرفع تغيير أحوال مَن يتعلق بهم أمرهما ، مما يجعل الاختلاف بينهما في النتيجة السالبة ، والنتيجة الموجبة ، ولذا فمن ثقلت موازينه سيكون في عيشةٍ راضية ، ومن خفت موازينه سيكون في الهاوية ، وهي جهنم . اللهُمَّ يا الله اجعلنا من المبعدين عنها ، والداخلين في الجنة !

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [2] . هـٰذه الآية موجهة للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة ، وأفضل السلام ليكون ليناً مع الذين آمنوا بالله تعالىٰ ، وخفض الجناح بالنسبة للنبي هو لين الجانب . وفي هـٰذا القول تشبيه لين الجانب بجناح الطائر ، فلين الجانب فيه دفء مثل دفء جناحي الطائر ، الذي يحتضن بهما أفراخه تدفئة ، وحماية .

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، جاءت مطلقة لكل المؤمنين بدون استثناء ، وفي هـٰذا الأمر تمييز لِما يجب ، وهو عدم الاستغلاظ عليهم ، أو معاداتهم ، فالاستغلاظ لا يكون علىٰ مؤمن ، ولهـٰذا لا إكراه في الدين ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] وباتباع أساليب

---

(1) محمد راتب النابلسي ، موسوعة أسماء الله الحسنىٰ ، الجزء الثاني ، دمشق ، دار المكتبي ، الطبعة الثانية ، 2003 ، ص 810 .

(2) الحجر ، 88 .

(3) البقرة ، 256 .

اللين تطوىٰ الهوة بين المؤمنين ، فيميلون إلىٰ الرسول ليّن الجانب ، ويميلون إلىٰ بعضهم بعضاً .

ولذا فإن خفض الجناح (لين الجانب) يؤدي إلىٰ علوٍ في الحسنات ؛ حيث به تعم المحبة وتتبادل بين المؤمنين ، والرسول الكريم ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ ولو لم يكن لين الجانب ؛ لانفضوا من حوله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) . هٰذه الآية مبنية علىٰ التخصيص بخلاف الآية السابقة المبنية علىٰ المطلقية لكل المؤمنين مما جعل قضاياها جامعة لا مانعةً ، جامعة لكل المؤمنين ومانعة لغيرهم ، أما قوله : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهٰذه الآية قضاياها جامعة مانعة ، وذلك لبنائها علىٰ التخصيص ، ولذا فهي تجمع كل المؤمنين الذين اتبعوا محمداً ﷺ وآمنوا برسالته الخاتمة ، ولا تجمع الذين آمنوا من قبله ولا الذين لم يؤمنوا ، ولهٰذا أطلقنا علىٰ قضاياها بالجامعة المانعة .

وعليه نزلت الآية الأولىٰ للمطلقية : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ونزلت الآية الثانية للتبعيض ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعض من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا بما أنزل ٱلله من الحكمة علىٰ محمد ﷺ . ولذا فقد أمر ٱلله تعالىٰ رسوله محمد ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ بأن يخفض جناحه مرتين :

المرة الأولىٰ : يخفضه علىٰ جميع المؤمنين وهم الذين آمنوا برسالة موسىٰ ، ورسالة عيسىٰ ، ومن آمن برسالته الخاتمة .

---

(1) آل عمران ، 159 .

(2) الشعراء ، 215 .

المرة الثانية : يخفضه على بعض المؤمنين وهم الذين اهتدوا برسالة الإسلام الخاتمة دون غيرهم .

وبما أن ٱلله قد أمر رسوله الذي استخلفه بالرسالة الخاتمة بأن يخفض جناح اللين للمؤمنين ؛ إذاً خفض الجناح أو الجانب باللين قاعدة تستوجب الاتباع من الذين استخلفهم ٱلله في الأرض . فلا إغلاظ بينهم ولا عليهم ، بل التوادد والتراحم بينهم مع التقدير والاعتبار للخصوصية التي تميزوا بها أصحاب الرسالة الخاتمة ، عن غيرهم من الذين آمنوا . وبهـٰذا التميز فمن آمن منهم بالله ، ولم يُفسد في الأرض ، ولا يسفك الدماء فيها بغير حق ، وعمل عملاً صالحاً يرضاه ٱلله كان من المستخلفين فيها . ومن عمل غير ذلك فليس له من الاستخلاف فيها من شيء .

ولذا فقواعد الاستخلاف في الأرض هي الآتي :

1 ـ الإيمان بالله ، وعدم الشرك به . قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [2] . وقال عز وجل : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [4] .

2 ـ الإيمان بالأنبياء ، والرسل الذين اصطفاهم ٱلله تعالىٰ دون تبعيض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ

(1) المؤمنون ، 59 .
(2) التوبة ، 31 .
(3) المائدة ، 72 .
(4) الإخلاص ، 1 ـ 4 .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (2) .

3 ـ الإيمان بالملائكة والكتب ، قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ (4) .

4 ـ الإيمان بأن الآخرة هي دار القرار . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (6) .

5 ـ الالتزام بما أمر ٱلله من صلاة وصوم وزكاة وحج بعد توحيده واحداً أحداً . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (7) . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (8) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ (9) . وقال

---

(1) النساء ، 152 .
(2) البقرة ، 285 .
(3) البقرة ، 285 .
(4) النساء ، 136 .
(5) غافر ، 39 .
(6) المائدة ، 69 .
(7) الحج ، 41 .
(8) البقرة ، 183 .
(9) آل عمران ، 97 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] .

6 ـ التصدق ، وعدم الأخذ بالربا . قال تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [5] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [6] .

7 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر ، والإسراع في فعل الخيرات . قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [7] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [8] .

8 ـ الأخذ بما أمر ٱلله عز وجل ، والابتعاد عما حرَّم ونهىٰ عنه . قال

---

(1) البقرة ، 277 .
(2) التوبة ، 103 .
(3) التوبة ، 104 .
(4) البقرة ، 276 .
(5) الروم ، 39 .
(6) البقرة ، 278 ، 279 .
(7) آل عمران ، 114 .
(8) النحل ، 90 .

تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (3) .

9 ـ الإصلاح في الأرض ، وعدم الإفساد فيها . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ (6) .

10 ـ عدم قتل النفس التي حرم ٱلله إلا بالحق ، وعدم تشويهها بالزنىٰ وبما لا يرضي ٱلله عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (7) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا

---

(1) الأعراف ، 33 .
(2) المائدة ، 90 .
(3) المائدة ، 3 .
(4) الشعراء ، 151 - 152 .
(5) الأنبياء ، 105 .
(6) القصص ، 4 ـ 6 .
(7) الفرقان ، 68 .

بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا ﴾ (2) .

11 ـ الحكم بين الناس بالعدل ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ (4) .

12 ـ العمل علىٰ تأكيد : أنَّ المشاورة حق بين الناس ، والمشاورة هي من أرقىٰ أساليب ممارسة الحرية بأسلوب ديمقراطي . قال تعالىٰ : ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ (5) وقال تعالىٰ : ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (6) .

13 ـ الإيفاء بالعقود والعهود ، والوفاء بالكيل والميزان . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ ﴾ (7) . وقال تعالىٰ : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ (8) . وقال تعالىٰ : ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (9) . وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ

---

(1) الأنعام ، 151 .
(2) النور ، 33 .
(3) النساء ، 58 .
(4) النساء ، 105 .
(5) آل عمران ، 159 .
(6) الشورىٰ ، 38 .
(7) المائدة ، 1 .
(8) النحل ، 91 .
(9) الإسراء ، 34 .

ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (1) .

14 ـ التحابب في الدين وعدم الإكراه فيه ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ ﴾ (4) .

15 ـ الشفافية في المعاملة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (6) . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ (7) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ (8) وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (9) . وقال تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (10) . وقوله

---

(1) الإسراء ، 34 ، 35 .

(2) البقرة ، 256 .

(3) يونس ، 99 .

(4) النساء ، 19 .

(5) الكافرون ، 1ـ6 .

(6) يوسف ، 92 .

(7) النساء ، 86 .

(8) آل عمران ، 159 .

(9) الشورىٰ ، 38 .

(10) البقرة ، 256 .

تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (2) .

وبناء علىٰ هـٰذه القواعد المُمكِّنة للإنسان من الاستخلاف في الأرض فمن أراد أن يكون خليفة لله فيها فعليه أن يستمدَّ صفاته القولية ، والفعلية ، والسلوكية من صفات خالقه جل جلاله ، ولذا فله من صفة الخافض نصيب كبير في خفض التأثر السالب نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وذوقياً وثقافياً لأجل أن يُسهم في إعادة التوازن الموضوعي للأفراد والجماعات البشرية علىٰ أبعادٍ قيمية إنسانية ؛ حتىٰ ينال مرضاة ٱلله عنه . وأن يعمل كل ما من شأنه أن يخفض الألم عن بني جنسه حتىٰ يُسهم في تحقيق الرفعة لهم فيما يُرضي الخالق سبحانه وتعالىٰ .

وأن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه ، وأن ينقل هـٰذا الشعور المؤسس علىٰ الفضيلة لأبنائه من بعده ، وأن يدعوهم إلىٰ ما يؤدي بهم إلىٰ مرضاة ٱلله ، وأن يعمل علىٰ إصلاح أحوالهم بخفض كل ما من شأنه أن يؤثر عليهم سلباً ، أو يعيق سبيلهم تجاه ما يؤدي بهم إلىٰ الإصلاح في الأرض ، وعدم الإفساد ، أو سفك الدماء فيها ، حتىٰ تؤسس أقوالهم وأعمالهم وسلوكياتهم علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالخليفة هو الذي يعمل علىٰ خفض المرض لأجل أن يرتفع المستوىٰ الصحي في البلاد ، ويعم العباد حتىٰ ولو لم يكونوا مؤمنين ، وذلك لأن الصحة حق عام لبني الإنسان وحق خاص لمن يُراد لهم أن يكونوا الخلائف في

---

(1) آل عمران ، 64 .

(2) هود ، 28 .

الأرض . وهـٰكذا يكون العدل بين الناس حق يستوجب الإحقاق ولو كره المجرمون والمفسدون في الأرض . وهـٰذا الأمر يستوجب من الخليفة أن يخفض جناح الذل لبني جنسه ، ولا يغض الطرف عنهم فيما لهم فيه حق ، مما يجعل استشارتهم واجبة في كل ما يتعلق بهم من أمر . فالتعليم علىٰ سبيل المثال : أمر يتعلق بالمواطنين ، فلا يحق لأحد أن يحرمهم منه ، بل علىٰ من يتولىٰ مسؤوليةً أو يُكلَّف بمهمةٍ أن يعمل جاهداً علىٰ تخفيض الجهل بالعلم مثلما يعمل علىٰ تخفيض المرض بالشفاء والمعافاة ، وذلك من أجل إيجاد بيئة سليمة خالية من المرض والجهل والتخلف . وبطبيعة الحال كلما ارتفع المستوىٰ التعليمي والصحي ؛ انخفض الفقر الذي بانخفاضه يرتفع المستوىٰ الاقتصادي للفرد والجماعة والمجتمع بأسره خاصة عندما تسود العدالة بين الناس رحمة .

الخليفة هو الخافض والرافع بالإضافة ، أي : إنه لا يستطيع أن يخفض شيئاً أو يرفعه ، إذا لم يبتغِ الخافض الرافع المطلق أن يُخفض أو يُرفع ، لأجل أن يتغير حاله من حالة إلىٰ أخرىٰ .

ومع أن من صفات ٱلله تعالىٰ الخافض ، إلا أنه لا يخفض الحق أبداً ، ولا يخفض من هو علىٰ الحق ، ولهـٰذا فصفة الخفض صفة خيرٍ علىٰ العباد وبينهم ، وذلك لِما هو مُستهدف من خيرٍ من ورائها .

ولأجل التبيين ؛ فإن للمقارنة أهميةً في توضيح قيمة الظلم الذي بخفضه يرتفع مستوىٰ الرحمة بين العباد ، وبرفعه تزداد الشدة عليهم مع الباطل ؛ وكذلك قيمة العدل الذي برفعه بين الناس تعم الرحمة ، وبخفضه بينهم يعم الظلم والفساد أخلاق العباد ؛ وهـٰكذا قيمة الرحمة ، وقيمة الرزق ، فبزيادة الرحمة يزداد الفضل ، وبخفضها تنقص المحبة بينهم ، وبزيادة الرزق الحلال تُشبع الحاجات البشرية المتطورة والمتنوعة ، ويعم الخير ، وبنقصه وخفضه

تزداد الحاجة ، وينتشر الفساد في الأرض ، مما يجعل المحتاج ضحية بين أيدي المستغلين والمفسدين .

قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1) . ٱلله العادل في ملكه مُحِقٌّ للحق ومُبطلٌ للباطل ، ولذا جعل كلمة الكفر والشرك به سفلىٰ مهزومة مدموغة بالحق ؛ حتىٰ زُهقت ، وفي مقابل ذلك رفع شأن الكلمة الحق بين المستخلفين في الأرض ؛ حتىٰ امتدت في أرجاء المعمورة بين الناس رحمة .

وقال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (2) . بلىٰ إنه احكم الحاكمين الذي أتقن كل شيء في خلقه ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ، (شكلاً ومضموناً) شكلاً من حيث صورته التي ميزه بها الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ولم يخلقه كمن خلق يمشي مُكباً علىٰ وجهه ، بل خلقه يمشي سوياً في أحسن تقويم . وأحسن تقويم تعني : أحسن صنعة ، صنعة لا مثيل لها فيما خلق سبحانه ، ولهٰذا فضَّله علىٰ ما خلق ، وفضَّل المؤمنين منهم علىٰ كافتهم .

والذي جعل خلق الإنسان في أحسن تقويم هو قدرته علىٰ استمداد صفاته من صفات خالقه ، التي بها جعله ٱلله الخليفة في الأرض ، وذلك بعقله الذي يميز به بين ما يجب ، ويقدم عليه ، وبين ما لا يجب ، ويتجنبه ، ويبتعد عنه ، ولا يرتضيه أن يسود بين الناس ، والذي إن ساد بينهم ؛ ساد الفساد الذي يجعل المفسدين منهم يُردُّون إلىٰ أسفل السافلين ، أي : إنهم يهبطون من الرفعة التي خلقهم ٱلله ليكونوا عليها إلىٰ التدني الذي لا يرتضيه ٱلله لخلقه

---

(1) التوبة ، 40 .

(2) التين ، 4ـ8 .

الذين خلقهم في أحسن تقويم . فالله يريدهم أن يكونوا علىٰ الأحسن ، وهم ارتضوا ألاَّ يكون إلا علىٰ الأسوأ ، ولهـٰذا ليس لهم من نعت إلا أسفل السافلين . وأسفل السافلين هو المستوىٰ الذي هو تحت المستويات المتدرجة في السفلية والدونية الوضيعة . فالله يريد لعباده الجنة ، ولا يُريدهم في النار ، ولهـٰذا خلقهم في أحسن تقويم حتىٰ يتمكنوا من إدراك السبل المؤدية بهم إلىٰ الجنة ، ويسيرون عليها حتىٰ بلوغها ، ويدركون السبل المؤدية بهم إلىٰ النار ، ويجتنبونها . وهـٰذا الأمر جعلهم مُفرَّقين بين الآتي :

ـ **المؤمنون** : الذين أسلموا وجوههم لله ربِّ العالمين ، ولم يُشركوا به أحداً وهم المصلحون في الأرض وغير المفسدين فيها ، وهـٰؤلاء هم أصحاب الجنة الذين ارتضوا أن يكونوا في عليين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [(1)] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [(2)] . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [(3)] . وقال جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [(4)] .

ـ **الكفرة** : وهم الذين أشركوا بالله تعالىٰ بما لم يُنزِّل به سُلطاناً ، وهم المفسدون في الأرض ، وهـٰؤلاء هم أصحاب النار الذين ارتضوا بأن يكونوا في

(1) المطففين ، 18 .
(2) الأنعام ، 48 .
(3) البينة ، 7 ، 8 .
(4) الأنبياء ، 105 ـ 108 .

أسفل السافلين . قال تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ (3) .

ـ **الخاطئون** : وهم الذين لم يلتزموا بالتمام بما آمنوا به قولاً وعملاً وسلوكاً ، فهم تارة من المصلين والمتصدقين ، وتارة هم من الذين يغفلون عن ذلك ، أو يسهون ، وهم الذين قد يصلحون من أحوالهم ويصبحون من أصحاب الجنة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (4) . وقد لا يصلحون ، فيصبحون من أصحاب النار مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ (6) .

ـ **المسلمون** : الذين اسلموا بالوراثة في المجتمعات أو الأسر الإسلامية وهم الذين وجدوا أنفسهم علىٰ ديانة أبائهم المسلمين ، فهؤلاء هم في حاجة

---

(1) المطففين ، 10ـ17 .
(2) البينة ، 6 .
(3) الصافات ، 97 ، 98 .
(4) البقرة ، 286 .
(5) الحاقة ، 35 ـ 37 .
(6) القصص ، 8 .

لمناهج وعلوم فكرية وشرعية تمكنهم من بلوغ الإيمان عن دراية وتبيُّن ، بعقل لا بعاطفة ، وهـٰذا حال الكثيرين من المسلمين المنتشرين في بقاع المعمورة ، وهـٰؤلاء إن كانت أخطاؤهم لقصورٍ ممن يتولون الأمر في بلدانهم من حيث عدم تمكينهم من تصحيح معلوماتهم الخاطئة بمعلومات صائبة فإن الذنب سيلاحق ولي الأمر ، ويلاحق من بلغ من العقل والمعرفة ولم يسأل ويسعىٰ ويبحث حتىٰ يستبصر ما يجب استبصاره . قال تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [2] .

ـ **مرتكبو الكبائر والفواحش** : التي حرَّمها ٱلله كالزنىٰ ، وقتل النفس التي حرَّم ٱلله بغير حق ، والخمر ، والميسر ، وغيرها مما حرَّم ٱلله ، ونهىٰ عنه ، فهـٰؤلاء في حاجة للتكفير عن سيئاتهم ، وجرائمهم وفي حاجة للاستغفار والتوبة ، ورحمة ٱلله تعالىٰ واسعة ، فقد يتوب عليهم بواسع فضله . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [3] . وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟

(1) الحجرات ، 14 ، 15 .

(2) آل عمران ، 20 .

(3) النساء ، 29ـ31 .

هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ ﴾ (2) .

ـ **المُغالون في الدين** : وهم الذين وكأنهم لم يقرؤوا قوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ ﴾ (3) . وقوله تعالىٰ : ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (4) وهـٰؤلاء إن كانت مغالاتهم سبباً في تكفير البعض ، أو سبباً في تنفير البعض عن دخول الدين الإسلامي ، أو كانت مغالاتهم سبباً في إشعال نار الفتنة ، فهـٰؤلاء سينالون الحساب العسير ، وإن كانت مغالاتهم مبالغة في الحرص علىٰ الدين فإن ٱلله يعلم بنواياهم ، وهو الغفور الرحيم .

ـ **القابلون للهداية** : وهم الذين في حاجة لجهود المبشرين والدعاة وهـٰؤلاء في مُعظمهم بعيدون عن المركز الذي يشع بدين الإسلام ، مما يستوجب الاتصال بهم بوسائل الاتصالات المتنوعة والمتطورة ، ولذا فمن أراد الخير فليعمل وفضل ٱلله واسع . قال تعالىٰ : ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (6) . وقال تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (7) .

---

(1) الشورىٰ ، 37 .
(2) النجم ، 32 .
(3) البقرة ، 256 .
(4) آل عمران ، 20 .
(5) الحج ، 67 ـ 69 .
(6) الأنعام ، 71 .
(7) الأنعام ، 90 .

وعليه فإن ٱلله تعالىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم من حيث حُسن المظهر والبناء الذي أسس علىٰ العقل ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والقدرة علىٰ الملاحظة ، وملكة الذاكرة ، والذوق الرفيع ، مع المقدرة علىٰ الاستدراك والاستنباط ، والتذكر ، والتفكر ، ولذا فمن حيث الخلق فهو في أحسن تقويم ، ولـٰكن من حيث الاستخدام قد لا يكون علىٰ ما يُراد له أن يكون عليه وهو (أحسن التقويم) . والاستخدام بطبيعة الحال يتعلق بالبشر لا بخالق البشر ، فما يتعلق بخالقهم هو (أحسن التقويم) وما يتعلق بهم مؤسس علىٰ القاعدة التي تتضمنها الآية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ . وبناء علىٰ ذلك آمن من آمن ، وكفر من كفر ، وأخطأ من أخطأ ، واستغفر من استغفر ، وكفَّر من كفَّر ، وارتدَّ من ارتدَّ .

وعندما نضع قيم الإيمان ، والكفر ، والشرك ،والخطأ ، والصواب ، والتكفير ، والاستغفار ، والردة نلحظ تدرج البشر علىٰ السُلَّم القيمي من أعلىٰ إلىٰ أسفل السافلين ، وحينها نعرف : إنّ الإيمان هو الذي يضع أصحابه علىٰ قمم السُلَّم القيمي ، وإنَّ الكفر والشرك هما اللذين يضعان أصحابهما علىٰ درجات السُلَّم القيمي في أسفل السافلين .

ولذا نرىٰ ضعفاً في تفسير البعض لقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بأنها تتعلق بمن بلغ أرذل العمر ، فأرذل العمر مرض يُمكن علاجه مع مراحل التقدم العلمي ، وإلىٰ جانب ذلك نُلاحظ : أنَّ الإنسان كلما تقدم به العمر ، اقترب إلىٰ ربه أكثر طاعةً وعبادة ، وفي هـٰذا الأمر رُقيٌّ وتقدم علىٰ درجات الرفعة علىٰ السلُّم القيمي الذي يضع المؤمن في علِّيين ، وليس في أسفل السافلين الذي يوضع فيه من يمضي عمره كاملاً علىٰ الشرك ، أو الكفر بالله تعالىٰ ، أو يرتدَّ من علوٍّ إلىٰ أسفل السافلين .

ولو كان الكبر معيباً ؛ لكان بنو آدم معفيين من خفض جناح الطاعة للوالدين اللذين هما في حاجة أكثر للمزيد من الطاعة . ولو كان الأمر كذلك ؛

لمحونا قيمة الإجلال لمن تقدم العمر بهم من علمائنا الكبار ومشايخنا الأفاضل وآياتنا الكرام الذين نتخذهم مرجعاً في اتخاذ الآراء الشرعية ، والفتاوىٰ ، ونحن مستأنسين بما يقولون . نحن دائماً مع امتداد أعمارهم نوقِّرهم ، ونلتجئ إليهم كمصادر للمعلومات النافعة ، وذلك ؛ لأنهم في أحسن تقويم ، وليس لأنهم في أرذل العمر .

ولهٰذا جاءت آية الاستثناء بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فالذين دخل الإيمان في قلوبهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ﴿ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ فالذي يَرُدُّ الإنسان إلىٰ أسفل السافلين هو الطمع ، فأبونا آدم قد خلقه ٱلله عز وجل في الجنة في أحسن تقويم ، وفضَّله علىٰ ما خلق وفي ذلك تذكير بسجود الملائكة له عرفاناً به ، وطاعة لأمر ٱلله تعالىٰ . ومع ذلك طمع فأهبطه ٱلله منها إلىٰ الحياة الدنيا وفي هٰذا المعنىٰ أخفضه من علوٍ إلىٰ ما تحته علىٰ درجات السلم القيمي ، وهو المستوىٰ السفلي إذا ما قورن بمستوىٰ الجنة الذي أُهبط منه أبونا آدم . وفي المستوىٰ الدنيوي ساد الخلاف بين ابنيه قابيل وهابيل علىٰ مَنْ يتزوج توأمة مَنْ ، حتىٰ كانت النتيجة المؤسفة بقتل قابيل أخيه هابيل الذي تقبَّل ٱلله منه قربانه ، فكانت النتيجة : أنَّ قابيل أصبح في أسفل السافلين ، ودام هابيل في مرضاة ٱلله تعالىٰ في الجنة .

هٰذا المثال هو الذي يحدِّد من سيكون في عليين ، ومن الذي سيكون في أسفل السافلين (من الذي يكون في حالة الانخفاض ومن الذي يكون علىٰ حالة الارتفاع) . أمَّا العمر فزمن يقاس بالأيام والشهور والأعوام والدهور والقرون ، فنحن بنو آدم مِنَّا نوح عليه الصلاة والسلام لبث نبياً تسعمئة وخمسين عاماً ، ومنَّا من رفعه ٱلله إليه كعيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ومنَّا محمد ﷺ الذي مات في الستين ونيف من عمره ، وهٰكذا أجدادنا وآباؤنا بين هٰذا وذاك يحيون ، ويموتون إلىٰ يوم البعث الذي لا يجد الموت مكاناً له

ليستقر فيه ، مما يجعل حياة المؤمنين من بعدها هي الحياة الحيوان في الجنة .

ولأن العمر زمان يمتد ويسجل بين الحركة والسكون ، لذا فالعمر كزمان لا يتأثر ، بل الذي يتأثر عبر الزمن هو الجهد والقدرة والاستعداد ، ولأن الدين والإيمان لا يرتبطان بالليل والنهار والشروق والغروب كزمن ، والحركة الكونية بين الكواكب والنجوم والشمس ، بل يرتبطان بدرجة الالتزام والتمسك بالمعتقد والتفكُّر والتذكُّر في آيات الخالق عز وجل . ولذا فالعلاقة علاقة عاقل ومعقول (مُدرِك ومُدرَكْ) وعلاقة حكمة وحكيم ، وعابد ومعبود ، وتوحيد بدون شرك ، ولذلك فلا علاقة بالزمن إلا من حيث تسجيل الأحداث والقصص والرسالات وتحديد الأعمار التي تُقضىَ في الحياة الدنيا .

و ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، هم الخلفاء في الأرض الذين بقي حالهم علىٰ أحسن التقويم ، فلم يُفسدوا في الأرض ، ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حق ، وإذا ما اخطؤوا يستغفرون ربهم ويتوبون إليه ، حتىٰ ينالوا الرحمة . وعن عاصم الأحول عن عكرمة ؛ قال : « من قرأ القرآن لم يُردَّ إلىٰ أرذل العمر » . وروي عن النبي ﷺ قال : (طوبىٰ لمن طال عمره ، وحسن عمله) »[1] .

و﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، هم الذين : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ، أي : إنهم هم الذين لم يتبدَّلوا (هم كما هم) في أحسن تقويم ، ولذلك فأجرهم مُتَّصل غير مُنقطع . وهـٰذا الحكم من ٱلله تعالىٰ ، ولأنه كذلك فهو الأجر الذي لا يُمكِن أن ينقطع ، وفي هـٰذا الأمر حكمة بقاء الأجر لمن يؤمن بالله واحداً أحداً لا شريك له في المُلك . سبحانه ما أعظم شأنه !

بعد كل هـٰذه المعجزات العظام بعض الناس يُكذِّبون الرُسُل ، والأنبياء ، ويشككون ، ويكفرون ، ويشركون بالله الواحد القهَّار ، ومع أنه الخافض

(1) القرطبي ، الجامع لحكام القرآن ، ج 20 ، ص 116 .

الرافع ، إلا أنه يترك الأمر لمن يتذكر ، ويتفكر لعله يُدرِك الحقيقة الإيمانية كما أدركها المؤمنون . ولذا فجاء قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ التي تستوجب من المؤمن كلَّما استمع إليها أن يقول : بلىٰ ، إنه أحكم الحاكمين ! كان ابن عباس ، وعلي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنهما ـ إذا قرأا « أليس ٱلله بِأحْكَمِ الحاكمين ، قالا : بلىٰ ، وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين » [1] .

ومع أن الخافض هو ٱلله ـ عز وجل ـ إلا أنَّ فعل الخفض لا يأتي إلا مترتباً علىٰ فعل الرفع ، فلو لم يكن للرفع فعل ما كان للخفض وجود ، ولذا فالعلاقة ارتباطية بين الخفض والرفع ، وبطبيعة الحال في الحياة الدنيا إذا تحقق الارتفاع ؛ تحقق فعل الخفض المحقق لفعل نهاية الارتفاع ، وذلك وفقاً للقاعدة الطبيعية : (لكل بداية نهاية) .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴾ [2] . الواقعة هي القيامة ، التي إذا ما وقعت لا تتطلب دليلاً لإثباتها ، فإثباتها بقيامها ، لا بتبيانها معنىً ، ودلالةً ، ولذا لا مجال لأحد أن يُكذِّب هٰذا الأمر ؛ خاصة وأن الجميع سيكونون في مخافةٍ يوم قيامها ؛ وهم لا يستطيعون أن يتدبروا أمراً ، ولا قولاً ، ولا فعلاً ، ولا سلوكاً ؛ حيث رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ، وبقيامها يُعد الزمن مطويًا مع السمٰوات المطويات بيمينه كطي السجل للكتبِ . ولذا فيوم وقوعها لا يجد الكاذب مقعداً للجلوس عليه ، ولا حتىٰ مغارة للاختباء فيها ، فكل شيء هالك إلا وجهه ، جل جلاله !

ويوم القيامة يَجِدُ العباد ما عملوا من عملٍ مكشوفاً أمامهم ، وهم أمام

(1) المصدر السابق ، ص 117 .
(2) الواقعة 1 ـ 3 .

المساءلة ، والمحاسبة ، والعقاب ، والجزاء علىٰ ما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا ، وفي ذلك اليوم يرتفع المؤمنون بأعمالهم في الجنة ، وينخفض الكافرون والمشركون ومرتكبو الفواحش والكبائر إلىٰ أسفل السافلين في النار . ولذا فالقيامة لا ترفع ، ولا تخفض ، بل التي تخفض هي الأعمال الوضيعة المتدنية ، والتي ترفع هي الأعمال الرفيعة الراقية ، ولـٰكن لأن هـٰذه الأعمال ستكون واقعةً يوم القيامة ؛ فكان الارتباط بين ما يؤدي إلىٰ الانخفاض والدونية ، وما يؤدي للرفعة والرقي شاهداً ودليلَ إثبات غير قابل للتكذيب يوم القيامة حتىٰ وصفت بأنها (الخافضة الرافعة) مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

منذ أن خلق ٱلله العباد وخلق طبائعهم الخاصة التي تُميِّزَ كل فرد عن غيره من أفراد البشرية ؛ بدأت أفعال الخافض جل جلاله تمتد إلىٰ ملاحقة الكفر لتشدَّه عن الامتداد أولاً . ثم ثانياً : لتخفضه بالإيمان . وثالثاً : لطي مساحات الكفر أمام امتداد مساحات الإيمان .

وباسم الخافض وقوته وعزته كلَّ يوم تنقص أعداد ، وجموع الكافرين ، وتزداد وتتعاظم أعداد وجموع المسلمين . وفي داخل المجتمع المُسلم كل يوم بجهود المستخلفين في الأرض تنخفض مساحات الظانين ، وتمتدُّ مساحات الواثقين بالإيمان .

ولأن الإسلام دين ٱلله تعالىٰ ؛ فامتداده ورفعته وسيادته في المعمورة أمر لا مفرَّ منه ، والمسألة مسألة وقت فقط ، ولذا لا تنفع الردة إذا ظنَّ أحد باطلاً ، ولا ينفع تطفيف للميزان إذا وزن أو اكتال تاجر ، أو بائع ، ولا ينفع كتم الشهادة إذا ظهر مزورٌ للحقيقة ، كما لا ينفع الإكراه في الدين . هـٰذه وغيرها من الأعمال الوضيعة التي ستنقبض ، وتنتهي دون أن تكون قادرةً علىٰ أن تصمد أمام امتداد الحق بالكلم الحق ، والفعل الحق ، والعمل الحق .

ومع أنَّ الخفض جاء مرتبطاً بالرفع وسابقاً عليه قراءةً في قوله ﷺ :

(الخافض الرافع) إلا أنه من حيث الوجود والحدوث ، كان الرفع أولاً ، والخفض ثانياً ، فالخالق عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم أولاً ، ونبهه بما يجب ، والأخذ به ، وإلىٰ ما لا يجب ، والابتعاد عنه ، وتركه يعمل وفقاً للإرادة الحرة . وبأعماله الحرة كانت الخطيئة بيديه ، مما جعله ينخفض من مستوىٰ الرفعة والرقي الخِلْقيِّ (المتماثل مع أحسن التقويم) إلىٰ الدنيا التي هي أقل من العليا الرفيعة . وفيها أُعطيَ الإنسان الفرصة ليُكفِّر عمَّا يفعل خطأً ليُخفِّض بالإيمان من كفره وشركه حتىٰ تتحقق له الرفعة ، ويفوز بالجنة .

وفقاً لقاعدة الخفض والرفع كانت خطيئة أبينا آدم دَيناً علينا نحن أبناءه ، لنُكفِّرَ عنها حتىٰ تُمحىٰ بالحسنات ، التي تُخلِّص البشرية من الهموم المترتبة عليها بأسباب ما تعمل علىٰ طمس الحقيقة كفراً ، وشركاً ، وعصياناً ، وجنوحاً ، (حقيقة الخالق والمخلوق ، حقيقة الواحد الذي لا يتعدد الأول والآخر . وحقيقة الواحد القابل للتعدد حتىٰ النهاية) .

لقد ارتفع الكفر ، والشرك في المعمورة ، فعمَّ الفساد سلوك العباد ، حتىٰ بعث ٱلله الرُسُل ، والأنبياء لأقوامهم وشعوبهم تحت راية الإسلام التي جاءت رسالته الخاتمة للناس كافةً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (1) . مما جعل المآذن ترتفع وتعلو بصوت الحق ، وجعل الكفر والشرك كل يوم ينخفض أمامها ؛ حتىٰ يبلغ بإذاً ٱلله بجهود المؤمنين المستوىٰ الصفري ، ويرتفع الحق حتىٰ يلامس السماء . وبذلك يكون العباد قد كفَّروا عن الخطيئة التي بالتكفير عنها تُفتح لهم أبواب الجنة ، والله غفور رحيم .

ولذا ، فالخليفة هو الذي يؤمن بأنه لابدَّ أن يخفض من إسرافه ، حتىٰ

---

(1) سبأ ، 28 .

لا يكون من المبذرين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (1) . ويخفض رأسه وظهره سجوداً وركوعاً طاعة لله تعالىٰ ، ويأبىٰ أن يخفضه لغيره ، مما يجعل له من هـٰذا الخفض رفعة ، ومقاماً محموداً في فسيح جنّاته .

وعليه فالخليفة دائماً إذا ما أخطأ بما يَخفض له أعماله وحسناته ؛ استغفر ربه ، حتىٰ يتوب عليه بواسع رحمته ويزداد إيماناً . فيتواضع مع بني جنسه ، ولا يظلم أحداً لأجل أن يرفعه ٱلله مقاماً محموداً ، وهو الذي لا يُسرِفَ فيما ينفق ، ولا يُطفِّف في الكيل ، ولا ينقص في الميزان اللذينِ بأعمال التطفيف والنقص تُطفَّف بأسبابهما الأعمال الحسنة ، وتُخفض ، وترتفع السيئات ، وحتىٰ لا يحدث ذلك مخافة وطمعاً في وجه ٱلله تعالىٰ وإيماناً به واحداً أحداً يملك الملك ، ويرزق من يشاء بغير حساب يرتفع الخليفة إلىٰ ربه بالأعمال الخيرة التي يرتضيها سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يقترب منه طاعة وإيماناً ورؤية في الجنة .

وعليه ، الخافِضُ هو الذي يَخْفِضُ الجبَّارِينَ ؛ أي : يضَعُهم ، ويُهِينُهم (2) ، ويقلل من شأنهم ، بل يذلهم ، ويمحو ما لهم من مكانة ، ويتبع ذلك إهانة تتبعهم في حياتهم وإن ماتوا فتكون ميراثاً لهم من الذل والعار ؛ لأنهم اتبعوا هوىٰ النفس ، واستعلوا علىٰ الخلق ، ونسوا الخالق ، واستكبروا وهم أذل وأقل من أن يعضلوا ٱلله في ملكه ، فكان جزاؤهم أن وضعهم ٱلله ، وخفض شأنهم . ومن هـٰؤلاء المتعالين :

الحاكم المتجبر .

البطانة السيئة للحاكم .

---

(1) الإسراء ، 27 .

(2) لسان العرب ، ج 7 ، ص 145 .

العالم الظالم .

الغني الجاحد .

الفقير الحاقد .

ـ علىٰ مستوىٰ الحاكم :

أما الحاكم فقد ضرب ٱلله له من الأمثال في كتابه ما فيه الشفاء من داء الكبر والاستعلاء ، وبين سبحانه كيف خفض وأذل وأهان المتكبر المتجبر ، مع أهمية الاستعانة بوسائل منحها ٱلله للنبيين لخفض المتكبر ، فهنا لما ظهر جبار في الأرض يخالف ما أمر به ٱلله ؛ أرسل ٱلله إليه نبيين ليعيدوه إلىٰ طريق الحق ، مع التأكيد علىٰ أن ٱلله لا يهلك أحداً إلا بعد أن يمنحه الفرصة الكافية للعــودة . قــال ٱلله تعــالــىٰ لنبييــه مــوســىٰ وهــارون عليهمــا الصــلاة والسلام : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ (1) .

الإجابة : لبيك يا رب .

ٱلله يأمرهما بألا ينسيا أهم سلاحٍ للمؤمن (الذكر) فيقول لهما : ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ لا يشغلكم شاغل عني في ضيق أو فرج ، في عسر أو يسر ، فأنا مع من ذكرني وفي الحديث القدسي ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : « أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي ، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ » (2) . وهنا الذكر سيكون جهاداً شاقاً أمام طاغية يفسد في الأرض ، ويدَّعي : أنه ربٌّ للخلق من دون ٱلله ، فالذكر أمام هـٰذا الطاغية بأن ٱلله لا إلـٰه إلا هو جل جلاله .

قال ٱلله تعالىٰ لنبييه : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ .

يبين ٱلله لنبييه سبب الذهاب لهـٰذا الطاغية ، والسبب الرئيس : إنه طغىٰ

(1) طه 42 .

(2) صحيح البخاري ، ج 23 ، ص 50 .

بملكه ، وتطاول في الطغيان بأن ادعىٰ : أنه إلـٰه ، وأذل العباد ، وقتل منهم الكثير بغير حق ، واتخذ عباد ٱلله عبيداً له .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف سيكون الموقف في دعوة الطاغية لعبادة ٱلله ؟

الإجابة تأتي من ٱلله في كيفية المعاملة مع المتكبر المتجبر ، بقوله تعالىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ (1) .

وهـٰذا القول اللين من باب الخفض بمعنىٰ اللين الذي يؤدي إلىٰ استمالة القلوب للحق دون حقد ، أو كره ، أو أحكام مسبقة ، ولهـٰذا جاءت الآية بصيغة الأمر : ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ أي : جمعهما في صيغة أمر الحاضرِ مع غَيبة هارون إذ ذاك للتغليب ، وكذا الحالُ في صيغة النهي . ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ تعليلٌ لموجب الأمر . والفاء في قوله تعالىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ لترتيب ما بعدها علىٰ طغيانه فإن تليينَ القولِ مما يكسِر سَوْرةَ عنادِ العُتاة ، ويُلين عريكةَ الطغاة . وقيل : القولُ اللين مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ فإنها دعوةٌ في صورة عَرْض ، ومَشورة ، ويرده ما سيجيء من قوله تعالىٰ : ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ والقول اللين قول التهذيب والأدب وذلك لأجل : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾ بما بلغتُماه من ذكري ، ويرغب فيما رغَّبتماه فيه : ﴿ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ عقابي ، ولذا فالقول اللين لا يعني الإغفال عن قول الحق ، بل الحق يقال هو كما هو ، ولـٰكن بأسلوب يدعو إلىٰ التقبل ، ولا يؤدِّي إلىٰ النفور ، ومحلُّ الجملة النصبُ علىٰ الحال من ضمير التثنية ، أي فقولا له قولاً ليناً آملين أن يتذكر أو يخشىٰ . وكلمةُ (أو) لمنع الخلوّ ؛ أي : باشِرا الأمرَ مباشرةَ مَنْ يأمل في أن يُثمر عملُه ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصىٰ وُسْعه . وجدوىٰ إرسالِهما إليه مع العلم

---

(1) طه 44 .

بحاله إلزامُ الحجة ، وقطعُ المعذرة [1] .

إذاً الأمـر بـأن تكـون الـدعـوة بـاللين لا بـالعنـف ، ولٰكـن النبيّيْن ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أرادا أن يكونا في حفظ من ٱلله ، ولهٰذا لا يخافا في الحق لومة لائم ، ومع ذلك ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [2] . وهٰذا القول لأنهما يعرفا طغيان فرعون ، مما قد يضعهما أمام موقفين :

1 ـ اللِّين وهو مطلب في صيغة أمر من ٱلله تعالىٰ .

2 ـ طغيان فرعون الذي يتطلب الردَّ دون خوف ، وبالتالي قد يجدا نفسيهما أمام موقف لا لين فيه ، خاصة وأن فرعون قد رأىٰ رؤية تفيد : أن هلاكه سيكون علىٰ يد موسىٰ ، مما يجعل فرعون والحقد في دائرة السوء .

فيطمئنهمـا ٱلله بقـولـه تعـالـىٰ : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [3] .

لا تخافا منه ؛ فأنا معكما اسمع وأرىٰ ما يقول الجبار المتكبر ، فأكيد لكما ، وأبطل كيده ، وأمحق مكره ، وأصرف عنكما شره ، ثم أعاد ٱلله تعالىٰ الأمر من جديد بعد أن جاء موسىٰ من مهربه بسبب القتل الخطأ الذي ارتكبه في مصر ، فكان الأمر : اذهبا لفرعون وأخبراه : أنكما رسولا ربك ، الذي هو رب العالمين .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ وتكفي هٰذه الكلمة لإثارة جبروت فرعون ؛ الذي يدعي : أنه إلٰه .

---

(1) تفسير أبي السعود ، ج 4 ، ص 357 .

(2) طه 45 .

(3) طه 46 .

وهنا يتوالىٰ الخفض المعنوي لفرعون ، فالبداية : مجيء اثنين من رعاياه ، هارون ممَّن يعدهم عبيده ، وموسىٰ ممَّن يعتبر : أنه صاحب فضل عليه ؛ لأنه رباه في قصره ، وكان سيتخذه ولداً ، ثم يسمع فرعون لأول مرة في حياته من يوقفه ، ويتجرأ علىٰ أن يكلمه بوصفه عبداً لله لا رباً للناس . ثم يأتي خفض جديد ؛ إذ يأمر موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرعون بقوله كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (1) .

ويخبر النَّبِيَّان فرعون : أنهما يتلقيان الوحي من ٱلله رب العالمين : أن العذاب الدائم سيقع لا محالة علىٰ الكاذب الذي يتولىٰ كبره ، ولا يتواضع لله ، وسيكون هـٰذا العذاب خافضاً له ومذلاً ، مهيناً . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ (2) فهنا خفض من شأن فرعون ، فهو إن لم يؤمن بالله فيكون كاذباً ، ومبعداً عن رحمة ٱلله ، يا لها من قوة بأس تحلىٰ بها سيدنا موسىٰ ؛ ليخفض من شأن فرعون المتكبر !

ويسأل المتكبر المتعالي بالباطل هل هناك إلـٰه آخر ؟

فيسأل موسىٰ عن ربه ، كما ورد في قوله تعالىٰ علىٰ لسان فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ (3) اعتقاداً منه : أنه بهـٰذا يخيفهما ، ولعلمه الباطل : أنه لا إلـٰه غيره غروراً بنعم ٱلله التي منحها له .

قال سيدنا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (4) .

---

(1) طه 47 .

(2) طه 48 .

(3) طه 49 .

(4) طه 50 .

ربنا الذي أعطاك هـٰذا الملك الذي تكبرت به ظلماً وبغياً ، حتىٰ تطاولت علىٰ العباد ، فاستعبدتهم ، وعلىٰ نفسك بأن وضعتها في غير مكانها ، ثم تطاولت بالعلم الذي تعتقد : أنه لك وحدك ؛ لأن فرعون يعتقد : أن علم القرون الأولىٰ لا يعلمه أحد . قال فرعون :

﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (1) سؤال معجز من وجهة نظر فرعون !!!

قال موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (2) .

فعلم القرون الأولىٰ وغيرها من علم ربي من قبل أن يخلق الخلق ، ثم يزيد سيدنا موسىٰ إجابته التي أوحىٰ ٱلله له بها ، فيخبر فرعون عن ٱلله المستحق للعبادة ، ويخبره بنعم ٱلله عليه ، وعلىٰ الناس جميعاً ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (3) .

فأرض مصر في معظمها أرض ممهدة مستوية صالحة للزراعة والعمران ، عامرة بالماء الوفير من النيل ومن الأمطار ومن الآبار التي تستمد من جوف الأرض ، متعددة المحاصيل الصالحة لحياة الإنسان ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (4) قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن

(1) طه 51 .

(2) طه 52 .

(3) طه 53 .

(4) البقرة ، 61 .

نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ ﴾ وذلك أنهم سئموا من المن والسلوىٰ وملُّوه ، فاشتهوا عليه غيره ؛ لأن المواظبة علىٰ الطعام الواحد تكون سبباً لنقصان الشهوة . فإن قلت : هما طعامان فما بالهم قالوا علىٰ طعام واحد ؟ قلت : أرادوا بالواحد ما لا يختلف ، ولا يتبدل ولو كان علىٰ مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها في كل يوم لا يبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد ﴿ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي : فاسأل لنا ربك : ﴿ رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا ﴾ قال ابن عباس : الفوم الخبز . وقيل : هو الحنطة ، وقيل : هو الثوم . ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ إنما طلبوا هـٰذه الأنواع لأنها تعين علىٰ تقوية الشهيَّة ، أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه ، فسألوا هـٰذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد ، وكان غرضهم الوصول إلىٰ البلاد لا تلك الأطعمة ﴿ قَالَ ﴾ يعني : موسىٰ ﴿ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ ﴾ أي : الذي هو أخس ، وأردأ ، وهو الذي طلبوه . ﴿ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾ يعني : بالذي هو أشرف ، وأفضل ، وهو ما هم فيه ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ يعني : إن أبيتم إلا ذلك ؛ فائتوا مصراً من الأمصار ، وقيل : بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه . ودخول التنوين عليه كدخوله علىٰ نوح ، ولوط . والقول هو الأول . ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ يعني : من نبات الأرض (1) .

ويفتخر سيدنا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمجد ربه ، ورفعته ، وعظمته ، فيقول للواهم العاصي الذي جعل من نفسه إلهاً للناس مع كونه وإياهم عبيد لله : ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ (2) .

والأسلوب الحواري في القُرآن الكريم كما ورد في الآيات السابقة يعلمنا

(1) تفسير الخازن ، ج 1 ، ص 48 .
(2) طه 54 ، 55 .

كيفية إقامة الحجة علىٰ الكافر ، وهـٰذا من واجب خليفة ٱلله في الأرض أن يكون مناقشاً عقلانياً يقابل الرأي بالرأي والحجة بالحجة ؛ ليقيم شرع ٱلله ، مثل :

قـالا ـ عليهمـا الصـلاة والسـلام ـ : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ فرعون : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ ففرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير الجند ، وسيدنا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمَّا دعاه إلىٰ ٱلله تعالىٰ لم يشغل فرعون باله بالبطش والإيذاء بل استمر مع سيدنا موسىٰ في المناظرة ، لأنه لو بدأ أولاً في الإيذاء ؛ لنسب إلىٰ الجهل ، والسفاهة ، فتكبر فرعون أن ينسب إلىٰ الجهل مع كونه الجاهل الأكبر بحقيقة : أنه جاهل ، ولذلك استمر في المناظرة ، وذلك يدل علىٰ السفاهة ، وعجز حجة فرعون ، وكمال جهله ، وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي العلم ؟ ! وفرعون لما سأل موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك قبل سيدنا موسىٰ ذلك السؤال ، وأقام الدليل علىٰ وجود ٱلله الخالق الرازق : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

وهنا تعلمنا الآية مبادئ الأسلوب الحواري في الاستماع للآخر ، واللين معه ، واستماع كلام الكافر ، واللين معه لعله يهتدي للحق ، والله سبحانه تعالىٰ حكي كلام فرعون في إنكاره لله وذكر في القرآن شبهات منكري النبوة ، وشبهات منكري الحشر ، مع وجوب الرد بالجواب الشافي الزاهق للباطل ؛ لئلا يبقىٰ الشك في نفس الكافر المنكر ، كما فعل ٱلله تعالىٰ في كتابه الكريم .

كما دلت الآية علىٰ أن صاحب الحق يجب عليه استماع كلام صاحب الباطل ، والرد عليه من غير إيذاء ، ولا سوء ، كما فعل موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع فرعون ، وكما أمر ٱلله تعالىٰ سيدنا محمدا في قوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن

ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [1] وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [2] .

والسؤال هنا : هل كان فرعون عارفاً بالله تعالىٰ ؟

نرىٰ : أنه كان عارفاً ؛ إلا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً ، وتجبراً ، وزوراً ، وبهتاناً . والدليل قول سيدنا موسىٰ له : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [3] . فمتىٰ كانت التاء في علمت كان ذلك خطاباً من موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ فرعون ، فدل ذلك علىٰ أن فرعون كان عالماً بذلك ، وكذا قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [4] .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [5] فلما أبىٰ ؛ تقرر : أنه قد هزم في النقاش ، وهنا سيكون الخفض من معنوي إلىٰ خفض مادي ، وهٰذا ما سنعرض له .

ـ خفض حال فرعون بهزيمته في النقاش ، والتحول إلىٰ شكل آخر من أشكال الخفض :

فلما فرغت حيلة فرعون في تلك المناقشة ، وانخفض شأنه أمام قومه ـ وهو المدعي بأنه إلٰه ـ لجأ إلىٰ سلاح الضعيف سلاح التهديد ، واللجوء إلىٰ الغير لينتصر بهم ، يا لها من دعابة من جاهل متكبر يقول : إنه إلٰه ويستعين بغيره لينصره ! وهٰذا فشل آخر لفرعون يحط ، ويخفض من ربوبيته

---

(1) النحل 125 .
(2) التوبة 6 .
(3) الإسراء 102 .
(4) النمل 14 .
(5) طه 56 .

المزعومة أمام من استضعفهم ، فقال ٱلله عن هـٰذا المغرور في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (1) .

فقد وضّح ٱلله تعالىٰ : أنه أرىٰ فرعون الآيات كلّها ، وفرعون لم يقبلها ، وهي آيات تؤدي إلىٰ التوحيد ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (2) وقوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (3) وقوله

---

(1) طه57 ، 76

(2) طه 50 .

(3) طه 53 .

تعـالـىٰ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ (1) ، وكذلك من دلائل نبوة موسىٰ وهارون وهي الآيات التسع التي خص ٱلله بها موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي : العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل . ﴿ أَرَيْنَٰهُ ﴾ عرفّناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ، ثم أثبت ٱلله تعالىٰ شبهة فرعون ، وهي قوله : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ فصار فرعون يعزف علىٰ الجانب الوطني ، ليصرف المصريين عن موسىٰ بوصفه عدواً لمصر ، وغير بعيد من ذلك احتلال الهكسوس لمصر ، ثم كفاح المصريين لطردهم ، ومن المعلوم تعاون بني إسرائيل مع عزيز مصر ، وهو من الهكسوس ، فلهـٰذا السبب كان المصريون يبغضون بني إسرائيل ، فألقىٰ فرعون في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين لموسىٰ جداً ، وهو قوله : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ ﴾ وذلك لأن هـٰذا مما يشق علىٰ الإنسان في النهاية ، ولذلك جعله ٱلله تعالىٰ مساوياً للقتل في قوله : ﴿ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ (2) . ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي : إن ما جئتنا به سحر لا معجز ، ولما علم : أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ . أما قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ فكان الموعد ، وكان النصر لنبي ٱلله ، والخفض والهزيمة لفرعون .

ثم تحدث المفاجأة ، فيؤمن السحرة المستكرهون ، فيهددهم الضعيف الذي خفض شأنه ، والله تعالىٰ لمَّا حكىٰ تهديد فرعون لأولئك حكىٰ جوابهم

---

(1) الشعراء 23 ، 24 .

(2) النساء 66 .

عن ذلك بما يدل علىٰ حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين ، فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وذلك يدل علىٰ أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان ؛ وإلا فعل بهم ما أوعدهم ، فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ جواباً لما قاله ، وبينوا السبب ، وهو أن الذي جاءهم بيناتٌ وأدلة ، والذي يذكره فرعون غرور الدنيا الفانية ، ومنافع الدنيا وأضرارها لا تساوي منافع الآخرة وأضرارها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ : لن نؤثرك يا فرعون علىٰ ما جاءنا من البينات وعلىٰ الذي فطرنا وعلىٰ طاعة الذي خلقنا ، وعلىٰ عبادته . فلما هددهم ؛ قالوا : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ فذلك الوعيد لا يزيلهم أبداً عن إيمانهم ، وعما عرفوه من الحق علماً ، وعملاً . ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال عذاب فرعون ، فقالوا : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ وهـٰذه الحياة الدنيا فانية وإنما مطلبنا سعادة الآخرة ، وهي باقية ، ثم قالوا : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ما أظهروه من السحر ، وهو الخافض ، وليس برافع ؛ قالوا : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ ثم قالوا : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ ﴾ ثواباً لمن أطاعه .

والله سبحانه وتعالىٰ قد أرسل سيدنا موسىٰ بتسع آيات كما ورد في القرآن الكريم ؛ ليرتدع ، ويعود ، وخفض من كبره ولـٰكنه أبىٰ وتعالىٰ ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ (1) .

وتتوالىٰ أحداث الصراع والصعود إلىٰ الهاوية ؛ ليقع فرعون ، ويكون عبرة لغيره من المتكبرين ، وسنعيش مع القرآن الكريم لنتتبع كيف أخفض ٱلله فرعون إلىٰ يوم القيامة .

---

(1) طه 56 .

قال الله تعالىٰ يصف كبر فرعون ، واتهامه لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .

فلما استعان الضعيف المتكبر بالسحرة ؛ راح يستعين بهامان ضعيف بأضعف ، ولـٰكن الفشل حالف الاثنين ، ومن تبعهما ، وأغرقهما الله في اليم والحمد لله الذي أخفضهم ، وشانهم !

وذلك في موقف آخر في القرآن الكريم يقول الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ [2] .

أخذ العبرة من كِبْر فرعون ، وخفض الله له واجبٌ علىٰ كل من يتأمل

(1) القصص 36 ـ 43 .

(2) يونس ، 90 ، 92.

تجلي الخافض بتجليه الجلالي علىٰ فرعون ، فخفض شأنه المعنوي والمادي ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ [1] . وقوله عز وجل : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ أي : وتركنا في إرسال موسىٰ آية وعبرة . ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ أي : حجة ظاهرة . ﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : أعرض عن الإيمان ﴿ بِرُكۡنِهِۦ ﴾ أي : بجمعه ، وجنوده الذين كان يتقوىٰ بهم . ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ أي : فأغرقناهم في البحر . ﴿ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ أي : آت بما يلام عليه من دعوىٰ الربوبية ، وتكذيب الرسل [2] .

ـ البطانة السيئة للحاكم :

ومن هـٰؤلاء هامان الذي كان وسيلةً من وسائل خفض فرعون ، وضياع هيبته ، وهـٰذه الفئة المنتفعة دائماً ما تدفع الحكام إلىٰ الباطل . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ [3] ، أي : فلمَّا جاءهم موسىٰ . ﴿ بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا ﴾ الحق من عند ٱلله خافض المكيدين ، والماكرين ، والمتكبرين بغير

---

(1) الذاريات 38ـ40 .

(2) تفسير الخازن ، ج 5 ، ص 484 .

(3) غافر ، 26 - 30 .

حق . ﴿ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ يعني : مع موسىٰ ﴿ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ يقول : اقتلوا أبناءهم ودعوا البنات ، فلما هموا بذلك ؛ حبسهم ٱلله عنهم حين أقطعهم البحر ، يقول ٱلله عز وجل : ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [1] وَمَا كَيْدُ فرعون الذي أراد ببني إسرائيل من قتل الأبناء واستحياء النساء ﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ يعني : خسارة .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لقومه القبط : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ فليمنعه ربه من القتل . ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ يعني : عبادتكم إياي . ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مصر : ﴿ ٱلْفَسَادَ ﴾ يعني بالفساد : أن يقتل أبناءكم ويستحيىٰ نساءكم كما فعلتم بقومه يفعله بكم . فلما قال فرعون لقومه : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ . استعاذ موسىٰ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [2] يعني : فرعون لا يصدق بيوم يدان بين العباد . ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : قبطىٰ مثل فرعون . ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ مئة سنة حتىٰ سمع قول فرعون فىٰ قتل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فقال المؤمن : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : اليد ، والعصا . ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ من العذاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ يعني : مشرك مُفْترٍ [3] . ولسان حال كل مصلح يريد الإصلاح يقول كما قال سيدنا لوط لفئة الشر الذين بغوا ، وطغوا : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [4] .

3 ـ الله يخفض الغني المتكبر ، وليس مثالاً أدل علىٰ ذلك من قارون

---

(1) غافر 25 .

(2) غافر 27 .

(3) تفسير مقاتل ،ج 3 ، ص 183 .

(4) هود ،78 .

الذي خسف ٱلله به وبداره الأرض ؛ لأنه منع الزكاة ، واعتقد زوراً : أن المال الذي أنعم ٱلله به عليه إنما من عند نفسه ، وليس نعمة من ٱلله وهبها له ؛ ليمتحنه ، ويكون الامتحان صعباً ، ففشل فشلاً ذريعاً فخفضه ٱلله . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [1] فقوله عز وجل : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ قيل : كان ابن عم موسىٰ ؛ لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسىٰ بن عمران بن قاهث . وقيل كان عمَّ موسىٰ ، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة ، ولـٰكنه نافق كما نافق السامري . ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : كان عاملاً لفرعون علىٰ بني إسرائيل ، فظلمهم ، وبغىٰ عليهم ، وقيل : بغىٰ عليهم بكثرة ماله . ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ ﴾ جمع : مفتح وهو الذي يفتح به الباب . وقيل : مفاتحه يعني : خزائنه ﴿ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ معناه : لتثقلهم ، وتميل بهم إذا حملوها لثقلها . والعصبة : اللحمة ، والكثرة ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ﴾ يعني : لا تبطر ، ولا تأشر ، ولا تمرح . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أي : إنه لا يحب الفرحين بغير الحق ، ولهـٰذا فالشماتة والسخرية في العباد بأسباب النقص ، أو الحاجة لا يحبه ٱلله ، ولا يحبه أحدٌ من المستخلفين في الأرض طاعة لله ، ولما يحب . قال الشاعر :

(1) القصص ، 76 ، 79

أشـــدُّ الغـــمِّ عنـــدي فـــي ســـرورٍ تيقَّـــن عنـــه صـــاحبـــه انتقـــالا

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ﴾ يعني : اطلب فيما أعطاك ٱلله من الأموال الجنة ، وهو أن تقوم بشكر ٱلله فيما أنعم عليك ، وتنفقه في رضا ٱلله . ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ أي : لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتىٰ تنجو من العذاب ؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة ، وصلة الرحم . وقيل : لا تنسَ صحتك ، وقوتك ، وشبابك ، وغناك أن تطلب بها الآخرة . عن عمر بن ميمون الأزدي ؛ قـال : قـال رسـول الله ﷺ لـرجـل وهـو يعظـه : « اغتنـم خمسـاً قبـل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »[1] . ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي : أحسن بطاعة ٱلله كما أحسن إليك بنعمته . وقيل : أحسن إلىٰ الناس . ﴿ وَلَا تَبۡغِ ﴾ أي : ولا تطلب ﴿ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ التي جعله ٱلله فيها خليفة له ، ليصلح فيها ، ولا يفسد ، ولا يسفك دماً بغير حق ، وكلُّ من عصىٰ ٱلله فقـد طلـب الفسـاد فـي الأرض . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ يعني : المفسدين في الأرض كما هو حال قارون ، وفرعون ، وغيرهم كثير ؛ حيث إن ٱلله يعلم ما تكن صدوره وأكثرهم لا يشكرون مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾[2] ، وهـٰؤلاء ومن علىٰ مثلهم يخفض ٱلله أعمالهم التي يظنون ببسطهم بها في الدنيا نهاية ، هـٰؤلاء هم الذين لا يؤمنون بيوم الحساب ؛ الذي فيه تبسط أعمال المستخلفين في الجنة ، وتقبض أعمال المشركين والمتكبرين والطاغين ، ويبسطون بها في النار .

---

(1) تفسير الخازن ، ج 5 ، ص 111 .

(2) النمل 73 ، 74 .

وهـٰكذا أيضاً حال العلم فالعلم الباسط للخير قد يكون هو الذي به تخفض الأعمال ، فالعلم لا للتطاول به ، ومتابعة السفهاء ، أو صرف وجوه الناس عن عبادة ٱلله ، فمن يكون كذلك يكون مصيره العذاب المهين بدخول النار ، فعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ ؛ قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ » (1) . وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ ، وَلا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، وَلا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ؛ فَالنَّارُ النَّارُ » (2) .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (3) فالقرآن مرفوع علمه للإنسان بعد أن أنزله إلىٰ الأرض ليبسط الحق ، ويخفض الظلم ، ورفع الشمس والقمر نوراً وضياءً ، والنجم المرتفع ، أو نبات الأرض علىٰ اختلاف المعاني ينخفضان طواعية لله بالسجود كما يسجد له ويركع الخلفاء في الأرض إيماناً طائعين ، لذا أمرنا المولىٰ جل وعلا أن نقيم الوزن ، ونرفع العدل ، ونخفض الظلم ، ونبطل الجور ووفقاً لقاعدة البسط والخفض ، فإن لكل سبب مسبباً ، ولكل علة معلولاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

(1) سنن الترمذي ، ج 9 ، ص 255 .

(2) سنن ابن ماجه ، ج 1 ، ص 296 .

(3) الرحمـٰن 1 ، 13 .

خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [1] فخَفْضُ العَدْل ظهور الجَور عليه ، وبسط العدل خفض الجور ، والظلم عن المظلومين .

فأمر المترفين بذنوب الناس ، وبذنوب الناس يرتفع الجور وينخفض العدل ، ولذلك فالمتخلق باسم ٱلله الخافض يعمل علىٰ خفض الظلم ورفع العدل وبسطه بكل ما أوتي من وسائل تتيح له أن يخفض الظلم والفقر والجوع وغير ذلك من عقبات تعوق مسيرة إصلاح الأرض وتعميرها التي هي أساس ما يسعىٰ إليه لتحقيق الخلافة المرجوة علىٰ الأرض .

وفي التنزيل العزيز ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال الزجاج : المعنىٰ : إنها تَخْفِضُ أَهل المعاصي ، وترفع أَهل الطاعة . وقيل : تخفض قوماً ، فتَحُطُّهم عن مَراتِب آخرين ترفعهم إِليها ، والذين خُفِضُوا يَسْفُلُون إِلىٰ النَّارِ ، والمرفوعون يُرْفَعُون إِلىٰ غرف الجنان . ففي حديث أَبي بكر قال لعائشة ـ رضي الله عنهما ـ في شأْن الإِفك : خَفِّضي عليك . أَي : هَوِّني الأَمر عليكِ ، ولا تَحْزَني له [2] . فكان حادث الإفك إعلاءً للسيدة عائشة ، وخفضاً لها . بمعنىٰ : هو تهوينٌ عليها لما لاقته من ظلم بسبب الافتراء عليها .

وعليه : لا خفض ، ولا رفع ، ولا بسط إلا بيد ٱلله ، لا يقوم بذلك إلا هو جلَّت قدرته .

ويقول ٱلله تعالىٰ للحبيب ﷺ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] أي : أَلن جانبك لمن آمن بك ، وتواضعْ لهم . وأصله : أن الطائر إذا ضمَّ فرخه إلىٰ نفسه ؛ بسط جناحه ، ثم قبضه علىٰ الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ؛ أي : وقور لين ساكن .

(1) الإسراء 16 - 17 .
(2) لسان العرب ج7 ص145 .
(3) الحِجْر 88.

وقال الشاعر :

وحسبُـــك فتيـــةٌ لـــزعيـــمِ قـــومٍ   يمــدُّ علـىٰ أخـي سقـمٍ جنـاحـا [1]

اللهُمَّ يا الخافض إنك تملك القوة التي بها تخفض الطغاة والمتجبرين والمتكبرين بغير حق ، فاخفض جناحهم بقوتك ، وذلهم ، وكد كيدهم ، وامكر بمكرهم ، إنك الحق الذي يعلو ولا يعلىٰ عليه ! اللهُمَّ اجعلهم في خفضة ، واجعلنا في رفعة يا ٱلله !

اللهُمَّ إنك الخافض بعدلك ، فاجعل حكمك في من غدر بخير أمة أخرجت للناس آية ! اللهُمَّ إنك الخافض للتوتر ، فاخفض كل توتر بين أبنائها ! اللهُمَّ إنك الخافض لأهل المعصية ، فاجعلهم أسفل سافلين ، واجعل المسلمين ، علىٰ طاعتك في علِّيِّين .

اللهُمَّ إنك لا تخفض حالاً ، ولا درجةً ، ولا قوةً إلا بسببٍ ، فاجعل لنا الأسباب ، والقوة التي بها تُقضىٰ الحوائج ، وتُرفع الدرجات ، وتتحسن الأحوال !

اللهُمَّ اجعلنا خافضين جناح الذل من الرحمة لآبائنا ، واجعلنا محسنين إليهم ، وارحمهم يا ٱلله علىٰ رعايتهم ، وَحُسْنِ تربيتهم لنا ، ويسِّر لهم ولنا من أمرنا رشداً !

✍ ✍ ✍

(1) تفسير القرطبي ،ج 10 ، ص 57 .

الرَّافِعُ جلّ جلاله

الرَّافع : « هو الذي يرفع من استحق الرفع من أوليائه ، يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمتهم ، ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجتهم » (1) .

وَالرَّافِعُ : الْمُعْلِي لِلأَقْدَارِ (2) .

الرافع : هو الذي بيده القوة المُمكِّنة من تحقيق الرفعة وإحداث النقلة إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأنفع وأكثر فائدةً . والرافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال علىٰ ٱلله تعالىٰ مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) .

وفي لسان العرب المحيط : الرافع : هو « الذي يرفع المؤمن بالإسعاد ، وأولياءه بالتقريب ، والرفع ضد الوضع ، ورفعته فارتفع ، فهو نقيض الخفض في كل شيء » (4) .

ولو عُدنا للآية السابقة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 41 .

(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 192 .

(3) الأنعام ، 165 .

(4) لسان العرب ، ج 1 ، ص 1197 .

لعرفنا : أنَّ الرافع جلَّ جلاله هو الذي جعل الخلائف تتوالىٰ من ولادة سابقة إلىٰ موت يلاحقها ، ومن ولادة جديدة إلىٰ موت متجدِّد ، حتىٰ النهاية بالولادة التي لا يلاحقها الموت أبداً (البعث) .

وبما أن ٱلله جعلنا خلائف الأرض ؛ إذاً الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها . وبما أن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها . إذاً الرزق في الأرض ، والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت بعد . والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة ، وحينها تصبح الأرض مطويةً مثل طي السمٰوات .

والخلائف : جمع خليفة ، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من بني جنسهم ، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم ، مما يجعل الموت يلاحق كل ولادة ، ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم مما يفعله الموت ، ولذلك فلِله في خلقه شؤون .

وقوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي : مع أنه خلقكم في أحسن تقويم ، إلا أن مصائركم علىٰ الأرض تعتمد علىٰ ما تقدمه أيديكم من عملٍ ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوىٰ مع من يُفسد فيها . ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب ، فالذين استجابوا لربهم الذي جعلهم خلائف الأرض سينالون جزاءهم حسنات ، والذين لم يستجيبوا لربهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) . ولذلك فالعلو في الدرجات الحسان رفعة مقام ، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرفعة الحسنة . فرفع ٱلله بعضاً من الخلائف درجات ، ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب ، أي بما تقدم الأيدي ، ولذا فأسباب تحقيق

(1) الأنعام ، 132 .

الرفعة لم تكن محجوبة عن العباد ، أو مقصورة علىٰ فئة منهم ، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحاً يرضاه ٱلله ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ و ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ . ولهٰذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحاً ، ويعمل علىٰ إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها .

الرافع : هو المُمكِّن من إحداث النقلة من مستويات دنيا إلىٰ مستويات عُليا ، والرافع : هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع ، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يَقدِمَ علىٰ رفعه . ولٰكن لأن الرافع في هٰذه الآية الكريمة هو ٱلله عز وجل ، لذا فهو الرافع بقوة علمه لعلم الغيب .

ولأن وراء فعل الرفع هدف وغاية ؛ لذا أظهر ٱلله الهدف من الرفع ، وهو : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ وهٰذه الآية تعني : ليمتحنكم فيما رزقكم به ، وما أعطاكم من نعم ، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك مِنْ مُلكٍ مِنْ مُلكه تعالىٰ في طاعته وإجلاله يتفوق فيما يُبتلىٰ به من امتحانٍ ، ويفوز بالجنة ، ومن لم يطع ٱلله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوىٰ الذي خلقه ٱلله تعالىٰ عليه ، وهو (أحسن التقويم) ويخفضه علىٰ كفة الميزان إلىٰ أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلىٰ العليين علىٰ الكفة المماثلة للميزان العدل .

ولذلك فإن ٱلله سريع العقاب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي : إنه في الوقت الذي يَحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي ، الذي لا يُمحىٰ إلا بالاستغفار والتوبة والرحمة من ٱلله تعالىٰ . ولذلك ، مع أنَّ ما يَقدِم عليه الإنسان ويراه سريعاً من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالىٰ ، إلا أن ٱلله خالق العباد والأعمال يرىٰ الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرىٰ بها المخلوق ما يرىٰ

وفقاً لقاعدة : (يعلم ما لا نعلم) مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (1) ، وقوله جل جلاله : ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (2) . ولهٰذا فالله سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر ، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، فالله القادر بكل سرعة علىٰ رفع الأعمال بالحسنات قادر بالسرعة ذاتها علىٰ إحداث المغفرة والرحمة لمن يتعظ ، ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم . ولذا فإن الرحمة فعل استجابة للطاعة ، فمن أطاع ٱلله فقد فاز بالرحمة فوزاً عظيماً ، ومن عصىٰ ٱلله فقد خسر بخسران الرحمة خسراناً كثيراً ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .

وبما أن ٱلله هو الرافع الذي قال : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (3) . بما أنه كذلك ، إذاً الخليفة هو من يستمد صفة الرفع من صفات الرافع المطلق جل جلاله ، حتىٰ يتمكن من الإسهام في إحداث النقلة لمن يستوجب رفعهم إلىٰ درجات التفضيل والتمييز الحق . فبالرفع يتحسَّن المستوىٰ النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والذوقي والثقافي للأفراد والجماعات والمجتمعات ، وبه أيضاً يتأهلون إلىٰ تأدية الوظائف والمهام المفضلة إنسانياً ، ويلعبون أدوارهم بما يفيد وينفع ويُقدَّر من قبل الآخرين في مرضاة ٱلله عز وجل ، وبالرفع أيضاً يتمُّ حمْل المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات المشتركة مع الآخرين سواءٌ كانوا أزواجاً أم آباءً أم رفاق دراسة وعملٍ ، أم مواطنين من أبناء البلد .

---

(1) الأنعام 73 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) البقرة ، 30 .

وعليـه فمـن صفـات الخليفـة التـي ينبغـي بهـا أن يُصلـح فـي الأرض هي : الرفع الذي به يتمكن من بلوغ الدرجات العلا ، أي : إنه كلما أسهم في رفع مستوىٰ الأفراد إلىٰ ما فيه خير ؛ ارتفع مستواه عند ٱلله في علّيّيْن مع الذين ورثوا الأرض ، واستخلفوا فيها ، وورثوا الجنة بما عملوا .

ولذا عليكم يا بني آدم أن ترفعوا من مستويات إخوانكم المسلمين حتىٰ يبلغوا درجات الإيمان ، ويكونوا متعاضدين معكم علىٰ الرفع بأفعال الخير ، وعلىٰ الأبناء الخلفاء أن يخفضوا لآبائهم أجنحة الذل من الرحمة ليزدادوا رفعة علىٰ المقامات العظام ، وعلىٰ أحفادهم من بعدهم أن يتعظوا بما يعمل المصلحون في الأرض ؛ ليكونوا علىٰ الطاعة والشهادة من العاملين عليها . وليتقوا ٱلله ربَّهم في ما يعملون ويؤدون من مهام وأعمال إنسانية ، وفي ما يحرثون ، ويزرعون ، ويحصدون ، وما يرعون ، ويكيلون ، ويَزِنُونَ ، وفي ما يشهدون عليه بالحق دون زيادة ولا نقصان .

الرفع علو من مستوىٰ أقل إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [1] .

القواعد ثوابت لإرساء ما هو قائم ، والرفع علوٌّ من أسفل إلىٰ أعلىٰ ، وقواعد البيت الحرام لم يعرف بالتحديد مَنْ وضعها ، ولـٰكن الذي يُعرف هو رافعها (إبراهيم ، وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام) اللذين عَمِلا علىٰ رفعها من الأرض إلىٰ ما هو قائم عليه ، مما يجعل القواعد الثابتة في الأرض مؤسسة علىٰ حمْل ما يُرفع عليها .

والروايات تتحدث عن توقعات لواضعي القواعد ، فهناك من يرىٰ : أن الملائكة هي الواضعة لها ، وهناك من يرىٰ : أن آدم هو الذي هبط بها من

---

(1) البقرة ، 127 .

الجنة ، وهناك من يقول بأن القواعد مؤسسة يوم أن خلقت الأرض ، وهناك من يقول بأن علاقة قوية بين المكان الذي هبط عليه آدم ، وقواعد البيت الحرام . إلا أنَّ هـٰذه الروايات والأقوال وإن وجدت في الكتب أمهات وفروع ، فهي في حقيقة الأمر لم تمتلك الدليل القاطع ، والحُجَّة اليقينية فيما كُتب فيها ، ولـٰكن الشيء الوحيد المتفق عليه هو أنَّ أسراراً كثيرة لا يعلمها إلا هو جل جلاله خلف هـٰذه القواعد التي تم رفعها من قِبل إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام [1] .

ومن وجهة نظرنا وفقاً للقاعدة التي تقول : (وراء كل مخلوق خالق) فإن الأرض وما فيها ومن عليها من ورائها خالق واحد أحد لا شريك له في المُلك ، بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير . وبما أن البيت هو بيت ٱلله الحرام ؛ إذاً هو المكان الذي لا يأتيه طائف ، ولا راكع ، ولا ساجد ، ولا عاكف إلا مؤمناً بالله جل جلاله . ولذا فهو المكان المقدس للمسلمين من آدم ، وإبراهيم إلىٰ محمد ومن تبع رسالة محمد بالهداية والإيمان .

ومع أنَّ إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ هما اللذان رفعا القواعد بناءً ماديا ، إلا أن الغاية من رفع القواعد هي إظهار الإيمان برب واحد لا شريك له . وفي ذلك الإظهار ارتفاع عن الكفر والشرك بعبادة ٱلله الواحد القهار . وبالطواف والركوع والسجود والاعتكاف في البيت الحرام يُكفِّر الإنسان عن ذنوبه ، ويمحو سيئاته ، وفي هـٰذه نقلة من مستويات الدنوِّ إلىٰ مستويات العلو ، والارتفاع .

ولذا يُعد البيت الحرام آيةً من الآيات الكرام ، فكما يطوف الملائكة حول العرش يطوف الخليفة حول بيت ٱلله الحرام إيماناً وتوحيداً واعترافاً وتقرباً وتضرعاً لله جل جلاله ؛ وفي كلا الطوافين تماثل ، ففي العالم غير المنظور

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 2 ، ص 120 ـ 124 .

لبني الإنسان تطوف الملائكة ، وفي العالم المنظور الذي اختير فيه الإنسان خليفة في الأرض يكون هو الطائف المشاهد حول البيت المُحَرَّم . ولذا فالطَّواف المشاهد هو المقصور علىٰ الخليفة ، والطواف غير المشاهد لله تعالىٰ فيه من المسلمين والمؤمنين الموحدين الذين هم لله طائعين ، ولا يشركون بالله شيئاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (1) .

إذاً الرفعة هي الغاية التي تكمن وراء الإيمان والطاعة التامة لله جل جلاله ، ولذا فمن رغب عن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لن يبلغ عند ٱلله رفعةً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (2) .

ولأن إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ غايتهما بلوغ الرفعة ؛ قالا : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : بعد أن أتما عملية رفع القواعد من المستوىٰ الأرضي إلىٰ المستوىٰ الارتفاعي ؛ كان لهما الأمل في بلوغ الغاية وهي أن يتقبل ٱلله عملهما ؛ حتىٰ ينالا الثواب الذي به تتحقق الرفعة لهما في الحياة الخالدة .

قال تعالىٰ : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ (3) . المقصود بالبيوت هي بيوت ٱلله (المساجد) التي يُراد لها أن تُرفع ، وتعلو ما حولها من العمران ، ليرتفع في مآذنها الآذان نداء المصلين للصلاة ؛ ليعلم المسلمون بأن الوقت قد حان للصلاة ، فيأتون مقبلين علىٰ ذكر اسم ٱلله جل جلاله ، وإقامة الصلاة والتسبيح باسمه في المساجد التي فيها يُذكر ، ويُسبح باسمه تعالىٰ دون خوض في حديث آخر لا علاقة له بعبادة ٱلله

(1) الذاريات ، 56 .
(2) النساء ، 125 .
(3) النور ، 36 .

عز وجل ، ولذلك فالمساجد للصلاة ، والتعبد ، ولذكر اسم ٱلله تعالىٰ ، فهي لم تكن آماكن للترف ، وقول الزور ، ولا أماكن لِلَّهْوِ ، واللعب فهـٰذه الأفعال وما يماثلها تُبعد ، وتلهي عن ذكر اسمه جل جلاله ، فلا تُذكر في المساجد التي فيها يُرفع اسم ٱلله فوق كل مسمىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (1) . بطبيعة الحال بما أنَّ هناك درجات بين العباد ، هناك تفاوت بينهم في كلِّ ما من شأنه أن يجعل بعضهم مرتفعاً ، أو علىٰ حالة من الرفعة والارتفاع ، وبين من هم في أسفل ، ومن هم في أسفل السافلين . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ تعود علىٰ ذات الرافع جل جلاله ، الذي رفع البعض درجات عن البعض الآخر من حيث المقدرة والنبوة والمُلك ، فهناك المؤمن ، وهناك الكافر ، وهناك الموحِّد ، وهناك المُشرك ، وهناك الرئيس والمرؤوس ، والحر والعبد ، والغني والفقير ، والعالم والجاهل ، والقوي والضعيف ، والفطن والغبي ، والبائع والمشتري ، والحاكم والمحكوم ، والجميل والقبيح ، والحكيم ومن لا حكمة له ، والماهر ومن لا مهارة له ، وهناك الخليفة ، وهناك من لم يتمكن من الاستخلاف فيها ؛ وبين هـٰذه ، وتلك ينتشر العباد علىٰ درجات السلم القيمي بين عليين ، وأسفل السافلين .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) هـٰذه الآية الكريمة تبين الضعف الإيماني الذي يَلمُّ بالإنسان حتىٰ يسخر البعض من البعض الآخر من بني جنسه ، وذلك حيث يسخر الغني من الفقير ، دون أن يمد له يد العون التي تُحفِّزه علىٰ الخروج من أزمات فقره

---

(1) الزخرف ، 32 .
(2) التوبة 79 .

وما يلمُّ به من حاجة ، ويسخر الحاكم من المحكوم فيزجَّ بالبعض في السجون دون رحمة ولا شفقة ، وكأنهم ليسو من طينته ، ويقلل المالك من شأن المملوك دون أن يسعىٰ لفك قيده ، أو كسره حتىٰ تعم الحرية من يريد لهم ٱلله أن يكونوا خلائف في الأرض ، ويسخر القوي من الضعيف دون أن يمدَّ له يد العون التي تخرجه من وهنه . وفي مقابل ذلك يجد المسخور منه نفسه تسخر هي الأخرىٰ من الساخر الذي لم يذكر فضل ٱلله عليه ، ويتوب إليه وينتهي عن كل سخرية واستهزاء ببني جنسه الذين فضلهم ٱلله علىٰ ما خلق ، ويطيع ٱلله تعالىٰ استجابة لما نهي ٱلله عنه بقوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [1] . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ، أي : إن رحمة ٱلله عز وجل هي خير مما يجمعونه في الحياة الدنيا التي هم فيها يسخرون من بعضهم بعضاً ، ولذا لو يتذكرون هـٰذه الرحمة الواسعة ؛ ما سخر أحد من أحدٍ ، ولا ظن أحد منهم ظن السوء الذي يجعل صاحبه يسخر من الآخرين ، ويعتقد في نفسه : أنه بما يملك هو خير منهم ، وهو في حقيقة أمره قد لا يكون كذلك .

وعليه فالخليفة هو من يُسهم بلسانه وأفعاله وأعماله إلىٰ ما يؤدي إلىٰ تغيير أحواله وأحوال بني جنسه من الدرجات السفلية إلىٰ الدرجات الرفيعة العلية التي تجعل النفس بالاتعاظ تقتدي وتسلك سبل الحق . ولذا عندما يكون الخليفة رافعاً للظلم عن المظلومين ، والكيد عن المكيدين ، والحقد ، والحسد عن المحقودين ، والمحسودين ، والاستغلال عن المستغَلين ، والعبودية عن المستعبدين ، عندما يكون الخليفة كذلك ؛ يكون بطبيعة الحال من المصلحين

---

(1) الحجرات ، 11 .

الذين يرثون الأرض ، ويستخلفون فيها ، ولا يفسدون ، ولا يسفكون الدماء بغير حق ، وهم الذين إذا ما أخطؤوا يستغفرون من كل خطيئة ، ولذا فهم الذين لا يقترفون ذنباً ، ولا إثماً وهم الذين يخافون ٱلله ، ويتقونه فيما يقولون ، وما يفعلون ، ويعملون ، ويسلكون .

فالإنسان بطبيعته خيِّرٌ ، ولـٰكن بأساليب التربية المتباينة تتباين حياته ، وتختلف مما يجعل البعض في حاجة لمن يُسهم في رفعهم من المستويات الدنيا إلىٰ المستويات العليا ، فالكافر علىٰ سبيل المثال هو في حاجة لمن يرتفع به من مستويات الكفر إلىٰ مستويات الإيمان ، وهـٰذه رسالة علىٰ المؤمنين المستخلفين في الأرض ، وليست رسالة علىٰ المفسدين فيها ، والمشرك دائماً هو في حاجة لمن يرتفع به من الشرك إلىٰ الوحدانية الإلـٰهية ، والجاهل في حاجة لمن يرفعه من جهله إلىٰ النور ، ويظهره عليه ، والمريض في حاجة لمن يرفعه من مرضه ، وعلَّته إلىٰ الصحة والشفاء ، والمظلوم في حاجة لمن يرتفع به إلىٰ العدل حتىٰ يتمكن من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة وحرية ، وهـٰكذا كل إنسان في حاجة لبلوغ درجات الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة ؛ التي ببلوغها تتحقق الرفعة بالأبناء ؛ حتىٰ يرثوا الأرض ، ويعملوا علىٰ إصلاحها ، ولا يُفسدوا فيها ، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعملون صالحاً يرضاه ٱلله تعالىٰ . ولذا فإن عمليات الإصلاح تكون أول ما تكون للأسرة وبها من أجل مستقبل يُرسِّخ القيم والفضائل الإنسانية الخيرة ، ومن يرد أن يكون خليفة ٱلله في الأرض ؛ فعليه أن يعمل كلَّ ما من شأنه أن يحقق الرفعة والارتفاع بالمستوىٰ القيمي الأخلاقي لبني الإنسان ذكوراً ، وإناثاً .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [1] . بدأت سورة

---

(1) الشرح 1 ـ 6 .

الانشراح بالاستفهام المتضمن للإجابة المتيقنة ، ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ أي : إنَّ شرح صدر الرسول ﷺ يقيناً لا شك فيه ، وذلك بالدليل القاطع وهو وضع الوزر عنه ، والوزر : العبء . وهو الذنب الذي كان فيه ، ويقصد بذلك (الجاهلية) أي : لقد حدثت الرفعة للرسول ﷺ من الجاهلية إلىٰ النور (الإيمان) ، وهـٰذه نقلة سريعة لم تتم بالتعليم المدرسي ، والمنهجي المقولب بل تمت النقلة بالإعجاز ، الكامن في الأمر (كن) .

وشرح الصدر ليس الشرح المادي ، بل هو الشرح المعرفي الذي به انتقل الرسول ﷺ إلىٰ العلم بالأمر الذي كان يجهله مما جعل ٱلله عز وجل يصف الرسول بالنبي الأمي ، وذلك تبرئة له من أي قول وظن بأن الرسالة من بنات أفكاره قال تعالىٰ : ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ (1) .

وعليه لا يتحقق شرحُ الصدر إلا بما يحقق الرفعة القولية والعملية ، وهـٰذه لا تتحقق إلا بالآتي :

ـ **أولاً : الإيمان** : قال تعالىٰ : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (2) . إنَّ إيمان الرسول ﷺ بما أُنزل إليه من ربِّه مبنيٌّ علىٰ إيمان الرسول بربه أولاً . ثم ثانياً : الإيمان بما أنزل إليه . أي : إنه لو لم يؤمن بالله ربه ما آمن بما أنزل إليه منه جل جلاله . وبذلك لا يمكن أن يتم الإيمان بالله وبما أنزل علىٰ الرسول إلا بعد

(1) الإسراء 105 ـ 108 .
(2) البقرة ، 285 .

شرحٍ للصدر ؛ ليستوعب النور الذي يمتلئ به بعد غفلة ، وجهالة عنه .

ـ **ثانياً** : **العلم** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] . القراءة نور يدخل الصدر ، وينير العقل بالعلم والمعرفة الواسعة التي تهدي للحقيقة ، وتنقل القراء من ميادين الجهل التي تضيق بالصدور إلىٰ ميادين العلم الواسعة التي ترشد ، وتهدي للتي هي أحسن .

ـ **ثالثاً** : **حُب الآخرين أقارب وأباعد** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [5] .

بناء علىٰ هـٰذه المتغيرات الثلاثة سابقة الذكر شرح ٱلله تعالىٰ صدر نبي الكافة بالإسلام ، وبها نَقلهُ من الأمية التي لا تعرف الحقيقة يقيناً إلىٰ النور الذي يهدي للتي هي أحسن وأقوم . ولذلك لم يَعُدْ رسول الله ﷺ أمياً بعد أن مكَّنهُ ٱلله تعالىٰ من القراءة بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [6] . إنها أول

---

(1) العلق ، 1ـ 5 .
(2) الحجرات ، 10 .
(3) الإنسان ، 8 ، 9 .
(4) آل عمران ، 103 .
(5) الفرقان 56 .
(6) العلق ، 1ـ 5 .

سورة نزلت علىٰ رسول الله ﷺ وفقاً لما روته عائشة ، رضي ٱلله تعالىٰ عنها [1] . ومعنىٰ (اقرأ باسم ربك) : أن تذكر اسم ربِّك افتتاحاً لما تقرأه من القرآن الكريم وذلك بقولك : (بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم) إنها المفتاح لدخول آيات ٱلله الكريمة باسمه الكريم .

ولأن محمداً رسول ٱلله ﷺ لم يَعد أميّاً ، جاءه أمر القراءة لازماً مع الضرورة ، وذلك بتكرار أمر القراءة لمحمد ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ وفي هـٰذه الآية تأكيد ودليل لعدم القنوط مما جعل القراءة بعد ذلك التأكيد متيسرة ، وممكنة ، فقرأ عليه الصلاة والسلام ما أمره ٱلله بقراءته ومكرمته حتىٰ أصبح قادراً علىٰ قراءة القرآن بكامله وفقاً لنزوله وحياً يوحىٰ ، ولهـٰذا فالوحي الذي يوحىٰ أصبح مُعلَناً ، ومعروفاً بقبوله للامتداد العلمي ، والمعرفي في العقول والقلوب التي لا تطمئن إلا به ، فآمن من آمن حتىٰ وُصِفَ المُسَلِّمَون بأمره بالمؤمنين .

والأكرم : هو صاحب الفضل في جعل محمد الأمي الذي لم يسبق له أن عرف القراءة والكتابة أصبح قادراً علىٰ القراءة لِما يُقرأ عليه من وحي موحىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [2] . في هـٰذه الآية الكريمة قال تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهـٰذا يعني : أن محمداً صلوات ٱلله وسلامه عليه أصبح متعلماً بالعلم الذي علمه له ٱلله جل جلاله ، ولم يعد أميا كما سبق وإن كان قبل الرسالة التي أوحىٰ بها ٱلله تعالىٰ لرسوله الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلوات ٱلله ، وسلامه عليهم جميعاً .

وعلَّم بالقلم : تدل علىٰ أن التعلم الذي تلقاه محمد ﷺ لم يكن شفاهةً فقط ، بل هو المحفوظ في اللوح المحفوظ قراءة وكتابة ، وبهـٰذا الدليل أصبح

---

(1) تفسير القرطبي ، ج 20 ، ص 118 .
(2) النجم ، 4 ، 5 .

القرآن يُعلَّم قراءة وكتابة وهو بين أيدي العباد الذين يُراد لهم أن يكونوا المستخلفين في الأرض بإعمارها وإصلاحها وعدم سفك الدماء فيها بغير حق مع عدم الإفساد الذي لا يرتضيه ٱلله .

والذي علَّمه ٱلله لرسوله الكريم ، وتعلَّمه العباد من بعده ، هو العلم الذي لم يسبق له ، ولا لهم ، بأن عرفوه ، مما جعل ٱلله يصفه ، ويصفهم بالأميين ، ولذا كان الرسول وقومه أميين لا يعلمون شيئاً منه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [1] . ولذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . الإنسان : جاءت مطلقة ، ويقول البعض من المفسرين : إنَّ الأمر يتعلق بآدم الإنسان الذي علمه ٱلله تعالىٰ كل الأسرار التي لم يَعلَمْها الملائكة ولا الجن حتىٰ أنبأهم آدم بها ، ويقول البعض : الأمر يتعلق بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي علمه ٱلله ما لم يكن يعلم من قبل [2] . ولهـٰذا فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل الرسالة كان أمِّيّاً ومن بعدها أصبح قارئاً حيث علمه شديد القوىٰ ما لم يعلم . وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [3] . ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ ﴾ ، تعني : قرآنا مفصلاً يبين الحق من الباطل ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وبيَّنها وفصَّلها تفصيلاً ، وهـٰذا التفصيل والتبيان يتطلب منك يا محمد أن تقرأه بروية ومهل وتؤدة ، حتىٰ يتمكن العباد من معرفته ومعرفة الحق من الباطل ليتمكنوا من بعده من التمسك بالحق والثبات عليه ، والابتعاد عن الباطل والنهي عنه .

وجاء في الآية قوله : ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ تأكيداً علىٰ أن محمداً رسول الله ﷺ بعد الوحي أصبح قادراً علىٰ القراءة ، ولهـٰذا أمره ٱلله أن يقرأه

---

(1) الجمعة ، 2 .
(2) تفسير القرطبي ، ج 20 ، ص 118 ـ 119 .
(3) الإسراء ، 106 .

علىٰ الناس بروية دون استعجال ، وذلك ليتمكن المسلمين من الفهم ، والإدراك ، والتدبر فيما يُقرأ عليهم من آيات الذكر الحكيم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (1) . تؤكد هـٰذه الآية الكريمة علىٰ أن محمد كان أمياً قبل نزول القرآن عليه وحياً موحىٰ ، ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ وهـٰذه دليل إثبات علىٰ أن محمداً رسول الله ﷺ أصبح يتلو القرآن بعد نزوله عليه وحياً موحىٰ ، أمَّا مِنْ قبله فلم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولو كان كذلك ؛ لارتاب المبطلون . ومع أن رسول ٱلله محمداً ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً إلا أنه بنزول الوحي عليه أصبح عالماً بأمور الأنبياء ، والرسل الذين سبقوه من آدم إلىٰ عيسىٰ ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، وأصبح أيضاً عالماً بقصصهم ، وأممهم ، وشعوبهم ، ومعجزاتهم ، ولذا فمن يؤمن بمحمد لا يفرق بين أحدٍ من رسله ؛ الذين قالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، وذلك لأن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو خاتم الأنبياء والرسل ، وهو للإنس ، والجن كافة .

وعليه فبعد الرسالة لم يعد محمد عليه الصلاة والسلام أميَّاً ، وإلا هل يَقبل العَقل بأن يكون محمد أميَّاً ، ويوصف بها ، والذين تعلموا منه الوحي ومن بعده يوصفون بالعلماء ، والفقهاء ، والمشايخ ، والمتبحرين في علوم الدين ؟ ! ولذا لم يكن ولن يكون أحد من بعده عالماً بأمور الدين أكثر منه بالمطلق ، وعليه أتساءل : هل الذي يُعلِّمَهُ ٱلله الكتاب والحكمة أيها المسلمون هو الأعلم بأمور الدين ، أم من يُعلِّمه البشر هو الأعلم ؟ !

بالتأكيد لا مجال للمقارنة ، والحق دامغ للباطل ، وله زاهق . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ

(1) العنكبوت ، 48 .

تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا ﴾ (1) . ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴾ ، هٰذه آية تُثبت أنَّ محمداً قد علمه ٱلله ما لم يكن يعلم ، أي : لقد كان عليه الصلاة والسلام أميَّاً ، ثم أصبح بعلم ٱلله له عالماً بما علمه به تعالىٰ .

وبما أنَّ الأمي هو من يجهل الحقيقة ، ولا يعلم بأمرها ، إذاً فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس بأمِّي ، وذلك لعلمه بالحقيقة وأمرها . والحقيقة هي : أن ٱلله واحد أحد ، لا شريك له في الأمر ، ولا في الملك ، وهو القادر علىٰ قول الأمر وتحقيقه ، وهو الرحمٰن الرحيم الذي له الأسماء الحسنىٰ ، وهو الذي يحيي ويميت ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، سبحانه لا إلٰه إلا هو الملك المتعالي !

وقد يتساءل البعض : عن العلاقة بين الأمية والهداية علىٰ درجات السُلَّم القيمي للفضيلة والأخلاق . فتكون الإجابة : هي علاقة تنافر لا تجاذب ، كالعلاقة بين العليين ، وأسفل السافلين . ولهٰذا لقد تحققت الرفعة لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما علمه ٱلله به من وحي (بما أنزله عليه من رسالة) ، ولهٰذا لقد رفع ٱلله تعالىٰ لمحمد ذكره برفعه من الجاهلية إلىٰ الهداية والنور الذي شرح صدره بالإيمان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ . والذي قال فيه حسَّان بن ثابت :

أغرُّ عليه للنبوَّة خاتَمٌ مِن ٱلله مشهودٌ يلوحُ ويُشهَدُ
وضمَّ الإلٰهُ اسمُ النبيِّ إلىٰ اسمِه إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشهَدُ (2)

فـ ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ ، جاءت مطلقة ، وذلك برفع ذكر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قول ٱلله في اللوح المحفوظ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولقد ارتبط ذكر محمد مع اسم ٱلله في الشهادة

(1) النساء ، 113 .
(2) تفسير القرطبي ، ج 20 ، ص 106 .

والآذان ، وفي التشهد أثناء الصلاة ، وكذلك ارتبط ذكره المحقق للرفعة بارتباط طاعته بطاعة ٱلله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (1) . وقد ارتبط ذكره بالرحمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (2) . وقد ارتبط اسمه بالحق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (3) . ولأن ٱلله قد رفع له ذكره فقد صلىٰ هو عليه والملائكة وسلموا تسليماً ، وأمر ٱلله الذين آمنوا أن يصلوا عليه ويسلموا تسليماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (4) . وهـٰكذا أصبح اسمه مرتبطاً باسمه تعالىٰ بدخول الإسلام في الدار الدنيا ، ومرتبطاً اسمه مع كل من يدخل الجنة ، وسيحاسب ويعاقب من أمته كلَّ عنيد أشرك بالله ، أو كفر به ولم يشهد لمحمد صلوات ٱلله وسلامه عليه بأنه رسول ٱلله ، وخاتم النبيين .

ومن يرد أن يكون خليفة لله تعالىٰ في الأرض فعليه بالإيمان بالله جل جلاله واحداً أحداً لا شريك له ، له الملك وله الحمد سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصفون ، وأن يؤمن بمحمد رسول ٱلله ، ويصلي عليه ، ويسلم تسليماً ، ولا يفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وأن يعلم الحق ويتبعه ، ويعلم الباطل ويجتنبه ، ويحرِّض الآخرين علىٰ اتباع الحق وإحقاقه ، والابتعاد عن الباطل وإزهاقه .

---

(1) النساء ، 80 .
(2) الأنبياء ، 107 .
(3) فاطر ، 24 .
(4) الأحزاب ، 56 .

وأن يُحب الخليفة لأخيه ما يحب لنفسه حتىٰ تسود المحبة بين الناس علىٰ قول الحق وإحقاقه ، وحتىٰ يتم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ ، ولا يتم التعاون علىٰ الإثم والعدوان .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (1) . تتضمّن هـٰذه الآية الكريمة : أن ٱلله تعالىٰ قد فضَّل الرُسُلَ جميعاً ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، أي : إنهم جميعاً مرتفعون علىٰ درجات التفضيل ، ولم يستثن ٱلله منهم أحداً من بلوغ درجات التفضيل . ولذا فكل الرُسُل هم مفضلون ، ومن بين المفضلين عند ٱلله مفضلون . هـٰذه علاقة واضحة بين ٱلله تعالىٰ ومن اصطفىٰ من الأنبياء والرُسُل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (2) .

المفسرون اجتهدوا في ذلك كثيراً ، ونحن نعتقد : أننا لم نبلغ ما بلغه الرسل والأنبياء من مقامات عظام ، وما أظهرهم ٱلله عليه من أسرار ، ولذا فنحن سنكون ملتزمين بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) . اليهود والنصارىٰ لا يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل ، ولذا فهم يُفرِّقون بينهم ، وهـٰذا التفريق نهت عنه الآية السابقة بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ . ولهـٰذا جاءت رسالة ٱلله كافة علىٰ يد الرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتنهىٰ عن بث روح التفرقة بين الرسل ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم ـ وبين اتباع الرسالات السماوية ، فمنهم من آمن واهتدىٰ ، ومنهم من لم يهتدِ بعد .

---

(1) البقرة ، 253 .
(2) الإسراء ، 55 .
(3) البقرة ، 285 .

وما ينبغي قوله هنا : أن ٱلله قد بعث بعض الرُسُل والأنبياء إلىٰ أقوامهم أو شعوبهم أو سكان قراهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ (3) . وهناك من بعثه ٱلله عز وجل إلىٰ الكافة (أنساً ، وجناً) مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ (4) . وهناك مَنْ كلَّمه مباشرةً ، وهناك من لم يكلمه مباشرة ، وهناك من رفعه ٱلله إليه ، وجميع هٰذه المعطيات أسرارٌ لا يعلمها إلا من فضَّل بعض الرُسُل علىٰ بعض ، جل جلاله !

قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ (5) . الحُجَّة التي أُتيت لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي الكلام الإعجازي الذي جعل المشركين غير قادرين علىٰ محاجَّته ، فقد سألوه : من الذي كسَّر آلهتنا ؟ . قال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن

---

(1) إبراهيم ، 4 .
(2) هود ، 84 .
(3) الأعراف ، 94 .
(4) سبأ ، 28 .
(5) الأنعام ، 83 .

كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [1] .

بهـٰذه المعجـزات الحُجَّـة سلَّـم ٱلله تعـالـىٰ إبـراهيـم ـ عليـه الصـلاة والسلام ـ من كيد وأفعال المشركين ونصره عليهم جميعاً نصراً عزيزاً ، وبذلك رفعه ٱلله تعالىٰ درجات العلاء بما بث فيه من إيمان راسخ به جل جلاله ، ولذا فمن تُرفع درجاته يُرفع ، ومن تخفض درجاته يُخفض . وعليه فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض الذي رُفِعَ بِرفعِ درجاته .

قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [2] . ٱلله عز وجل هو الذي جعل العباد خلائف يتوارثون الأرض جيلاً بعد جيل ، وفي كل جيل أناس يتميزون عن غيرهم من بني جيلهم بقدراتهم واستعداداتهم ومواهبهم ومهاراتهم وفطنتهم وإيمانهم وأقوالهم وأعمالهم وأفعالهم ، وبرسالاتهم وأنبائهم ، ولهـٰذا فقد رفع ٱلله بعض العباد فوق البعض درجات ، فمنهم من مكَّنهم في الأرض برسالاتهم وأنبائهم ، ومنهم من مكَّنهم فيها بِمُلكهم وبعلمهم وبمالهم وبإحسانهم وما يقومون به من فضائل . وفي مقابل ذلك خفض آخرين بسوء أعمالهم ، وبكفرهم وشركهم به جل جلاله ، وبسفكهم الدماء في الأرض بغير حق ، وبإفسادهم فيها بقول الزور والبهتان ، وبما تقترف أيديهم من أعمال السوء ، وأكل أموال الناس بينهم بالباطل ، وبما يقدمون عليه من تزوير للحقائق ، وظلم للعباد ، وإفساد ذممهم ، وأخلاقياتهم ، وهتك أعراضهم .

وفي مقابل كل فعل ردُّ فعل بالسلب أو بالإيجاب ، بالثواب أو بالعقاب ،

---

(1) الأنبياء ، 59ـ70 .

(2) الأنعام ، 165 .

وبين هـٰذا وذاك تظل الفرصة متاحة لمن استغفر وتاب ، وآمن بالله ربِّ العالمين ؛ ولذا فإن ٱلله تعالىٰ سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم لمن آمن وتاب واستغفره بقلب سليم . وعليه لا تستوي السيئة والحسنة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [1] . فالله عز وجل لا يظلم أحداً وإن تَكُ حسنة يضاعفها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [3] . التوفية : إتمام ، ورفعة تحققت لعيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حياته قبل مماته ، وذلك برفع ٱلله له إليه ليكون آية من آياته العظام التي تَشُدُّ العباد إليها إيماناً بٱلله الذي قال في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [4] .

وفي اللغة (متوفيك) تعني : قابضك . وما تدل عليه هو : إنَّ ٱلله قد رفع عيسىٰ إليه من الأرض إلىٰ السماء من غير موت . ولهـٰذا فإن عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما قتلوه يقيناً ولـٰكن شُبِّه لهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ

---

(1) النساء ، 79 .
(2) النساء 40 .
(3) آل عمران ، 55 .
(4) يس ، 82 ، 83 .

مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ تؤكد هـٰذه الآية بأن المسيح عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يمت بعد ، وأن ٱلله تعالىٰ قد رفعه إليه (إلىٰ السماء) المكان اللائق بالأرواح الطاهرة ، خاصة وأن ٱلله عز وجل قال : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . وفي هـٰذا القول الكريم حُجَّتان للرفعة :

ـ **الحُجَّة الأولىٰ** : اصطفاء ٱلله إليه : إن ٱلله جعل المسيح عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الرسل الذين اصطفاهم ، ورفعهم علىٰ درجات التفضيل القيمي .

ـ **الحُجَّة الثانية** : رَفْعُ ٱلله له إليه : إنَّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام قد رفعه ٱلله إليه هو كما هو ، وفي هـٰذه الرفعة طهارة له من مجاورة المشركين والذين كفروا في الدار الدنيا ، وأصبح عيسىٰ في السماء مع العليين .

وعليه فإن ٱلله تعالىٰ قد رفع عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بثلاثة أمور استناداً علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ والأمور الثلاثة هي :

ـ **الأمر الأول توفيته** : والتوفية تعني الإتمام ؛ أي : إن عيسىٰ قد أتم رسالته التي يُراد لها أن تتم هِي كما هِي ، فقد آمن من آمن وكفر من كفر ، ولا إكراه في الدين . ولهـٰذا فمتوفيك : تعني فيما تعني : أن ٱلله قد خلق عيسىٰ ، واصطفاه وهو معصومٌ ولم يكن منقوصاً ، فقد اصطفاه رسولاً ، وهو أعلم به وبأمره ، فلو لم يكن عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قادراً علىٰ حمل الرسالة ؛ ما اختاره ٱلله رسولاً لها . ولقد قام بتبليغ الرسالة التي يُراد لها أن تُبلَّغ ، وبهـٰذا أوفىٰ عيسىٰ المهمة التي من بعدها جاء السرُّ الذي به رفعه ٱلله إليه .

(1) النساء 157ـ 159 .

ـ **الأمر الثاني الرفع إلىٰ ٱلله** : وهـٰذا الرفع سرٌّ لا يعلمه إلا هو جل جلاله ، ولأنه سرٌّ ، إذاً لابد وأن يأتي اليوم الذي سينكشف فيه ، وهـٰذا يعني : أن عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لن يموت قبل أن ينكشف السر الذي به ومن أجله رُفع إلىٰ السماء ، مما يجعل الرفع إلىٰ السماء مؤقتاً والعودة به إلىٰ الأرض أمراً ضرورياً .

ـ **الأمر الثالث التطهير** : بقاء عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الأرض بين أوساط الكافرين لا يتساوىٰ بطبيعة الحال مع وجوده مع الملائكة في العليين ، وفي هـٰذا الأمر رِفعة به وبدرجاته العلا . فالذين كفروا هم علىٰ دنس ، فطهَّر ٱلله تعالىٰ عيسىٰ من هـٰذا الدنس برفعه إليه ، ولذا في تطهير عيسىٰ تزكيةٌ وإشادة وثناء ورفعة له .

وعليه فمن يُريد أن يكون خليفة لله في الأرض فعليه بالآتي :

ـ **أولاً** : أن يُطهر نفسه بالإيمان التام بالله تعالىٰ ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن يؤمن بكل ما أمر ٱلله أن يُؤمن به ، وأن ينتهي عن كل ما نهىٰ عنه ، ويُصلي ويُسلّم علىٰ جميع الأنبياء والرسل ، ولا يفرق بين أحدٍ منهم . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (1) .

ـ **ثانياً** : أن يستمد صفاته من صفات ٱلله الذي يُريده خليفة له في الأرض ، وإلا هل يُعقل أن يكون الإنسان خليفة لله وهو لم يستمد صفاته منه ؟

(1) آل عمران 83 ـ 85 .

وكما أن الصفة تتبع الموصوف فكذلك يتبع الخليفة مستخلفه . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) .

ـ **ثالثاً** : أن يرتفع عن مواقع الفساد ، فلا يشرب مسكراً ، ولا يسرق ، ولا يزني ، ولا يعمل حراماً ، ولا يأكل أموال اليتامىٰ والمساكين بالباطل ، ويقول الحق ، ولا يشهد شهادة زورٍ . قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (2) .

ـ **رابعاً** : أن يؤدي رسالته في الأرض التي يُراد له أن يكون خليفة فيها بالعمل الصالح ، وأن لا يسفك الدماء فيها بغير حق ، وأن يكون صادقاً مع نفسه وربه الذي خلقه في أحسن تقويم . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (3) .

ـ **خامساً** : أن يعمل كل ما من شأنه أن يرفعه إلىٰ مرضاة ٱلله تعالىٰ . قال

---

(1) البقرة ، 30ـ33 .
(2) البقرة ، 204ـ206 .
(3) البقرة ، 27 .

تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [(1)] .

قال تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [(2)] . لو عدنا إلىٰ ما سبق تبيانه بشأن عيسىٰ ﷺ لعرفنا الفرق بين قوله تعالىٰ : ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ، وبين قوله في إدريس عليه الصلاة والسلام ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ . ففي الأولىٰ رفع ٱلله عيسىٰ إليه ، وفي الثانية رفع إدريس إلىٰ مكان عليٍّ . ومن هاتين الآيتين نتبيّن حقيقة بقاء عيسىٰ حياً وحقيقة بقاء إدريس ميتاً ، وكلاهما علىٰ حالة من الرفعة والارتفاع إلىٰ السماء . قال تعالىٰ : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [(3)] .

بناء علىٰ ما تقدم فالرفع أنواع : هناك رفع الأعمال الخيرة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [(4)] . ورفع الدرجات حتىٰ بلوغ مستوىٰ العليين ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [(5)] . وهناك رفع عيسىٰ حياً إلىٰ ٱلله تعالىٰ في السمـٰوات العلىٰ ، وهناك رفع إدريس إلىٰ الموت في مكانٍ في السماء ، ولذا فالرفع أنواع كثيرة ، ومتنوعة ، ومتعددةٌ ، فمنه رفع القامة ، ومنه رفع المكانة والشأن وزيادة الهيبة والتقوىٰ ، ورفع الطائر بجناحيه من الأرض إلىٰ ما هو فوقها . وهناك رفع السمـٰوات بغير عمدٍ مصداقاً

---

(1) البقرة ، 207 .

(2) مريم ، 56 ، 57 .

(3) مريم ، 58 .

(4) فاطر ، 10 .

(5) المجادلة ، 11 .

لقوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [1] . وكذلك هناك رفع سمك السماء واستوائها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [2] . وهناك رفع الحُجَّة الرافعة للدرجات العلا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [3] . وهناك رفع الذكرِ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [4] . وهناك الرفع بالعلم حتىٰ النهاية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [5] .

وفي أهل العلم يقول الشاعر :

النـــاس مِـــنْ جهـــة التمثيـــل أكفـــاءُ أبـــــوهـــــمُ آدم والأمُّ حــــوَّاءُ
فـــإن يكـــن لهـــم فـــي أصلهـــم شـــرفٌ يتفـــاخـــرون بـــه فـــالطِّيـــن والمـــاءُ
مـــا الفخـــر إلا لأهـــل العلـــم إنَّهـــمُ علـــىٰ الهـــدىٰ لِمَـــنِ استهـــدىٰ أدلاَّءُ
وَقَـــدْرُ كـــلِّ امـــرىءٍ مـــا كـــان يحسنـــه والجـــاهلـــون لأهـــل العلـــم أعـــداءُ
فَفُـــزْ بعلـــمٍ تعـــشْ حيَّـــاً بـــه أبـــداً فالناس موتىٰ وأهل العلم أحياء [6]

وعليه : كلُّ الرفع الذي توقفنا عنده أو هو استوقفنا إنما هو رفع خير ، ولذا علىٰ الخليفة أن يسعىٰ إلىٰ كل ما من شأنه أن يبلغه أو يبلغ به خيراً يرضاه ٱلله تعالىٰ . وبما أن بلوغ السماء خير ، فلماذا لا يكون ذلك نصب أعيننا حتىٰ نلتقي بالرافع الأعظم جل جلاله .

---

(1) الرعد ، 2 .
(2) النازعات ، 27 ، 28 .
(3) الأنعام ، 83 .
(4) الانشراح ، 4 .
(5) يوسف ، 76 .
(6) محمد بكر إسماعيل ، أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . مرجع سابق ، ص 97 .

ولهٰذا فالعلاقة قوية وموجبة بين الرفعة والارتفاع ، وبين الطموح والأمل ، ولذلك لا يوجد في قاموس الخليفة اليأس ، بل الأمل كلَّ الأمل هو الذي يملؤه بعباراته وجمله وقوانينه وإيمانه . ولذا فالخليفة هو متقدم لغزو الفضاء حتىٰ بلوغ الجنة التي يجد فيها نفسه بجانب من بثَّ فيه روح الرفعة والارتفاع حتىٰ يصبح بجانبه مع العليين .

وعلىٰ الخليفة أن يُميِّزَ بين الرفعة والارتفاع وبين الترفُّع علىٰ العباد ، فالرفعة والارتفاع لا يتحققان علىٰ درجات الفضائل والسُلَّم القيمي إلا بالأعمال الحسنة ، أما الترفُّع فهو تكبُّر في غير محلِّه ، وفي ذلك قال ابن المقفَّع : « من تكبَّر علىٰ الناس ذلَّ ، ومن أعجب برأيه ضلَّ ، وذلك لأن الكبرياء لله وحده »[1] . قال تعالىٰ : ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2] ، الكبرياء صفة من صفات ٱلله التي عندما يقتدي بها الخليفة يجد نفسه متكبراً عن أفعال الرذيلة ، ومتكبراً عن الإفساد في الأرض ، وعن سفك الدماء فيها بغير حق ، ومتكبراً عن ارتكاب المظالم ، والمحرمات ، ومتكبراً عن كل ما نهىٰ ٱلله تعالىٰ عنه . ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن رسول ٱلله ﷺ قال : « مَنْ تواضع لله رفعه »[3] .

وفي ذلك قال الشاعر :

تواضع تكن كالنَّجم لاح لناظرٍ علىٰ صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تك كالدُّخان يعلو بنفسه علىٰ طبقات الجوِّ وهو وضيعُ[4]

وعليه فالتواضع رحمة ، لا يتم نيله إلا برحمة من رحمٰن رحيم ، فمن

(1) المرجع السابق ، ص 98 .
(2) الجاثية ، 37 .
(3) المرجع السابق ، ص 98 .
(4) المرجع السابق ، 98 .

يريد بلوغه ؛ فليرتفع عن كل ما من شأنه ألا يُرضي ٱلله تعالىٰ ولا يُرضي من استخلفهم في الأرض ، وأن يخاف مقام ربه ، وينهىٰ النفس عن الهوىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (1) .

ومن يرىٰ الرفعة وبلوغها ؛ فعليه بأسبابها ، وأولها أن يرتفع بنفسه عن الطمع وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل ، يرتفع عن الإقدام علىٰ الأعمال الدنيئة ؛ حتىٰ يرفعه ٱلله إليه مقاماً محموداً . وآخر هـٰذه الأسباب أن يستغفر ٱلله ربَّه من كل خطيئة أو ذنب ارتكبه ليتوب عليه ، ويفوز بالرحمة التي تُعيده إلىٰ الصعود علىٰ درجات الفضائل والقيم الخيِّرة .

فالحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع السماء بغير عماد ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (2) فٱلله الذي رفع السموات وما يجرىٰ فيها النجوم بغير أعمدة تُرىٰ ، ولا يعلمها إلا ٱلله ، وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء ٱلله ، وعلىٰ الرغم من رفع الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض فقد سخرهما وذللهما بسلطانه لمنفعة الخلق ، وهما يدوران بانتظام لزمن قدَّره ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وهو أيضاً المقدِّر لخفض ورفعة العباد ، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلىٰ مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلىٰ ما عداه ، والاعتماد علىٰ مدبرٍ سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإلـٰه ، وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق من العباد لا تُبتغىٰ عندهم الرفعة ، وأنه ما من ذرة إلا إلىٰ ٱلله خلقها ، ورفعها ، ووضعها بعزته وقدرته وقوته وجبروته ، فقد

---

(1) المرجع السابق ، ص 100 .

(2) الرعد، 2.

ارتفع بكل شيء عن كل شيء ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [1] أي : إنه ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فيٰ ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الجليلة ، وهو الذي يحق له الملك علىٰ الإطلاق إيجاداً وإعداماً ، وبدءاً وإعادة ، وإحياءً وإماتة ، وعقاباً وإثابة ، وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكه العظيم سبحانه جل جلاله ! والملك لما له من الرفعة والمكانة العالية ، فهو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل موجود ، ويحتاج إليه كل موجود ، وقد وصف نفسه برب العرش الكريم ؛ لأنه يقسم فيض كرم الحق ورحمته ، ومنه تنقسم آثار رحمة كرمه إلىٰ جميع مخلوقاته ، يرفعهم بها كلاً حسب ما قدر له من الرفعة لكونه الرافع ، فإن كان هو الرافع فقد تنزه جل جلاله عن جميع صفات المخلوقين ، استعظاماً له تعالىٰ ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جل وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة ؛ أي : ارتفع سبحانه بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله .

وتتضح أعلىٰ درجات الرفعة والعلو والتنزيه للرافع جل وعلا بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [2] فالله وحده مالك التصرف فيٰ الأمر كله ، يمنح من يشاء ما يشاء من الحكم والسلطان ، وينزعه ممن يشاء ، ويهب العزة من يريد من عباده بتوفيقه إلىٰ الأخذ بأسبابها ، فيرفعه بهٰذه الأسباب ، ويضرب الذل والهوان علىٰ من يشاء ، فيضع من كانت الرفعة إلىٰ جانبه ، فهو وحده أيضاً يملك الخير ، ولا يعجزه شيء عن تنفيذ مراده ،

(1) المؤمنون، 116.
(2) آل عمران، 26.

وما تقتضيه حكمته فيٰ نظام خلقه ، ولهـٰذا فهو مالك جنس الملك علىٰ الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث يتصرف فيه كيف يشاء له إيجاداً ، وإعداماً ، وإحياءً ، وإماتةً ، وتعذيباً ، وإثابة من غير مشارك ، ولا ممانع .

وهو الرافع من كونه تعالىٰ بيده الميزان ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [1] يخفض القسط ، ويرفعه ، فيرفع ؛ ليؤتي الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويغني من يشاء ، إنه الخافض لينزع الملك ممن يشاء ، ويذلَّ من يشاء ، ويفقر من يشاء بيده الخير وهو الميزان فيوفي الحقوق من يستحقها ، والذي يرفع ويخفض هو الذي يعز ويذل ، فأعز بطاعته ، وأذل بمخالفته ، وفي الدنيا أعز بما آتىٰ من المال من آتاه وبما أعطىٰ من اليقين لأهله وبما أنعم به من الخلافة والولاية وتحكم في الخلق بإمضاء الكلمة ، فقهر وأذلّ الجبارين والمتكبرين ، وأنزلهم عن مكان رفعتهم ، وبما أذلّ به في الدنيا بعض المؤمنين بتواضعهم ليرفعهم في الآخرة بحسن أعمالهم ، وبما كانوا يفعلون من الخيرات ، والامتثال لأوامر ٱلله تعالىٰ فيما أحل وحرم وفيما أباح ومنع من الموجودات التي أوجدها للخلق اختباراً وامتحاناً ، فالموجودات كلها كانت بكلمة ٱلله (كن) وإليه يرجع الأمر كله والعمل الصالح يرفعه إلىٰ ما انتهت إليه همة العبد وما تعطيه حقيقة العمل الرافع له ، ورفعة ٱلله لا تدرك ولا تعرف ، فلا حد لها ، ولذلك يقال يوم القيامة لصاحب القرآن كما قال رسول ٱلله ﷺ : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ؛ فإن مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » [2] فدرجات الجنة علىٰ هـٰذا علىٰ عدد آي القرآن في الرفعة .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ

(1) الأعراف، 8.
(2) مسند أحمد، 14 ـ 46.

﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1] ، إن تسخير ما في السمـٰوات والأرض رفعة للإنسان الذي فضله الرافع علىٰ جميع مخلوقاته ، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخراً للخلق ، إنها رفعة لبعضنا علىٰ بعض بالدرجة التي يحتاج إليها كل إنسان ، فالإنسان مسخر لحاجته وأهله وأرضه ، ولهـٰذا سخر له ٱلله تعالىٰ ما في السمـٰوات وما في الأرض ، وهـٰذا التسخير بطريق الإذلال لكل ما في السمـٰوات وما في الأرض لترفع من شأنه وتصلح من أحوال معيشته . وهناك نوع آخر من التسخير وهو تسخير القيام ، حيث يسخر من له قدرة علىٰ خدمة من ليس له قدرة علىٰ القيام بمهام أحواله الخاصة . وهـٰذا معنىٰ الإنسان المستخلف في الأرض الذي رفعه ٱلله تعالىٰ عن بقية ما خلق .

فالاسم الإلـٰهي الرافع يرفع الليل ، ويضع النهار ، وهـٰكذا هو رافع السموات بغير عمد ، ورافع الشمس والقمر والنجوم والكواكب وجاعلها سابحةً في أفلاكها ، فالله تعالىٰ بيده القدرة والقوة والميزان يخفض ويرفع من يشاء متىٰ ما شاء سبحانه إنه ربّي جل جلاله ! ولهـٰذا فالإنسان الذي يعلم معنىٰ : أنه خليفة فهو الذي يرفع مقام نفسه بكل ما يرضي الرافع جل جلاله ، والمرء حيث وضع نفسه ، إن أعز نفسه ؛ علا أمره ، وإن أذلها ؛ ذل وهان قدره .

والخليفة كونه وارثاً للأرض فيجب أن يكون صاحب همة لا محالة ، ومعنىٰ الهمة : أن يرفع نفسه ، فإنَّ أنفة القلب من همم النفوس العالية ؛ لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها ، ولا يُرفع قدر أحد حتىٰ يكون هو الرافع لقدر نفسه . وإعزاز المرء نفسه ألا يختلط بالأراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا ما يعاب به . والهمة والأنفة للخليفة لأن ٱلله ركب فيه الخصلة الحسنة ليتعلمها منه بقية من خلق ، والرافع سبحانه هو ٱلله يرفع ويخفض ، بيده ميزان القسط .

---

(1) الجاثية، 13 .

وخير ما يرفع قدر الإنسان وقيمته وأجره وثوابه هو العلم الذي هو غذاء العقل وطريق الهدىٰ وسبيل الرشاد ، ذلك أن العالم يكون مرفوع الدرجة ، والمتعلم كذلك ، ومن يستمع للعلم يكون له نصيب من الرفعة ، فما تشبه أحد بقوم إلا أوشك أن يكون منهم إن لم يكون قد أصبح ، فإن تُعلِّم علمك لمن يجهل ، وتتعلَّم ممن يعلم ما تجهل هو من باب الرفعة المتبادلة ، فمن فعل ذلك فقد علم ما جهل وحفظ ما علم ، والأمر بتعلم العلم تعني فيما تعنيه دعوة إلىٰ رفع قيمة الإنسان وقدره وترفعه عن بقية المخلوقات التي لا تختص بأمر الخلافة التي هي حكر علىٰ الإنسان الذي فضله ٱلله به ، فلذلك كان تعلم العلم لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل علىٰ الصواب ، والمُصبِّر علىٰ السراء والضراء ، والمعين عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع ٱلله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدىٰ بهم ، أدلة في الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتىٰ حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلوب من العمىٰ ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلىٰ ، والتفكر فيه يعدل أعلىٰ درجات الرفعة ، ومدارسته تحيي القلوب والعقول ، وبه يطاع ٱلله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوحَّد ، ويمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام .

والسبب الذي من أجله تدرك أشرف العلوم هو الرفعة والتسامي عن الأشباه والنظائر ، وأن ذلك يرابه شيئان :

الأول : شرف الثمرة .

الثاني : وثاقة الدليل وقوته .

وذلك كعلم الدين ، وعلم الطب ، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف ، وأن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصل إلىٰ هـٰذه العلوم ، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل للقرب من ٱلله سبحانه ، والترقي إلىٰ جوار الملأ الأعلىٰ من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران ، ولـٰكن العلم يدعو إلىٰ التواضع الذي هو من صفات العلماء ، وهـٰذا التواضع هو الرفعة بعينها ، ومن غير باب العلم من الذين يزيدهم ٱلله عزة ورفعة بعفوه عنهم لتواضعهم ، فما زاد ٱلله عبده بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ٱلله تعالىٰ ، وقال ﷺ : « من تواضع لله درجة يرفعه ٱلله درجة ؛ حتىٰ يجعله في أعلىٰ عليين ومن يتكبر علىٰ ٱلله درجة يضعه ٱلله درجة ؛ حتىٰ يجعله في أسفل السافلين ، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليه باب ولا كوة ، لخرج ما غيبه للناس كائناً ما كان »[1] . وهو التواضع للمخلوقين في ذات ٱلله لأن التواضع دليل العزة والمقدرة ، وهو من باب العلم اليقين بأنه مقتدر ، أما الجاهل فإنه يتكبر ويعلو علىٰ الآخرين ظناً منه أنه يترفع ، أو أنه أوتي الرفعة ، وهـٰذا من فرط جهله بنفسه وبالناس ، فقد يُؤتىٰ الإنسان من قبل جهله من وجه آخر ، حيث يظن : أن فعله هـٰذا مبارك مشروع ، وصاحبه مأجور مشكور ، وليس الأمر علىٰ ظنه وحسبانه في الواقع ، كمن يظلم فاجراً أو فاسقاً ، ويتعمد الإساءة إليه بالقول والفعل ، وهو يظن : أن عمله هـٰذا قربة يرفعه ٱلله بها درجات ، ويجهل : أن الظلم حرام في حق كلِّ أحد ، سواء كان مسلماً أو كافراً ، براً ، أو فاجراً ، وأن فعله هـٰذا من الصدِّ عن سبيل ٱلله ،

(1) صحيح ابن حبان 23 ، 382 .

والظلم لعباد ٱلله ، وكلاهما حرام بنصوص كثيرة في الكتاب ، والسنة ، والعرف ، والأخلاق ، وبهـٰذا نعلم : أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر يحرمان ذلك ، إذ تضمنا تفويت مصلحة أكبر ، أو جلب فتنة ، ومفسدة أعظم .

لقد اختار ٱلله تعالىٰ الأنبياء والمرسلين من خلقه ، وهـٰذا الاختيار الإلـٰهي إنما هو رفعة من ٱلله تعالىٰ رفعهم بدرجاتهم عن بقية خلقه ، وهـٰذه الرفعة من جانبين :

أولهما : اختيارهم أنبياء ، ورسلاً ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم أجمعين .

ثانيهما : أنه أوحىٰ إليهم دون بقية خلقه ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ (1) فقد خاطب الرسول ﷺ بأنه أوحىٰ إليه القرآن والشريعة ، كما أوحىٰ من قبله إلىٰ نوح ، وإلىٰ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وإلىٰ عيسىٰ ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ، وبذلك رفعهم بالرسالات والنبوة ، ومع أنهم رسل ٱلله وأنبيائه الكرام ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، إلا أن لكل رسول رسالةً خاصةً إلا محمد عليه الصلاة والسلام فكانت رسالته للكافة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(1) النساء 163، 164 .

يَعۡلَمُونَ ﴾ (1) وكانت طريقة الوحي إلىٰ موسىٰ أن كلَّمه ٱلله تكليماً من وراء حجاب بلا واسطة ، وقد ذكر نوحاً في البداية ؛ لأنه أول نبي عذبت أمته لردهم دعوته ، وقد أهلك ٱلله بدعائه أهل الأرض ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (2) ومن رفعة مقامه أن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ عمر ألف سنة وكان يدعو قومه ليلاً ، ونهاراً ، وسراً ، وجهاراً ، وكان يُضرب من قومه حتىٰ يغمىٰ عليه ، فإذا أفاق عاد وبلغ . وإبراهيم ، وإسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط الذين هم أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وكذلك عيسىٰ ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تشريفاً لهم ، وإظهاراً لفضلهم ، ورفعة لشأنهم ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم .

إن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم ذلك حسب ما نعلم لا لأن العمل هو الرافع للكلم ، وأنه يزيد في رفع من تكلم به ، ويحسن موقعه ، إذا تعاضد الكلم الطيب ، والعمل الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يعمل بما يقول من النصيحة فإن ذلك يرفع صاحبه ، وفاعله أعلىٰ الدرجات ، والرفع يعود علىٰ ٱلله عز وجل ، أي : إن العمل الصالح يرفعه ٱلله علىٰ الكلم الطيب ؛ لأن العمل تحقيق الكلم ، والعامل أكثر تعباً من القائل ، وهـٰذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن ٱلله هو الرافع الخافض ، فيرفع الكلم الطيب ؛ لأنه صادر عن الطيبين ، والطيبات ؛ حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) ، وكذلك الطيبات من النساء يكن للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال يكونون للطيبات من النساء ، وهـٰؤلاء الطيبون مبرَّؤون من التهم التي يصفهم

---

(1) سبأ 28 .

(2) نوح 26 .

(3) النور 26 .

بها الخبيثون ، وطيب الكلام يرفعهم إلىٰ الدرجات العلا ، والمكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة التي رفعهم ٱلله تعالىٰ إليها .

قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (1) فمن كان يريد الشرف والرفعة ؛ فليطلبها بطاعة ٱلله ، فإن له القوة والرفعة ؛ كلها ، وإليه يعلو الكلم الطيب ، ويرفع ٱلله العمل الصالح فيقبله قبول رضا ؛ لأن له عزة الدنيا وعزة الآخرة ، ولا يملك غيره شيئاً منها ، فمن أرادها ؛ فليطلبها من عنده تعالىٰ بطاعته وتقواه لا من عند غيره . قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) فما لله تعالىٰ من العزة هي بالذات وما للرسول ﷺ من العزة هي بواسطة الرسالة والاصطفاء الذي قربه من ٱلله تعالىٰ ، وما للمؤمنين من العزة بواسطة اتباعهم وتسليمهم بما آتاهم به الرسول عليه الصلاة والسلام ، فالله الرافع رفع نبيه ﷺ بعزته ، والنبي ﷺ رفع المؤمنين بما أعزه ٱلله به . فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرىٰ في الحياة الدنيا كما قال تعالىٰ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (3) ، فالبشرىٰ لا تكون إلا بالخير ، والخير لا يكون إلا عزة ورفعة بما وعدَهم الله من نصرٍ وعز في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة بتحقيق وعده بعظيم الجزاء من الرفعة ، ولذا فإن وعد ٱلله حق ، وكلامه صدق لا تبديل فيه . قال تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (4) وإن كان لعمل العبد تبديل ، فيبدل ٱلله سيئاته حسنات ، وكذلك للعمل الصالح شكر من الرافع الذي يرفع الدرجات ، لأنه الغفور الشكور فسعي العبد مقبول ، وكلامه مسموع ، ولو لم يكن في العمل الصالح

---

(1) فاطر 10 .

(2) المنافقون، 8 .

(3) يونس 64 .

(4) ق 29 .

إلا إلحاق عامله بالصالحين ، وإطلاق هـٰذا الاسم عليه ؛ لكان كافياً ، وقد زكاهم ٱلله تعالىٰ بالصلاح ؛ حيث قال في حق إبراهيم : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (1) . وكذلك في جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (2) .

والصلاح من أعظم النعم التي أسبغها ٱلله علىٰ أنبيائه ، عليهم الصلاة والسلام ، فهي رفعة وعظمة ، وذلك : أن الصلاح مطلب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومبتغاهم ، وهم أرفع الخلق من عباد ٱلله ، والصلاح أرفع صفة لهم ، فإن ٱلله أخبرنا عنهم : أنهم مع كونهم رسلاً وأنبياء سألوا ٱلله أن يدخلهم برحمته في عباده الصالحين ، وذكر في أولي العزم من رسله : أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم ، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وهم بلا خلاف أرفع الناس منزلة ؛ وإنْ فضَّل بعضهم علىٰ بعض درجات . ومن نال الصلاح من عباد ٱلله فقد نال ما دونه من خير بالضرورة ، فقد قال ﷺ : « إن من عباد ٱلله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من ٱلله تعالىٰ » قالوا : يا رسول ٱلله تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح ٱلله علىٰ غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم علىٰ نور ! لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » (3) . ولذا قال رسول الله ﷺ لما قضىٰ صلاته أقبل إلىٰ الناس بوجهه ، فقال : « يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا : أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء علىٰ مجالسهم ، وقربهم من ٱلله » .

---

(1) البقرة 130 .

(2) الأنعام 85 .

(3) سنن أبي داود 9 ، 404 .

فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوىٰ بيده إلىٰ نبي ٱلله ﷺ فقال : يا نبي ٱلله ! ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء علىٰ مجالسهم وقربهم من ٱلله انعتهم لنا . (يعني : صفهم لنا) فسر وجه رسول الله ﷺ لسؤال الأعرابي ، فقال رسول الله ﷺ : « هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في ٱلله ، وتصافوا ، يضع ٱلله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ، ولا يفزعون ، وهم أولياء ٱلله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [1] .

فهٰؤلاء الذين هم علىٰ رفعة من ٱلله تعالىٰ بطيب كلامهم ، وصالح أعمالهم لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون ، ولذا فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل ، ولا يكون هٰذا إلا لأهل الصلاح والذين كتبهم ٱلله من الصالحين ورفع درجاتهم مع الأنبياء والصديقين والشهداء ، فيحكِّمون نفوسهم ، ويمشون بها مشي ربهم من حيث هو علىٰ صراط مستقيم ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2] . فمن حياتهم الطيبة في الدنيا : أنهم وإن دعوا الخلق إلىٰ ٱلله ، فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ، ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعوين ، وإن ترد دعوتهم فلا يألمون لذلك الرد بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد ، لا يختلف عليهم الحال . وسبب ذلك : أنهم مترفعون عن الذنوب والخطايا وهم في حياة طيبة ، وهٰذا أكبر نعيم أهل ٱلله ، ولا تكون هٰذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مصحوبة بالعمل الصالح ، وما ينالها إلا الصالحون من عباد ٱلله وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة ، وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في

---

(1) مسند أحمد 46 ، 382 .

(2) هود 56 .

الحياة طيبة ، وآلامهم حسيّة لا نفسيّة ، فالذي يراهم يحملهم في ذلك علىٰ حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك ، فالصورة صورة البلاء ، والمعنىٰ معنىٰ العافية والإنعام ، وما يعقلها إلا العالمون فهـٰؤلاء هم الذين قال ٱلله فيهم : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ (1) أي : لهم العافية في الدنيا وحسن مآب في الآخرة ، فهم جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح ، وهـٰذا جزاء العمل الصالح ومكانته عند الرافع جل جلاله ؛ الذي جعل كل إنسان في المنزلة التي يستحقها بعمله ونيته ، فٱلله تعالىٰ رفع بعضهم فوق بعض درجات ، ونحن نعلم رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كائنة ما كانت ليتخذ بعضهم بعضاً بحسب مرتبته ، وما يقتضيه الرفع والميزان الذي به يخفض ٱلله ويرفع الأعمال ، قال : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب ، وخبيث ، فالخبيث يبقىٰ فيما تجسد فيه ما له من صعود ، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته ، وتشكلت فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملاً ، وعمل صاحبها ذلك العمل ؛ قدَّر ٱلله لهـٰذه الكلمة رفعة ومنزلة عالية ، فيصعد به هـٰذا العمل إلىٰ ٱلله صعود رفعة يتميز بها ، والكلم الطيب يرجع إلىٰ العلم من جانب معنوي مثل الكلمة الطيبة التي تكون بمثابة الصدقة ، فهـٰذا الكلم هو الذي يصعد ، ويقع موقع الرفعة والمنزلة العالية ، والعمل إنما هو مثل الوعاء للكلم الطيب يحمله ويرفعه . فرسول الله ﷺ بعد أن ذكر النار ، فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ، ثم قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » (2) .

---

(1) الرعد 29 .

(2) صحيح مسلم ، ج 5 ، ص 197 .

إنَّ كل شيء بالنسبة للإنسان الخليفة من حيث ارتفاع الدرجة ، والرقي منوط بالعمل ، وكل ما له علاقة بالتسامي منوط بالأخلاق ، لذلك وجب علىٰ الإنسان الخليفة أن يسمو إلىٰ الدرجة التي أرادها ٱلله له ، فلا يغفل ، وأن يرتفع إليها بالقدرات والإمكانيات التي تؤهله لأن يكون خليفة وفق المشيئة الإلـٰهية كما أرادها ٱلله جل جلاله ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو العاطي ، والرافع ، والخافض ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، فقد أعطىٰ الخليفة الأسباب ، وبين له الطرق والسبل الواجبة الاتباع ، وكذلك المنهي عنها والمطلوب تجنبها ، ووضَّح له الخير والشر ، وجعل الميزان بيده يخفض ، ويرفع بما كسبه كل إنسان ، وبهـٰذا يمتاز الخليفة عن غيره باتباعه سبل الرشاد ، فترتفع به الدرجات ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (1) فهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة فيٰ عمارة الكون ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات فيٰ الكمال المادي والمعنوي لأخذكم فيٰ أسبابه ، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونه عليها ، وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها حتىٰ تهتدوا ، إن ربك سريع العقاب للمخالفين ؛ لأن عقابه آت لا ريب فيه ، وكل آت قريب ، وإنه لعظيم المغفرة لمخالفات التائبين المحسنين ، واسع الرحمة بهم .

وأما كون ابن آدم خليفة ؛ فإنه « جعل كل واحد من بني آدم ، آدم وقته وخليفة ربه في الأرض ، وسر الخلافة أنه صوره علىٰ صورة صفات نفسه حيّاً قيُّوماً سميعاً بصيراً عالماً قادراً متكلماً مريداً » (2) .

وأما من جانبٍ آخر ؛ فإنه يفهم من سياق الآية : أن ٱلله تعالىٰ هو الذي

---

(1) الأنعام 165 .

(2) تفسير حقي ، ج 4 ، ص 96 .

جعلكم خلائف في الأرض ، فإن ٱلله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية ، واستخلفكم فجعلكم خلائف عنهم في الأرض تخلفونهم فيها ، وتعمرونها بعدهم ، ثم رفع بعضكم علىٰ بعض في أنه تعالىٰ خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل ، فجعل منهم الحسن ، والقبيح ، والغني ، والفقير ، والشريف ، والوضيع ، والعالم ، والجاهل ، والقوي ، والضعيف ، وهـٰذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز ، أو الجهل ، أو البخل فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ منزه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء ، والامتحان ؛ لكي يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده ، ليبتلي الغني بغناه ، والفقير بفقره ، والشريف بشرفه ، والوضيع بدناءته ، ولهـٰذا لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه جل جلاله ، وهـٰكذا غيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب ، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به ، وإما أن يكون موفياً ما أمره به . وهـٰذا التفاوت ليس لأجل العجز ، والجهل ، والبخل ، فإنه تعالىٰ متعالٍ عن هـٰذه ، فالله تعالىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم .

ومن الرفع أيضا ، ما كان بفعل المخلوقين بأمر الخالق ، فيوسف عليه الصلاة والسلام الذي كان أبوه يؤثره علىٰ إخوته محبةً ، ورفعةً ، وحناناً إنما كان ذلك بأمر ٱلله تعالىٰ وإيذانا من ٱلله جل جلاله منذ أن كان طفلا حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [1] فإن كان المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره ، أو المراد به حقيقة السجود ، وأياً كان يعني هـٰذا السجود ، فإنما هو رفعة ليوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ غيره ، وخاصة أن رؤيا الأنبياء

(1) يوسف 4.

عليهم الصلاة والسلام هي رؤيا صادقة ، فقد رأىٰ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدين له ، فكان ذلك أباه وأمه وإخوته ، فوقع حقاً ما كان إدراكه رؤيا في صورة كوكبية ، فلما دخلوا عليه خرّوا له سجدا فقال يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيه هـٰذا تأويل رؤياي من قبل جعلها ربي حقيقةً واقعةً في الحس ، وقد كانت حقيقة في الخيال في موطن الرؤيا ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (1) فعندما جاء يعقوب عليه الصلاة والسلام إلىٰ مصر ، وبلغوا دار يوسف عليه الصلاة والسلام ، فدخلوها ، وصدَّر يوسف أبويه ، فأجلسهما علىٰ سرير ، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ اللَّه لهم علىٰ يدي يوسف من رفعة المنزلة وعلو المكانة ؛ إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ، ونقلها إلىٰ مكان عظيم من العزة والتكريم ، فحيَّوه تحية مألوفة تعارف الناس عليها فىٰ القديم للرؤساء والحاكمين ، وأظهروا الخضوع لحكمه ، فأثار ذلك فىٰ نفس يوسف ذكرىٰ حلمه وهو صغير ، فقال لأبيه : هـٰذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا ، حين رأيت فىٰ المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لي ساجدين ، قد حققه ربىٰ ، فقد أكرمه ٱلله تعالىٰ ، وأحسن إليه ، فقد رفعه بأن جعله نبياً ومن أصحاب الملك والسلطان ، وأظهر براءته برفع التهمة عنه مما اتهم به ، ورفعه من السجن إلىٰ قصر الملك وكرسي الحكم ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (2) . وذلك لأنه علم فىٰ الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط ، فخاف عليهم القحط ، والتلف

(1) يوسف 100 .
(2) يوسف 55 ، 56 .

فأحب أن تكون يداه علىٰ الخزائن ليعينهم وقت الحاجة شفقة علىٰ عباد ٱلله . وهـٰذا من أخلاق الخليفة الذي رفعه ٱلله في المكانة والعلم والجاه ، وبالتالي فإنه لعلمه : أنه خليفة ٱلله في أرضه ؛ فقد قام بما يجب أن يقوم به من حق الخلافة ، في نشر العدل والحفاظ علىٰ أرواح الناس وحياتهم والخوف عليهم من الشدائد والنوازل التي تصيب الخلق ، ففي هـٰذه المواقف يتجلىٰ دور الخليفة بأبهىٰ صوره بالقيام بما أمر ٱلله تعالىٰ به من إسعاد العباد ، وإعمار البلاد .

اللهُمَّ يا الرافع ارفعنا محبة في رضاك ، واجعلنا في عليين ، ولا تجعلنا مظلومين ، ولا مهمومين ، ولا محسودين ، ولا تجعلنا في أسفل سافلين ! اللهُمَّ يا الرافع ارفع أعمالنا في موازين رضاك ، ولا تخفضها في موازين غضبك ! اللهُمَّ إنك رفعت السمـٰوات العلا بدون عمد نراها فارفع عنا ذنوبنا وخطايانا ، وارفع عنا المظالم حتىٰ لا نراها ، ولا بها نُدان ! اللهُمَّ إنك جعلت الحق رافعاً للظلم فاجعلنا في رفعة الحق نُزهِق الباطل ! اللهُمَّ أرفع عنا الابتلاء واجعلنا في الرضا يا باسط الأرض ورافع السمـٰوات العلا ! اللهُمَّ أرفع الضيم عن المضيمين والسجن عن المسجونين ، واجعلنا من الطائعين التائبين المستغفرين ! اللهُمَّ يا الرافع ارفعنا قدرة وقوة ولا تجعلنا من المستضعفين ولا المفسدين ، واجعلنا من المصلحين فيها ولا تجعلنا من سافكي الدماء بغير حق ! اللهُمَّ ارفعنا بالعلم والحكمة في الدارين واجعلنا فيهما من الوارثين ، ولا تجعلنا من المحرومين إننا نؤمن بك ، ونتقيك سبحانك جل جلالك !

اللهُمَّ يا الرافع أرفع الهم والظلم والبغي ، وارفع عن عبادك المسلمين كل كرب وغم ! اللهُمَّ ارفع راية أمتنا عاليةً ، وارفع فينا الهمة والنخوة ! اللهُمَّ يا الرافع آتنا علماً ، وارفعنا به درجات إنك سميع قريب مجيب الدعوات ! اللهُمَّ اجعلنا من أولئك الذين رفعتهم بالإيمان فتكون لهم الرفعة في الدنيا والآخرة !

اللهُمَّ إننا ندعوك باسمك الرافع أن ترفع همتنا ، فنكون من خلفائك

الرافعين لكتابك الكريم ، وسيرة رسولك محمد ﷺ وأن نكون رافعين للجهل عن العقول ، والغم عن القلوب ، والضيق عن الأنفس ، والظلم عن العباد !

اللهُمَّ ارفع مقتك ، وغضبك ، وسخطك عنا برضاك وطاعتك ، وارفع عنا الجهل بالعلم ، وارفع عنا المرض بالعافية ، وارفع عنا الكفر بالإيمان ، فنكون بذلك من المترفعين عن كلِّ ما يغضبك ، وكلِّ ما يرفع عنا رضاك !

✍ ✍ ✍

المُعِز جلّ جلاله

المعزُّ جل جلاله كما ورد في لسان العرب المحيط هو : « الذي يهبُ العزَّة لِمن يشاء من عباده . والعِزَّة : خلاف الذلّ . والعزُّ في الأصل : القوة والشدَّة ، والغلبة ، والرفعة ، والامتناع » (1) .

والمُعِزُّ : هو مالك القوة المطلقة ، والساند والداعم بها لكل ضعيف . فهو الغالب الذي لا يُغلب ، والقاهر الذي لا يُقهر . وهو الذي أنزل الحقّ ساندًا للحقِ . أي : إنه أظهر الحُجَّة الساندة للمتحاجين ، وذلك إظهارًا للحق وإزهاقًا للباطل . فأظهر البيِّنة دليل إثبات ، وشهادة حق ؛ ليكون الخليفة علىٰ الإيمان شاهدًا ، ولله موحِّدًا ، وعلىٰ الرَّسول مصلِّيًا ، ومسلِّمًا .

وقال ابن القيم في نونيته :

وهـو المُعـزُّ لأهـل طـاعتـه ... وذا عـزٌّ حقيقـيٌّ بـلا بطـلان (2)

ويقول مشرف الحمداني الغامدي : بالتمام كما جاء في لسان العرب : « العز : خلاف الذل ، ويقال : عزه علىٰ أمرٍ ، يعزه : إذا غلبه عليه . والعزة : القوة ، والغلبة » (3) .

---

(1) لسان العرب المحيط . مصدر سابق ، ص 764 .

(2) شرح أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ وصفاته الواردة في الكتب الستة . حفصة بنت عبد العزيز ، الرياض ، دار القاسم ، ص 236 .

(3) منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص 429 .

وقال البيهقي : « المعز : هو الميسر لأسباب المنعة »[1] .

المُعِزُّ هو المُحبُّ ، والمعزَّة لا تبنىٰ إلا علىٰ علاقة متصلة ، ورضاً ، ومحبة .

وفي هـٰذا الشأن يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] . فالذي يجعل الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزة الذي يسندهم ، ويحمي ظهورهم ، فيُحفِّزهم علىٰ الإقدام دون تردد من أجل قول الحق ، وفعل الحق ، وعمل الحق .

ولذا فالمُعِزُّ هو مصدر العز الذي منه العزة تُستمد ، وهو الذي يعِزُّ جُند الحق بالآتي :

أولاً ـ عزة النية : النية تكمن في الضمير ، مثلما تكمن الفكرة في العقل ، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة ، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبَّةُ الزيتون ، كذلك تكمن العزة في صفاء النية .

ولذا فبالنية تُعزَّز الأقوال ، والأعمال ، والأفعال ، والسلوكيات ، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه ، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية ، ولا فعل إلا والتصميم دافعه ، ولا سلوك إلا بقوة الحركة .

ولهـٰذا تؤسس العبادات جميعها علىٰ النية ، أي : إن النية هي المعززة للصوم ، فبدونها يصبح الصوم امتناعاً عن الأكل ، أو إضراباً عنه ، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية ، أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا .

---

(1) المرجع السابق ، ص 430 .

(2) المائدة ، 54 .

وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة ، أو مران رياضي ، أو ما شابه ذلك ، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة ، أو تبرعات مادية .

وعليه فإن النية هي المعززة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين ؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة المُمكن (المتوقع وغير المتوقع) حتىٰ نستبين الحق من الباطل :

ثانياً ـ عزة القول : القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكِن أن يكون حُجَّة لنا ، ويُمكن أن يكون حُجَّة علينا ، فعندما يكون حُجَّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد ، وعندما يكون حُجَّة علينا يُضعفها ، ويعزز مواقف آخرين .

ولذا فالخليفة دائماً تكون الحُجَّة له ، ولا تكون عليه ، وذلك لأنه لا يقول إلا الحق ، وليس له نية وغاية غير إحقاقه . فعزة القول لا تتحقق إلا بالبيِّنة التي تُظهر الحق ، وتُزهق الباطل ، ولذلك لا إظهار للحق ولا إزهاق للباطل إلا بالقوَّة الظاهرة في القول بالبينة .

ثالثاً ـ عزة الفعل : لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية . ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حق يسندها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) . وعليه لا عزة للفعل إلا بتحقيقه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (3) . بالحكم بين الناس تترسخ العزة بين الحُكم والأطراف المتعددة التي يكون فيها للظالم ، أو

---

(1) الأنبياء ، 18 .

(2) يـٰس ، 82 .

(3) النساء ، 58 .

المفسد دور ، وللمظلوم ، أو المصلح دور ، وللحاكم بينهم بالعدل دور وفقاً للآتي :

1 ـ **بالنسبة للظالم ، أو المفسد** : يتعزَّز موقفه بالتخلي عن مظالمه ، أو إفساده في الأرض بعد أن يتبين من الحاكم العادل : أنه علىٰ باطل ، وأن الباطل لا يُرضي الخالق ، ولا المخلوق ، وأنَّ من يَقترِف ظلماً ، أو فساداً في الأرض فسينال العقاب في الدارين . وأن من يستغفر ربَّهُ ويُكفِّرُ عن أخطائه ، ومظالمه وسيئاته التي كان يقترفها ؛ فإن رحمة ٱلله عزَّ وجل واسعة ، وأبوابها مفتوحة أمام من يستغفر ، ويتوب ، ولا يُشرك بعبادة ربِّه أحداً .

2 ـ **بالنسبة للمظلوم ، أو المُصلح** : تتعزَّز مواقفه بإعادة الحق إليه ، أو بتبيين الحاكم : أنه علىٰ الحق ، وأن الآخر الذي اتهمه ، أو خالفه هو علىٰ باطل مما يجعل رأي الحاكم مناصراً ، ومنصفاً للحق الذي به آمن الخليفة ؛ وهـٰذا الإنصاف يجعل المُصلح يزداد تمسكاً بأفعال الخير التي لا تتحقق إلا بالبيِّنة والنية الصادقة . قال تعالىٰ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (1) .

3 ـ **بالنسبة للحاكم بالعدل** : يتعزَّز موقفه بإرضاء ضميره ، وإرضاء المحكوم بينهم بالحق ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ (2) . وفي ذلك يقول الدكتور محمد راتب النابلسي : « الله معزٌّ إذا طبقتَ شرعه ، ومعزٌّ إذا استغنيت به عمَّن سواه » (3) .

---

(1) الأعراف ، 44 .
(2) البقرة ، 213 .
(3) محمد راتب النابلسي ، موسوعة أسماء الله الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص 329 .

4 ـ **بالنسبة للحُكم** : الحُكم العادل يُسند بالحاكم ، والمحكوم بينهم بالعدل ، وبإظهاره ، وانتشاره بين الناس حقيقة ماثلة من خلال حقوق تمارس ، وواجبات تؤدىٰ ، ومسؤوليات يتمُّ حمْلُها .

رابعاً ـ عزة العمل : العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالباً ، ويمكن أن يكون موجباً ، فإن كان إصلاحاً في الأرض ؛ كان موجباً ، وإن كان إفساداً فيها ؛ كان سالباً ، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب علىٰ الفعل بالثواب إيجابياً ، وبالعقاب سلبياً . وفي ذلك يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (1) . ويقول تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (2) .

وعليه عزة العمل تتحقق من خلال الآتي :

1 ـ **ممارسة الحقوق** :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ (5) .

الحقوق تؤخذ بإرادة ، أو تنتزع بالقوة ، ولأنها تؤخذ ؛ فهـٰذا يعني : أن

(1) فصلت ، 46 .
(2) النور ، 55 .
(3) القصص ، 77 .
(4) هود ، 109 .
(5) النساء ، 33 .

الحواس هي التي يتم بها التعرف علىٰ الحقوق ، ويتم بها أيضاً إشباعها ، ولذلك تؤخذ الحقوق عن طريق الحواس ، فعندما تكون المشاهدة حقاً ؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخرَ منها ، وإذا كانت الملاحظة حقاً ؛ فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرَ منها ، وهٰكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقوقاً ؛ فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرَ منها ، ولأنها حقوق ينبغي أن تُمارس بإرادة . وهٰكذا فالحقوق تُسلَّم ، فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين ، أو الأكثر .

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب ، فإذا كانت في خانة المطالب فإن ذلك يعني أن هناك قيوداً تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها) .

ولذا فالحقوق ينبغي ألا تكون مطالباً ، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقاً للحاجة ، فالسلطة حق ، والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكر من أحد ، ولا ينبغي أن تكون مِنَّةً من أحد .

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق ، أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي :

أ ـ **الرغبة** : القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد ، أو موضوع بعينه ، وإحساس نفسي تجاه الآخر ، وشعور بالميل إليه ، وهٰذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض علىٰ المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المُرضي .

ب ـ **الإرادة** : تُعد الإرادة نشاطاً عقلياً علىٰ درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ، ويتمكن من خلالها من الإقدام علىٰ الفعل وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة علىٰ الفعل والسلوك .

ج ـ **الطلب** : نظراً للإحساس بالحاجة والتعرف علىٰ بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمُشبِع كحق لا يمكن التخلي عنه ، ولا يهدأ البال ، ولا تطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ، ويحقق الرضا .

الحقوق كما ورد في لسان العرب المحيط هي « جمع : حق ، وهي نقيض الباطل » . والحق كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق ، والواجبات ، والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أي ضلع يشترك معه في الزاوية ، ولذلك عندما يشترك مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) تصبح هٰذه الزاوية مكوِّناً علائقياً بين ضلعي الحقوق ، والواجبات ، وهٰذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحق واجباً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [1] فحقت هنا بمعنىٰ وجبت كلمة العذاب علىٰ الكافرين ، وهٰذا يعني أن كلمة (وجبت) تعني في مضمونها كلمة (حقّتْ) . وكذلك في لسان العرب : « حقَّ ، يحق ، حقاً تعني : وجب ، يجب ، وجوباً » . وهٰذا الأمر يؤكد وضوح العلاقة بين الحقوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أ ج) المحصورة بين ضلعيهما ، وفي ذات الوقت يبين الخصوصية لكل منهما عندما يخضع كل ضلع للدراسة المتخصصة .

2 ـ **أداء الواجبات** :

وبما أن الحقوق تؤخذ وتُستلم فإن الواجبات تؤدىٰ في مقابل الاستلام والأخذ ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب ، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع علىٰ أخذ الحقوق فقط ؛ فإن ذلك يجعل المستلم طرفاً سالباً ، والذي يغيره إلىٰ حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات ، ولهٰذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت ، وهٰذا لا يعني : أن الحقوق والواجبات

(1) الزمر، 71 .

هما كفتا الميزان في مكوَّن ممارسة الديمقراطية ، بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية ، التي تتضح في الزاوية (أ ج ب) عند تلاقي ضلع الواجبات (أ ب) مع ضلع المسؤوليات (ب ج) في المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) وهـٰذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤوليةً ، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه « لا واجب إلا بالإضافة إلىٰ التزام ومسؤولية » . ولذا لا يمكن أن يؤدىٰ الواجب بنجاح إلا وتحمل المسؤولية جزءاً من أدائه ، وهـٰكذا حال المسؤولية هي الأخرىٰ لا تؤدىٰ بنجاح إلا والواجب يصاحبها ، وهـٰذه نتائج التداخل العلائقي الذي يُعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قِيَماً يستدل بها ، أو يستدل عليها .

والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابد أن يحدث الحوار بينهما مما يؤدي إلىٰ القبول والتقارب والتفاعل ، أو يؤدي إلىٰ الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب ، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوَّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع ، وعندما تتكوَّن العلاقات يترتب علىٰ ذلك بالضرورة أخذٌ كما هو مبين في الحقوق ، وعطاءٌ كما هو الحال في الواجبات ، وهـٰذا يعني : أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء ، أي في اتخاذ القرار مسؤولية ، وفي الأخذ حقوق ، وفي العطاء واجبات ، وعليه لا يمكن أن يتمَّ الأخذ ، والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما ، ولو أخذنا وليَّ الأمر علىٰ سبيل المثال ؛ نجد : أنه مسؤول عن أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم ، وما يعد واجبات علىٰ وليّ الأمر تجاه الأسرة يُعد حقوقاً بالنسبة لهم ، وهـٰكذا في حالة التبادل يظل لوّلي الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجباً علىٰ أفراد الأسرة أداؤها ، ولذلك

فالحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضاً .

ولكي تؤدىٰ الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي :

أ ـ **الاعتراف** : يدل الاعتراف علىٰ تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله علىٰ ما يجب وما لا يجب ، ثم التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب ، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدي إلىٰ التمسُّك بها عن إرادة .

ب ـ **القدرة** : إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائماً ما لم تتوفر إلىٰ جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفز للظهور بعد تهيؤ .

ج ـ **الإقدام** : يُعَدُّ الإقدام مرحلةً ما بعد التهيؤ حيث الإقبال علىٰ أداء السلوك المحقق للفعل ، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة .

3 ـ حمْل المسؤوليات :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [3] .

من خلال ما عرضناه من ممارسة للحقوق وأداء للواجبات نلحظ علاقة

---

(1) الإسراء ، 34ـ36 .

(2) الفرقان ، 16 .

(3) الصافات ، 24 .

قوية وتداخلاً معرفياً في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات المتعلقة بتحقيق الذات المتوازنة ، وعرفنا أن الحقوق يترتب عليها مطلب أو أخذ ، وعرفنا : أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء ، وهـٰذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سنداً يبعد عنها المخاطر ، وإن لم يتوفر ذلك تصبح الحقوق والواجبات ـ كما يقولون ـ في مهب الريح ، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة ، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولاً لا يمكن أن يؤتمن جانبه ، وهـٰكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولاً ، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة ، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدىٰ بأمانة ، وهـٰكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة .

ولذا تكمن المسؤولية في تَحمُّل المخاطر أو المتاعب المترتبة علىٰ أداء الفعل سواء كان حقاً أو واجباً ، ولهـٰذا فهي عبء يستوجب التَّحمُل ، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنىٰ علىٰ معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية ، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب ، وبين الحلال والحرام ، وبين القوة والإرادة ، ثم أخذ القرار ، وتحمّل الأعباء المترتبة علىٰ ذلك .

إن تحمُّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة ، وهـٰذه المبررات هي :

أ ـ **الصلاحيات** : إنَّ الحديث عن المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية ، ومن الناحية العملية أو التنفيذية يتطلب صلاحيات ؛ لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل ، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً ، وعليه من يريد أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون واعياً قبل أن يفعل .

ب ـ **الاختصاصات** : هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به ،

فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد ؛ تُعَدُّ ذاته متزنةً ومعتدلة في الحركة الموجبة ، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب ؛ حيث تُعَدُّ مثل هـٰذه الأفعال أفعالاً سالبة أو منحرفةً . وعليه لكي تؤدىٰ المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات .

ج ـ **الوعي** : ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان ، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل ، ويدل علىٰ إيجاد علاقة بين الذات والموضوع ، وبالوعي يتمكَّن الإنسان من التبيُّن والمعرفة ، كما أنه يتمكَّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كل مُفضَّل ومرغوب ، وبين ما هو غير ذلك ومرفوض ، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكِّن الإنسان من التفهُّم والاستيعاب ، كما أنها تمكِّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي .

د ـ **القدرة** : القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمُّل لما يجب أن يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المَقدِرة . والقُدرة متنوعة المستويات فهي علىٰ المستوىٰ النفسي ، والمستوىٰ البدني ، والمستوىٰ المادي ، والمعرفي .

4 ـ نيل الاعتراف :

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ

(1) آل عمران ، 64 .

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين ، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل ، فهي تربط الفرد بالمنزلة ، وتربط الخصوصية بالمكانة . ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية ، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح . ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع . ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما ، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف . ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولاً من أبائهم ، وثانياً من الآخرين . وهٰكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به . وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شاذٌ عنها .

ولذا كل إنسان يسعىٰ لنيل الاعتراف به وبأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته علىٰ العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلىٰ النهاية .

5 ـ نيل الاعتبار :

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (2) .

---

(1) الأنعام ، 19 .

(2) النساء ، 29ـ32 .

الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة ، كما يرتبط التاريخ بالعبر . الناظر إليها لا ينبغي أن يُغضَّ بين الأنا والآخر ، وفي قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرْء وزوجه . ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها ، لا يُغيِّب أنا آخر ، ولا يسعىٰ لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما ، سياسياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدىٰ ومسؤوليات يتم تحمُّلها .

الاعتبار مكانة تُعطىٰ لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية . فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تخفىٰ أبداً ، ولذا فهي تُقدَّر . والقاعدة تقول : (اعتبرني ؛ أعتبرك ، وإذا تجاهلت وجودي ؛ أتجاهل وجودك) .

6 ـ نيل التقدير :

قال تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ (1) .

التقدير قيمة تقييميه ، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات . قيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة علىٰ المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة ، وبناء علىٰ النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين . ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إن لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي .

---

(1) النساء ، 6 .

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة ، وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها ، وتحديد الدور الذي ينبغي أن يؤدىٰ حيالها وفقاً لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب ، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب .

التقدير مطلب يُشبع رغبة ، مما يستوجب من راغبٍ في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هـٰذه الحقوق وامتلاكها . ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلىٰ هـٰذا المستوىٰ من التقدير ينال كلٌّ منهما نصيبه بإرادة ، ويتمكَّنان من العيش سوياً في المكان والزمان الواحد ، وينال كلٌّ منهما مكانة عند الآخر ، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض ، وأن كلاً منهما علىٰ درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها ، أو يغفل عنها .

خامساً ـ عزة السلوك : يتعلق أمر السلوك بالظاهر المشاهد الذي من ورائه باطن أو كامن ، ولذا فإن كان في الباطن (الكامن) حُسْنٌ يكون في الظاهر المشاهد والملاحظ حُسْنٌ أيضاً ، وإن لم يكن كذلك ؛ يكن الظاهر في دائرة القُبح بين متوقع وغير متوقع . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ (1) .

وفيما يتعلق بعزة السلوك ، « حُكيَ عن سارق تمَّ القبض عليه ، ووُضِعَ في السجن ؛ حتىٰ إنه ذات يوم خرج من السجن ورجلاه مقيدتان ؛ وهو يسأل

(1) غافر ، 23ـ26 .

الناس أن يعطوه قطعة خبز ، فقال له أحدهم : لو اقتنعت بقطعة الخبز ؛ لما وضع القيد في قدميك »[1] .

وقيل أيضاً : « إن فتح الموصلي كان قاعداً ، فسُئل عمَّن يلهث وراء الشهوات كيف صفته ؟ . وكان بقربه صبيان : مع أحدهما خبز بلا إدام ، ومع الآخر خبزٌ وإدام ، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه أطعمني مما معك ، فقال : بشرط أن تكون كلبي ، فقال صاحبه : نعم ، فجعل خيطاً في عنقه ، وأعطاه اللقمة ، ثمَّ جره من عنقه كما يُجرُّ الكلب ، فقال فتح الموصلي للسائل : أما لو أنه رضي بخبزه من دون إدام ، ولم يطمع في إدام صديقه ؛ لم يصر كلباً له »[2] .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد ؛ قال جاء جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : « يا محمد ! عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم : أنَّ شرف المؤمن قيام الليل ، وعزُّه استغناؤه عن الناس »[3] .

وعن أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « قال رسول الله ﷺ : « لا يَحِلُّ لمؤمن أن يذلَّ نفسه » . قالوا : يا رسول ٱلله ! وما إذلاله لنفسه ؟ قال : « يتعرض من البلاء لما لا يقوم له »[4] .

ويقول الشاعر :

اجعل لربِّك كلَّ عِزْ زِكَ يستقر ويثبتُ

---

(1) محمد راتب النابلسي . موسوعة أسماء الله الحسنىٰ . الجزء الأول مصدر سابق ، ص 329 .

(2) المصدر السابق ، 328 .

(3) المصدر السابق ، 330 .

(4) المصدر السابق ، ص 329 .

فـــإذا اعتـــزت بمـــن يمـــو تُ فـــإنَّ عـــزَّك ميِّـــتُ [1]

وعليه لا تنسىٰ نصيبك من الدنيا واعمل لآخِرتك كأنك تموت غداً ، وأعلم أنه لن يُعطيك أحدٌ شيئاً إلا وأمر ٱلله له نافذ بإعطائك مما أعطاه ٱلله ، فاحمد ٱلله وحده ولا تُقلِّل من شأنك فإن ٱلله قد خلقك في أحسن تقويم ، وهو يريدك خليفة له في الأرض ، فلا تُصغِّر من نفسك أمام الآخرين ، ولا تقلل من شأنك ، ولا تطمع إلا في وجه ٱلله تعالىٰ . واعلم : أنك لو قللت من شأنك ؛ فقد أجرمت في حق نفسك ، وفقدت رضا ٱلله عليك ، فاستغفر ٱلله وتب إليه ولا تعمل إلا ما يُرضيه ، فإن فعلت ما يُرضيه ؛ فُزت مرتين ، مرة بالاستخلاف في الدنيا ، ومرة بالاستخلاف في الآخرة ، والفوز بالجنة . ولذا لا تغفل ، فإن الموت آتٍ وأعلم : أنك لن تموت قبل اليوم الذي كُتب لك الموت فيه ، وكن مستعداً للرحيل ؛ وأنت فائز برضا والديك ، وأنت لم تُفسِدْ في الأرض ولم تسفك الدماء فيها بالباطل ، ولم تظلم أحداً من العباد . وكن فطناً وحذراً من وسوسة الشيطان والنفس ، وتذكر لعلَّ الذكرىٰ تنفعك : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [2] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [3] . وأعلم أنَّ ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، فلا تغترَّ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [4] . وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

(1) المصدر السابق ، 328 .
(2) الأعلىٰ ، 9 .
(3) الذاريات ، 55ـ58 .
(4) آل عمران ، 185 .

ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) . فالذين يقولون هم المنافقون ، ويقصدون بالأعزِّ أنفسهم ، وبالأذلِّ يقصدون المؤمنين . وفي هـٰذا الأمر يقول البيضاوي في تفسيره للقرآن الكريم : « أخرج البخاري ، وغيره عن زيد بن أرقم ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : سمعت عبد الله بن أُبي المنافق يقول لأصحابه : لا تنفقوا علىٰ من عند رسول ٱلله ؛ حتىٰ ينفضوا ، فلئِن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فذكرت ذلك لعمِّي ، فذكر ذلك عمي لرسول الله ﷺ ، فدعاني الرسول ﷺ فحدَّثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلىٰ عبد الله بن أبي وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذبني ، وصدقه ، فأصابني شيء ـ أي : أصابني شيء من الحزن ـ لم يُصبني مثله من قبل ، فجلست في البيت ، فقال عمِّي : ما أردْتَ إلا أن كذَّبك رسول الله ﷺ ومَقَتَكَ ، فأنزل ٱلله تعالىٰ : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ... ﴾ إلخ . أي : و لله الغلبة ، والقوة ، ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين » (3) . ولذا فالعزة مناصرة وقوة حق لإحقاق الحق وإزهاق الباطل . فمن يعزه ٱلله فقد فاز فوزاً عظيماً ، ومن يعزه رسول ٱلله فقد أعزه ٱلله تعالىٰ ، وذلك لأن ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (4) . جاءت هـٰذه الآية مناصرة ومعززة لِما قاله زيد بن أرقم ـ رضي ٱلله عنه ـ ولذلك فمن يعزه المُعزُّ جل جلاله فقد اعتز ، ومن يعزه الرسول فقد أعزه ٱلله ، ولذا فإن المؤمن المَرضيَّ عنه ينال عزته من عزة ٱلله تعالىٰ له ، وأيضاً من عزة الرسول له ﷺ . أي : إن ٱلله عز وجل يعز المؤمن مباشرة

(1) لقمان ، 33 .
(2) المنافقون ، 8 .
(3) تفسير البيضاوي مصدر سابق ، ص 744 .
(4) النساء ، 80 .

بما يعمل من أعمال الطاعة له جل جلاله ، ويعزه بإيمانه بالرسول ﷺ واتباع سنته الشريفة .

المُعزُّ عزَّ وجل هو : الذي بيده المُلك ، والأمر والنهي ، والبداية والنهاية ، والثواب والعقاب . ولأنه كذلك فهو يعزُّ من يشاء متىٰ يشاء وكيفما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه إنه القوي القادر !

ولأنه المُعزُّ فهو بطبيعة الحال هو الخافض الرافع ؛ الخافض للظلم والمظالم والحاجة والفاقة ، والرافع بالإشباع والوفرة والمُلك والسلطان والغنىٰ ، الذي لو لم يكن غنياً ؛ ما كان باسطاً للخير وما كان عليماً بما جرىٰ ويجري وسيجري ، وما كان فتَّاحاً ورزَّاقاً ووهَّاباً وقهَّاراً ومصوراً وبارئاً وخالقاً ومتكبِّراً وجبَّاراً وعزيزاً ومهيمناً ومؤمناً وسلاماً وقدُّوساً وملكاً ورحيماً ورحماناً ، ولذا فهو ٱلله تعالىٰ واحد أحد لا شريك له سبحانه جل جلاله !

فالعزة بالنسبة للمُعِزّ بالإضافة تُطلب فتؤخذ ، ويُبذل الجهد في سبيلها حتىٰ يتم التمكُّن من نيلها ، وكذلك يعمل الإنسان خوفاً وطمعاً من أجل بلوغها . فبها تطمئن النفس وتعتز دون أن تغتر . والعزة الكُبرىٰ هي التي تؤتىٰ من المُعزِّ المطلق للمُعزِّ بالإضافة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

تدل هـٰذه الآية الكريمة علىٰ الاعتراف والإيمان المطلق بأن ٱلله وحده هو مالك الملك ، مما يستوجب التوجه إليه بالدعاء والطلب دون التوجه لغيره ، حتىٰ تتم الاستجابة بأن يؤتي المُلك لمن يشاء من عباده المؤمنين المتوجهين له بالدعاء والطلب البيّن دون أن يُراودهم شك في طلبهم أو في استجابة ٱلله لهم ، فتتم الاستجابة من المعزِّ تعالىٰ لعدة اعتبارات ، منها :

(1) آل عمران ، 26 .

ـ **الاعتبار الأول الأحقية** : كما هو حال الأنبياء والرسل الذين يصطفيهم المُعِزُّ تعالىٰ اصطفاءً . ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ [2] . تدل هاتان الآيتان علىٰ ثبوت عزة ٱلله لأنبيائه ورسله حتىٰ يُطاعوا بإذنه ، وتتبدل السيئة حسنة .

ـ **الاعتبار الثاني إخلاص النية** : النية هي التي لا يعلم أمر سرها إلا ٱلله تعالىٰ ، وهو المتوجه إليه بالدعاء حتىٰ نيل الاستجابة المرتبطة بصفاء النية ، ولهـٰذا فمن صدقت نيته ؛ صدقت الاستجابة معه ، وما الأعمال إلا بالنيات . قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [3] .

ـ **الاعتبار الثالث صدق الدعاء** : من يدع ربَّه بقلب سليم يَستجيبَ له وهو بكل شيء عليم . قال تعالىٰ : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [5] .

ـ **الاعتبار الرابع صفاء النفس** : الأنفس أنواع وخيرها النفس المطمئنة التي لا تشرك بعبادة ربها أحداً . قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ

---

(1) النساء ، 64 .

(2) الأعراف ، 94 ، 95 .

(3) إبراهيم ، 38 .

(4) إبراهيم ، 37 .

(5) الأنبياء ، 87 .

قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [1] .

ـ **الاعتبار الخامس ساعة الاستجابة** : هي الساعة التي فيها تخلص النية مع الدعاء ويتزامن فيها الدعاء مع الاستجابة . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] .

ـ **الاعتبار السادس إعطاء الفرصة** : من يطلب ٱلله بقلب سليم يستجب له ويعطه الفرصة ويختبره إن كان قادراً علىٰ حمْل مسؤولية ما طلب ليعمل صالحاً أم انه لن يكون قادراً وسَيُفسِدَ في الأرض ، ولذا فإن ٱلله يؤتي المُلك لِمن يشاء وينزعه ممن يشاء ، أي : إنه يؤتيه للمصلح وينزعه من المُفسِد الذي أُعطيت له الفرصة ولم يغتنمها ويستثمرها الاستثمار الأمثل في العمل الأصلح . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [5] . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ

---

(1) المائدة ، 116 .

(2) يونس ، 88 ، 89 .

(3) الحديد ، 11 ، 12 .

(4) الأحقاف ، 13 ، 14 .

(5) التوبة ، 7 .

ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ (1) .

ـ **الاعتبار السابع النصيب من الدنيا** : ٱلله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم ؛ لأجل أن يكون خليفة له في الأرض ، وليعمل فيها صالحاً ، ولهٰذا خلق له الثمرات والخيرات الكثيرة ليعيش حياته ويأخذ نصيبه منها ولا يعتدي علىٰ نصيب الآخرين الذين لهم الحق فيها مثلما له الحق . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (2) .

ـ **الاعتبار الثامن الحمد والشكر علىٰ العطاء** : قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ (4) .

وباستمرارنا في تبيان أبعاد الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ نلحظ : أن المُلك جاء مطلقاً ، ولم يقتصر علىٰ مُلكٍ بعينه ، فجاء جامعاً لكل مُلك من نبوةٍ

---

(1) فصلت ، 30 ، 31 .

(2) القصص ، 77 .

(3) المؤمنون ، 28ـ31 .

(4) إبراهيم ، 7 .

وسلطان ، ومال إلىٰ الصحة والشفاء والعافية ، ومن النجاة من النار إلىٰ الدخول في الجنة . ولهـٰذا فالملك يدل علىٰ أيِّ مُلك مهما عدَّدنا ، وسمَّينا ؛ لا نستطيع حصره .

و(يؤتي المُلك) تعني : يُنعِمُ ٱلله به ويرحم من هم في أشد الحاجة إليه ، ولذا فالحاجة التي بها يُنال الملك لا يُقدِّرها إلا هو عز وجل ، فيؤتي ويُمنح المُلك لمن يشاء ، وينزعه ممَّن يشاء . ولذا فالقاعدة هي : (يُؤتىٰ المُلك لمن يشاء ، ويُنزع ممَّن يشاء) .

وإعطاء المُلك ليس هو الغاية ، بل الغاية تكمن من وراء إعطائه ، فبالملك يُعزُّ البعض ، وبه يُذلُّ البعض . فمن يعمل صالحاً يرضاه ٱلله يعزه ٱلله بملكه ، ومن يُفسد في الأرض ويَسفِكُ الدماء فيها بغير حق يذله ٱلله بملكه . ولهـٰذا لا ينبغي أن يغترَّ من يؤتىٰ ، أو يُوهب ملكاً ، فالعزة دائماً لله وحده . ولأن الأمر كذلك فإن الخليفة مهما أُوتي من ملك فهو يتقي ٱلله ربَّه ، ولا يشرك بعبادته أحداً .

وقوله : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ تدل علىٰ : أن الخير كلَّ الخير هو من أفعال ٱلله عز وجل ، أمَّا أفعال الشر كلَّ الشر ؛ فلا تأتي إلا من أيدي البشر المفسدين في الأرض ، بأكلهم أموال الناس بالباطل ، وقتلهم النفس التي حرَّم ٱلله إلا بالحق ، وبتطفيفهم للميزان ، ونقصهم للكيل إذا ما اكتالوا ، وأكلهم للربا ، وبكلِّ فعلٍ أو سلوكٍ يقومون به ، أو يقدِمون عليه ، وهو منهيٌّ عنه ، أو مُحرَّمٌ من عند ٱلله تعالىٰ .

وعليه ، خص المعز جل جلاله الخير لأنه بيده ، والخير هو الاستجابة للدعاء والرغبة والتفضيل من قبل المؤمن الداعي ربَّه خوفاً وطمعاً . أمَّا الشر فهو بيد الناس الذين لا يُصلِحونَ في الأرض ، ولذا فالخير ، والحسنة من عند ٱلله ، والشرُّ ، والسيئة من عند الناس . قال تعالىٰ : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ

ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [2] . في هـٰذه الآية الكريمة تنزيه للذات الربَّانية مما يقوله الكفرة والمشركون . و﴿ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ ﴾ ربُّ المكارم والفضائل والقوة المطلقة والخير الوفير ، وربها تعني : مالكها والمهيمن عليها ، فلا تفلت منه أبداً ، ولن تؤتىٰ العزة أو تُمنح إلا منه ، ولذلك في العزة مناصرة ، وعون ، وسند ، ودعم ، وتأييد ، ومغالبة ، فسبحان ربِ العِزةِ عمَّا يصفون !

وعليه لم تكن العزة هدفاً يُنجز ، بل غاية تُبلغ بالأعمال ، فالعزة متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة ، ولم يكن حالها كحال الأعمال المنفصلة ، فمن يُعزُّ في الدنيا ؛ يُعزُّ في الآخرة .

ولأن ٱلله عزَّ وجل كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالىٰ : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيه له عن القصور والحاجة ، والصاحبة والولد ، ولهـٰذا فالعزة صفة ذاتٍ ، وصفة فعل .

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ اعتراف إيماني بجميع الرسل ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [3] . ولذا فمن وجوب الإيمان بالرُسُل ألا نُفرق بينهم ، مع علمنا التام بتفضيل ٱلله لبعضهم علىٰ بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية .

﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ شكر بعد اعتراف وتقدير للعزة والرحمة

---

(1) النساء ، 79 .
(2) الصافات ، 180ـ182 .
(3) البقرة ، 285 .

الربَّانية ؛ التي تمتد وراء كل شيء ، مما يجعل المؤمن موحداً لله تعالىٰ ، ومصلياً ، ومسلماً علىٰ أنبيائه ورسله ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ـ الذين جاؤوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخير .

ولأن العزة لا تتحقق إلا بالنية والأعمال الخيرة ، لذا فالمُعزُّ يَعِزُّ الإنسان بالمعطيات الآتية :

ـ **العزة بالإيمان** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (1) .

ـ **العزة بالفضل** : قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ (3) .

ـ **العزة بالعقل** : الذي به نتذكَّر ونتفكَّر : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (5) . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ

(1) الشورىٰ ، 51 ، 52 .
(2) البقرة ، 64 .
(3) آل عمران ، 172ـ174 .
(4) القصص ، 43 .
(5) القصص ، 51 .

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [2] .

ـ **العزة بالنعيم** : قال تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4] .

ـ **العزة بالاستجابة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [5] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ ﴾ [6] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [7] وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [8] .

ـ **العزة بالعمل الصالح** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [9] .

ـ **العزة بالاستغفار والتوبة** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ

---

(1) الزمر ، 27 .
(2) البقرة ، 269 .
(3) البقرة ، 271 .
(4) البقرة ، 274 .
(5) الأنبياء ، 76 .
(6) الأنبياء ، 84 .
(7) الأنبياء ، 88 .
(8) الأنبياء ، 90 .
(9) البقرة ، 62 .

ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [2] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [3] .

ـ **العزة بالاستخلاف** : قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [4] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [5] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [6] .

العزة بالرحمة : قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [7] .

المُعِزُّ ، هو الذي يعزُّ من في نفسه نية صافية وصادقة ، وهو الذي يأمل النجاح في الأفعال الحسنة ، ويأمل الابتعاد عن الأفعال السيئة ، ولذا فمن يعز الحقَّ يعزه المعزُّ جل جلاله !

---

(1) آل عمران ، 135 .
(2) النساء ، 64 .
(3) الأنفال ، 33 .
(4) النور ، 55 .
(5) الأعراف ، 74 .
(6) الأنعام ، 165 .
(7) البقرة ، 105 .

المُعِزُّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده [1] . والمعز ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره .

والعَـزِيـزُ مـن صفـات ٱلله ـ عـز وجـل ـ وأسمـائـه الحسنىٰ ، وهو : « الممتنع ، فلا يغلبه شيء ، وهو القوي الغالب كل شيء ، وهو الذي ليس كمثله شيء » [2] .

والعِزُّ خلاف الذُّلِّ ، والعِزُّ في الأَصل : القوة ، والشدَّة ، والغلبة ، والعِزُّ ، والعِزَّة : الرفعة ، والامتناع . قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : لـه العِـزَّة والغلبـة ، سبحـانـه ! وقـال فـي التنـزيـل العزيز : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أَي : من كان يريد بعبادته غير ٱلله فإنما له العِزَّة في الدنيا . ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أَي : يجمعها في الدنيا والآخرة بأَن يَنْصُر في الدنيا ، ويغلب [3] . ومن هنا كان الاستخلاف للإنسان في الأرض عزَّةً .

الخلافة عزٌّ : قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

(1) لسان العرب ، ج 5 ، ص 374 .
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) .

فالآيات البيّنات توضح نوعاً من تجلِّيات المعز لم يشر إليه الكثير ، فأول مظهر من مظاهر العز الرباني لآدم كان الأمر بالخلافة ، ودعوة الملائكة بالسجود ، وتمثل ذلك في قوله تعالىٰ مخبراً للنبي ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فالله المعز فعلُه كلامٌ ، وعطاؤه كلامٌ ، ومنعه كلام ، فهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو سبحانه أراد أن يعز آدم وذريته فأخرج آدم من تراب ، ونفخ فيه من روحه ، واستخلفه في الأرض ، وأعزه وذريته فيها ومِنْ عزِّ ٱلله لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (2) . ويقول ٱلله في نفس السياق : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (3) .

فقد أعز ٱلله آدم إذ خلقه ، وسواه وعدله في أحسن صورة وأكرمه ، وأسجد له الملائكة ، ولم يكن سجود الملائكة سجود عبادة بل سجود تحية لآدم ، وسجود طاعة لله ربِّ العالمين ، فكان للملائكة موقف استفسار واستبيان : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

---

(1) البقرة 30 ـ 37 .
(2) الحجر ، 28 ـ 31 .
(3) ص 72 ـ 76 .

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فعلم الملائكة : أنهم المسبحون لله الحامدون لله المقدسون لذاته ، فلم هـٰذا المخلوق الذي أعزه ٱلله بهـٰذا الشرف الاستخلافي في الأرض ؟ وهنا يخبرهم ٱلله : أن عزه لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن عزَّ اختيار لتعمير الأرض فقط ، ولـٰكن عزٌّ من نوع جديد وهو عز العلم واكتشاف الأسرار ، ووضع الأسماء للأشياء التي لم تسمَّ . ويا سبحان ٱلله ! فمن هـٰذا النوع ، وهو التسمية : أن الأرض لها في كل لغة من اللغات التي يتحدث بها البشر مسمًّىٰ تقترب المسميات ، أو تبتعد في المخارج ، ولـٰكن المدلول واحد . وقس علىٰ ذلك ملايين المفردات الموجودة في لغات البشر فمن سمَّاها وأعطاها دلالتها ؟ لا أحد سوىٰ تلك القدرة الخارقة التي منحها ٱلله لآدم في حضرة العزة التي أعزَّه فيها ، فقال ٱلله تعالىٰ للملائكة : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ففضل آدم عملي خلَّاق فهو الذي يغير الأشياء للأجمل إبداعاً بآلة العقل التي منحتها له ، والعلم الذي يفجره لتوظيف ما خلقتُه علىٰ الأرض لخدمة مهمة الخلافة ، لذلك فالله قال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ لذا فتفضيل آدم ليس بالخلق من الطين ، والسجود ، ولـٰكن هناك تفضيل آخر ، وهو الأمانة التي حملها ، وهي العقل ، والتفكير ، والتحليل ، ووضع القواعد ، أو ما يمكن أن نسميه التهيئة والإعداد المسبق لتولي الخلافة ، ومن يترجم التهيئة الذاتية لأفعال من بناء وزراعة وحفر للآبار وشق للأنهار ووضع السدود ونقش العلوم في العقول والمعارف في القلوب والسمو في الأرواح ؛ فهو الذي استفاد من التهيئة الربانية لتولي الخلافة علىٰ الأرض .

والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا الأرض بالتحديد لاختيار آدم لمهمة الخلافة ؟ .

الإجابة ببساطة : لأنها البيئة الملائمة لإخراج التهيئة الربانية إلىٰ أفعال من إقامة عدل ، وإحقاق حق ، وإبطال باطل ، فهـٰذه الأشياء التي نسميها نحن في الأرض ظلم ، وكذب ، وزور ، وغير ذلك من سلبيات ليست موجودة في عالم الملائكة ، ولا في عالم الكواكب ، والنجوم المكتشفة ، إنما هي موجودة في عالمنا ، ومن حوّلها إلىٰ نقائضها فهو الذي أظهر عزَّ ٱلله وظهر فيه عز ٱلله ، فالملائكة مجبولة علىٰ الطاعة هي وغيرها من الكائنات التي لم تستخلف ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [1] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ في الأرض ، ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا ﴾ ، أي : يتحول الظل عن اليمن والشمال أثناء الحركة الممتدة من الشروق إلىٰ الغروب ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ ، يعني يتحول الظل ، فإذا زالت الشمس ، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق ، كسجود كل شيء في الأرض لله تعالىٰ ، وظله في النهار ساجد لله دون اختيار . ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ : صاغرون . ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ من الملائكة ، ﴿ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فالكل يسجدون لأنهم جبلوا علىٰ ذلك . ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ من الملائكة وغيرهم وكل شيء في السماء والأرض ، ووصف ٱلله الملائكة ، فقال : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فهم لا يتكبرون عن السجود لأنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ لأن ٱلله تعالىٰ فوق كل شيء ، أي : شاهد عليهم حيث لا تخفىٰ عنه خافية في الأرض أو السماء ، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ فهم لا اختيار لهم ، وهنا الفرق بين المكلف بالخلافة ، وغير المكلف .

ولما أقيمت الحجة في الاستخلاف كان الأمر بالسجود طاعة لله

(1) النحل ، 48ـ49 .

وتسليما لآدم بحقه في الخلافة ؛ لأن ذلك إعزاز من ٱلله ، فسجدت الملائكة مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . فأطاعت الملائكة إلا واحداً ليس من الملائكة ، ورفض أن يعز ٱلله آدم ؛ لذا فقد قال متكبراً : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (1) والمعنىٰ الذي ورد إلىٰ الذهن من الاسم المعز هو قول إبليس : فبعزتك ، أي : (فبعزتك) له عليَّ وتفضيله بالخلافة ؛ وأنا أفضل منه ، فسأغويه ، وأردُّه عن الحق إلا العباد الذين ستعزهم ، وتمنعهم مني ، وكان دافع إبليس في رفض خلافة آدم والسجود له الحسد ، والكِبْر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد ، والكبر ، والكفار لم يستجيبوا للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسبب الحسد والكبر .

والمستفاد من صراع إبليس ضد آدم البعد عن هاتين الخصلتين المذمومتين ، والله تعالىٰ حث المستخلفين المكلفين بالنظر ، والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد ، فسؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر واستخلافهم يدل علىٰ أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبُّر ، وإبليس إنما خاصم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأجل الحسد ، والكِبْر فيجب علىٰ العاقل أن يبتعد عنهما .

ولما وقع آدم في المعصية التي أخرجته من الجنة ، ونزل بها إلىٰ الأرض أعزَّه ٱلله بالتوبة نكايةً في إبليس ، وكأنَّ هـٰذه المعصية كانت للاختبار وللتهيئة

(1) ص ، 82 ، 83 .

حتىٰ يمارس آدم الاستخلاف في الأرض بدربةٍ ، وتلقين ، وفطنة ، ومن المعلوم : أن آدم لم تذكر له معصيةٌ لمَّا نزل الأرض .

وعندما انتشرت المعصية ، وابتعد أبناء آدم عن الوضع الطبيعي لهم في ممارسة واجبات الخلافة ؛ قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) .

ونعلم : أن هـٰذه الآية لها سياق آخر ، وأنها أخبرت عن المرتدين ، ولـٰكـن القـرآن صـالـح لكـل زمـان ومكـان ، ولا ضيـر أن نـوظـف معـانيـه بما لا يتعارض مع المعنىٰ العام له بلا شطط ، ولا شطح ، بل بوسطية ، وعقلانية . فهـٰؤلاء الذين يحبهم ٱلله في كل وقت ومن نعتهم أن جانِبَهم غليظٌ علىٰ الكافرين لَيِّنٌ علىٰ المؤمنين يَتَذَلَّلُون للمؤمنين وإِن كانوا أَعِزَّةً ويَتَعَزَّزُون علىٰ الكافرين وإِن كانوا في شَرَف الأَحْساب دونهم ، وهم الذين يصلحون ولا يفسدون ويصفون الدواء للداء الذي يعطل أمر ٱلله في الأرض ، ويعزون الذليل إن كان معه الحق ، ويذلون العزيز إن كان عليه الحق . ولله در أبي بكر خليفة رسول ٱلله حين قال في هـٰذا المعنىٰ : بعد حمد ٱلله والصلاة علىٰ النبي ﷺ : « أما بعد ، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت ؛ فأعينوني ، وإن أسأت ؛ فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتىٰ أزيح علته إن شاء ٱلله ، والقوي فيكم ضعيف حتىٰ آخذ منه الحق إن شاء ٱلله ، لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل ٱلله إلا ضربهم ٱلله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم ٱلله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت ٱلله ورسوله ، فإذا عصيت ٱلله ورسوله ؛ فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلىٰ صلاتكم يرحمكم ٱلله ! » فقوله ـ رضي ٱلله عنه ـ : « وُلِّيتُ عليكم ، ولست بخيركم » من باب الهضم والتواضع ، فإنهم

(1) المائدة 54 .

مجمعون علىٰ أنه أفضلهم وخيرهم ، رضي ٱلله عنهم »[1] ، فمن يفعل ما فعله سيدنا أبو بكر ؛ فهو من خلفاء ٱلله في الأرض الذين تخلقوا بأخلاق الاسم المعز ؛ لذا فالنصر والغلبة للأعز الذي استلهم العز من ٱلله ، ولا علاقة بالغلبة والعزة بالعدد ؛ لأن ٱلله المعز يقول : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] .

فقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ ﴾ أي : خرج وشخص . وفي عدد من خرج معه ثلاثة أقوال . أحدها : سبعون ألفاً ، قاله ابن عباس . والثاني : ثمانون ألفاً ، قاله عكرمة والسدي . والثالث : مئة ألف ، قاله مقاتل . قال : وساروا في حرٍّ شديد ، فابتلاهم ٱلله بالنهر . والابتلاء : الاختبار . ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ، ومن ليس له نية . فقال : ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي : ليس من أصحابي . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « غَرفة » بفتح الغين ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ،

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير ، ج 4 ، ص 493 .

(2) البقرة 249 ـ 252

والكسائي بضمها ، قال الزجاج : مَنْ فتح الغين أراد المرة الواحدة باليد ، ومن ضمها أراد ملء اليد . وزعم مقاتل : أن الغرفة كان يشرب منها الرجل ، ودابته ، وخدمه ويملأ قربته . وقال بعض المفسرين : لم يُرِدْ به غرفة الكف ، وإنما أراد المرة الواحدة بقربة ، أو جرة ، أو ما أشبه ذلك . وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ﴾ أي : لا قوة لنا ، ولا قدرة .

فالحق عزيز بعز ٱلله ومعزته لأهله وإن كان قليل العدد كما مرَّ بنا في القصص القرآني الذي فيه العبرة ، والعظة ، واستلهام المعاني ، ولما قال المغرور بالعدد والمال عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين : لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ ، فأعزَّ ٱلله النبي ، والفئة المؤمنة ، وهـٰذا ما ترويه لنا كتب السيرة : « فبينما الناس علىٰ ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه ، وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج علىٰ الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار !

وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين !

فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا ، وكاثرونا في بلادنا ؟ والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هـٰذه إلا كما قال الأول : « سمن كلبك يأكلك ! » أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ !

ثم أقبل علىٰ مَنْ حضره من قومه ، فقال : هـٰذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلىٰ غير داركم !

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشىٰ به إلىٰ رسول ٱلله ﷺ فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله .

فقال رسول ٱلله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ! لا ، ولٰكن أذِّن بالرحيل .

وذلك في ساعة لم يكن رسول ٱلله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وقد مشىٰ عبد الله بن أبي ابن سلول إلىٰ رسول الله ﷺ حين بلغه : أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول ٱلله عسىٰ أن يكون الغلام أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل [1] !

فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا رسول ٱلله ! لقد رحتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها .

فقال له رسول الله ﷺ : « أوما بلغك ما قال صاحبكم عبد الله بن أبي ؟ » . قال : وما قال ؟ قال : « زعم إن رجع إلىٰ المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ » . فقال أسيد : فأنت والله يا رسول ٱلله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول ٱلله ! أرفق به ، فوالله لقد جاء ٱلله بك ، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ؛ ليتوجوه ، فإنه ليرىٰ : أنك قد استلبته ملكاً .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه ، فأتىٰ رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول ٱلله ! إنه بلغني : أنك تريد قتل عبد الله بن أبي ؛ لما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً ؛ فَمُرْني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالديه مني ، وإني أخشىٰ أن تأمر

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير ، ج 3 ، ص 299 .

به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلىٰ قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا » . قالوا : وسار رسول الله ﷺ يومهم ذلك حتىٰ أمسىٰ ، وليلتهم حتىٰ أصبح ، وصَدْرَ يومهم ذلك حتىٰ آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي [1] .

ونزلت الآيات التي قال ٱلله تعالىٰ فيها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

فأنزل ٱلله تعالىٰ سورة المنافقين في تصديق زيد ، وتكذيب عبد الله . فلما نزلت أخذرسول الله ﷺ بأذن زيد ، وقال : « يا زيد ! إن ٱلله صدقك ، وأوفىٰ بأذنك » .

وكان عبد الله بن أُبيّ بقرب المدينة ، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله ؛ حتىٰ أناخ علىٰ مجامع طرق المدينة ، فلما جاء عبد الله بن أبي ؛ قال : وراءك ، قال : مالك ويلك ؟ ! قال : لا والله لا تدخلها أبدًا إلا بإذن رسول الله ﷺ ، ولتعلمن اليوم مَنِ الأعزُّ ، ومن الأذلُّ . فشكا عبد ٱلله إلىٰ رسول الله ﷺ ما صنع ابنه ، فأرسل إليه

(1) تفسير البغوي ، ج 8 ، ص 132 .
(2) المنافقون ، 5ـ8

رسول الله ﷺ أن خلِّ عنه حتىٰ يدخل ، فقال : أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم ، فدخل ، فلم يلبث إلا أيامًا قلائل حتىٰ اشتكىٰ ومات .

قالوا : فلما نزلت الآية ، وبان كذب عبد الله بن أبي ؛ قيل له : يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آيٌ شداد ، فاذهب إلىٰ رسول الله ﷺ يستغفر لك ، فلوىٰ رأسه ثم قال : أمرتموني أن أؤمن فآمنت ، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد [1] ! فأنزل ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [2] .

والقرآن الكريم فيه العزة لمن أراد العزة ، فقد قال ٱلله في فضل القرآن الكريم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [3] . فإن الكتب التي تقدّمت عليه في الزمان لا تبطله ولا يأْتي بعده كتاب يبطله وهو محفوظ من أَن يُنْقَصَ ما فيه ، فيأْتيه الباطل من بين يديه أَو يُزاد فيه ، فيأْتيه الباطل من خلفه ، وكِلا الوجهين حَسَنٌ ، فقد حُفِظَ ، وعَزَّ مِنْ أَن يلحقه شيء من هـٰذا . ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ والعزيز : الثمين الذي لا يساويه شيء ، وهو المحبوب بما فيه من آيات تطمئن الأنفس بها ، وتنير دروب الضالين إلىٰ الهداية ، ودروب المستخلفين إلىٰ الجنة .

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ﴾ وذلك لأنه الحق المطلق ،

---

(1) تفسير البغوي ، ج 8 ، ص 133 .
(2) المنافقون 5 ـ 7 .
(3) فصلت 41 ، 42

والحق المطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو كتاب الكافة الذي لا يجيء كتاب من بعده بالمطلق . والقرآن محفوظ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ (2) ، ولهـٰذا فهو كتاب عزيز ، ومن تمسَّك به فهو مُعَزٌّ .

وعليه الشعور بالعزة في طاعة ٱلله تعالىٰ يجعل الطائع عزيزاً ، والعزة بطاعة ٱلله تجعل الطائع مُعَزّاً . وعلينا أن نفرق بين العزة ، والغرور ، والتكبر :

العزة : لا تكون إلا لعزيز النفس طيب الإرادة محب الخير يقدم علىٰ ما يجب الإقدام عليه ، ويبتعد عما يجب الابتعاد عنه ، ويتجنب ما يجب تجنبه ، وينتهي عما يجب الانتهاء عنه ، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض المفلحين فيها بالعمار ، وأفعال الخيرات الحسان .

الغرور : الظهور بحسابات في غير محلها ، وعدم تقدير للمواقف والإقدام في غير زمانه ومكانه وموضعه ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ (3) .

التكبر : مغالاة في غير محلها ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ (4) ، وقال

(1) الحجر 9 .
(2) البروج 19 ـ 22 .
(3) لقمان 33 .
(4) غافر 26 ، 27 .

تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ (1) .

إنَّ الشعور بالعزة المفرطة يؤدي إلىٰ الكبر ، والشعور بالتواضع المفرط يؤدي إلىٰ الهوان . والاثنان يتنافيان مع الاسم المعز ، ولـكن القصد في أن يبتغي المتخلق بالعز بين ذلك سبيلاً ، فلا يكون المتخلق بالمعز من تأخذه العزة إن أخطأ ، بل يعود فيصلح من خطئه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (2) ، فلا يتخذ الإنسان موقفاً غير صحيح لمن يرشده إلىٰ خطئه ، بل يجب عليه أن يعود إلىٰ رشده ، ويصلح من إحساسه المفرط بأنه علىٰ الصواب ، ويتمثل بالخلق المتواضع في رحمة من غير ضعف . الذي كان يتحلىٰ به النبي ﷺ هو الذي أعزه ٱلله به ، وذلك حين أمره ٱلله تعالىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (3) فالرحمة فيها العز بشرط أن تكون لمن يستحق .

ومن المعلوم : أن العز بيد ٱلله ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير ، فقد أعز آدم ، وأذل إبليس ، فقد أعز نوحاً بالطوفان ، وأذلَّ الكافرين بالطوفان نفسه ، فقد أعز إبراهيم بالنار ، وهي أداة الذل للكافرين يوم القيامة ، وقد أعز موسىٰ ، وأذل فرعون لأن ٱلله المعز بيده الملك ، فسخر الطوفان والنار والبحر لأوليائه وأنبيائه فأعزهم بها ، وقد أعز ٱلله بيته لما جاء أبرهة يهدمه أعزه بطائر قليل الحجم يحمل حجارة

---

(1) غافر 35 .

(2) البقرة204 ، 207

(3) الحجر ، 88 ، 89 .

صغيرة ، فأذل أبرهة وجنوده ، وقد أعز النبي محمد ﷺ بالإسلام ، ولم يمنع عزه عنا ما دمنا نؤمن بأنه المعز فقد علَّم النبي ﷺ سبطه الحسن بن عليٍّ هٰذا الدعاء . فعَنِ الْحَسَنِ بن عَلِيٍّ ـ رضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ـ ، قَالَ : عَلَّمَنِي جَدِّي رسول الله ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ »[1] . فلا معزَّ لمن أذل ٱلله ، ولا مذل لمن أعز ٱلله .

اللهُمَّ ألبسنا ثوباً من العز لا نذل به ، فإنك علىٰ كل شيء قدير ، وأعزنا بالإيمان وبالقرآن وباتباع خير الأنام سيدنا محمد ، عليه الصلاة والسلام ! اللهُمَّ أعز أقوالنا بالحق ، وأفعالنا بالحق ، وأعمالنا بالحق ، وعزنا بالقوة والقدرة ، ولا تجعلنا مستضعفين ، إنك المعز سبحانك جل جلالك !

اللهُمَّ يا المعز إنك تعز من تشاء متىٰ تشاء ، فأعزنا كما تشاء بالإيمان والعلم والحكمة والملك والغنىٰ والصحة والعافية يا خالق الأرض والسمٰوات العلا ، وما بينهما ، وما تحت الثرىٰ يا ٱلله !

اللهُمَّ عزنا بتدبُّر القرآن ، وطاعة الوالدين في رضاك والإحسان ، واتباع الصدق ، وتجنب الخذلان ، وعزنا بقول الحق ، وفعل الحق ، وإزهاق الباطل ! اللهُمَّ إنك تعز أهل الطاعة بالطاعة ، فاجعلنا لك طائعين لا نقدم علىٰ شيء لا ترضاه ، ولا نتخلف ، أو نتأخر عن شيء ترضاه .

اللهُمَّ يا المعز عزنا بصفاء النية ، والإخلاص في العمل ، وأداء الفرائض ! اللهُمَّ أعزنا في معاركنا مع الباطل بجند من جندك كما أعززت سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في معاركه حتىٰ أحقَّ الحقَّ ، وأزهق الباطل ، وبلَّغ الرسالة !

---

(1) المعجم الكبير للطبراني ، ج 3 ، ص 125 .

المُذِلُّ جلّ جلاله

المذل : هو مذل« أهل معصيته ، وأعدائه ذلاً في الدنيا ، والآخرة [1] .

« المذل : الله تعالىٰ يذل طغاة خلقه ، وعتاتهم حكماً ، وفعلاً ، فمن كان منهم في ظاهر أمور الدنيا ذليلا فهو ذليل حكماً ، وفعلاً » [2] .

وَالْمُذِلُّ : « هُوَ الْمُعَرِّضُ لِلْهَوَانِ وَالضَّعَةِ » [3] .

وقال ابن القيم :

وهـو المـذلُّ لمـن يشـاء بـذلـةِ الـدَّاريـن ذلَّ شقـا وذلَّ هـوانِ [4]

المذل : هو القوي القادر ، الذي لا قويَّ ، ولا قادر مثله ، وإلا هل يعقل أن يذل أحدٌ أحداً بدون قدرة ، وقوة ؟ .

ولذا فإن المذل هو القويُّ القادر ، وهو الذي يعلم كلَّ شيء . وأَخُصُّ بخصوصية الاسم المذل الآتي :

أولاً : يعلم الموضوع في دائرتين :

الأولىٰ : دائرة المستحيل : وهي دائرة علم الغيب ، التي تحتوي كلَّ ما لا يعلمه الخليفة .

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 97 .

(2) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 41 .

(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 2 ، ص 211 .

(4) شرح قصيدة ابن القيم؛ ج 2 ، ص 36 .

الثانية : دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ، وهو الذي بسببه يكون الذل بأثر موجب ، أو بأثر سالب . ولأن هـٰذه الدائرة هي دائرة الممكن ؛ فإن الذي خلقه المذل المطلق في أحسن تقويم يمكنه إدراكها ، ولـٰكن فيما هو متوقع لا استغراب ، وفيما هو غير متوقع يحدث الاستغراب ، والمفاجأة التي من بعدها يتُّم التصويب ، أو الإصلاح .

ثانياً : يعلم الفعل المترتب علىٰ الموضوع قبل حدوثه : أو وقوعه ثم يأتي من بعده الخليفة عالماً ، وهناك من العباد الصالحين من يظهرهم المذل المطلق علىٰ شيء من آياته وهي في علم الغيب قبل وقوعها أو ظهورها للعباد كما أظهر ٱلله للسيد الخضر ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ أمر السفينة ، والملك ، والغلام ، والوالدين الصالحين ، والجدار ، والمساكين .

ثالثاً : يعلم المُذَلَّ : وهو الذي وُجه له الفعل الذي به ذُلَّ ، أي : هو الذي قُهِرَ بالمغالبة ، وبعلمه المطلق يعلم الأثر الذي تركه الموضع ، والفعل المذل علىٰ المُذَل بالقوة والقدرة .

ومع أن لغة الذُّل نقيضُ العزِّ ، إلا أن ذلَّ الكافر عزٌّ للمؤمن ، وذلَّ المؤمن عزٌّ للكافر ، وهـٰكذا ما يبدو موجباً لأحد قد لا يكون كذلك للآخر .

والمُذِلُّ في أسماء ٱلله تعالىٰ هو الذي يُلْحِقُ الذُّلَّ بمن شاء من عباده ، ويعفو عن كثير .

وقد جاء في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (1) ، غضب ٱلله عليهم بما فعلوا ، ويفعلون سينالهم لا محالة ، وهـٰذا أمر يقين لا شك فيه ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى

(1) الأعراف ، 152 .

﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [1] . والذلة هي الهوان لعقوبة ٱلله تعالىٰ ، وتحدث الذلة في الحياة الدنيا ، وهـٰذه من الآيات الشواهد للعباد حتىٰ يتذكروا ، ويذكروا ٱلله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ؛ ليكفِّروا عن سيئاتهم وذنوبهم بالتوبة .

وقال ابن كثير في تفسيره لهـٰذه الآية : إن الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادتهم العجل يتمثل في أن ٱلله عز وجل لم يقبل لهم توبةً حتىٰ قتل بعضهم بعضاً كما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] ، من يتخذ من دون ٱلله إلـٰها أشرك وظلم نفسه التي لن تُفدىٰ إلا بذاتها : وهو تنفيذ أمر القتل (قتل النفس) بالحق ، ومن قتل نفسه بالحق تاب ٱلله عليه بأمر الطاعة ، وهو قبول التنفيذ لأمر القتل .

ومع أن في الذل مغالبةً إلا أنه يحتوي ، ويشتمل علىٰ الِّلين مما يجعل اللين رحمة علىٰ العباد من المُذِل المطلق ، وبهـٰذا الأمر يألف الإنسان أخيه الإنسان وتألف الكائنات بعضها بعضاً ، ويألف الحيوان الإنسان ، وهـٰكذا بفضل الإذلال تسود الرحمة والتفاهم والتجاوب ، وتعمُّ الفوائد ، وتتبادل .

والذل الرفق ، والرحمة كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [3] . جناح الذل : هو الطاعة في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، ولأن طاعة الوالدين رحمةٌ فإن طاعتهما هي المحققة والمُمكِّنة من بلوغ الرحمة ، ولهـٰذا يقال : إن الجنة تحت أقدام الأمهات ،

---

(1) يـٰس 82 ، 83 .
(2) البقرة ، 54 .
(3) الإسراء ، 24 .

ولأن الأمر يتعلق بالوالدين معاً ؛ فإن الأبناء ينالون الرحمة بتأدبهم ، ولين أقوالهم ، وأفعالهم ، وسلوكياتهم مع والديهم . ومع أنَّ الأبناء يخفضون لآبائهم أجنحة الذل من الرحمة ؛ لينالوا رحمةً من ٱلله التي تتحقق برضا الوالدين علىٰ الأبناء ، ومع ذلك ينبغي أن يواظب الأبناء علىٰ الدعاء لوالديهم بالرحمة ، التي بدعوتهم إياها يستجيب لهم الرحمـٰن الرحيم في حالتين :

الحالة الأولىٰ : يستجيب بالرحمة علىٰ الوالدين .

والحالة الثانية : يستجيب بالرحمة علىٰ الأبناء الذين استجابوا لأمر ٱلله تعالىٰ ، وبرضاء الوالدين عليهم .

وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ في صفة المؤمنين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) ولأن الكتاب في لوحٍ محفوظ ، فإن ارتد أحد عن دين الإسلام سيكون التعويض بالكثرة المؤمنة ، مما يجعل الردة الفردية في مقابل الدخول الجمعي ، أي : دخول الأقوام الذين يحبهم ٱلله بدخولهم الدين الإسلامي ، ويحبونه برحمته لهم بأن ألهمهم الحقَّ حتىٰ الهداية .

قال تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (2) ، أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِين ، أي : أشداء غلاظ علىٰ الكفار يعادونهم ، ويغالبونهم ، وقد قال عطاء : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كالولد لوالده ، والعبد لسيده ، ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ كالسبع علىٰ فريسته (3) .

(1) المائدة ، 54 .
(2) الفرقان ، 63 .
(3) تفسير البغوي ، 3 ، 78 .

واسم المذل جاء بما يدل عليه في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ (1) وقد ورد بصيغ أخرىٰ ، منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴾ (2) أي : إن ٱلله عز وجل لو أهلك هـٰؤلاء المشركين الذين يكذبون بالقرآن الكريم قبل أن يبعث إليهم داعياً يدعوهم ؛ لما أمر ٱلله تعالىٰ في القرآن الكريم بقتالهم وإذلالهم وإلحاق الخزي بهم يوم القيامة ، ويكون هلاكهم هـٰذا بواسطة عذابٍ مذل ومهين ومخزٍ لهم استحقوه بكفرهم بالله . والذل يكون بالعذاب في الدنيا ، والخزي يكون بدخول النار يوم القيامة (3) . وهـٰذا الوصف للعذاب كان بقولهم هم حيث وصفوا العذاب بالمُذِل والمخزي وعليه يكون الذي أذلَّهم حقيقةً هو ٱلله ، عز وجل . ومن هنا كان الذل من صفاته الحسان التي بها يُذكر جل جلاله ، فهو المنزل للعذاب عليهم ليس ظلماً ، ولـٰكن استحقوه باستعلائهم علىٰ الحق ، وكفرهم به ، فكانوا يستحقون هـٰذا الذل ، كما أن ٱلله عز وجل لا يضره أن ينزل العقاب بقوم ما إذا استحقوه ؛ لأنه هو العزيز الذي لا يرضىٰ الظلم ، فقد قال ٱلله سبحانه وتعالىٰ في قوم فرعون الذين ظلموا ، وأذلوا الناس باستعبادهم : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴾ (4) .

يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي

---

(1) آل عمران 26 .
(2) طه ، 134 .
(3) البحر المديد ، ج4 ، ص57 .
(4) القمر ، 42 .

ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (1) . يقول جلّ ثناؤه كذَّب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا ، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، أي : فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديدٍ لا يُغْلَبُ ، مقتدر علىٰ ما يشاء ، غير عاجز ولا ضعيف . وبهـٰذا يكون من صفات ٱلله تعالىٰ أنه مُذِلٌّ لمن يستحق الإذلال في الحين الذي يعز فيه من يستحق العزة . في الآيات السابقة تتضح قوة المذل كرهاً لمن يعصي ويكفر بما أنزل من معجزات عظام ، مع تأكيد مطلق بأن الهزيمة ستلحقهم لا محالة ويكون النصر حليف الخلفاء الذي آمنوا به ، وبما أنزل إيماناً تاماً له واحداً أحداً .

وقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، الضمير يعود علىٰ النبي محمد ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ ، الذي قال اللهم مالك الملك : ثم قال : تؤتي الملك لمن تشاء . ثم قال : وتنزع الملك ممن تشاء . ثم قال وتعز من تشاء ، ثم قال : وتذل من تشاء ، ثم قال : بيدك الخير . ولاستمرار الاعتراف بالمطلق قال : إنك علىٰ كل شيء قدير . فبقدرتك تعز من تشاء حتىٰ تُملِّكه ملكا يحكم به الناس ، وبمشيئتك تذله بعد عز إن لم يحكم بين الناس بالعدل ، وهناك من تجعله عبداً محكوماً بأمر سيده ، فتذله لأن يقبل بالعبودية التي تجعله يتودد لسيده بإذلال ، وهنا يكون الفرق بين إذلال المذل المطلق ، لأجل الإصلاح ، والاتعاظ ، ولأخذ العبر مما جاء به وأمر ، والنهي عما نهىٰ عنه وزجر ، وبين إذلال العبد للعبد وكأن الإذلال غاية في ذاته . وفي هـٰذه الآية أيضاً توضيح : أن ٱلله تعالىٰ هو الذي يرفع ، وهو الذي يخفض ، وهو الذي يعطي والذي يمنع ، وهو

---

(1) القمر ، 41ـ49 .

(2) آل عمران ، 26 .

المذل الذي يذل من يشاء من عباده اللذين يظنون أنفسهم أعزاء في الدنيا كالملوك والسلاطين وغيرهم من أصحاب المناصب العليا في الحياة الدنيا ، فهو قادر عز وجل علىٰ نزع هـٰذا الملك منهم متىٰ شاء ، وأن يذلهم بعد عزهم الذي كانوا فيه وهـٰذا ليس بكثير علىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، والقرآن يخبرنا بكثير من هـٰذه القصص ، و كماأن ٱلله عز وجل أذل ملوك الفرس ، والروم بعد ما كانوا فيه من العزة والغرور ، فقد أذلهم عز وجل للجيوش الإسلامية في أوائل عهد الفتوحات الإسلامية ، وأعز ٱلله عليهم من كانوا ينظرون إليهم نظرة ازدراء لضعف مكانتهم علىٰ حسب تقديرهم ، هـٰؤلاء المسلمون الذي نصرهم ٱلله تعالىٰ بنصره ، وأعزهم بعزه ، فأصبحوا أعزةً بين الناس بعدما كانوا ضعفاء في بداية الدعوة الإسلامية .

رفض الإسلام أن يُبْنىٰ علىٰ الضعف والهوان ، بل ربىٰ أتباعه علىٰ العزة والإباء ، وعلىٰ عدم الخضوع لغير ٱلله عز وجل ، وهـٰذا واضح في دعوة الإسلام لهـٰذا المبدأ ، حتىٰ إن الرسول ﷺ تمنىٰ أن يدخل الإسلام أحد العمرين لقوتهما . عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « اللهُمَّ أعز الإسلام بأحب هـٰذين الرجلين إليك : بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب . قال : فكان أحبهما إليه عمر »(1) .

وقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(2) .

الذلة : إحساس بالخوف ، وعدم الغلبة التي تجعل العبد في حالة يأس

(1) صحيح السيرة النبوية ، ج1 ، ص193 .
(2) يونس ، 26 ، 27 .

من أن يفوز ، أو ينتصر ، وهي ترتبط بالنفس ، فتجعلها ممتلئة بالرعب ، وفاقدة للطمأنينة . وفي هاتين الآيتين ورد ذكر ذله مرتين ، مرة منفياً عن أصحاب الجنة ومرة مثبتاً لأصحاب النار ، والذلة جاء وصفها في نفس الآية السابقة وهي أن وجوه أصحاب النار مسودة متجهمة كأنما أغشيت بقطع من الليل المظلم ، وهـٰذا الوصف الذي وصفهم به ٱلله عز وجل إنما ناتج عمَّا أصابهم من خزي وإذلال بسبب ما كسبوا من السيئات ؛ التي يعاقبهم ٱلله عنها ، وقد نفىٰ تعالىٰ هـٰذه الكلمة عن الذين آمنوا وعملوا الطاعات والحسنات فاستحقوا بذلك رضا ٱلله تعالىٰ عنهم وكانت الجنة جزاءً لهم علىٰ أعمالهم ، وزادهم ٱلله بشرف النظر إلىٰ وجهه الكريم فلا يصيبهم بعد ذلك قتر ، ولا ذل ، أما أصحاب النار فتعلوا علىٰ وجوههم المذلة والهوان وذلك بعقاب ٱلله تعالىٰ علىٰ أعمالهم في الدنيا [1] .

وجاء في هـٰذا المعنىٰ أيضاً قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [2] ، وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ أيضاً مبيناً : أن ما يلحق بالعباد من عزة ونعيم أو من ذلة وعذاب يكون نتيجة ما قدموه من أعمال ، ولا يكون ظلماً للعباد ، فقال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [4] .

---

(1) تفسير الطبري ، ج15 ، ص73 .
(2) عبس ، 38ـ42 .
(3) الملك ، 27 .
(4) آل عمران ، 106ـ108 .

من الآيات الكريمة السابقة يعلم الخليفة : أن الذل حق ، فلا يخالفه ، فيأخذ العبر ، ويقتدي بها ، فلا يذل أحدا من العباد ظلماً ، ولا يتجنىٰ عليهم ظلماً ، وإن حكم بينهم لا يحكم إلا بالعدل ، وإذا كان شاهداً عليهم لا يشهد زوراً ، وإذا عمل ؛ يصلح ولا يسفك الدماء في الأرض بغير حق ، ويعلم : أن الذل في غير محله ضلال فيجتنبه ، وإن فعله في زمانه ومكانه وموضوعه فيمن يتعلق الأمر به ؛ فليعلم : أنَّ ما يقوم به هو عبادة للمذل المطلق جل جلاله .

ولهٰذا كله لابد أن يكون خليفة ٱلله في أرضه متصفاً بصفات ٱلله عز وجل ، متخلقاً بها ، فكما يكون هٰذا الخليفة متكبراً عن ارتكاب المظالم والفواحش يكون رحيماً غفوراً حليماً ناصراً ودوداً كريماً قوياً إلىٰ آخر هٰذه الصفات التي وردت مضامينها في الآيات الكريمة السابقة ، ولابد أيضاً أن يتصف من يريد أن يكون خليفة لله سبحانه وتعالىٰ بهٰذه الصفة المتجلية في اسمه (المذل) ؛ إذ يجب أن يكون أولاً : مذلاً لنفسه من المعصية أو الشرك أو الظلم . وثانياً لغيره من ذات الصفات السالبة للكرامة التي لا تناسب الإنسان كونه مخلوقاً في أحسن تقويم . والإذلال للنفس لا يعني احتقارها والتقليل من شأنها وازدرائها ، فالإسلام دين عزة ، ودين قوة ، ولا يحب لأتباعه إلا الكرامة والهيبة وهٰذا ما نجده بيّناً وجليّاً في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) . ففي هٰذه الآية يوضح لنا ٱلله تعالىٰ عدة أشياء ، منها قدرته عز وجل علىٰ أن يستبدل الذين يتولون عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته بمن هم خير لها منهم ، وأشد منعة وأقوَم سبيلاً ، وهٰؤلاء هم قوم يحبهم ٱلله تعالىٰ ، ويحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم وأزواجهم وأموالهم وأبنائهم ، وفي هٰذا أيضاً

(1) المائدة ، 54 .

إيحاء بأن ٱلله عز وجل غنيٌّ عن العالمين ، ولا يحتاج عبادة عابد ، ولا تضره معصية عاصٍ ، وقد ورد هـٰذا المعنىٰ في أكثر من آية منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (3) .

ويخبرنا ٱلله بصفات عباده الذين يحبهم ويحبونه ، فمن صفاتهم : أنهم رحماء فيما بينهم متآخون في ٱلله علىٰ ما أمر باتِّباعه وما نهىٰ عن فعله ، فهم أعزة بمعنىٰ أشداء وأقوياء علىٰ أعدائهم ، وأنهم لا يخافون في الحق لومة لائم . وأنهم رحماء فيما بينهم .

وعليه فإن ذل النفس يكون بقهرها ، وإجبارها علىٰ هجر المعاصي والابتعاد عنها ، وتعويدها علىٰ العبادات والطاعات والقيام بكل ما أمر ٱلله تعالىٰ به في كتابه العزيز ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (4) . ذلك لأن النفس أمارة بالسوء كما في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (5) ، فإن نفوس العباد تأمرهم بما تهواه وإن كان هـٰذا الهوىٰ في غير رضا ٱلله ، إلا من يرحمه ٱلله عز وجل من خلقه ، فينجيه من اتباع الهوىٰ وطاعة نفسه فيما تأمره به من السوء (6) ، وقد جاء أمر ٱلله تعالىٰ لنا في أكثر من آية بعدم اتباع هوىٰ النفس كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ

(1) محمد ، 38 .
(2) النساء ، 133 .
(3) إبراهيم ، 19 ، 20 .
(4) البقرة ، 45 .
(5) يوسف ، 53 .
(6) تفسير الطبري ، ج 16 ، ص 142 .

بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) ففي هـٰذه الآية نهي عن اتباع هوىٰ النفس في ترك العدل ، وظلم الناس ، وقال تعالىٰ آمراً لمن يخلفونه في الأرض بعدم اتباع الهوىٰ ، وهـٰذا ما نراه جليّاً في أمره لسيدنا داوود ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (2) يُفهم من هـٰذه الآية الكريمة : أن استخلاف داوود ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان ليحكم بين الناس بالعدل ، لا أن يحكم الناس ، ولهـٰذا فالفرق كبير بين الحكم بين الناس الذي يأتي في حالات الاختلاف ، وبين حكم الناس الذي قد يكون علىٰ حساب حريتهم ، وممارسة حقوقهم ، وأداء واجباتهم ، وحمْل مسؤولياتهم . ففي هـٰذه الآية وصية من ٱلله تعالىٰ لخلفائه في الأرض ، ولولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالىٰ ، وأن لا يعدلوا عن هـٰذا الحق باتباع ما تحدثهم به أنفسهم من أهواء ، فيضلوا عن سبيله ، وقد توعد ٱلله عز وجل الذين يضلون عن سبيله بالعذاب الشديد والمهين يوم القيامة (3) .

وقد وصف ٱلله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز نبيه محمداً ﷺ بأنّه لا يتبع الهوىٰ فيما يخبر به أتباعه ، وفيما يطبق فيهم من شرائع ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (4) ، وهـٰذا وصف إلـٰهي لمن اختاره ٱلله من بين خلقه خليفة ليحكم بين الناس بالعدل ، والحكم بالعدل يستوجب قواعد معيارية يمكن قياسها أو قياس ما تتركه من أثر ، ولهـٰذا

(1) النساء ، 135 .

(2) ص ، 26 .

(3) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 62 .

(4) النجم ، 3ـ5 .

كان النصُّ الإلـٰهي هو المصدر الذي يحتكم به الخلفاء كما هو حال داوود ومحمد ، عليهما وعلىٰ جميع الأنبياء والرسل الصلاة والسلام . فما يحكم به الأنبياء والرسل لم يكن منطوقا عن هوىٰ ، بل هو من عند ٱلله ، وبإرادته العالية والكاملة .

ولقد اصطفىٰ ٱلله تعالىٰ الرسل والأنبياء ليكونوا هم الخلائف له في تبليغ شريعته لأهل الأرض ، حتىٰ لا يكون للناس حجة علىٰ ٱلله يوم القيامة ، ويكون المستخلفون من بعدهم خلفاء باتباعهم الوحي والسنن النبوية ، وخاتمتها سنة خاتم الأنبياء والرسل ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم . ولذلك جعل لكلٍّ شرعةً ومنهاجاً ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

ولأجل أن يكون الإنسان خليفة لله عز وجل عليه أن يلتزم بكل هـٰذه الصفات التي تؤهله لهـٰذا المقام العظيم ، وهو خلافة الخالق عز وجل ، وأول هـٰذه الصفات هي قهر النفس علىٰ فعل الطاعات ، وترك المعاصي وعدم اتباع هواها في ذلك . وقد وعد ٱلله سبحانه وتعالىٰ عباده الذين لا يتبعون أهواءهم فيما يحكمون بين الناس ويتبعون أوامر خالقهم ، بالجنة وهي النعيم الدائم الذي لا تعب فيه ، ولا نصب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (2) .

أما الإذلال للغير لا يكون معناه ظلمهم ، وقهرهم والتعدِّي عليهم بغير وجه حق ، ولـٰكن الإذلال يكون لكل من يستحق الإذلال بتكبره علىٰ الحق ، وتطاوله عليه وعلىٰ متبعيه ، سواء كان هـٰذا التطاول بالاعتداء علىٰ الدين ، أو

---

(1) النساء ، 165 .

(2) النازعات ، 40 ، 41 .

كان التطاول علىٰ من جاء رسولاً بالدين ، أو كان التطاول علىٰ المستخلفين به في الأرض من بعد الأنبياء والرسل الكرام ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً .

ولقد وجب التذلل لله تعالىٰ بالطاعة المطلقة ، والتذلل للرسل بالاتِّباع ، وللدين بالهداية ، وللوالدين بالطاعة النسبية (في غير معصية ٱلله) . ولهـٰذا من يذل نفسه تهذَّب ، ومن اتبع هواها ضل ، وهـٰذا الأمر هو الذي يفرق بين الخليفة وبين من حرم نفسه من أن يكون خليفة ، فالخليفة هو طائع لله تعالىٰ في كل أمر ، وغير الخليفة من أشرك ، وضل .

وعليه فالإذلال الإرادي باتباع الدين الخاتم هدايةً للحق بالحق ، واتقاءً لكلِّ شر وضلال وكفر أو شرك . أما أولئك المارقون المفسدون في الأرض ، وسافكو الدماء فيها بغير حق ؛ فهم الضالون ، ولذا لا يقنط عباد الرحمـٰن المستخلفون في الأرض من رحمة ٱلله عليهم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾ (1) ، وعليه فمقاومة الضالين حق وجهاد في سبيل ٱلله قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

(1) الزمر ، 53ـ56 .
(2) التوبة ، 73 .
(3) التوبة ، 41 .

بناءً علىٰ ما تقدَّم ، فإن الإذلال يأخذ صفتين :

الصفة الأولىٰ : خفض كامل لجناح الذل لله تعالىٰ ، وهو امتداد في مجالات الطاعة التامة لكل أمرٍ من المذل الأعلىٰ .

الصفة الثانية : امتلاك القوة والإعلان عنها واستخدامها في غير معصية ٱلله جل جلاله ، لأجل إحقاق حقٍّ ، وإزهاق باطل .

ولذلك فالخليفة هو الذي يقوم بهـٰذه الأفعال طاعةً لله كاملة وبإرادة ذاتية تامة ، فالخليفة دائماً يتقدم بعد معرفة وبينة بما يجب ، وبما لا يجب علىٰ استخدام القوة ؛ حتىٰ يذل المفسدين في الأرض ، وسافكي الدماء فيها بغير حق ، وحتىٰ ينتصر دين الرسالة الخاتمة ، ويزهق الباطل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (1) .

إذاً تبين للخليفة : أن العفو والصفح والحلم وخطاب العقل لا يجدي شيئاً ، فكل من يقف في صف العداوة للحق والدين والشرف والكرامة والوطن ، أو يعمل علىٰ إلحاق الضرر بأيٍّ منها ؛ فلابد له من العمل علىٰ إذلاله ، وعقابه بأشد العقوبات المذلة له في الدنيا ، ويكون هـٰذا العقاب عادلاً لهم بما قاموا به من اعتداء علىٰ الحق ، ولا يمكن أن نصل إلىٰ ذلك إلا بأن نكون خلفاء ٱلله تعالىٰ في الأرض ، وأقوياء في عقيدتهم أولاً ، وأقوياء في نفوسهم وعزائمهم ثانياً ، وأن يأخذوا علىٰ أنفسهم جمع كل أسباب القوة المعروفة في عصرهم ، فبهـٰذا يمكن رد اعتداء المعتدين ، وإذلالهم ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا

(1) الأنبياء ، 16ـ22 .

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [1] ، والإرهاب يعني التخويف بما أعددت من أسباب القوة ، حتىٰ تعمَّ الرهبة أنفس الأعداء المفسدين في الأرض ، والخوف يتبعه الفزع ، والفزع يتبعه الذل ، والإذلال للغير لابد أن لا يتعدىٰ الحد ، فيصبح بذلك ظلماً وتعدياً بغير حق .

وأيضا الثبات في أرض المعركة من الأسباب التي تؤدي إلىٰ العزة ، فالذي يدير ظهره مولياً وقت الحاجة إليه ليس من الخلفاء ، والذي يكشف ظهر الخلفاء وقت القتال مسبباً في هزيمتهم ، ليس له إلا الخزي في الدنيا والآخرة وله العذاب الشديد ، بل الخليفة الحق لابد أن يثبت ، ويقاتل ؛ وهو متيقن بأن النصر من عند ٱلله ، وأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يذل عباده المخلصين ، ولهٰذا فالإسلام يعوِّل علىٰ الشجاعة ، والقوة ، والثبات أمام العدو لأمرين :

الأول : أن الخليفة لا بد أن يكون قتاله في سبيل ٱلله عز وجل .

والثاني : أن تحقيق النصر هو الهدف وهو الذي يُسهم في إعلاء كلمة الحق ، أما الذل والهزيمة لا يكون نتيجتهما إلا الخسارة والهوان ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [2] . فلابدَّ للخليفة المؤمن أن يكون في ذلك متصفاً بصفات المولىٰ عز وجل من عزة وقوة ، وكذلك عدم الإذلال ، وإنزال العقوبة علىٰ قدر الجرم دون تعدٍّ ، أو ظلم ، فإن ٱلله تعالىٰ لا يظلم عباده ،

---

(1) الأنفال ، 60 .

(2) الأنفال ، 15 ، 16 .

ولا يحبُّ الظالمين ، فقد قال تعالىٰ : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (1) ، وقال عز وجل أيضاً : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ (2) ، ولهٰذا فعلىٰ خليفة ٱلله أو من أراد أن يكون خليفة لله عز وجل أن يكون عادلاً في عقابه ، فيكون العقاب علىٰ قدر الذنب الذي يعاقب عليه ، فلا يظلم بذلك ، فإن ٱلله عادل لا يحب الظالمين ، ونجد ذلك في أكثر من آية منها قوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (3) ، وقال أيضاً : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (4) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (5) . وعليه فالإذلال ليس بظلم ، إنه إحقاق للحق وإزهاق للباطل ، وإلا هل يعقل إن يكون اسمه المذل ليقوم بغير ذلك ؟ استغفره جل جلاله ، فاسمه الحق ، وهو المذل بالحق ، ومن أجل الحق ، فله الحمد علىٰ كل حال .

وللذل معانٍ أخرىٰ غير القهر والخزي والمهانة وردت متناثرةً في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، فعلىٰ الخليفة الذي اختاره ٱلله تعالىٰ ليخلفه في الأرض أن يراعي كل هٰذه المعاني ، وأن يتصف بها كل صفةٍ في موقعها حتىٰ يكون بفعله هٰذا مستحقاً لهٰذه الخلافة الشريفة بكونه ربانياً متصفاً بصفات ربه المذل الأعظم ، ومطيعاً له في كل أوامره ، مبتعداً عن كل نواهيه أيضاً ، حباً لله تعالىٰ ، وطاعة له عز وجل ، ومن هٰذه المعاني :

(1) الشورىٰ 40 .
(2) يونس ، 27 .
(3) آل عمران ، 182 .
(4) ق ، 29 .
(5) آل عمران ، 140 .

الرحمة واللين :

قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] ، والقول الكريم المقصود فيه هنا : هو القول الحسن اللين ، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي : لينًا طيبًا حسنًا بتأدب ، وتوقير ، وتعظيم [2] .

ففي هـٰذه الآية الكريمة أمرٌ من ٱلله عز وجل لعباده بالتذلل للوالدين ، وهـٰذا التذلل ليس ناتجاً عن قهرٍ وضعفٍ وحاجةٍ ومسكنةٍ وغيرها من المعاني التي قد تُفْهَم من كلمة الذل ، والله سبحانه وتعالىٰ لا يحب أن يكون عباده متصفين بهـٰذه الصفات بل إنه يحب المؤمن القوي المتصف بالقوة في كل معانيها ، كالقوة الجسدية ، والقوة العقائدية ، والقوة النفسية ، فهو سبحانه وتعالىٰ يحب المؤمن المحترف الذي يأكل ويشرب وينام بدون إسراف لكي يتقوىٰ بذلك علىٰ طاعته ، وكذلك يعاشر زوجته لكي يعفها ، ويعف نفسه عمَّا حرم ٱلله تعالىٰ ، ولكي ينجب خلفاء من بعده يرثون الأرض والجنة من بعدها ، فيعبدون ٱلله تعالىٰ ، ويدعون لهما بالرحمة طاعة لأمر ٱلله في غير معصية .

وقد قال رسول ٱلله ﷺ : « المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلىٰ ٱلله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » [3] . وبهـٰذا يكون التذلل الذي أمرنا به ٱلله سبحانه وتعالىٰ في الآية السابقة هو من باب الرحمة بهما ؛ لأنهما في هـٰذه السن

---

(1) الإسراء ، 23 ، 24 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج5 ، ص64 .

(3) صحيح مسلم ج13 ، ص143 ، ح 4816 .

يكونان أشد حاجة إلىٰ الرحمة والاهتمام والرعاية والتذلل لهما من أيِّ وقت من أوقات حياتهما ، وقد فسر الإمام الطبري هـٰذه الآية بقوله : « وكن لهما ذليلاً رحمةً منك بهما ؛ تطيعهما فيما أمراك به ممَّا لم يكن فيه لله معصية ، ولا تخالفهما فيما أحبَّا » [(1)] . وهـٰذا التذلل واللين لهما يسعدهما ويدخل الفرح والسرور إلىٰ قلبيهما ، فتحصل علىٰ رضاهما المقرون بالتأكيد برضا ٱلله عز وجل ، فيحصل بذلك الخير الكثير في الدنيا والآخرة .

وكذلك في آية أخرىٰ من محكم كتابه العزيز يبين لنا ٱلله سبحانه وتعالىٰ صفة عباده المستخلفين في الأرض الذين يحبهم ، ويحبونه ، ومن هـٰذه الصفات : أنهم أذلة علىٰ المؤمنين ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [(2)] ، وكلمة أذلة هنا ـ كما سبق أن أوضحنا ـ بمعنىٰ : أن المؤمنين ذوو لين ورحمة فيما بينهم ، فهم متسامحون ، ومتساهلون مع بعضهم البعض في التعامل ، يقدمون العفو علىٰ الانتقام ، والتسامح علىٰ التخاصم ، والحلم علىٰ العقاب ما علموا أن ذلك أجدىٰ وأنفع . وقد جاء توضيح هـٰذه الآية واستكمال باقي صفات من يحبهم ٱلله عز وجل في قوله تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ [(3)] ، فعلىٰ خليفة ٱلله في أرضه أن يكون متصفاً بهـٰذه الصفة وهي التذلُّل للمسلمين والمؤمنين تذُّلل رحمة ، ولين ، وتواضع ، فيكون بذلك مستحقاً لخلافة ٱلله تعالىٰ ، لاتصافه بصفات ٱلله عز وجل .

(1) تفسير الطبري ج17 ، ص418 .
(2) المائدة ، 54 .
(3) الفتح ، 29 .

ومن تذلل الرحمة أيضاً الصبر علىٰ أذىٰ الآخرين وقد ذكر ٱلله تعالىٰ الصبر مقروناً بالصلاة في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) وفي قوله تعالىٰ أيضاً : ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ (2) ، وقد قرن ٱلله تعالىٰ كذلك بين الرحمة والصبر في موضع آخر ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ (3) أي : وأوصىٰ بعضهم بعضاً بالمرحمة ؛ أي : تراحم الناس فيما بينهم . وهٰذه جميعها من صفات ٱلله عز وجل فهو الرحيم الصبور ، رحيم بعباده يؤخر لهم العذاب علىٰ معاصيهم ويفتح لهم باب التوبة رحمة بمن يندم ويرجع عن ذنبه ، وصبور علىٰ أذاهم فليس هناك أصبر من ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أذىٰ عباده العاصين كما مر في اسم الصبور ، فمن أراد أن يكون ممن اصطفاهم ٱلله تعالىٰ ، واختارهم لخلافته فعليه أن يتخلق بكل هٰذه الأخلاق والصفات فيكون رحيماً بالمؤمنين صبوراً علىٰ أذىٰ الناس من الأقارب والجيران والأصدقاء والزملاء في العمل وفي كل مكان يمكن أن يكون فيه احتكاك بينه وبينهم ، فيكون ليناً في التعامل معهم ، وبذلك يكون متصفاً أيضاً بصفة رسول الله ﷺ التي أخبرنا بها ٱلله تعالىٰ في قوله : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (4) .

وبالنسبة للصبر والرحمة فالناس منقسمون علىٰ أربعة أقسام :

القسم الأول : فمنهم من يصبر ، ولا يرحم .

---

(1) البقرة ، 153 .
(2) البقرة ، 45 .
(3) البلد ، 17 .
(4) آل عمران ، 159 .

القسم الثاني : ومنهم من يرحم ، ولا يصبر .

القسم الثالث : ومنهم من لا يصبر ، ولا يرحم .

القسم الرابع : ومنهم من يصبر ، ويرحم .

وهـٰذا القسم الأخير هو القسم المحمود فعلىٰ الخليفة أن يكون من أهل هـٰذا القسم ، فيكون قوياً من غير عنف ، ليناً من غير ضعف ، فبصبره يقوىٰ ، وبلينه يرحم ، وقد قال رسول الله ﷺ « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ ٱللهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله »[1] .

فعلىٰ من استخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يكون متواضعاً لله عز وجل مهما كانت مكانته أو منصبه الذي تولاه في هـٰذه الدنيا حتىٰ يفوز بالمنصب العظيم (الجنة) ، فلا يتكبر علىٰ عباد ٱلله تعالىٰ ؛ حيث يظن المتكبر الجاهل بجهله : أنه أفضل منهم لما تقلده من المكانة والمنصب ، فتراه تكبر ، ورأىٰ أن لا أحد فوقه ، وكأنه هو الذي يحرك الكون ، فتراه يعطي هـٰذا ويمنع ذاك ، ويخاطب هـٰذا بغلظة ، وقسوة ولا يعدل إذا حكم بين الناس ، ففي الحديث القدسي ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري »[2] والمقياس الحقيقي للتفاضل عند ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو تقوىٰ ٱلله ، وقد قال رسول الله ﷺ : « كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ ٱللهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ »[3] . وقال ٱلله تعالىٰ في ذلك : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[4] وعلىٰ ذلك يفترض أن أكثر عباد ٱلله خشية منه هم العلماء ؛

---

(1) سنن الترمذي ، ج7 ، ص161 ، ح1847 ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة ج2 ، ص594 .

(2) تفسير الآلوسي ، ج1 ، ص136 .

(3) سنن الترمذي ، ج12 ، ص350 ، ح3789 .

(4) فاطر ، 28 .

لأنهم عرفوه حق المعرفة من خلال علمهم الذي تعلموه ، فهم الأكثر خوفاً منه ، والأكثر تطبيقاً لأوامره وابتعاداً عن نواهيه . ويفترض أن يكون العالم بالتأكيد متصفاً بصفات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فيكون رحيماً متواضعاً ، فلا يذل من لا يستحق منه الذل تكبراً منه بنفسه ، وبمنصبه ، ولـٰكن للأسف فإن بعضاً ممن وصلوا إلىٰ مراتب عليا من التعليم هم أكثر الناس تكبراً علىٰ العالمين ، متناسين : أن هناك من هو أعلىٰ منهم ، وأعز ، وأقدر ، ومتناسين كذلك مخالفتهم لله تعالىٰ ورسوله ﷺ حيث قال : « من تواضع لله رفعه ٱلله ، فهو في نفسه صغير ، وفي أعين الناس عظيم ، ومن تكبر وضعه ٱلله ، فهو في أعين الناس صغير ، وفي نفسه كبير ، حتىٰ لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير »[1] . لا بد أن يعلم المسلم : أن التواضع هو الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، فهو المحافظة علىٰ الكرامة ، والعزة من دون خنوع ، وإذلال ومن دون تكبر ، أو خيلاء ، قال كذلك تعالىٰ آمراً عباده بالتواضع : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[2] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3] ، متناسياً كذلك أن من أوصله إلىٰ هـٰذا المنصب هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وكان مثله كمثل قارون حين اغتر بنفسه وماله ، فبغىٰ علىٰ قومه وقال ما اخبر به رب العزة بقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4] ، اغتر قارون بما أعطاه ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وقال محدثاً من حوله : أن ٱلله عز وجل أعطاه هـٰذا الخير كلّه لعلمه : أنه يستحق هـٰذا ،

(1) شعب الإيمان للبيهقي ،ج17 ،ص182 ،ح 7917 .
(2) الإسراء ، 37 .
(3) لقمان ، 18 .
(4) القصص ، 78 .

ونسي قارون : أن ٱلله يمهل ، ولا يهمل ، وظن : أن هـٰذا الخير والغنىٰ دائم لا يزول ، وظن بجهله أن هـٰذا الحال يمكن أن يدوم مع أن سنة هـٰذا الكون كله التغيير ، فلا يمكن أن تدوم الدنيا لأحد ، ولو دامت لغيره ما وصلت إليه . ولو أراد ٱلله تعالىٰ أن يديم هـٰذه الدنيا لأحد من خلقه ؛ لأدامها لأفضل خلقه علىٰ الإطلاق سيدنا محمد ﷺ ولـٰكن هـٰذا لم يحدث لأن الدوام صفة لله ـ عز وجل ـ الذي يذل له كل شيء ، وهو قادر علىٰ أن يذل الجميع ، فلا دائم إلا هو سبحانه وتعالىٰ .

لا جدوىٰ من أن يترفع الإنسان علىٰ من هم أحطُّ منه ، ولا جدوىٰ من التعامل مع من هم أقل منه بنوع من الغرور ، لأن ٱلله هو المالك لكل أمورنا ، يسيرها كيفما يشاء ، ويسخر لنا الأسباب لنرتقي ، ويحط بنا الأسباب لنسقط .

فإن غرتك قدرتك أيها العبد علىٰ إذلال من يحيطون بك ، أو يتعاملون معك من غير وجه حق ؛ فتذكر قدرة ٱلله عليك ، وتذكر : أن لا عزة لأحد إلا مع ٱلله العزيز الجبار ، وتذكر أن ٱلله قادر علىٰ أن يردك ذليلاً كما كنت قبل أن يرفعك هو بما سخر لك من تيسير الأسباب التي أوصلتك إلىٰ ما أنت فيه ، وعليك أن تتقي أيضاً دعوة المظلوم ؛ الذي تعاليت عليه ، وأذللته ولو بالكلام أو الفظاظة في الحديث معه ، فإن دعوته ليس بنها وبين ٱلله من حجاب ، كما جاء في حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينه وبين ٱلله حجاب » (1) .

اليسر والسهولة :

قد ورد ذكر الذل في القرآن الكريم باشتقاقات عديدة تدل أكثرها علىٰ

(1) صحيح البخاري ج 5 ، ص356 .

التيسير والتسهيل والتسخير ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[1] . تذليل الأنعام : ترويضها حتىٰ تهدأ وتلين بالمعاملة الطيبة وترضىٰ بركوبها وحمل الأثقال التي تفيد راعيها ، والراعي هو المعتني بالتذليل . فتصبح العملية وكأنها مبادلة أرع تركب مما يجعل الفائدة تعود علىٰ كلا الطرفين . ومع أن الراعي هو المروض للإبل إلا أن المذل المطلق هو الذي خلقها علىٰ هـٰذه الهيئة والخاصية ، أي : جعلها ذليلةً للعباد مسخرةً لخدمتهم ، لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلىٰ بعير لأناخه وركبه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد له ، وهـٰكذا جعل الماشية بأنواعها معزها ، وضأنها ، وبقرها ، وخيلها ، وحميرها مذللةً لمن يراد له أن يكون الخليفة ، ولا يُستغرب أن يقابل إذلال الماشية بجميع حيواناتها تقديم الخدمة لها من الذي خلقه المذل المطلق في أحسن تقويم ، يرعاها ويسهر علىٰ رعايتها ، ويقدم لها الأكل والشرب ، وينظفها ، ويعالجها إن مرضت أو أصابتها آفة من الآفات . حفظنا الله جميعاً من كل آفة ومرض .

وهـٰذا من جملة النعم الظاهرة ، وإلا فمن كان يقدر عليها ، وعلىٰ تذليلها ، وقيادها لولا تذليل ٱلله سبحانه وتعالىٰ لها لنا ، وتسخيرها في طوعنا ، ومن أجل خدمتنا .

وفي قوله تعالىٰ أيضاً : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[2] أي : أن الجنة التي ينالها الخليفة قد قربت ظلالها ، وأشجارها منهم ، وأنها قد ذُلِّلَ وسُهِّلَ اجتناء ثمارها كيف شاء قعوداً ، وقياماً ، ومتكئين ، أي : إنه سهل عليهم اجتناء الثمار كيفما كانوا وفي أي وقت شاؤوا ، فإذا قام ؛ ارتفعت

---

(1) يس ، 71ـ72 .

(2) الإنسان ، 14 .

بقدره ، وإن قعد ؛ تدلت حتىٰ ينالها ، وإن اضطجع ؛ تدلت حتىٰ ينالها ، فذلك هو تذليلها [1] .

وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [2] الأرض مذلولة بأسباب العطاء ، فهي التي منها يعطىٰ ، ومنها يؤخذ ، ولكلٍّ أسباب ، فسبحان ٱلله كانت الأرض ذلولة لأبينا آدم وأمنا حواء ، حيث بسطت لهما بساط الحياة من كل مشبعاتها المتنوعة والمتعددة ، بمياهها وأشجارها وثمارها وعسلها ولبنها وجميع خيراتها حتىٰ أنهما أكلا وشربا وتنعما فيها ، والعباد من بعدهم يتنعمون قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [4] وقال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [5] . ألا يكون هـٰذا إذلالاً وتذليلاً لمن خلق خليفة في أحسن تقويم ؟ . بطبيعة الحال نحن الذين جلدتهم من هـٰذه الأرض المباركة التي ذللت لنا ، ولكل ما خلق الخالق جل جلاله ، وكذلك جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [6] والذُّلُل جمع ذلول ؛ أي : مذللة ومسهلة لها ، وجاء في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [7] أي : إنها الحرة الصعبة التي لم يذلها عمل ، وهـٰذا يعني أن

---

(1) تفسير الطبري ، ج24 ، ص 103 .
(2) الملك ، 15 .
(3) طه ، 53 .
(4) البقرة ، 22 .
(5) مريم ، 36 .
(6) النحل ، 69 .
(7) البقرة ، 71 .

كلمة (ذلول) بدون النفي هي السهولة ، ومن خلال كل تلك الآيات يكون معنىٰ التذلل والذلول المشتقة من الذل هو اليسر ، والسهولة ، أو التيسير والتسهيل ، وعليه فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ مذللاً ومذلاً لكل هٰذه الأشياء فهو الذي يذلل لنا الرزق ويذلل لنا الأرض والدواب والرياح والأمطار وكل أمور حياتنا ومعاشنا في الدنيا ، وكذلك يذلنا لها ، ولولا هٰذا التذليل ؛ لما تمكنا من أن نستقر علىٰ وجه الأرض لحظة واحدة ، فهي المتحركة بالسرعة والقوة التي لو لم يُذلها المذل الأعظم لتطايرنا من علىٰ ظهرها ، ولو لم تكن ذلولة ؛ ما بنينا فوق ظهرها القصور والعمار ؛ حتىٰ لا مسنا السحاب بناطحاته ، فالإنسان مخلوق ضعيف أمام كل هٰذه المخلوقات العظيمة ولولا تسخير ٱلله تعالىٰ لها لما استطاع الإنسان أن يملك زمامها ، وقد جاء هٰذا المعنىٰ صريحاً في قوله تعالىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1] ، ولهٰذا لابد للإنسان الذي استخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض أن يكون متصفاً بهٰذه الصفة من التذليل ، فيعمل علىٰ التسهيل والتيسير في كل أمور الحياة ، فيكون سهلاً في التعامل مع الآخرين ويحاول أن يذلل كل العقبات التي تحول بينه وبين غيره ممن لهم معه احتكاك مباشر ، أو صلة قرابة ، وأن يكون كذلك ميسراً لأعمال العباد التي أُنيطت به إن كان موظفاً موكلاً بأداء مصالحهم ، ولا يتعمد تعقيدهم ، والتلكؤ في إنجاز تلك المصالح ، وقد أمرنا الرسول الكريم ﷺ بالتيسير في قوله : « يسروا ، ولا تعسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا » [2] .

الضعف :

الضعف في مفهوم الغالبية هو المعاكس لمفهوم القوة ، إلا أنه في حقيقة

---

(1) النحل ، 12 .

(2) صحيح البخاري ، ج1 ، ص122 .

الأمر هو قوة ، ولـٰكنَّ صاحبه لا يفوز إن دخل أسواق المنافسة الحرة ، ولذا فإن الضعف هو القوة التي تقاس بما هو أقوىٰ منها ، فتصبح الموصوفة أمام أفعال المقارنة بالضعف ، ويتضح علىٰ هـٰذا الأساس الفرق بين الضعف والذل ، فالإنسان قوة هائلة ، تُحقق نجاحات إذا ما استثمرت استثماراً أمثل . يستمدها من القيمة التي قوَّمه ٱلله بها . هـٰذا التقويم هو الذي جعل من الفرد قوة ، ومن الجماعة قوة مضاعفة ومن المجتمع أكثر قوة .

وبما أن الإنسان خُلِق في أحسن تقويم .

إذاً هو مقوَّم بما هو عليه من قوة .

ولهـٰذا كل ما نراه من المخلوقات قوياً فهو ضعيف أمام قوة الإنسان العقلية والحسية والذوقية . وأيضا مهما نُظر للإنسان بأنه قوة ، فهو الضعيف أمام قوة خالقه جل جلاله . ولذا فإن كل شيء ممكن هو في دائرة النسبية ، حيث لا مطلق إلا من عند ٱلله تعالىٰ .

فالإنسان بقوته يتفكَّر ويتذكَّر ، ويستقرئ ، ويستنبط ، ويخطط ، ويقدم ، فينجز ، ثم يُقوِّم ، فيُصحح ، أو يُطوِّر .

ولذا فالقاعدة هي : (الإنسان قوة في دائرة الممكن) .

والاستثناء هو : (الإنسان ضعف في دائرة الممكن) .

ولأنّ الضعف والوهن هو خروج عن القاعدة ، لذا يعمل الأخصائيون الاجتماعيون عليه عند دراسة الحالات لأجل تحويله إلىٰ القوة ، أو عودته إليها .

وبالرغم من أن الإنسان قوة ؛ إلاَّ أن هناك بعضاً من الأفراد الذين يواجهون وهناً في طبيعتهم الخِلقية ، حيث المعتوه الذي يعاني من تأخر في قدراته العقلية ، والذي تعطّلت بعضٌ من حواسه ، ونجد البعض يعيش في تأزُّماته الحياتية ، هـٰؤلاء هم في حاجة لمن يقدم إليهم المساعدة

الهادفة : الخدمية ، والتأهيلية ، والإصلاحية ، والمعرفية .

وعليه : متىٰ يكون الأفراد أو الجماعات قوة ؟

1 ـ عندما يندمجون بقوتهم مع قوة الآخرين بإرادة .

2 ـ عندما يتمكنون من ممارسة حقوقهم .

3 ـ عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم .

4 ـ عندما يكونون قادرين علىٰ حمْل المسؤوليات .

5 ـ عندما يكون لسان حالهم (نحن سويا) . كقولهم لا للفساد ، نعم للإصلاح ، لا للكسل ، نعم للعمل .

6 ـ إذا تمكنوا من استيعاب بعضهم بعضاً دون تفرقة وتحسس .

7 ـ إذا تمكنوا من التطلُّع للآخرين .

8 ـ عندما يتهيؤون لأحداث التغيير إلىٰ ما هو أفضل ، وأحسن ، وأجود .

9 ـ عندما يلعبون أدواراً وصلاحيات واختصاصات بمهارات متنوعة .

وبما أن كل فرد قوة ، إذاً يجب أن يكون لكل فرد دور يؤديه ، ومن ينحرف عن دوره تصبح قاعدة الوجوب إصلاحه ؛ ليعود إلىٰ مركزه الطبيعي ، وهو القوة الفاعلة مع بقية مفردات المجتمع . ونظراً لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات والتخصصات ؛ فإن الأدوار تتنوع وفقاً لذلك .

10 ـ عندما يستثمرون إمكاناتهم المادية الاستثمار الأمثل ، تمشياً مع كل حلقة من حلقات التطوُّر والتقدم التقني والعلمي .

11 ـ عندما تُشبع حاجاتهم المتطورة .

12 ـ عندما تسود العدالة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل

المسؤوليات ، ويقدر الأفراد والجماعات حق قدرهم .

13 ـ عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السلوك والفعل .

14 ـ عندما تصبح الثروة ملكاً عاماً لأفراد المجتمع دون أيِّ حرمان من الملكية الحرة والاستثمار الحر .

15 ـ عندما تلغىٰ من القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعية كل كلمات الإكراه ، والإجبار بغير حق .

16 ـ عندما تكون الثروة قوةً تمكِّن الأفراد والجماعات من تجاوز الحدود .

17 ـ عندما يكون التعليم قوياً . وقوة التعليم ليست ألفاظ ومقررات ، ولـٰكن التعليم بما يحققه من منجزات إضافية علىٰ قوة أفراد المجتمع .

18 ـ عندما يرتفع المستوىٰ الصحي للأفراد والجماعات . فالصحة قوة ، والأفراد الذين يغفلون عن هـٰذه القوة يضعف مستوىٰ أدائهم وإنتاجهم ، ومتوسط أعمارهم . لذلك كلَّما كانت قوة الإنسان وصحته سليمة ؛ تمكِّن من تجاوز الصعاب ، والتطلُّع بدون تردد إلىٰ الأمام ، بما يحقق أهدافاً ، وينجز أغراضاً ، ويبلغ غاياتٍ .

وكما عرفنا : أن الأفراد والجماعات قوة بوحدتهم وكيانهم ، نتعرّف أيضاً كيف : أن القوة الكلية تتجزأ إلىٰ الآتي :

- قوة العقل .
- قوة الحواس .
- قوة النفس .
- قوة العاطفة .
- قوة الإرادة .
- قوة القرار .

ـ قوة التنفيذ .

ـ قوة المتابعة .

ـ قوة التقويم .

ـ قوة التصحيح .

يستمد الإنسان قوته من قوة خالقه ، ويستمد قدرتهُ من قدرتِهِ ، وكل معطيات القوة يمكن أن تكون بيده إذا عرف : أنّ عقله قوة ، وقدراته قوة ، ومهاراته قوة . وإذا فكر وخطط ، ورسم الاستراتيجيات ؛ أنجز أهدافه بكل قوة ، وإذا لم يستثمر ذلك ؛ فلن يكون إلا ضعيفاً .

ولأن الإنسان قوة في خلقه كمفردة بشرية فهو أقوىٰ علىٰ المستوىٰ الجماعي ، والأكثر قوة علىٰ المستوىٰ المجتمعي .

وعليه فالإنسان قوة في خلقه كمفردة بشرية ، وهو أقوىٰ بمشاركته الجماعة ، والأكثر قوة بتوحده مع المجتمع .

وعليه فالقاعدة هي :

1 ـ الفرد أقوىٰ بمشاركته الجماعة .

2 ـ الفرد أكثر قوة بمشاركته المجتمع .

والاستثناء هو :

1 ـ الفرد ضعف إذا ما قورن بقوة الجماعة .

2 ـ الفرد أكثر ضعفاً إذا ما قورن بقوة المجتمع .

ولهـٰذا فإن القوة الاجتماعية تكمن في الأتي :

ـ قوة العلائق وترابطها .

ـ قوة المشاركة وحجمها .

ـ درجة التفاعل وتماسكها .

ـ قوة التنظيم وتشريعاته .

ـ قوة الدين وتسامحه .

ـ قوة العرف و أصالته .

ـ قوة القوانين وشفافيتها .

ـ ممارسة الديمقراطية بإرادة .

ـ اتخاذ قرارات واعية .

ـ تنفيذ القرارات بوعي .

ـ حمْل المسؤوليات ، وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباء .

ـ مستوىٰ التطلع ودرجاته القيمية .

قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (1) وتفسير هـٰذه الآية : أن ٱلله تعالىٰ أمر سيدنا محمداً ﷺ والأمر من بعده لكل من آمن بالله وصدَّق نبيه عليه الصلاة والسلام فيما جاء به من تشريع من عند ٱلله تعالىٰ ، بأن يحمد ٱلله علىٰ أنه لم يتخذ ولداً فيكون بذلك مربوباً لا رباً ؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ، وكذلك لم يكن له شريك في الملك ، فيكون بذلك عاجزاً ذا حاجةٍ إلىٰ معونة غيره ضعيفاً سبحانه وتعالىٰ عن ذلك ، فلا يكون إلـٰهاً من يكون محتاجاً إلىٰ معين علىٰ ما حاول ، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان ، وأن الحمد لله علىٰ أنه لم يكن له ولي من الذل ؛ أي : لم يكن له حليف من الذل الذي به ، أي : الضعف ، لأن من كان في حاجة إلىٰ نصرة غيره فهو ذليل مَهين ،

(1) الإسراء ، 111 .

ولا يكون من كان ذليلاً مهاناً ويحتاج إلىٰ ناصر إلـٰهاً يطاع .

فجاءت كلمة الذل هنا بمعنىٰ الضعف ، والله سبحانه وتعالىٰ لم يكن له ولي ؛ لأنه لم يكن ضعيفاً محتاجاً لنصرة غيره ، بل إن ذلك يستحيل في حقه فقد وصف ٱلله تعالىٰ نفسه في أكثر من آية بأنه القوي العزيز ، ووصف نفسه أيضاً بالقدرة علىٰ فعل أيِّ شيء يريده : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [1] ، أي : إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يكيده شيء عن تنفيذ إرادته ، ولا يعجزه شيء في هـٰذا الكون كله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [2] . وعليه فبمقارنة القوي بمن هو أقوىٰ منه يصبح القوي ضعيفاً ، ويزداد القوي قوة ، فيتعالىٰ ، وهـٰذه صفة الخالق عز وجل ، ويصبح الإنسان الموصوف بالقوة ضعيفاً . ولهـٰذا خلق الإنسان ضعيفاً ؛ لأنه مخلوق بالقوة من القوي الأعظم الذي لن يكون هناك مجال للمقارنة معه سبحانه وتعالىٰ عما يصفون ! ولذا فإن المؤمن القوي أحبُّ إلىٰ ٱلله من المؤمن الضعيف ، وذلك بأسباب خلقه في أحسن تقويم ، وبإيمانه بقوته التي يستمدها من القوي الأعظم ، ولهـٰذا فمن يعتمد علىٰ ٱلله ، ويتوكل عليه فهو حسبه ، ومن يتوكل علىٰ غيره كفراً ، وشركاً ، فيكون ضعيفاً .

وقال كذلك : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [4] .

وعلىٰ ذلك فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يحب أن يكون خلفاؤه متصفين بصفاته ، فلذلك لابد أن يحرص من يريد أن يكون خليفة لله علىٰ أن لا يكون

(1) البروج ، 16 .
(2) الأنفال ، 52 .
(3) المجادلة ، 21 .
(4) النجم ، 5 .

ضعيفاً أبداً ، ولا يبقىٰ في حاجة دائمة لغيره في كل متطلباته التي تقوم عليها حياته فيكون بذلك تابعاً لمن يحقق له تلك المتطلبات ذليلاً له ؛ لأنه إن امتنع ذلك الشخص المعين له عن تقديم العون وتوفير حاجياته له ؛ فإنه سيصبح ذليلاً له من أجل توفير احتياجاته اليومية ، ففي الحاجات دائماً تكمن الحريات ، فلو كان الشخص مالكاً لحاجاته منتجاً لها ، فسيكون بالتالي حراً ، لا يمكن أن يتحكم فيه أيُّ شخصٍ كان ، ولا يستطيع أن يذله ، وإن لم يكن كذلك فإنه سيبقىٰ تحت رحمة من بيده تلك الحاجيات ، يتحكم به كيفما شاء .

ولهـٰذا فيجب علىٰ الإنسان الذي استخلفه ٱلله سبحانه وتعالىٰ في أرضه أن يكون متصفاً بصفات ٱلله عز وجل ، ومنها القوة التي لن يحتاج معها لأن يكون له ولي إلا ٱلله القوي المتعالي ، فلابد لخليفة ٱلله تعالىٰ ألا يكون ضعيفاً ، في حاجة دائمة لمن يمدونه بالعون والنصرة في أصغر أموره وأدقها ، وعليه أن يعمل بقدر المستطاع علىٰ تقوية نفسه علمياً ، وتقنياً ، واقتصادياً ، وفي كل النواحي التي تعطيه الاستقلالية التي هي بالتالي تكون بمثابة الدرع من أن يكون تابعاً لغيره ، ذليلاً له .

وكذلك لابد أن يثبت للجميع : أنه ليس ضعيفاً ، عاجزاً عن المعاقبة والدفاع عن نفسه ، فلا يكون سكوته عن إساءة ، أو إهانة من أيِّ شخص ناتجاً عن ذل وخضوع وضعف ، بل عن حلم ، والحلم يستوجب القدرة علىٰ إنزال العقوبة المناسبة في الوقت المناسب بمن أساء إليه ، ومن عفا وأصلح فأجره علىٰ ٱلله . وقل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [1] .

(1) الأعراف ، 196ـ199 .

والذل بالنسبة للعباد قسمان :

أولاً : قسم يذل صاحبه في الدنيا والآخرة :

وذلك أن يكون العبد ذليلاً لغير ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ويحدث هـٰذا عندما يضع الإنسان نفسه ضمن قائمة الضعفاء ، والجبناء ، والجهلة ، والمشركين ، الذين بجهلهم ، وبكفرهم يعبدون أنواعاً من الآلهة المتعددة التي يخلقونها ، وهي لا تخلق لهم شيئاً ، ولهـٰذا لن تنفعهم شيئاً ، فيتذلل لها بجهله ، يطلب منها الصفح والعفو والعون والرزق والنصرة ، وفي واقع الأمر لا يقدم كل تلك الاحتياجات سوىٰ ٱلله عز وجل خالق الأشياء كلها ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [1] ، وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [2] .

ينبه تعالىٰ عباده ويرشدهم إلىٰ الاستدلال علىٰ توحيده في إفراد العبادة له ، وكما أنه المستقل بالخلق والرزق ؛ فكذلك فَليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهـٰذا قال : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون بعد هـٰذا البيان ، ووضوح هـٰذا البرهان ، وأنتم بعد هـٰذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟ [3] وكذلك الضعف والجبن عن الدفاع عن النفس والوطن والدين والمقدسات والحرمات ، هـٰذا في الحقيقة ذلٌّ مهين لصاحبه في الدنيا والآخرة ، فالهرب من ساحات الشرف والبطولة يلحق بصاحبه ذلاً في الدنيا ، وخزياً ومهانة في الآخرة ، فبعد ذل صاحبه بين الناس ، هناك عقاب ٱلله تعالىٰ له ، وسخطه عليه .

---

(1) الملك ، 21 .

(2) فاطر ، 3 .

(3) تفسير ابن كثير ، ج6 ، ص533 .

وكذلك انقياد الشخص وراء الشهوات إلىٰ درجةٍ تجعله عبداً لها خاضعاً ، تابعاً ، مغمض العينين عن نتيجة ما هو فيه ، وتفكيره ملغىٰ في غير شهوته ، لا يدري أيَّ منحدر هو متجه إليه ، كحب الشخص للمال ، لدرجة أن يصبح عبداً لهـٰذا المال ، فيكون بخيلاً ، لا ينفق من مال ٱلله عز وجل الذي استخلفه فيه ، ولا يؤدي فيه حق ٱلله تعالىٰ من الصدقات والزكاة ، فيكون نتيجة كل هـٰذا احتقار الناس له في الحياة الدنيا ، وعقاب ٱلله تعالىٰ له في الآخرة ، وكأنه لا يعلم : أنَّ من يتذلل لغير ٱلله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه ذليل في عين نفسه أولاً ، وفي أعين من حوله ثانياً ، فمن طلب العزة من غير ٱلله ذل ، فلا عزة إلا بالله عز وجل .

لا بد أن يتذكر الإنسان : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ بيده مقاليد الأمور جميعاً ، وإذا استسلم الإنسان لهـٰذا الشعور ، واعتقد به ، فإنه سوف يصل إلىٰ مرضاة ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ومرضاة نفسه ، ومرضاة من حوله ، ولكان محافظاً علىٰ عزته وقوته ، ومنع نفسه من الإذلال والخنوع الناتجين عن خوفه من هـٰذا أو ذاك .

ثانياً : قسم يعز صاحبه في الدنيا والآخرة :

وهـٰذا النوع يتمثل في تذلل العبد لله وحده لا شريك له ، لأن الإسلام في حقيقته ومعناه هو الانقياد والخضوع لله عز وجل في كل أوامره ونواهيه ، ولا يتحقق الانقياد التام لله سبحانه وتعالىٰ إلا بالتذلل الذي لا يورث صاحبه إلا العزة والعظمة في الدنيا والآخرة ، إذا كان الإنسان متخلقاً بخلق الإسلام حقيقة بالقول والفعل ، لا متستراً تحت ستار لتحقيق أغراض ومآرب شخصية دنيئة ، فيكون محترماً من جميع المحيطين به ، ويكون له في الآخرة بفضل هـٰذا التذلل المكانة العالية والرفيعة عند ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وبهـٰذا تتحقق لهـٰذا الإنسان العزة في الدنيا والآخرة .

الدُّعاء باسم المُذِلِّ :

يكون الدعاء باسم المذل دعاء مسألة ، بأننا نسأل ٱلله سبحانه وتعالىٰ المذل والمعز أن يذل من اعتدىٰ ، وطغىٰ ، وظلم ، وتجبر ، ولا نسأل ذلك من أي شخص ، فالله وحده هو مجيب الدعاء ، ومفرج الكرب ، وكائد الكائدين ، والماكر بالماكرين ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

اللهُمَّ أعز من استخلفت في الأرض بالإسلام في كلِّ مكان ، وارفع عنهم الظلم والذل والقهر ، وأذل أعداء الإسلام والمسلمين واكسر شوكتهم !

ويكون كذلك دعاء عبادة بأن يتحلىٰ من كان خليفة لله عز وجل بكل معاني هـٰذا الاسم ، فيكون مذلاً لنفسه ، مذللاً لها في طاعة ٱلله ، وفي الابتعاد عن النواهي ، ويكون مذلاً لمن يستحق الإذلال علىٰ قدرٍ يناسب ما ارتكب من جرم ، فلا يكون بذلك ظالماً لغيره بزيادة العقاب ، وألا يكون ضعيفاً هشاً ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لا يحب أن يكون أتباعه جبناء ، أو ضعفاء ، فالله قوي يحبُّ خلفاءه أقوياء .

الضعف دائماً يقود أتباعه إلىٰ الهزيمة ، والخنوع ، وهـٰذا يتنافىٰ مع ديننا الحنيف الذي إذا كنا نسعىٰ لأن نكون خلفاء ٱلله تعالىٰ في الأرض فإنه سوف يقودنا إلىٰ النصر في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولا نصر ، ولا فوز إلا بالقوة التي تتعدد من الإيمان بالله وهو رأس كل قوة ، إلىٰ إصلاح الأرض وعدم سفك الدماء فيها بغير حق ، وسوف يجعلنا أعزاء بالحق ، أقوياء به ، لا نتذلل لهـٰذا أو ذاك ، ولا نطأطئ رؤوسنا هلعاً وخوفاً إلا له طاعة ، وإجلالاً ، وإذا وصلنا إلىٰ الإيمان بأن ٱلله هو الذي بيده أن يعز من يشاء ، وأن يذل من يشاء ؛ لابد أن يعي الخليفة أن الحق لا يحميه إلا القوة .

وعليه لا مجال للمقارنة بين الضعف الذي لم يكن صفة من صفات ٱلله تعالىٰ ، وبين الذل الذي هو صفة حسنة من أسمائه الحسنىٰ ، فالذل رأفة

وعزيمة وقرار وقوة واحترام وتقدير للظرف والمكان والمقام والزمان والموضوع . ولذا فمن استمد صفته من المذل الأعظم يصبح خليفة يحكم بالعدل مع فائق التقدير والاحترام وبكل قوة وعزيمة ، يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة ويدعو لهما بالرحمة من الرحمـٰن الرحيم الذي أذل العبد بعاطفة الأبوة والأمومة والأخوة ، فجعل المحبة بين الخلائف رحمة ، ويذل نفسه طاعة لله ، ويعمل بقوة المذل علىٰ إذلال العصاة حتىٰ الطاعة لوجهه الكريم ، ويقول الحق الذي به يُذل الباطل ، ويُدمغ حتىٰ يزهق ، ولذا فهو لا يسرق ، ولا يزني ، ولا يشرب مسكراً ، ولا يقتل النفس التي حرم ٱلله إلا بالحق . يأنس الآخرين ، ويحمد ٱلله علىٰ مؤانستهم له ، ويعمل صالحاً يرضاه المذل المطلق . والحمد لله رب العالمين !

اللهُمَّ يا المذل ذلل لنا السحب بالأمطار ، والغيث النافع ، وذلل لنا الصعاب من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وذلل لنا العلم حتىٰ نتقيك في كل كبيرة وصغيرة ، وذلل لنا رضا الوالدين حتىٰ نفوز برضاك والجنة ، وذلل لنا الحماية والحفظ من كل شر ، وفي كل بر ، وقنا من شرور الحادثات ، وأمطر رحمتك علينا رحمة في الدارين ، ولا تجعلنا نعمل ما يثير غضبك علينا ، وقنا عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، واستغفر ٱلله العظيم من كل ذنب ، والحمد لك واحداً أحداً لا شريك لك ، لك الملك ، ولك الحمد ، والحمد لله رب العالمين !

اللهُمَّ يا المذل أذل الشرك والمشركين ، وأعز الإسلام والمسلمين ! اللهُمَّ انصر جنودك في مشارق الأرض ومغاربها ، اللهُمَّ انصرهم نصراً عزيزاً تعز به عبادك المؤمنين ، وتذلُّ به الكفر وأتباعه !

اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل الضعفاء ! اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل المسلمين ! اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل الإسلام ! اللهُمَّ أذل من يريد أن يذل المصلحين في الأرض ! اللهُمَّ أذل العابثين ، والمفسدين ، وسافكي الدماء

فيها بغير حق ! اللهُمَّ أذل الذل في نفوسنا حتىٰ نكون علىٰ طاعتك أقوياء ! اللهُمَّ إن بعض الظن إثم فاجعله ذليلاً أمام حجَّتك التي بها نتقيك ! اللهُمَّ أذل من يريد بنا ذلاً ! اللهُمَّ أذل المستعمرين الذين يريدون أن يخرجوا العباد من ديارهم بغير حق !

✍ ✍ ✍

السَّمِيعُ جلَّ جلاله

اسم (السميع) « يدل علىٰ ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة »[1] .

السميع : « هو الذي يسمع السرَّ ، وسامع في كلِّ شيء »[2] .

السَّمِيعُ : « هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ السِّرَّ ، وَالنَّجْوَىٰ ، سَوَاءٌ عِنْدَهُ الْجَهْرُ ، وَالْخَفْتُ ، وَالنُّطْقُ ، وَالسُّكُوتُ »[3] .

وفي قصيدة ابن القيم :

وهو السميعُ يرىٰ ويسمعُ كلَّ ما ... في الكون من سرٍّ ومن إعلان
ولكلِّ صوتٍ منه سمعٌ حاضرٌ ... فالسِّرُّ والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفىٰ بعيدها والداني[4]

السميع : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو الذي لا يعزب عن إدراكه أيُّ مسموع ؛ وإن خفي ، فإنه عز وجل سميع لا يحتاج في سمعه إلىٰ آلة سمع ، وإلاّ لانتفت عنه صفة الكمال لوجود نقصٍ في السمع ، ولٰكن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كاملٌ منزه عن النقص .

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 22 .

(2) تفسير أسماء الله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 42 .

(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 210 .

(4) شرح قصيدة ابن القيم ، ج 2 ، ص 215 .

فالسميع : اسم لله متضمن لمعنىٰ كمال السمع ، وكمال الإدراك والقوة ، وقد سمّىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ نفسه في الكثير من الآيات القرآنية بهـٰذا الاسم كما في قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] ، أي : إن ٱلله ـ جل جلاله ـ منزهٌ ، ومُطَّهرٌ عن المثيل ، والشبيه ، والنِّد ، والكفؤ .

السميع : اسمه جل جلاله ، وفعله السمع ، وهو أليق بجلال ٱلله تعالىٰ وكماله من اسم سمَّاع ؛ لأن السمَّاع في معناه هو كثير السمع لما يسمع بواسطة آلة السمع ، فهو إذاً كثير السمع لما يقال ، ولا يمكن للسمَّاع أن يسمع دون آلة للسمع ، وكذلك السمَّاع في كثير من الأحيان يخطئ ، وهـٰذا ليس من صفات ٱلله وأفعاله الطاهرة ، وكذلك السماع الذي في حاجة للآلة هو من ضعف سمعه ، إذا تعطلت آلته حُدَّ من سمعه وهـٰذه ليست من صفات السميع العليم جل جلاله ، ولذا من حُدَّ من سمعه بحدود الزمان ، أو المكان ، أو الآلة يكون عُرضة للنقص والعيب ، فينقص سمعه ، ويغيب عنه الكثير مما يدور من حوله ؛ مما يضعف علمه بالحوادث ، وهـٰذا يستحيل في حق ٱلله عز وجل ، وهو السميع العليم .

العليم الذي يعلم كلَّ ما يدور في ملكه من أشياء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] . فهو وحده الذي يعلم علم ما كان ، وما سيكون ، وما هو كائن ، ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة في ملكه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ

(1) الشورىٰ ، 11 .
(2) آل عمران ، 29 .

ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] ، كيف لا وهو الكبير المهيمن العليم السميع البصير . وعلم ٱلله تعالىٰ لا يتوقف علىٰ آلة إدراك كسمع وبصر ولمس وغيرها ، فهو جل جلاله يعلم الأشياء بمطلق العلم ، ويسمع بمطلق السمع ، ويبصر بمطلق البصر دون الحاجة إلىٰ آلات ، إنه خالق الأشياء سبحانه وتعالىٰ لا يحتاج لشيء .

فلا نقول بتعطيل صفات ٱلله تعالىٰ كما فعلت المعطلة من أنهم فسروا هٰذه الصفات بالقدرة ، والسَّطوة ، ولٰكن نقول لله تعالىٰ يدٌ ولٰكن ليست كأيدي مخلوقاته ، ويسمع ، ويبصر ليس كسمعنا وبصرنا ليس كمثله شيء قال تعالىٰ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [2] .

وهل يكون العلم إلا عن طريق السمع والبصر ؟ بالتأكيد يكون ذلك العلم بدون الآلات متحتماً ولٰكن في حق ٱلله عز وجل ، السميع المطلق والبصير المطلق ، والعليم المطلق .

أما في حق السميع بالإضافة ، فلا يمكن أن يكون علمه إلا عن طريق

(1) الأنعام ، 56ـ59 .
(2) الشورىٰ 11ـ13 .

ما أعطاه له ٱلله تعالىٰ من سمع وبصر ، وما خصه به تعالىٰ من عقل وبصيرة ، فقد زوده ٱلله تعالىٰ بهـٰذه الصفات المستمدة من صفاته الكريمة ، فلم يتركه أعمىٰ ، ولا أصمَّ ، بل جعله في أحسن تقويم سميعاً بصيراً ليتمكن بهما من الطاعة ، وإدراك المعاصي ، والابتعاد عنها ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ (1) .

ولو لم يكن ذلك الكرم من ٱلله عز وجل علىٰ الإنسان الذي خلقه من بداية خلقه ؛ ليكون خليفته في الأرض ، يعمرها بطاعة خالقه جل جلاله وذلك كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (2) ، لقد حُقَّ للإنسان أن يتحمل الأمانة التي حمَّلها له ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فكان الخليفة التي جعله ٱلله في الأرض مصلحاً لا مفسداً ولا سافك دماء ، ومع تلك الأمانة ثقلٌ من يعلم بأعبائه قد لا يحمله ، ولـٰكن اختيار ٱلله للإنسان واصطفاءه لحملها قد ميزه بالاستخلاف فيها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(1) الإنسان ، 1ـ5 .

(2) البقرة ، 30ـ34 .

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] .

واسم السميع في حق ٱلله تعالىٰ ، يدلُّ علىٰ اللا حدود في السمع ، كيف لا وهو الذي وسع سمعه كلَّ شيء ، فسبحانه الذي لا يشغله سمع عن سمع آخر ! نحن بني آدم نسمع الأصوات متفردة بالتمييز ، ولا نميزها في اللحن إلا كقولٍ واحد ، أما السميع فهو القادر علىٰ التمييز بين ما خلق ، وهـٰذه صفة تفرُّدٍ له دون غيره ، ولذا فهو الواحد الأحد .

فبالرغم من اتساع هـٰذا الكون الهائل واختلاف أجناس العالَمين ، إلاَّ أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ السمع المطلق الكامل الذي لا يشوبه أيُّ عيب أو نقص .

وهـٰذا الاسم يجب أن يُفْهَم مدلوله فهماً صحيحاً لدىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض ، فمن أراد أن يكون خليفة لله في أرضه لابدَّ أن يتصف بصفاته ، فيكون سميعاً للحق ، ولأوامر ٱلله جل جلاله ، ويكون مطيعاً بصيراً بما أمر كما في قوله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [2] ، وكذلك في قوله جل جلاله : ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] . إذاً فالأصم هو عكس السميع تماماً ، فالخليفة الذي يستحق أن يكون كذلك هو بعيد عن الصمم ، بل هو سميعٌ ، ومنصتٌ ، ومجيبٌ لما أمرنا ٱلله تعالىٰ به ، قريب من خالقه .

---

(1) الأحزاب ، 72 .
(2) الإنسان ، 1ـ5 .
(3) هود ، 24 .

والقريب من الخالق لا يكون بالمجاورة الجسدية بين الخالق ، والمخلوق ، فهـٰذا الأمر يستحيل أن يكون ، ولـٰكن يكون القرب عن طريق الامتثال لأوامر الخالق ، عز وجل ، والالتزام بطاعته في كلِّ ما أَمَر به وكلِّ ما نَهىٰ عنه . وكل هـٰذه الأفعال من الخليفة تجاه من استخلفه تعتبر تقرباً إليه ، وهـٰذا التقرب بهـٰذه الأفعال ينتج عنه حصول القرب بينه وبين ٱلله جل جلاله . وتقرب العبد من ربه يكون بالطاعة لأوامر ٱلله عز وجل ، والأخذ بصفاته العظيمة وفي مقابل ذلك يكون تقرب ٱلله تعالىٰ من عبده بالرحمة ، والمغفرة ، والإجابة والهداية .

ومعنىٰ السميع في حق ٱلله تعالىٰ ، هو أنه يسمع كل ما قد قيل ، وما يقال ، وما سوف يقال ، ولا يتوقف سمعه علىٰ حدود الزمان أو المكان وهـٰذا بالضرورة يعطينا معنىٰ الإحاطة ، فالله تعالىٰ بسمعه المطلق هو محيط بكل هـٰذا الكون الشاسع ، وهو سبحانه وتعالىٰ بعظيم قدرته وكمال صفاته وسع كرسيه السمـٰوات والأرض فهو يحتوي كل شيء ، ولا يحتويه أي شيء ، وهـٰذا ما نجده واضحاً في الآية الكريمة : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [1] ، إن ٱلله ـ عز وجل ـ بسمعه المطلق هو محيط بالكون ، لا يمكن أن يفلت منه أيُّ شيء مهما صغر وازداد دقة في التصغير ، فالإحاطة بالشيء تستوجب القدرة عليه ، والهيمنة فوقه .

فالسميع المطلق هو المحيط بكل ما في ملكه بسمعه من أشياء ، فلو لم يكن سميعاً ؛ لما كان محيطاً ولا مهيمناً ولا كبيراً ، فسبحانه وتعالىٰ هو

(1) الأنعام ، 102 ـ 105 .

السميع بهيمنته علىٰ خلقه ، وهو المهيمن بسمعه ، فلا هيمنة دون سمع ، أو بسمعٍ غير تام ، وهـٰذا يؤكد : أن صفات ٱلله تعالىٰ كلَّها مترابطة مع بعضها البعض ، كيف لا والموصوف بها واحدٌ كاملٌ لا نقص في صفاته جل جلاله .

والسميع بالإضافة هو المستمع لكل ما يقع تحت سمعه من أقوال في حدود المكان الذي يوجد فيه ، وكذلك في حدود الزمان ، فهو لا يستطيع سماع ما في الماضي ، أو المستقبل من أخبار ، وكذلك لا يمكنه سماع ما يدور في الوقت الحاضر من قولٍ إذا لم يكن ذلك القول في حدود مكان وجوده ، وبالتالي فالسميع بالإضافة محيطٌ بما يسمع ويدرك في حدود الزمان والمكان ، وهو بذلك يكون مهيمناً علىٰ ما يصل إليه سمعه . ولذا فالخليفة السميع هو الذي يستجيب مع كل أمر بالعمل الصالح ، أو بالانتهاء عما نهىٰ ٱلله عنه ، أو بالتجنب عنه ، أو بالأخذ به ، وفي ذلك يقدر ٱلله الأمر تقديراً ، وكل شيء بحسبان .

فإحاطة الخليفة وهيمنته جزء من هيمنة ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، والإحاطة بالشيء متضمنة القدرة عليه ، فعلىٰ المحيط بالإضافة أن يتذكر قدرة المحيط المطلق عليه ؛ لأنه داخل ضمن إحاطته ، وبالتالي فهو قادرٌ علىٰ عقابه وحسابه وهو أيضاً عالم بما يفعل أو يقول أو يضمر من خير أو شر .

في حين أننا نجد بعضاً من البشر يتناسون هـٰذه الصفة في حق ٱلله تعالىٰ ، فنراهم يتصرفون ، وكأن ٱلله جل جلاله غائب عن مجالسهم ، منحدرون في النميمة ، وقذف الناس ، وسبهم ، يعيشون في مستنقع الكذب ، والرذيلة ، وكأن ٱلله تعالىٰ لا يسمعهم ، ولا يحيط بهم ، لـٰكنه عز وجل مهيمن علىٰ سائر المخلوقات بسمعه وعلمه ، وهو يمهل ولا يهمل ، لذلك أمر الإسلام المؤمنين إذا سمعوا منكراً عليهم أن يقفوا له بالمرصاد ، ولا يصدقوا كل ما يسمعون ، فيقعون في الضلال ، وهـٰذا يتضح في قصة الإفك كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ

ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) .

وهناك فرق بين السمع والاستماع ، فالسمع هو سمع الكلام وفهمه وإدراك مقاصده والرد عليه إن رأىٰ : أن الرد واجب ، والأخذ بما سمع ورآه صواباً ، وترك ما سمع ورأىٰ : أنه يتنافىٰ مع الحق ، وهـٰذا المعنىٰ من السمع متحققٌ بالضرورة في السميع المطلق ، فهو يدرك كل ما يسمع ، ولا يمكن أن يغفل عن أقل ما يقال ، فيسهو عن فهمه أو إدراكه ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (2) . نزلت هـٰذه الآيات بأسباب : يقال : دخل أبو بكر

(1) النور ، 11 ، 18 .

(2) آل عمران ، 181ـ186 .

الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ بيت المدراس ، فوجد من يهود أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلىٰ رجل منهم يقال له (فِنْحَاص) وكان من علمائهم ، وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ يقال له : أشيع . فقال أبو بكر : « ويحك يا فِنْحَاص اتق ٱلله ، وأسلم ، فوالله إنك لتعلم : أن محمدًا رسول ٱلله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، والإنجيل ، فقال فنحاص : والله ـ يا أبا بكر ـ ما بنا إلىٰ ٱلله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير . ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ، ويُعْطيناه ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ! فغضب أبو بكر ، رضي ٱلله عنه ، فضرب وجه فِنْحَاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده ، لولا الذي بيننا وبينك من العهد ؛ لضربت عنقك يا عدوّ ٱلله ! فَاكْذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : أبصر ما صنع بي صاحبك . فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « ما حَمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْت ؟ » فقال : يا رسول ٱلله ، إن عَدُوَّ ٱلله قد قال قولاً عظيماً ، زعَم : أن ٱلله فقير ، وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ؛ غَضبْتُ لله مما قال ، فضربت وجهه ! فجَحَد ذلك فنحاص ، وقال : ما قلتُ ذلك ! فأنزل ٱلله فيما قال فنحاص رداً عليه ، وتصديقًا لأبي بكر : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ »(1) ولأن ٱلله قريب رقيب مجيب الدعاء فهو بطبيعة الحال يسمع ما يقال ، ويعلم بما سيقال قبل قوله ، ولذا فمن يسلم بعلمه أمر الغيب وما تكنه الصدور وتخفيه لا يستغرب بأنه قد سمع قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، ولهـٰذا فقد وقع سمع ٱلله لقولهم ، وجاء ردُّه عليهم بتوعده لهم بالعذاب والعقاب في الآخرة (2) .

(1) تفسير ابن كثير ، ج2 ، ص76 .

(2) المصدر السابق ، ص 29 .

وقال ٱلله سبحانه وتعالىٰ كذلك : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (1) . سبب نزول هـٰذه الآية الكريمة ، قيل عن عائشة : أنها قالت : « تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة ، فكلَّمتْ رسول الله ﷺ ، وأنا في جانب البيت اسمع كلامها ، ويخفىٰ عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها ، وتقول : يا رسول ٱلله : أبلىٰ شبابي ، ونثرتُ له بطني ، حتىٰ إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ؛ ظاهر مني ، اللهُمَّ إني أشكو إليك ! قالت : فما برحت حتىٰ نزل جبريل بهـٰذه الآيات .

وفي هـٰذه الآية وقع سمع ٱلله تعالىٰ لقول المرأة التي تجادل الرسول ﷺ وتشتكي زوجها إلىٰ ٱلله عز وجل ، فأدرك ما تقول ، وجاء رد ٱلله تعالىٰ عليها بأن أنزل في الآية التي تليها الإجابة وهي ما يتعلق بأحكام كفارة الظهار ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (2) .

وكذلك يتحقق هـٰذا المعنىٰ من السمع في حق السميع بالإضافة . والسميع غير السمَّاع أو المستمع فالسميع صفة ربانية ترتبط بالذات العلية وتستمد منها عندما تُتبع بالطاعة التامة في الاستماع للقول الذي يحمل الأمر ويؤخذ به ، والقول الذي يحمل النهي أو الاجتناب ويؤخذ به ، والقول الذي به تزداد التقوىٰ . وبذلك يستخلف الإنسان السميع بالطاعة التامة التي تترسخ وتتأكد بالعمل الصالح . أما السمَّاع ، والمستمع ، فحالهما يختلف عن حال

---

(1) المجادلة ، 1 .

(2) المجادلة ، 2 ، 3 .

السميع ، فأولئك السمَّاعون ، والمستمعون قد لا يأخذون بما سمعوا ، وقد يحرِّفون ما سمعوا ، وقد لا يطيعون ما سمعوا ، وقد لا ينتهون بعد ما سمعوا ، ولذا فكل من زوده ٱلله تعالىٰ بحاسة السمع والعقل يمكن أن يكون سامعاً مدركاً لما يقال ، ويمكن أن يرد علىٰ ما يسمع بالقول ، أو الفعل ، وقد جاء هـٰذا في قول ٱلله جل جلاله في كتابه العزيز : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [1] ، وكذلك جاء في قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [2] .

ومن هـٰذه الآيات يمكن أن نرىٰ : أنَّ كل الناس يمكن أن يسمعوا ، ويدركوا ما يسمعون ، ولـٰكنهم مع هـٰذا لا يكونون متصفين بصفة ٱلله عز وجل السميع ، فلا يستحقون أن يخلفوا ٱلله تعالىٰ في الأرض ؛ لأن الإدراك هنا عند هـٰذا النوع من البشر لا يؤدي إلىٰ معرفة الحق ، والوصول إليه ، بل إنهم لا يصلون بهـٰذا السمع إلا إلىٰ الضلال .

وخلافة ٱلله تعالىٰ في الأرض نوعان : خلافة اصطفاء لمن يختارهم الخالق جل جلاله ، ويصطفيهم من الأنبياء والرسل ؛ ليحملوا لواء الدعوة والتبليغ علىٰ لسان ٱلله عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [3] ، والنوع الآخر من الخلافة هي خلافة اختيارية ، وهي التي تكون في عباد ٱلله الذين يسعون إلىٰ أن يكونوا خلفاء ٱلله ، فيعملون علىٰ الاتصاف

(1) يوسف ، 31 .
(2) الأنبياء ، 60 .
(3) طه ، 13ـ16 .

بصفاته ، ويعملون علىٰ طاعته ، والتقرب منه سبحانه وتعالىٰ .

فخليفة ٱلله في أرضه لا يكون كبقية البشر في سمعه وإدراكه ، فيسمع ما يريد أن يسمع ويدرك ، فيرد كيفما أراد دون حدود في السمع والرد ، ولـٰكن هـٰذا الخليفة وهو السميع بالإضافة لا بد أن يحرص علىٰ أن يسمع من القول أفضله ، ويدرك معانيه ، ويفهمه ، ويأخذ به ، ويحرص علىٰ ألا يسمع لغو الحديث والكلام الذي لا يفيد ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [1] ، وهـٰذا أمر من الخليفة المطلق إلىٰ الخليفة بالإضافة ، فالسمع هنا قد وقع لقولين : الأول سماع آيات ٱلله تعالىٰ يُسْتَهْزَأ بها ، والثاني لقول ٱلله باتخاذ الرد المناسب منهم ترك هـٰذا المجلس ؛ حتىٰ يخوضوا في حديث غيره ، وكذلك كان هـٰذا الأمر للنبي ﷺ وهو الخليفة الذي اختاره ٱلله عز وجل لتبليغ الرسالة في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [2] ، فالخليفة بالإضافة مأمور بترك الاستماع لما يقال في المجلس من استهزاءٍ ، ولغو . وفي الوقت نفسه مأمور بسماع قول ٱلله عز وجل ، واتباع أمره : ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ .

---

(1) النساء ، 140 .

(2) الأنعام ، 63ـ68 .

أما الاستماع فهو استماع الكلام دون إدراك لمعانيه ، إما لغفلة من السامع أو لنفاق منه وتهاون وعدم مبالاة به ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) . السميع بالإضافة هو الذي لا يغفل عما يستمع إليه من السميع المطلق ، أما أولئك الغفلة ؛ فهم الذين جعل لهم ٱلله تعالىٰ حاسة للسمع وعقلاً للتمييز وهم عن أمرهم غافلون ؛ أي : غافلون عما قاله تعالىٰ وهو خير لهم ، ومع أنه خير لهم إلا أنهم لم يدركوا بعد هـٰذا الخير ، وبعد فوات الأوان : أنهم سيكونون من الخاسرين بأسباب الغفلة . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (2) المنافقون والكفرة والمشركون دائماً يظنون في المسلمين ظنَّ الجاهلية ، ومثل هـٰؤلاء المستهزئون الساخرون من الحق هم الغافلون حقاً فهم لا يدرون : أن الساعة تأتي بغتة . وقوله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾ هـٰؤلاء المنافقون ، دخل رجلان : رجل ممن عقل عن ٱلله ، وانتفع بما سمع ، ورجل

(1) الأنبياء ، 1ـ7 .

(2) محمد ، 16ـ19 .

لم يعقل عن ٱلله ، فلم ينتفع بما سمع ، كان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل ، وسامع غافل ، وسامع تارك » ، وهـٰؤلاء المنافقون الذين يستمعون إلىٰ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يعون قوله ، ولا يفهمونه [1] .

لذلك لابد أن يكون الخليفة دائماً مستحضراً لسماع ٱلله المطلق ، فيكون سمعه للحق ومن أجل إحقاق الحق ، وللعدل لا للظلم ، وأن يكون قبل كل شيء سمعه للخالق ، هـٰذا هو السمع الحق كما أراده ٱلله فينا ، وإلا لما كان هـٰذا السمع نعمةً من ٱلله سبحانه وتعالىٰ لنا مثل كثير من النعم الأخرىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [2] ، أي : إن ٱلله أتـمَّ خلْقه للإنسان ، وبعد ذلك أهداه نعمتي السمع والبصر ، ثم جاءه التخيير فبعد أن يستمع له الاختيار إما أن يكون شاكراً علىٰ نعمه التي أنعمها عليه ، وإما أن يكون جاحداً كفوراً ، ولكلٍّ حسابه . وللتمييز سيكون السميع مسلماً طائعاً ، وسيكون غيره كافراً رافضاً .

ولذا فالفرقٌ واضحٌ بين السمَّاع والسميع ، فالسمَّاع ليس بالضرورة أن يكون سميعاً .

بل لقد جاءت كلمة سمَّاعون بمعنىٰ جواسيس [3] كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

(1) تفسير الطبري ، ج22 ، ص160 .
(2) الإنسان ، 1 ـ 5 .
(3) تفسير الطبري ، ج 14 ، ص 281 .

﴿خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1] . فالسمَّاعون في هـٰذه الآية هم المتخاذلون والمنافقون الذين يظهرون مالا يخفون .

فالذين يسمعون الحق وما أمر ٱلله به ، وما نهىٰ عنه ، ولا يعملون بهـٰذا كله هم في الحقيقة أيضاً سمَّاعون ، أي : كثيروا السمع دون الاستفادة من أيِّ شيء يسمعونه ، ولا يعقلون أيَّ شيء مما حولهم ، قال سبحانه وتعال : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [2] ، فالذين يسمعون قول الحق ، ولا يتبعونه مثلهم فيما هم فيه من الغيِّ والضلال كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها ؛ أي : دعاها إلىٰ ما يرشدها لا تفقه ما يُقَال لها ، ولا تفهمه بل تسمعه صوتاً فقط [3] وهـٰكذا يكون الحال من الحال كمثل الذي ينعق بما لا يسمع .

فلا قيمة من سمعٍ لا يعود بالفائدة علىٰ صاحبه ، بل بعض السمع يعود علىٰ صاحبه بالويل ، والهلاك ، فالسميع بالإضافة هو الخليفة الذي سمع قول مستخلفه عز وجل ، وعمل بما أُمِر إصلاحاً ، وترك ما نُهِي عنه طاعةً .

وبالطبع سَمْع الإنسان ليس كسمع خالقه ، فبالرغم من أن البشر متشابهون وهم خلق ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وكل فرد فيهم له علامات مميزة قد ندركها ، وقد لا ندركها نحن بل المتخصصون ، مثل البصمة ، فلكل إنسان بصمته التي تميزه عن أي إنسان سواه ، إذا كان هـٰذا جزءاً مما يختلف فيه البشر عن بعض فما بالنا باختلاف البشر جميعاً عن الخالق جل جلاله ، إنه الواحد القهار الذي

---

(1) التوبة ، 45ـ47 .
(2) البقرة ، 171 .
(3) تفسير ابن كثير ، ج1 ، ص480 .

ليس له مقارن ، فمهما وصل ابن آدم إلىٰ درجة من الرحمة والعلم فلا يمكن أن يتعدىٰ اليسير مما عند ٱلله الخالق القادر والمهيمن والعزيز ، لذا تبقىٰ حاجة البشر إلىٰ الخالق في تزايد مستمر علىٰ مدىٰ الحياة ، وبما أن الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان فقد كان فيها الناس متفاوتين ألواناً وأرزاقاً وأخلاقاً وآجالاً ، فنرىٰ الغني والفقير ، والأعمىٰ والبصير ، والقوي والضعيف ، والظالم والمظلوم ، والمخلص والمنافق . ولما كانت الدنيا هٰكذا ؛ فإن حكمة ٱلله عز وجل تظهر في تعريف الخلق ما يناسبهم من أسمائه وصفاته ، فالمذنب إذا أراد التوبة سيجد ٱلله تواباً رحيماً غفوراً ، والمظلوم سيجد ٱلله ولياً ونصيراً ، والضعيف سيجد ٱلله قوياً عزيزاً ، والطالب لقضاء حاجة سيجده سميعاً مجيباً كما قال عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (1) ، ونستدل من الآية الكريمة : أن استجابة دعاء الداعي يستوجب قرب الإنسان من ربه ، وبالتالي يكون قرب الخالق من العبد ، وهٰذا القرب لا يتحقق إلا بسماعنا لقول ٱلله تعالىٰ الحق ، وبعدم الصمم والابتعاد عنه ، وإلا فإن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لن يكون قريباً مجيباً للدعاء ، فالخليفة الذي يرتضيه ٱلله عز وجل هو من يُسْمَع دعاؤه ، وقد استحق هٰذا بسماعه أوامر ٱلله وخوفه من عقابه ، كما حدث مع سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما دعا ربه أن يبعد عنه كيد النسوة في المدينة ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ

(1) البقرة ، 186 .

بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [1] .

وقد اقترن اسم السميع في القرآن الكريم بأسماء أخرىٰ لله عز وجل ومنها اسم العليم كما في قوله جل جلاله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [2] ، فسمع ٱلله عز وجل مقترن بعلمه بالشيء ، وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [3] ، ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [4] ، علاقة قوية تربط المعنىٰ السمعي مع المعنىٰ البصري ، فالسميع لم يكن فاقد الذاكرة ، فهو يعلم بكل ما يسمع ؛ حتىٰ يوصف بأنه عليم ، والعليم هو الذي يدرك الأمر ، ويلم بحاله ويحيط به ، ويهيمن عليه بالكمال . إذاً علم ٱلله تعالىٰ كامل ومطلق ، لا يحده أيُّ حد ، فقد أحاط هـٰذا الكون بسمعه وبصره وعلمه وقدرته جل شأنه ، فعلم ٱلله تعالىٰ كامل لا نقصان فيه ، فهو لا تخفىٰ عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء ؛ فبسمعه وعلمه هـٰذا يكون ٱلله عادلاً في حكمه وقضائه ، يعاقب هـٰذا ، ويعفو عن هـٰذا ، ويستجيب لهـٰذا ، فالعدل بدون العلم لا يقع ، والعلم بدون السمع والبصر لا يحصل ، فالإنسان الذي يريد أن يكون خليفة الخالق في أرضه لا بد أن يجعل بصره وسمعه في خدمة علمه الذي يجعله بالتالي عادلاً في حكمه ، فالذي يتولىٰ منصباً كبيراً مثل

---

(1) يوسف ، 31ـ35 .
(2) الأعراف ، 200ـ204 .
(3) النساء ، 148 .
(4) الأنعام ، 13 .

القاضي لابدَّ له من أن يكون سميعاً للحق ولا يكون للباطل سمعه ، فسمعه إذا لم يخدم علمه الذي استحق به هـٰذا المكان في الحياة الدنيا لا فائدة منه ، فيكون مثله مثل الذي لا يسمع ، فهو أصم برضاه ، كأن يستمع لطرفٍ واحدٍ ، ويبني حكمه علىٰ هـٰذا الأساس الظالم ، فهو إذاً سمّاعاً متحيز ، ونُفي عنه العدل ، فلا يستحق أن يكون خليفة لله الحق ، فالقاضي السميع خليفة لله ولا يحكم إلا بما يرضي ٱلله تعالىٰ ، ولذا ينبغي أن يكون سميعاً ؛ أي : يستمع بنية العدل ، وإحقاق الحق ، ومرضاة ٱلله تعالىٰ ، فلا يظلم أحداً ، وبهـٰذا يكون خليفة مصلحاً في الأرض لا مفسداً فيها .

ونحن نعلم : أنَّ ٱلله عز وجل سيحاسب العباد علىٰ أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدنيا ، فهو إذاً حسيب يدرك كيفية مراقبة عباده ، وتوزيع أرزاقهم ، وكيف سيكون حسيباً إذا لم يكن عادلاً ؟ ! وكيف يكون عادلاً إذا لم يكن سميعاً للعباد بصيراً بهم ؟ ! وكيف يكون دامغاً للباطل ، وزاهقاً له إذا لم يُحِق الحق ؟ !

والسميع أيضاً في حق ٱلله ترتبط بالبصير ؛ لأن من كان سميعاً لأقوال الخلق لا بد أن يكون بصيراً بأعمالهم ، وقد ذكر ٱلله هـٰذين الاسمين مرتبطين في كثير من الآيات الكريمة في كتابه العزيز كما في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (1) ، فالأمر هنا في هـٰذه الآية الكريمة أولاً برد الأمانات إلىٰ أهلها ، والأمر الثاني الحكم بالعدل ، وختمها بتذكير العباد : أن ٱلله له كامل السمع والبصر فيما يفعلونه من ظلم وخيانة الأمانة . ولذا فإن ممارسة الديمقراطية في الفكر الإسلامي كانت تمارس وفقاً لفلسفة الشورىٰ في الدين الإسلامي ، التي تعني فيما تعني : أخذ الرأي بعد

(1) النساء ، 58 .

تبيان الأمر واستيضاحه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [1] ويقول ابن منظور : (شاورهم) تعني : استخرج آراءهم [2] وهناك من يقول : « هي تلقيح الرأي بآراء متعددة » [3] . وهـٰذا يدل علىٰ أن الشورىٰ في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقاً للجميع : الذكور والإناث ، ولذلك يستوجب ممارسة الشورىٰ في الأمر . والأمر هو : كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات ، سواء كان هـٰذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية ، أو كان هـٰذا الأمر في حالة السلم أم في حالة الحرب ، وسواء كان اقتصاداً ، أو علاقات اجتماعية ، ولذلك في الآية السابقة يخاطب ٱلله عزَّ وجلَّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر ، أي : وكأنه يقول : في وجودك يا رسول ٱلله لا ينبغي أن تقرر أيَّ شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم ، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورىٰ معهم ، ولذلك كانت الآية : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ موجهةً إلىٰ رسول ٱلله ﷺ لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلَّق الأمر بهم .

وفي حالة ما لم يكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معهم يصبح الأمر بينهم شورىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [4] . إذاً بكل وضوح : إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول ﷺ كان في حالة شورىٰ بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم . أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورىٰ يقررون ما يشاؤون فيه ، وينفذونه كما يشاؤون وفق ضوابط الشرع ، ولهـٰذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم

---

(1) آل عمران ، 159 .
(2) تفسير الجلالين . بيروت ، دار الفكر ، ص 94 .
(3) محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة ، أخبار اليوم ، ج3 ، ص 1840 .
(4) الشورىٰ ، 38 .

من أمر . وكلمة (أمرُهُم) تتكون من جزأين هما : (أمْرُ) و(هُم) فالأمر هو ما سبق تبيانه ، أما (هـم) فجاءت مطلقةً ؛ أي : كل من هم علىٰ علاقة ارتباط مع الأمر ، وهـٰذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية ، بل الوجود للكل دون استثناء ، وكلمة بينهم الظرفية تعني ، أن تقتصر الشورىٰ في الأمر علىٰ الذين يعنيهم الأمر فقط ، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية ، ولتأكيد هـٰذا الاقتصار قال عزَّ وجل : (بينهم) ، ولم يقل : بين الحاكم ، والمحكومين ، أو بين السادة ، والعبيد ، أو بين المسؤول ، وغير المسؤول .

وعبر التاريخ كانت هناك محاولات فكرية لممارسة الديمقراطية من الناحية النظرية ، وهناك من الناحية العملية والتطبيقية ما يخالف ذلك بالتمام ، حتىٰ أصبح المعنىٰ السائد للديمقراطية هو حكم الأغلبية ، مع العلم أن هـٰذا التفسير ليس له علاقة بمعني الديمقراطية ودلائلها اللفظية ، ولذا أصبح التهرب عن دلائلها بتعويضات منقوصة ، فالديمقراطية هي واحدةٌ لا تتجزأ .

وعليه فالسميع لا تخفىٰ عليه خافية ، لقد أحاط سمعه بجميع المسموعات ، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها : سرها وعلنها ، فلا تختلط عليه الأصوات ، ولا تخفىٰ عليه جميع اللغات ، كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (1) وكذلك قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى

(1) الرعد ، 8ـ11 .

ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ (1) ، فسمعه جل جلاله نوعان :

أحدهما : سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة ، والخفية والجلية ، وإحاطته التامة بها .

وثانيهما : سمع الإجابة منه للسائلين ، والداعين ، والعابدين ، فيجيبهم ويثيبهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (2) . والاستجابة هنا لا تكون إلا بعد السمع ، فهل يجيب أو يستجيب من لا يسمع ؟ بالتأكيد لا ! وقد أمرنا ٱلله تعالىٰ بالتوجه إليه بالدعاء من أجل أن يستجيب عز وجل لدعائنا ، وجاء هٰذا الأمر صريحا في قول ٱلله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ (3) .

والاستجابة للدعاء من ٱلله تعالىٰ يمكن أن تكون فورية ، أو بعد الدعاء مباشرةً كاستجابته عز وجل لدعاء سيدنا نوح ﷺ الذي أخبرنا به تعالىٰ في قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ

(1) المجادلة ، 1 .

(2) آل عمران ، 195 .

(3) غافر 59ـ62 .

عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (1) .

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلةً إلىٰ بعد فترة قصيرة أو طويلة في الحياة الدنيا ، وذلك لحكمة يعلمها ٱلله عز وجل كاستجابته لدعاء سيدنا إبراهيم ، وابنه سيدنا إسماعيل ـ صلىٰ ٱلله عليهما وسلم ـ قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) . والله جل جلاله يعلمنا بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يدعو الإنسان بقبول عمله إذا قام به ؛ ونيته خالصة لوجه ٱلله تعالىٰ ، فلا يكون دعاؤه لمصلحة خاصة ، أو أن يكون منافقاً في حبه لله الخالق ، وهو السميع العليم بالنفوس وبالضمائر ، كيف لا ؛ وهو خالقها عز وجل ، ولا يخفىٰ علىٰ الخالق شيءٌ في مخلوقه .

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلةً ليوم الآخرة كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (3) .

وقد لا يستجيب ٱلله تعالىٰ لدعاء الداعي إذا لم يكن مخلصاً في دعائه ، ولا موقناً بأن ٱلله هو الوحيد الذي يُسْأل ، وهو الذي يُنْتَصر به ، أو كان إيمانه ضعيفاً بالله عز وجل متزعزع العقيدة ، أو كافراً ، وعدم الإجابة لا يعني عدم السمع في حق ٱلله تعالىٰ ، ولـٰكن هو سميع لكل قول من العباد : المؤمن

(1) القمر 10ـ 13 .
(2) البقرة 127ـ 129 .
(3) المؤمنون ، 109ـ 111 .

منهم ، والكافر ، المخلص في عبادته ، والمقصِّر فيها .

وعلىٰ الخليفة أن يكون سميعاً مجيباً لله عز وجل أولاً ، فهو الذي مَنَّ عليه بنعمة السمع ، ونعمة استخلافه في الأرض ، فلابد أن يكون مجيباً لأوامر ٱلله تعالىٰ بالالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، وكذلك عليه أن يكون مجيباً لكل من يدعوه ، أو يطلب منه العون فلا يبخل عليه بتلبية دعوته وتقديم العون له ما لم يكن ذلك فيه معصيةٌ للخليفة المطلق .

وباللزوم اسم السميع في حق ٱلله سبحانه وتعالىٰ يستوجب أن يكون هـٰذا الخالق السميع مالكاً لكل شيء ، وهـٰذه الملكية مطلقة كما في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [1] ففي هـٰذه الآية الكريمة وجّه ٱلله جل جلاله أنظار الخلق إلىٰ أنه هو الخالق ، وهـٰذه هي البداية ، ثم أنه القادر والمالك لكل ما لدينا ، ومنها السمع ، والبصر ، فهو خالق هـٰذه الحواس ، ومالكها ، ولا يملكها مُلْكَ جارحةٍ ، وعين ، وإنما ملك قدرة ، فيهبها لخلقه ؛ لأنه سميع بصير يمنحهم ما يسمعون به ، وما يبصرون ، فإذا لم يكن مالكاً للبصر والسمع ؛ فبأي وسيلة سوف يعطينا ذلك ؟ وهـٰذا ما تؤكده الآيتان الكريمتان في قوله تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [2] . إنَّ ٱلله أنعم علىٰ سيدنا سليمان بنعمة السمع الذي يفوق سمع البشر العادي ؛ إذ أنه بواسطة هـٰذه الميزة من الخالق له استطاع أن يسمع ، ويدرك خوف النملة

(1) يونس ، 31 .
(2) النمل ، 18 ، 19 .

من جنوده ، وهـٰذا يوصلنا إلىٰ الكيفية التي يجب أن يكون عليها الخليفة علىٰ الأرض ، فالخليفة الحق يجب أن يكون سمعه من سمع ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وبصره من بصر ٱلله عز وجل ، فهو الذي يجعل حياته للخالق ، ويعقد قلبه علىٰ ترك مخالفة ٱلله تعالىٰ ، وترك معاصيه وأن يلزم الحق ، وأوامر ٱلله عز وجل .

ونستوحي من بعض الآيات القرآنية الكريمة قرب ٱلله سبحانه وتعالىٰ بسمعه منا : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (1) ، ولأنه يعلم ما تكنه الصدور فهو يسمع النجوىٰ منا ، إنَّه معنا أينما كنا ، ولا تخفىٰ عليه خافية . قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

فبتأكيد هـٰذا القرب من الخالق جل جلاله يتأكد لجميع الخلق السمع المطلق له ؛ لأن الخالق موجود في كل مكان ، وفي كل الأوقات والأزمان ، فهو أزلي ، فأين سيهرب الإنسان من رقابته ، وسمعه ، وهو الرقيب علىٰ تصرفاته وأفعاله في الحياة الدنيا ؟! فلا مكان يلجأ إليه دون علم ورقابة المولىٰ عز وجل . من الممكن أن يختبئ الإنسان من غيره من المخلوقات إذا أراد السوء بجهالة ، وأن يدبِّر ما يريد من قول أو فعل بعيداً عن إسماع الخلق ، فيظن أن لم يره أحد ، ولـٰكنه نسي : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يسمعه ويراقبه وسيحاسبه عاجلاً أم آجلاً ، فالذي لا يتحدث إلا بما يغضب ٱلله عز وجل ، ولا يتفوه إلا بالسوء ، والذي يتسبب بجرح الناس ؛ وهو متعمد ، والذي يطعن في أعراض الناس ، والذين يسبون من هم أولىٰ بالشكر والرحمة ، كلُّ

---

(1) سبأ ، 50 .
(2) المجادلة ، 7 .

أولئك يهرولون نحو جهنم ؛ لأن ٱلله تعالىٰ هو العادل بحكمه ، والرقيب علىٰ خلقه ، والحسيب يوم تقوم الساعة ، والعليم بحقوق عباده .

السميع المطلق هو الذي يستمع إلىٰ مَنْ ينطق بشيءٍ قبل أن ينطق بما يود أن ينطق به ، فعلام الغيوب يعلم بالشيء قبل وقوعه ، ولذا فهو المستمع لما سيقال قبل قوله ولهـٰذا فهو ٱلله الواحد القهار جل جلاله .

وعليه : هل يظن البعض بأنه يعلم الغيب ولا يستمع لما علم به ؟ ! وما الفرق بين علم الغيب والاستماع للشيء قبل أن ينطق ؟ ! وما معنىٰ اللوح المحفوظ ؟ وكيف نؤمن بعلمه للسر والنجوىٰ ، ولا نؤمن بسمعه المطلق لما يُسرُّ ، ويناجىٰ به ؟ وكيف استجاب لسيدنا أيوب بما يريد دون أن يفصح لو لم يكن سميعاً عليماً ؟ ! وكيف يكون عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وعليم ، وخبير مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (1) كيف يكون كذلك إن لم يكن سميعاً عليماً قريباً مجيب الدعاء ؟

السمع إحساس ، والإحساس بالشيء يأخذ وجهين :

الوجه الأول : إحساس مباشر : بالنظر يشاهد ، وبالأذن يسمع ، وبالأنف يُشم ، وباللسان يذاق ، وباللمس يُميز . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (2) .

الوجه الثاني : إحساس غير مباشر بالعقل يدرك ويتم استقراؤه ،

---

(1) لقمان 34 .

(2) الإسراء 36ـ38 .

واستنباطه ومن سمات الوجوه يعرف مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [1] .

فعلىٰ من أراد أن يكون خليفة ٱلله عز وجل علىٰ أرضه يجب أن يعلم : أن ٱلله تعالىٰ حاضر أمام عينيه في كل وقت ، وحاضر في سمعه لأي شيء ، وأن يطمع في استجابة المولىٰ له إذا طلب ويثق في الإجابة ؛ لأن ٱلله تعالىٰ هو السميع لعباده والعليم بهم ، فتكون نفس الخليفة مطمئنة لحساب ومراقبة الخالق عز وجل له ، ويكون هدفه هو مرضاة خالقه قبل مرضاة الخلق ، فيكون سمعه وبصره وعلمه لله الحق ، وعندها سيكون هـٰذا الخليفة في ظل الرحمـٰن يوم القيامة ، يعفو عنه ، ويجازيه بالنعيم الدائم .

وكل إنسان موجود علىٰ الأرض يحتاج لأن يكون سميعاً ، فالأب يكون سميعاً لأبنائه ، فلا يتجهون إلىٰ أشخاص منحرفين عن الفضائل الإنسانية والقيم الاجتماعية ، ولذا فرعاية الأبناء من مسؤولية الوالدين ، وعليهما أن يجعلا البيت هو مكان للنقاش والحوار وطرح المشاكل وطرق حلها وفقاً لمكارم الأخلاق .

وعليه ينبغي أن يراعي الخليفة الدقة في السمع ، وأن لا يخطئ السمع في سماعه لبعض الأمور ، وأن لا يجعل الظن غالباً علىٰ سمعه ، فليتقِ ٱلله ربه ، وعلىٰ العباد أن يعرفوا إن استراق السمع في قضايا خطيرة من شأنها إفساد العلاقات الإنسانية ، وتفكيك بناء المجتمع ناهيك علىٰ أنها معصية لله سبحانه وتعالىٰ .

---

(1) الفتح ، 29 .

وبناء علىٰ ذلك فإن تقوىٰ ٱلله خير منقذ من الوقوع في الظن ، وأن بعض الظن إثم ؛ فليتقِ العبادُ ربهم فيما أمر به ، ونهىٰ عنه . وأن يعتمد مكارم الأخلاق في الإصلاح بين العباد وإذا قالوا صدقوا ، وإذا عملوا أخلصوا النية وأحسنوا عملاً ، وإذا حكموا يحكمون بالعدل ، وأن يكونوا سميعين طاعة لله وحده ، وأن يتقوه في كل كبيرة وصغيرة ، وأن يحمدوه ، ويشكروه علىٰ واسع فضله .

ولهٰذا مطلوبٌ لكل ولي أمر أن يكون له السمع والطاعة من رعيته ، طبعاً علىٰ أن لا تكون هٰذه الطاعة في معصية ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وذلك كما جاء في حديث نافع عن عبد الله ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ ؛ فَلَا سَمْعَ ، وَلاَ طَاعَةَ » (1) . فالرسول عليه الصلاة والسلام له حق الولاء والطاعة من المسلمين لما له من مكانة رفيعة ، وكيف لا وهو الذي يتكلم بوحي من ٱلله جل جلاله ، وهٰذا من شأنه أن يوحد الصفوف ، فالسمع والطاعة لولي الأمر يقوي بنيان الأفراد ، وهٰذا ما وجدناه في صفوف المسلمين في عهد الرسول ﷺ فقد كانوا مستمعين لأوامره في طاعة ٱلله ، ولا يخالفونه في شيء ؛ لأنه لن يرتضي لهم معصية الخالق ، عز وجل .

وبالرغم من ذلك فقد أوضح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أن لا ولاء لأي ولي في معصية ٱلله تعالىٰ ، لان السمع والطاعة يكونان أولاً لله تعالىٰ ؛ فإذا خالف الولي ذلك لم يكن له حق الاستماع له ، والطاعة .

وفي هٰذه الحال يفرق هٰذا الولي غير الكفؤ بين الأفراد ؛ لأن هناك من سيتبعه في معصية ٱلله تعالىٰ ، وهناك من سيخالفه ، وهٰذا بدوره سيؤدي إلىٰ ضعف الجماعة ، وتنازعها الدائم .

(1) صحيح البخاري ، ج22 ، ص 52 .

وعلىٰ الولي ألا يستغل هـٰذا الولاء في غير مكانه ، بل يجب أن يوجه هـٰذا الولاء لخدمة الدين ، وعليه أن يتذكر : أن السمع والطاعة حتىٰ منه هو إنما لله خالق هـٰذا الكون ، ومدِّبر أمره .

حتىٰ إننا نجد : أن ٱلله بالرغم من أمره لنا بطاعة الوالدين ، وجعل طاعتهما من طاعته إلا أنه أمرنا بعدم طاعتهما في معصية ٱلله تعالىٰ في قوله الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، وكـذلـك قـولـه تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [2] .

كذلك نهىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ عن استراق السمع ، وهي صفة ذميمة لا تؤدي بصاحبها إلاَّ للتحقير ، ولا يجوز لأيِّ مخلوق أن يتعدَّىٰ حدوده التي أعطاها له خالقه ، فإن ٱلله تعالىٰ قد جعل لسمعنا حدوداً ولحكمة هو مدركها ، فكيف نتخطىٰ هـٰذه الحدود الإلهية ؟ ! وحتىٰ استراق السمع ممنوع علىٰ كل أنواع الخلق من الجن والإنس ، لأن السمع المطلق هو ملك لله وحده جل جلاله ، ولن يكون عقاب من أراد دخول هـٰذه الحدود إلا عذابٌ ، وويل

---

(1) العنكبوت ، 8 .

(2) لقمان ، 14ـ19 .

من ٱلله ، عز وجل ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (1) أي : إنه قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها ، فيتبعه شهاب من النار مبين ، يبين أثره فيه ، إما بإخباله أي : إفساد أعضائه ، أو بإحراقه (2) .

هـٰذا هو عقاب من يسترق السمع ، ويتجسس علىٰ ما لا يعنيه من الأمور ، فعلىٰ الخليفة أن يحرص علىٰ أن لا يستعمل سمعه فيما لا يعنيه ، أو فيما يغضب ٱلله الذي استخلفه في الأرض فلا يتتبع عيوب الناس ، وأحوالهم فيكون بذلك قد خرج من نطاقه إلىٰ نطاق السميع المطلق وهـٰذا يؤدي للمشاركة معه ، والله لا شريك له . قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (3) . علاقة قوية بين ثلاثة :

الأول : الظن الذي هو الإثم : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾ .

الثاني : التجسس الذي هو استماعك ، وتنصُّتك علىٰ الغير في غير مرضاة ٱلله ، وفي غير مرضاة المتجسَّس عليه .

الثالث : الاغتياب : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ الاغتياب مثله ٱلله كمن

---

(1) الحجر ، 16ـ18 .

(2) تفسير الطبري ، ج17 ، ص77 .

(3) الحجرات 12 ، 13 .

يأكل لحم أخيه ميتاً ، وهـٰذا يعني التحريم القاطع : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وبما أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ رقيب علىٰ الخلق بسمعه وبصره وشهيد عليهم ؛ إذاً هو عادلٌ في حكمه وقضائه ، فدعاؤه مجاب لكل خليفة ولـٰكن زمن الإجابة يعلمه وحده لا شريك له ؛ فادعوه إنه قريب مجيب : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يتصرف في كل شيء كما يشاء ، وهو بعباده لطيف خبير ، فيخلق العبد ، وأفعاله الاضطرارية والاختيارية ، فقد قال جل جلاله في كتابه العزيز : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، فهو الذي يوجد ، ويُعدِم وفقاً للحاجة ، ويرزق ، ويمنع وفقاً لما يشبع الحاجة ، ويُشْقي ، ويُسْعِد وفقاً لما يُقدم من أعمال ، وهو الذي يرسل الرسل ، وينزل الكتب وفقاً لكل أمة ، ويدبر الكون كما يشاء ؛ لأنه المالك لكل شيء بسمعه وبصره وعلمه ، يكفي أن يستمع الإنسان إلىٰ صوت الرَّعد ، أو أن يستمع إلىٰ صفير الرياح ؛ لكي

(1) غافر ، 60ـ66 .
(2) الصافات ، 96 .

يدرك مدىٰ قوة هـٰذا الخالق ، ومدىٰ ضعف المخلوق ، فالرعد الذي يخترق الآذان الإنسانية ، ويثير الرعب في النفس البشرية ، هـٰذا الصوت يسبح باسم ٱلله عز وجل ، وهـٰذا ما ورد في الآية الكريمة : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (1) .

وبما أن ٱلله تعالىٰ هو السميع إذاً فلا يجب في حق ٱلله الصمم وما في معناه ، كأن يسمع الجهر دون السر ، أو أن يسمع الأصوات دون الذوات ، ولهـٰذا استحالت صفة الصمم في حق ٱلله تعالىٰ ؛ لأنها من صفات النقص ، والله عز وجل منزه عن كل نقص أو عيب ، لأنه لو اتصف بشيءٍ منها لاحتاج إلىٰ من يدفع عنه هـٰذا النقص ، أو يكمله ، والإلـٰه المطلق جل جلاله هو الحق الذي لا يحتاج لمن يحقه ، فلو كان سمعه سبحانه وتعالىٰ ناقصاً ، لما كان عادلاً ، ولما سمع نجوىٰ القلوب ـ عزَّ وجل ـ وما يُكَنُّ في الصدور .

لذلك الإنسان الأصم حقاً ليس هو الذي فقد نعمة السمع ، بل هو الذي أنعم الخالق عليه بنعمة السمع ، فكفر بخالقه ، وسدَّ آذانه وعقله عن سماع صوت الحق ، فلا يسمع سوىٰ وسوسات شياطين الجن والإنس ، والعياذ بالله ! يركض خلفهم مطيعاً لهم ، لا يوقفه عن كفره وعصيانه اسم ٱلله حين ترتفع به المآذن ، ولا يستمع لقول ٱلله عز وجل يتوعد لمن جحد بنعمة ٱلله له ، واستغلها في الكفر والمعصية : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2)

---

(1) الرعد ، 13 .
(2) البقرة ، 17ـ20 .

فلا يشترط وجود آذان بشرية لكي يكون الإنسان سميعاً للحق ، يفرُّ بواسطة هـٰذه النعمة من النار ، وعذاب الحريق ، فالمنافقون ، والجاحدون لا يصحُّ وصفهم إلا بالصمم .

وكذلك تشبيه الكافرين بالبهيمة التي تسمع الصوت ، ولـٰكنها لا تفهم معناه ، وذلك في قوله عز وجل : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (1) ، فللكفار هنا حالتان :

الأولىٰ : حالة الإعراض عن الإسلام .

والثانية : حالة الإقبال علىٰ الكفر ، وذلك لأنهم فقدوا بكفرهم التمييز ، فمن ضمن الفروقات الجلية بين سائر المخلوقات وبين الإنسان هي القدرة علىٰ التمييز ، سواء كان تمييزاً بالصورة أو الصوت ، أو حتىٰ بالقلب .

فالتمييز ـ ومركزه العقل ـ ميزة وهبها ٱلله للإنسان ، فقد خلق ٱلله تعالىٰ للبهائم والطيور آذاناً لـٰكنه لم يهبها نعمة التمييز ، فإن لم يصل الإنسان إلىٰ التمييز بين الحق والباطل فهو قد فقد ميزة آدميته بالتأكيد ؛ لأنه بالسمع والبصر والكلام يُرَشِدهم العقل ، فإذا حُجِب علىٰ كل هـٰذه الحواس بحجاب الكفر ؛ فقد الإنسان رشده ، فالعقل لا يعمل بلا السمع الحق ، والبصر الحق ، والكلام الحق « فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي

(1) البقرة ، 171 ـ 175 .

لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها ، أي : دعاها إلىٰ ما يرشدها ، لا تفقه ما يقول ، ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط »[1] .

وفي صورة ثانية للكافرين قال ٱلله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[2] أي : إن الذين يكذبون بحجج الخالق عز وجل ، وأدلته صمٌ عن سماع الحق ، بكمٌ عن القول به ، وبهـٰذا يكونون قد عَدِموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم ، فلهم أبصار ، وأسماع لا يوجهونها إلىٰ التأمل فيما خلق ٱلله تعالىٰ ، وفيما يسمعون من آيات ٱلله عز وجل المنزلة علىٰ رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة علىٰ سنته في خلقه .

فإن كان الإنسان يسعىٰ لأن يكون خليفة ٱلله في أرضه ، لا يجب أن يكون أصماً عن الحق بالرغم من وجود نعمة السمع لديه ، بل يكون سميعاً بقدر الإمكان البشري الذي منحه ٱلله لنا لأوامر خالقه ، مستخدماً سمعه في البحث عن كلِّ ما هو خفي في كل ما حوله ، مظهراً لأسرار جديدة كامنة فيما حولنا ، فعندها يكون سمعه في خدمة علمه وعلمه في خدمة خالقه ، وبهـٰذا يكون قد استحق أن يكون خليفة ٱلله تعالىٰ في أرضه ، حتىٰ ولو كان ٱلله قد خلقه أصماً

(1) تفسير ابن كثير ، ج 1 ، ص 480 .
(2) الأنعام ، 38ـ44 .

يستطيع أن يسمع بقلبه ، وعقله ، ويستطيع أن ينجز أكثر ممن لديهم نعمة السمع دون فائدة إذا توكل علىٰ ٱلله ، وجعله في قلبه ؛ فسيكون ٱلله بالتالي سمعه الذي سيغنيه عن كل من حوله ، والدليل علىٰ هـٰذا نجد بعضاً من أصحاب العاهات رواداً في مجالات عديدة ، لم يمنعهم فقدانهم لنعمة من النعم من أن ينجزوا ما لم ينجزه الأصحاء ، فلا يمنع الإنسان أن يبدع إذا كان أصماً ، أو أعمىٰ ، أو غيرها ، فلا يشترط إذاً أن يكون الخليفة كامل الحواس ، فالكمال لله وحده ، فمن الممكن أن يكون فاقداً لحاسة من الحواس ، لـٰكن ٱلله سبحانه وتعالىٰ سيعوضه بما هو خير ؛ إذا أخلص في نيته لله تعالىٰ ، وتوجه له فقط دون غيره . أو حتىٰ إذا كان لديه نقص معين في حاسة ، مثل ضعف في النظر ، أو السمع ؛ فبإمكانه أن يكون كامل السمع إذا أراد الإنسان ، فلا فرق عند ٱلله سبحانه وتعالىٰ بين صحيح وعليل ، حتىٰ إن الرسول ﷺ عوتب في ابن أم مكتوم وقد كان أعمىٰ ، وذلك كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [1] .

ونرىٰ : أن ٱلله عز وجل وجَّه العديد من الكلام وخصَّه للذين يسمعون ، وهـٰذا دليل علىٰ ما للسمع من أهمية في تمييز الحق والباطل ، وفي ذلك قوله عز وجل : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [3] ، أي : إن ٱلله تعالىٰ ربط بين آياته ودلائلها والإيمان بها بالسمع البشري ، والسمع هو الذي يؤدي إلىٰ الإيمان بالخالق عز وجل ، والسمع الذي يكون لكلام ٱلله تعالىٰ فقط دون

(1) عبس ، 1ـ4 .
(2) يونس ، 67 .
(3) النحل ، 65 .

سواه ، الأقوام التي تسمع هـٰذه الآيات فتعقلها ، وتتدبرها أولئك هم الذين يعمرون الأرض .

والمؤمن الصادق هو الذي يصون أذنه عن سماع اللَّغو والباطل ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (1) .

إذاً قد فرق القرآن بين الذين يتمتعون بالسمع كحاسة فقط ، وبين الذين يتمتعون بالسمع كتدبر وفهم واستيعاب للأمور بعقل سليم ، فالنوع الأول قد جعل ٱلله تعالىٰ سمعهم وكأنه صمم ، أما النوع الثاني فقد جعل ٱلله تعالىٰ سمعهم إدراكاً وتدبراً .

والنوع الثاني هو الذي يجب أن ينتمي إليه خليفة ٱلله عز وجل في أرضه ، الذي يجعل من سمعه وسيلة للطاعة ، كما أراد الخالق عز وجل عندما قرن الطاعة بالسمع في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) . فقد قرن الخالق جل جلاله بين السمع والطاعة وهـٰذا هو السمع الحق .

وعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ في أرضه أن يصبر ، فالصبر مفتاح الفرج ، وأن يكون علىٰ يقين : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ معه مادام هو مع ٱلله .

وعلىٰ الخليفة أن يقرن سمعه بالطاعة لله عز وجل لكي يحظىٰ بالاستجابة ، فبهـٰذا يكون قد وجَّه نعمة ٱلله تعالىٰ عليه إلىٰ ٱلله عز وجل ، وذلك كما جاء في قوله جل جلاله : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟

(1) القصص ، 55 .
(2) التغابن ، 16 .

سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [1] .

والسميع جل شأنه إنما هو محيط بمخلوقاته إحاطة مطلقة بجميع حركاتها وسكناتها ، فهو جل جلاله قريب لا من حيث الزمان والمكان ، سميعٌ لا بآلة ولا بأداة ، فعن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كنا مع النبي ﷺ في سفرٍ ، فكنا إذا أشرفنا علىٰ وادٍ ؛ هلَّلنا ، وكبرنا ، وارتفعت أصواتنا ، فقال النبي ﷺ : « يا أيها الناس أربعوا علىٰ أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً . إنه معكم ، إنه سميعٌ قريبٌ » [2] فالله تعالىٰ سميع بصير بعباده وجميع مخلوقاته ، إنه يسمع ويرىٰ ، فلا يغيب عن سمعه مسموع ؛ وإن خفي . ولا يغيب عن رؤيته مرئيٌّ ؛ وإن دق . ولا يحجب سمعه بُعد المكان ولا يدفع رؤيته شدة ظلام . فكما يرىٰ من غير حدقة ، وأجفان ، فإنه يسمع من غير أصمخة ، وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق . ولهٰذا كان السميع العليم متفرداً بصفة السميع المغايرة لما يسمعه المخلوقون ؛ إذ إن الكلام المسموع يحتاج إلىٰ أدواته السمعية التي توصله إلىٰ من يسمعه ، وهٰذه الأدوات السمعية مشتركة بين الداخل والخارج ، فالداخل ما يمتلكه السامع من أداة ـ أيُّ سامع إنسان ، أو غيره ـ من الأذن الخارجية والوسطىٰ والداخلية وما تضم بينها من أدوات أخرىٰ كالصماخ ، والتجويف ، وطبلة الأذن ، والمطرقة التي تتعاون فيما بينها لتحويل الذبذبات الخارجية إلىٰ أصوات مفهومة من الكلام الذي يحلله الدماغ إلىٰ ما اختزن من معانٍ معرفية ، وأما الخارج فهو الفضاء والهواء وما تحدثه الأصوات من ترددات تنتقل سرعة وبطئاً حسب شدة الصوت ، وبتعاون الأدوات الداخلية والخارجية تحدث لنا

(1) البقرة ، 285 .
(2) رياض الصالحين ، ج 1 ، ص 120 .

سماع الأصوات نحن المخلوقين . أما الخالق عز وجل ؛ فإن سمعه لا بدَّ أن يكون مغايراً لسمعنا بالضرورة ؛ إذ لا يستوي الخالق والمخلوق في أيِّ شيء ، فكيف يكون ٱلله تعالىٰ سميعاً ؟

والجواب علىٰ ذلك يكون من منطلق الكلام الذي يفترض : أنَّه مسموع من قبل السامع ، فالله سبحانه وتعالىٰ كلَّم موسىٰ تكليماً ، فكما أن كلام ٱلله لا يشبه كلام الخلق ، فكذلك سمعه لا يشبه سماع الخلق ؛ لأن موسىٰ ﷺ : « سمع كلام ٱلله بغير صوت ، ولا حرف ، كما يرىٰ الأبرار ذات ٱلله تعالىٰ في الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هـٰذه الصفات كان « حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات » [1] . فإذا كان موسىٰ عليه الصلاة والسلام سمع كلام ٱلله تعالىٰ بغير صوت ، ولا حرف ، فهـٰذا يعني خروج عن سنة ٱلله في خلقه بمشيئة ٱلله ؛ إذ ما ينبغي للأعلىٰ أن يتصف بصفات الأدنىٰ ، لذلك فإن ٱلله تعالىٰ ترفع بموسىٰ عليه الصلاة والسلام عن السنة الكونية في طبيعة البشر إلىٰ مرتبة أعلىٰ حتىٰ يتسنىٰ له أن يسمع كلام ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا دليل علىٰ أن صفات ٱلله تعالىٰ ، وأفعاله بغير عين ؛ ولا جارحة ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [2] ، ومع ذلك فقد كان كلام ٱلله تعالىٰ لنبيه موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ قدر استطاعة تحمله لكلامه تعالىٰ ، ولم يكن كلاماً مباشراً كما يكلم أحدنا الآخر في عملية الحديث والمواجهة ؛ لأن موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لما أتىٰ طور سيناء أنزل ٱلله الظلمة علىٰ سبع فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه الهوام ونحىٰ عنه الملكين وكشف له السماء فرأىٰ الملائكة قياماً في الهواء ، ورأىٰ

(1) إحياء علوم الدين 1 ، 97 .
(2) النساء ، 164 .

العرش بارزاً وكلمه ٱلله وناجاه حتىٰ أسمعه كلامه من غير واسطةٍ ، وكيفيةٍ ، وصوتٍ ، وحرفٍ »[1] . فالله سبحانه علىٰ ما نعتقد أسمع موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلامه بالطريقة التي شاء بها الخالق عز وجل أن يسمعه ، لأن جميع العلماء علىٰ رأي واحد في هـٰذا الأمر : أن كلام ٱلله تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غير كيف ، ولا واسطة ، ولا حرف ، ولا صوت ، وهو مصداق لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[2] فهـٰذه الآية دليل علىٰ أن ٱلله تعالىٰ ما ينبغي له أن يكلم بشراً كفاحاً إلا من وراء حجاب ، فمن ذلك الكلام إلهام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في نومه : أنه يذبح ابنه ، وكذلك ألهم أم موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تقذفه في التابوت ، ثم تقذفه في اليمِّ . أو (من وراء حجاب) مثلما كلّم موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ دون أن يراه ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] فكلام ٱلله تعالىٰ سمعه موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريقة مغايرة عن سماعه في الطبيعة الإنسانية ، « وما صح لأحد من البشر أن يُكلمه ٱلله إلا وحياً بالإلقاء فيٰ القلب إلهاماً ، أو مناماً ، أو بإسماع الكلام الإلـٰهي دون أن يرىٰ السامع من يكلمه ، أو بإرسال ملك يرىٰ صورته ، ويسمع صوته ؛ ليوحي بإذنِ ٱلله ما يشاء ، إن ٱلله قاهر فلا يمانع ، بالغ الحكمة فيٰ تصرفاته ، وتدبيره »[4] وعلىٰ هـٰذا

(1) تفسير حقي ، ج 3 ، ص 154 .

(2) الشورىٰ ، 51 .

(3) الأعراف ، 143 .

(4) النخب ، ج 2 ، ص 350 .

فإن ٱلله تعالىٰ سميع ، لا نقول بهـٰذه الكيفية التي كلم بها نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وإنما هو سميع بفعل الكينونة ، ولا نبحث في طريقة السمع ، أو كيفيتها ، ولـٰكن طالما : أن ٱلله تعالىٰ أحاط بكل شيء علماً ؛ فقد دخل السمع ضمن الإحاطة الإلـٰهية لأعمال خلقه .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ وصف نفسه بأنه سميع بصير لا يغيب عنه شيء في السمـٰوات ، ولا في الأرض مما تكنه هواجس مخلوقاته ، أو خفايا ضمائرهم وما يراودهم من الوهم أو التفكير ، ولا يعزب عن سمعه صوت دبيب النملة علىٰ الأرض ، ولا طنين النحلة في الهواء ، ولا انسياب الحيتان في أعماق الماء ، فهو جل جلاله سميع بصير ؛ لأنه متصف بصفات الكمال ، والسمع والبصر من كمال صفات ٱلله تعالىٰ ، فهو السميع مطلقاً بدليل آيات خلقه التي تتصف بالسمع المتفاوت فيما بينها سواء علىٰ صعيد النوع أو علىٰ صعيد الجنس ؛ لأن المخلوقات التي تمتاز بالسمع هي ثلاثة أنواع : فنوع سامع ناطق ، ونوع سامع صائت ، ونوع سامع ساكت ، وهـٰذه الأنواع سمعها متفاوت ومتباين فيما بين الأنواع حدةً ، وبعداً ، وقرباً ، فالإنسان سامع ناطق ، وهو صاحب عقل مميز ، لذلك كان سمعه موازياً لعقله علىٰ قدر حاجته للسمع الواعي ، لذلك كان سمعه أدنىٰ درجات المخلوقات السامعة ؛ لأن العقل بتمييزه عوضه عن شدة الحاجة إلىٰ درجة عالية من السمع ، فأخذ نصيبه منه علىٰ قدر حاجته وفق ما قدره السميع العليم ، وأما النوع الثاني فهو السامع الصائت من الحيوان والطير ، حيث كانت حاجتها إلىٰ درجة أعلىٰ من السمع أكثر من حاجة العاقل لعدم التمييز ، فكان لديها استشعار الخطر عن طريق السمع ، فإن اعتمادها عليه أكثر ، لذلك كانت الحاجة إليه أشد ، ومن هنا نرىٰ الفرس مثلاً أشد سماعاً من الإنسان علىٰ مستوىٰ النوع ؛ لأنه غير مميز ، وكذلك أشد سماعاً من الأسد علىٰ مستوىٰ الجنس ؛ لأنه يفتقد وسائل الدفاع عن النفس إلا ما أعطي من شدَّة الجري ، فكانت حدة سمعه إحدىٰ

وسائل الدفاع . أما المخلوقات السامعة الساكتة فإنها تتصف بحدة السمع أكثر من جميع الأنواع لأنها تكاد تكون بالنسبة لها وسيلة الاتصال الوحيدة من جهة ، وكذلك وسيلة دفاع من جهة أخرىٰ ؛ لأنها تعرف من خلالها مكامن الخطر ، فالحيتان مثلا تتلقىٰ أصوات بعضها البعض عن بعد آلاف الأميال ، إضافة إلىٰ ذلك فإن التفاوت في السمع بين كل جنس من الأجناس لا يخفىٰ علىٰ ذوي الاختصاص في هٰذا المجال ، من الإنسان إلىٰ الطير والوحوش والحيوانات البرية والمائية . ونريد أن نخلص من هٰذا التقديم إلىٰ أن الخالق السميع البصير الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ، وما يحتاج إليه في شؤون حياته ، أعطاه ذلك علىٰ أحسن وجه من حيث كمال المخلوق ، ونقصد بذلك ما نحن بصدده ، ألا وهو السمع . فإذا كانت مخلوقات السميع لها هٰذه الخواص من حيث السميع ، فلا بدّ أن الخالق عز وجل له من صفة الكمال لكونه سميعاً ، ما يترفع به عن مخلوقاته من الكيف ، والأداة ، ولذلك كان النقص في السمع لبعض الخلق عن البعض الآخر مدعاةً لصفة الكمال في الخالق بصرف النظر عن الكيف ، والصوت ، والأداة ، وإنما برهان ذلك يكون من خلال آيات الخالق السامعة ؛ إذ محال أن يكون الخالق يتصف بصفة المخلوق ؛ وإن كانت الصفة مشتركة ، فقد امتاز السميع عز وجل بنفي الكيف ، والأداة ، والزمان ، والمكان ، لذلك قال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في محكم التنزيل قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (1) فخرج من ذلك كل سامع وكل مبصر غير السميع البصير ، فدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه بترك عبادة الأوثان كانت بالابتعاد عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، فلم يفهم أبوه أنه يريد أن يحوله إلىٰ معبود آخر يسمع ويبصر من ذوات الأرواح ، وإنما هي دعوة لعبادة السميع المطلق الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

---

(1) مريم ، 41 ، 42 .

والسميع جل جلاله هو الذي يُسْمِعُ خلقه ما يريد منهم ، وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه ، فقد جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (1) فالأذان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله السميع هو الذي اسمع عباده نداء التوحيد من أجل تلبية ٱلله تعالىٰ : « رُوي : أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فرغ من بناء البيت ؛ قال ٱلله تعالىٰ له : أذن في الناس بالحج . قال : يا رب : وما يبلغ صوتي ، قال تعالىٰ : عليك الأذان ، وعليَّ البلاغ ، فصعد إبراهيم الصفا ، فادخل إصبعيه فىٰ أذنيه ، وأقبل بوجهه يميناً ، وشمالاً ، وشرقاً ، وغرباً ، وقال : أيها الناس ألا إن ربكم قد بنىٰ بيتاً ، وكتب عليكم الحجَّ إلىٰ البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم ، وحجُّوا بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ، ويجيركم من النار ، فسمعه أهل مابين السماء والأرض ، فأجابوه من ظهور الآباء ، وبطون الأمهات فىٰ عالم الأرواح ، فما بقي شيءٌ سمع صوته إلا أقبل يقول : لبيك اللهُمَّ لبيك » (2) .

فالله سبحانه وتعالىٰ هو السميع المطلق ، فقد أمر الخليفة أن يؤذن بالناس ؛ ليسمعهم ما أوجب ٱلله عليهم ، حيث إن التبليغ يكون عن طريق السماع بالنسبة للبشر ، ويكون ذلك مدعاة للفهم والوعي ؛ لأن السميع العليم جعل السمع شاهداً علىٰ العقل والقلب والفؤاد ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (3) فلا يتبع

---

(1) الحج ، 27ـ29.
(2) تفسير حقي ، ج 8 ، ص 395.
(3) الإسراء ، 36.

الإنسان ما لا علم له به من قولٍ ، أو فعلٍ ، فلا يقول : سمع ؛ وهو لم يسمع ، أو علم ؛ وهو لم يعلم ، فإن نِعَمَ السمع ، والبصر ، والقلب يسأل صاحبها عما يفعل بكلٍّ منها يوم القيامة .

فالسامع يجب عليه ألاَّ يتبع كلَّ ما يسمعه ، ويقفو أثره مما ليس له به علم من المسموعات التي ربما تؤدي به إلىٰ التهلكة من قولٍ ينتج عنه فعل ، كمن يتبع مسلكاً لا يدري : أنه يوصل إلىٰ مقصده حسب اعتقاده مما يظن : أنه فيه خير له فيرجح ظنه باعتقاده ؛ لأن الاعتقاد الراجح فىٰ حكم الاعتقاد الجازم ، والجزم من غير دليل عن طريق السمع لا يوصل إلىٰ اليقين ، لذلك وجب التبصر فيما يسمع . ولما كان السمع هو الأداة التي تهيىء للجوارح ما تقوم به من أفعال ؛ كانت هٰذه الجوارح مسؤولةً عن أحوالها ، وشاهدةً علىٰ أصحابها ، ومن هنا جاء المنع من اتباع كل ما يسمعه المرء ، أو النهي عن اتباع كل ما فيه جهل مما يتعلق بالسمع والبصر والقلب ، خاصة وأن القلب هو الذي يقلِّب حديث السمع علىٰ وجوهه حتىٰ يميز بين الخبيث والطيب ، لذلك قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، وحيث إن السمع هو أداة التوصيل إلىٰ الوعي ؛ إذ أن الإصغاء مدعاة للفهم ، والفهم هو إدراك معنىٰ ما يسمعه السامع ، وما يترتب علىٰ هٰذا الإدراك من نتائج إما أن يتوصل السامع إلىٰ الحكمة ، وهي درجة الأنبياء والخلفاء والأولياء الذين يقومون بما كلفوا به من إسماع ما أمر به السميع المطلق إلىٰ بقية الخلق ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (2) ومدار الحكمة أصلاً قائم علىٰ السمع ، لذلك

---

(1) الحج ، 46 .
(2) البقرة ، 269 .

فإن السميع المطلق هو حكيم جل جلاله ، وهـٰذا الترابط ، والتلازم بين السمع والحكمة يكون هبة للخلفية من ٱلله تعالىٰ بحيث يجب أن يتجلىٰ ذلك في تطبيق ما أُمر به الخليفة من أجل الوصول إلىٰ النتائج المترتبة علىٰ السمع ، والحكمة مما يؤدي إلىٰ إعمار الأرض ، وإصلاح الناس ، فقد أُمر الخليفة بهـٰذا من السميع المطلق بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [1] وهنا يقوم الخليفة بدوره في الدعوة إلىٰ طريق الحق الذي شرعه السميع المطلق من أجل إسماع الخلق وصولاً إلىٰ الهداية ، ويسلك الخليفة ـ وهو السميع بالإضافة ـ في إسماع الناس ، ودعوتهم الطريقَ الذي يناسب كلَّ واحد منهم من خلال ما أوتي من الحكمة ، فيسمع أصحاب العقول النيِّرة والمدارك العالية القول الحكيم المناسب لقولهم ، ويدعو من هم أقل من ذلك وعياً بما يناسبهم من إيراد المواعظ ، ويضرب الأمثال التي توجههم إلىٰ الحق ، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم ، وكذلك يسمعهم عن طريق الجدل والحوار بالمنطق السليم ، والقول اللين ، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنفٌ ، ولا سِبَابٌ حتىٰ يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وصولا إلىٰ قلوبهم وأفئدتهم ، وهـٰذا هو الطريق الذي يسلكه (السميع بالإضافة) لدعوة الناس إلىٰ (السميع المطلق) علىٰ اختلاف ميولهم ، والإسماع عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة هو السبيل الذي يقيم الحجة ، وترك أمرهم بعد ذلك إلىٰ اختيار عقولهم التي تميز الخبيث من الطيب ، والشر من الخير .

فالأمر هو دعوة الخلق إلىٰ سبيل السميع الحكيم بالحكمة وهي أعلىٰ درجات الفعل المتزن الذي يتصف صاحبه بالهدوء ، وسعة الصدر ، وصفاء القلب ، ونقاء السريرة وهـٰذا هو الخليفة الذي يدعو بما سمع من السميع المطلق لهـٰؤلاء الذين يريدهم ٱلله أن يكونوا خلفاء في الأرض ، فيترفع بهم

(1) النحل ، 125 .

السميع بالإضافة عن الطباع التي لا تليق بمن يشاء ٱلله له أن يكون خليفة في أرضه ، والوصول إلىٰ هـٰذه الدرجة له سبيل واحدة هي السمع ، ولـٰكن نوعية السمع للوصول إلىٰ الترفع والتسامي الذي يميز العاقل عن غيره هو إسماع العقل والقلب واليقين عن طريق أداة السمع ، فهنا يمتاز العاقل من غير العاقل ، ونقصد به : الثقلين من الجن والإنس ، لذلك نراهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ ﴾ (1) فالذين سمعوا الخليفة عند ما دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة هم الذين آمنوا ؛ لأن السمع أثَّر في قلوبهم ، وأفئدتهم ، وصدورهم ، وأما الذين كفروا ؛ فهم الذين سمعوا أيضاً ما سمعه الذين آمنوا ، ولـٰكن الحكمة والموعظة الحسنة التي سمعوها لم تتجاوز أذنهم ، أي : أداة السمع التي يتوصل بها إلىٰ يقين القلب وتسامي الروح وانسجام النفس مع الفضائل . بمعنىٰ : أن تلك الحكمة لم تصل إلىٰ قلوبهم ، وهو مصداقٌ لقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ . وهنا يجب أن نشير إلىٰ مسألة دقيقة يختلط بها السمع بالبصر . ويجب أن نميز بينهما : ففي الآية الكريمة جاء ذكر البصر بمعنىٰ السمع ، وهو بصر السمع إن صح التعبير ؛ أي : إن كان للبصر سمع ؛ فهـٰذا هو المشار إليه ، ذلك أن الصور المشاهدة عن طريق أداة البصر التي هي العين ، إنما هي رؤية سواء في اليقظة ، أم في المنام ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (2) . وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ (3) . فهـٰذا النوع من الرؤية انعدمت فيه الأداة ، وأما الصور التي تأتي عن طريق الأداة ونقصد هنا المشاهدة العينية ،

---

(1) البقرة 253 .

(2) يوسف ، 4 .

(3) الصافات ، 102 .

فلم يقترن معها في القرآن الكريم قلوب ، أو صدور ، أو أفئدة ، وهـٰذا يدل علىٰ تخصيص المشاهدة العينية للصور المادية ، وهو كثير في القرآن الكريم كقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [(1)] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [(2)] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [(3)] من وهنا يتضح لنا الأمر في استخدام اللفظ علىٰ الدلالة ؛ لذلك نعود فنقول : إن بصر السمع مقترن بالوعي المتأتي عن طريق التفكر فيما يسمعه السامع ، فقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ﴾ فهو عمىٰ عن السماع لأن القلوب لا ترىٰ الرؤية المادية للصورة المشخصة ، وإنما ترسم صورة متخيلة من خلال السماع عن طريق الوعي الذي يدفعها إلىٰ القلب الذي يشكل الصورة ، وتشكيل الصورة عن طريق السمع تتعلق بأحد جانبين لا ثالث لهما ، وهما : جانب الخير ، وجانب الشر ، وكلاهما مرتبط بالقيم الأخلاقية التي يتمتع بها السامع ؛ لأن الأخلاق جزءٌ من تكوين الإنسان وهو الجزء المهم علىٰ ما نعتقد ؛ لأن هـٰذه القيم الأخلاقية إنما تكونت لدىٰ الإنسان عن طريق السمع أكثر من بقية الحواس الأخرىٰ ؛ ذلك : أن الإنسان منذ نعومة أظفاره إلىٰ أجله وهو يسمع الأحاديث والقصص وتجارب الآخرين ، وأما الأفعال فهي نتيجة تقليد لما سمعه ، أو محاولة تجريب شخصية ، وهـٰذا نادرٌ جداً . فمعنىٰ ذلك : أن الأخلاق بشقيها إنما هي جاءته عن طريق السمع ، فالشق الأول هو القيم الفاضلة ، والشق الثاني هو قيم الرذيلة المتدنية ، وكلاهما يندرج تحت الأخلاق ؛ إذ إن الكذب ، والسرقة ، والزنىٰ هي من القيم الأخلاقية ، وكذلك الصدق والأمانة والعفة هي قيم أخلاقية أيضاً ، ولـٰكن الصدق والأمانة والعفة

(1) الواقعة ، 63-64.

(2) فصلت ، 53 .

(3) النجم ، 18 .

تندرج تحت الأجزاء العليا المتسامية من الفضائل في الأخلاق ، بينما يكون الكذب والسرقة والزنىٰ تنتمي إلىٰ الأجزاء المتدنية في الرذائل من الأخلاق ، وبما أن القيم الأخلاقية بصرف النظر عن نوعها سواء أكان مبدؤها عن طريق السمع ، ثم تأتي بعد ذلك محاولة التقليد ، أو التجريب للأفعال ، ومن ثم تكون سمة للشخص الممارس لهـٰذه القيم التي يتصف بها بعد ذلك ، فيؤدي السمع بذلك إلىٰ أحد أمرين يتصف من يحمل هـٰذه الصفات بتلك الأخلاق التي تتشعب إلىٰ جانبين ، فالقيم الأخلاقية السفلىٰ وهي المتدنية تندرج تحت باب الشر ، والقيم الأخلاقية السامية العليا ترتفع إلىٰ مستويات الخير ، وكلاهما قيم أخلاقية يكتسبها الإنسان عن طريق السمع ، ولـٰكن اختياره هو الذي يجعله من أصحاب القيم الفاضلة السامية وبذلك يكون خيِّراً ، أو من أصحاب القيم الرذيلة المتدنية بحيث يكون شرِّيراً ، فالذي سلك مسلك الخير من خلال ما سمع ؛ فقد استوعب الحكمة والموعظة الحسنة التي تجعله مهيئاً لأن يكون خليفة ، والذي سلك مسلك الشر ؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً ، فهو كالأنعام ، أو أضل سبيلاً .

إن درجات السمع وأحوالها وطرقها مختلفة ومتفاوتة ومتباينة بين السميع المطلق ، والسميع بالإضافة ، وسماع بقية الخلق من البشر ، فالسميع المطلق جل جلاله لا يمكن أن نقول إلا أنه ينعدم في طريقة سماعه الكيف ، والصوت ، والحرف ، والزمان ، والمكان ، فهو خالق الخلق ، وهو بكل شيء عليم ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) فالذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استولىٰ علىٰ العرش بتدبير ملكه ، وإحكام شؤون هـٰذا الملك والخلق ، فهو بالضرورة يعلم كلَّ ما تضمُّه الأرض ، وما يخرج

(1) الحديد ، 4.

منها ، وكلَّ ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، لذلك فهو عليم محيط بشؤون خلقه ، وبما أنه عليم ؛ فهو سميع بصير ، فقد أخبر ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (1) ومن هـٰذه الآية نقف علىٰ دليلين مهمين فيما نحن بصدده من (السميع المطلق) .

الدليل الأول : أنَّ التسبيح لا يكون إلا للأحياء ، ومعنىٰ ذلك : أنَّ كل شيء يسبح بحمده ، وطالما أنه يسبح ؛ فهو حيٌّ بصرف النظر عن كل نوع من حياة المخلوقات المختلفة من الأحياء العاقلة كالملائكة ، والجن ، والإنس ، والأحياء الأخرىٰ من الحيوان ، والنبات ، ومن المخلوقات التي نطلق عليها نحن اسم الجماد ، ولـٰكنها تسبح بحمد ربها بحياة لا نعلمها . والدليل الثاني : أنَّ الذي أخبر : أنها تسبح ؛ فهو يسمع تسبيحها ، ولو لم يسمع تسبيحها ؛ لما أخبر بذلك ؛ لأنه غني عن هـٰذا التسبيح ، وإعلامنا بذلك هو إخبار علىٰ أنه سميع .

وسماع (السميع المطلق) جلَّ جلاله أخبر الخلق بأنه سميعٌ لكلِّ شيء ، ولـٰكن لا يطلعهم علىٰ ذلك إلا بقدر معلوم في وقت مخصوص وبطرق مختلفة ، فالسميع المطلق يسمع كل ما يصدر عن خلقه من أقوال ، ويرىٰ جميع ما يقومون به من أعمال ، ويكون الإخبار به بأوقات متفاوتة ، وطرق مختلفة ، فأقوال العباد التي يحاسبون عليها في الثواب والعقاب يسمعها السميع العليم ، ولـٰكن مشيئته اقتضت إخبارهم بها في اليوم الآخر ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (2) .

---

(1) الإسراء ، 44.
(2) آل عمران ، 30.

وأما ما يخص أحوال الناس في دينهم ودنياهم من الأسئلة التي كانت تطرح علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فيكون الرد علىٰ سماعها بطريق الوحي ، حيث نجد جميع الأسئلة التي وجِّهت للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يأتي بها الوحي بفعل الأمر (قل) إلا سؤالاً واحداً سنتكلم عليه لاحقاً . فالسميع المطلق يسمع كل ما في الوجود ، ونلاحظ : أن الأسئلة الكثيرة التي كانت توجّه للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ [2] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [3] ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [4] وكذلك : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ ﴾ [5] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [6] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴾ [7] . فجميع هـٰذه الأسئلة ، وأمثالها التي سمعها السميع العليم كانت الإجابة عنها بطريق الوحي للرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بتكليفه بالإجابة لما سمعه ٱلله منهم ، وبأمره أن يقول ، ويجيب عما يسألون عنه ، وأما السؤال الوحيد الذي تولىٰ السميع المجيب

---

(1) البقرة ، 189 .
(2) البقرة ، 215 .
(3) البقرة ، 217 .
(4) البقرة ، 219 .
(5) المائدة ، 4 .
(6) الأعراف ، 187 .
(7) الأنفال ، 1 .

بنفسه الإجابة عنه فهو في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (1) فهنا لأن الأمر مختلف ؛ فقد تولىٰ السميع الإجابة بنفسه ؛ ليدلل علىٰ أنه سميع وسريع الإجابة لمن يدعوه ، ولأن الدعاء لا يكون إلا لله ، والرجاء لا يكون إلا منه ، فكان ذلك منطقياً بسرعة السمع التي يترتب عليها سرعة الإجابة فهو مطلع علىٰ العباد ، عليم بما يأتون ، وما يذرون ، وما يبتغون من ٱلله السميع من فضلٍ ، ورحمةٍ ، فهو قريب من عباده بحيث يعلم ما يخفون وما يعلنون ، وما يسرون وما يجهرون ، ولم تكن الإجابة هنا بالفعل (قل) وإنما تولىٰ السميع المطلق الإجابة المباشرة : إنِّي أَقْرَبُ إليهم ممَّا يظنون ، ودليل ذلك : أن دعوة الداعي تصل في حينها ، وهو الذي يجيبها فيٰ حينها كذلك ، وإذا كان السميع استجاب لهم ؛ فليستجيبوا هم أيضاً بالإيمان ، والطاعة ، فإن ذلك سبيل إرشادهم وسدادهم .

إنَّ الدعاء ، ومناجاة ٱلله السميع لا يجيب عنهما كما نناديه ، أو ندعوه ، وإنما يعرف المخلوق : أن الخالق قد سمع نداءه من خلال النتائج المترتبة علىٰ الدعاء ، أو النداء ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (2) فنبيُّ ٱلله أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعا ربه حين أضْناه المرض ، فقال : يا رب إني قد أصابني الضرر في المال والولد ، وآلمني المرض ، وأنت أرحم الراحمين ، فلم تكن إجابة السميع جل جلاله كلاماً ، وإنما أجابه إلىٰ ما كان يرجوه بطرق الفعل المغيِّر لواقع الحال ، فرفع عنه الضُّر بأن ردَّ عليه عافيته ، وأعطاه أموالاً ، وأولاداً بقدر مَنْ مات من أولاده ، وما هلك من أمواله ، ثم زاده علىٰ ذلك رحمة من

(1) البقرة ، 186 .

(2) الأنبياء 83 ، 84 .

السميع ، وهـٰذا النوع من السَّمَاع هو سماعُ رحمة من ٱلله تعالىٰ بكشف الضر والمصيبة النازلة ، وأما سماع التأييد ؛ فيتضح مما أوحىٰ به ٱلله تعالىٰ لموسىٰ ، وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ (1) فالله سبحانه منزه عن أن يكون مستمعاً ، ولـٰكن المعنىٰ سامعون لما يجري بينكما وبين فرعون ، فأظهركماعليه ، وهو من باب تأييد الخليفة ، وإظهاره علىٰ الأعداء مبالغةً . وهـٰذا السماع من جهة الحفظ ، والتأييد ، فالله سبحانه وتعالىٰ سميع يسمع المضطر إذا دعاه ، وهو المجيب ، جلَّ جلاله !

اللهُمَّ يا السميع إنّاَ إليك راجعون ، وعن ذنوبنا تائبون ، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم ! اللهُمَّ يا السميع نسألك باسمك السميع الذي سمعت به يونس في قلب الظلمات ، أن تُسمع عنا دعوة الحق لخلقك ، وتجعل أجر ذلك عفوك ، ورحمتك ، وغفرانك لنا ، ولوالدينا ، ولأصحاب الحقوق علينا ، ونسألك باسمك السميع الذي سمعت به أيوب ؛ إذ مسَّه الضر أن تسمع دعاءنا ، وتكشف الضرَّ عنَّا ، وعمَّن أحسن إلينا ، وعمَّن أسأنا له ، يا سامع الدعاء ، ويا ناصر الضعفاء ، أن تنصرنا علىٰ الأعداء ! ونسألك باسمك الذي سمعت به دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ الصخرة الصماء أن تجعل هـٰذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، وألا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده !

اللهُمَّ إنا سمعنا ، فأطعنا ، فاغفر لنا ، وارضَ عنا ، لك الحمد ، والشكر ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك ما أعظم شأنك ! نستغفرك ، ونتوب إليك .

✍ ✍ ✍

---

(1) الشعراء ، 12 ـ 15 .

البَصِيرُ جل جلاله

البصير : « الـذي أحـاط بصـره بجميـع المبصـرات فـي أقطـار الأرض والسمٰوات ؛ حتىٰ أخفىٰ ما يكون فيها ، فيرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة ، ويرىٰ سريان المياه في أغصان الأشجار ، وعروقها ، وجميع النباتات علىٰ اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها ، ويرىٰ نياط عروق النملة ، والنحلة ، والبعوضة ، وأصغر من ذلك . فسبحان من تحيَّرت العقول في عظمته ، وسعة متعلقات صفاته ، وكمال عظمته ، ولطفه ، وخبرته بالغيب ، والشهادة ، والحاضر ، والغائب ، ويرىٰ خائنات الأعين ، وتقلبات الأجفان وحركات الجنان » (1) !

البصير : « هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسمٰوات ، يرىٰ ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السمٰوات السبع ، بصير بأعمال العباد ، لا يخفىٰ عليه منها شيء » (2) .

الحمد لله المنزه عما يخطر بالبال ، أو يتوهم في الفكر والخيال ، المحتجب برداء العز والجلال : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (3) تحيَّرت العقول في حقيقة ذاته ، وتخبطت الأفهام في

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 45 .

(2) الوجير في أسماء الله ، ج 1 ، ص 11 .

(3) الأنعام ، 103 .

أسمائه وصفاته واندهشت الأبصار في جلال حضرته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] .

البصير : هو الذي يشاهد ، ويرىٰ ؛ حتىٰ لا يعزب عنه ما تحت الثرىٰ ، وإبصاره أيضاً منزه عن أن يكون بحدقة ، وأجفان ، ومقدسٌ عن أن يرجع إلىٰ انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان ، فإن ذلك من التغيُّر ، والتأثر المقتضي للحدثان ، وإذا نزه عن ذلك ؛ كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات ، وذلك أوضح وأجلىٰ مما يفهم من إدراك البصر القاصر علىٰ ظواهر المرئيات .

حظُّ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ، ولـٰكنه ضعيف قاصر ؛ إذ لا يمتد إلىٰ ما بعد ، ولا يتغلغل إلىٰ باطن ما قرب ، بل يتناول الظواهر ، ويقصر عن البواطن والسرائر ، وإنما حظه الديني منه أمران ؛ أحدهما : أن يعلم : أنه خلق له البصر ؛ لينظر إلىٰ الآيات ، وإلىٰ عجائب ملكوت السموات ، فلا يكون نظره إلا عبرة . قيل لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هل أحد من الخلق مثلك ؟ فقال : من كان نظره عبرة ، وصمته فكرة ، وكلامه ذكراً ؛ فهو مثلي . والثاني : أن يعلم أنه بمرأىٰ من ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومسمعٍ ، فلا يستهين بنظره [2] .

البصير : هو من لا تخفىٰ عليه خافية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [3] . فالذي يضع كل شيء بحساب وميزان لا تخفىٰ عليه خافيه ، ولذلك القاعدة تقول : (الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر

(1) الشورىٰ ، 11 .
(2) المقصد الأسنىٰ ، ص 91 .
(3) الأنبياء ، 47 .

خالقها) ولهٰذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء ، فهو يرىٰ الأشياء ، وهي لا تراه برغم وجوده ، وبرغم وجودها ، ولهٰذا فالبصير هو مالك القوة التي يكشف بها الخفايا مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (1) .

والبصير : هو الذي يرىٰ الأشياء والأحداث ، ويعلمها قبل حدوثها ، ولذلك فالبصير هو العليم الحكيم ، أي : إنه يخلق الأحداث مثلما يخلق الأشياء ، ومثلما يخلق من الأشياء بشراً ومخلوقات لا تحصىٰ ولا تعد بالعقل البشري الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا . والخليفة هو المؤمن الذي يعلم هٰذا الأمر بالعلم الذي أبلغه ٱلله به عن طريق اصطفاء الأنبياء والرسل ، وما كلفهم به واستخلفهم عليه سبحانه لا إلٰه إلا هو جل جلاله ! ولذا فلخليفة الذي آمن بما أنزل ليس له بدٌّ إلا أن يقول : ربِّ زدني علماً . قال تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (2) .

---

(1) غافر ، 19 .

(2) طه ، 114ـ125 .

البصير : هو الذي يشاهد الأشياء كلَّها : ظاهرها ، وخافيها بغير جارحة ، والبصر هو الذي به تُرىٰ الأشياء هي كما هي ، ولا تخفىٰ عليه خافية ، حتىٰ يستمد الخليفة بصيرته التي يوصف بها بأنه المصلح في الأرض ، وغير المفسد ولا سافك للدماء فيها بغير حق ، والجمع : أبصار . وفي اللغة : بصر به : نظر إليه ، أبصره : إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه ، ورجل بصير : مبصر خلاف الضرير ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ (1) . ولذا فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر ، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة وجودها بالمشاهدة العينية ، وعليه فالبصير يُدرك العلل ، والخفايا التي من وراء خلق الأشياء ، والمخلوقات ، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ، ولا يدرك ما خلفه ، وهـٰذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (2) .

البصير : هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط ، ولهـٰذا : المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حدِّ مشاهدة الإبل ، بل يتعدَّاها إلىٰ معرفة الكيفية التي بها ، وعليها خلقت ؛ حتىٰ يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمناً بأنَّ من ورائها خالق عظيم ، يملك قوة الخلق كله ، ويؤمن إدراكاً : أنه الخالق الذي لا يُخلق ، جلَّ جلاله !

يقول صاحب اللسان : أعلم ٱلله : أنه يدرك الأبصار ، وفي هـٰذا الإعلام دليل علىٰ أنَّ خلقه لا يدركون الإبصار ؛ أي : لا يعرفون كيف حقيقة البصر

---

(1) الأنعام ، 103 .
(2) الغاشية ، 17ـ22 .

وما الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه ، فأعلم : أنَّ خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ، ولا يحيطون بعلمه ، فكيف به تعالىٰ ؛ والأبصار لا تحيط به ، وهو اللطيف الخبير [1] ؟ !

والإبصار من جهة أخرىٰ هو الاعتبار ، والاستبصار كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [2] الضمير يعود للمخاطب ، وهو سيدنا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فالكفرة الفجرة يعرفون حُجة محمد رسول ٱلله ، ويجحدون الحقيقة الآتي بها ، ولذا فهم كالأعمىٰ الذي فقد بصره ، فلا يرىٰ شيء . فالله حقيقة لا صورة له ولا شكل ، وله وجود الإعجاز ، وتثبته حجج محسوسة وهي جميع المخلوقات التي بطبيعة الحال لا تكون إلا ويكون من ورائها خالق أعظم منها ، ومن هـٰذه المخلوقات الخليفة الذي خلقه ٱلله تعالىٰ في أحسن تقويم ؛ ليدرك خالقه عن بينة ، ووعي لا لبس فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [3] .

بما أنه ليس كمثله شيء ؛ إذاً هو المُثبت بصفة عدم التماثل ، أي : لو لم يكن موجوداً ما كان ذا خصوصية مطلقة ، وفي هـٰذا تكون جميع الموجودات (المخلوقات) ذات خصوصيات نسبية تسمح بالمقارنات وفقاً للفروق النسبية إلا هو عز وجل ليس كمثله شيء ، وبهـٰذه الصفة هو مثبت ، ومع أنه ليس كمثله شيء ، فهو السميع البصير الذي لا تخفىٰ عنه خافية ، يسمع المنادي ، والمناجي ، والمستغيث ، ويستجيب في ذات الوقت لكل خليفة مطيع

---

(1) لسان العرب ، ج 4 ص ، 66 .
(2) يونس ، 43 .
(3) الشورىٰ ، 11 .

بالعبادة ، وأداء الواجبات ، ومطيع بالانتهاء عن كل ما نهىٰ عنه .

ويمكن إيراد هـٰذه الحجة علىٰ وجه آخر ، فيقال :

ـ إما أن يكون المراد : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في ماهيات الذات .

ـ أو أن يكون المراد : ليس كمثله في الصفات شيء .

والثاني باطل ؛ لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين ، كما أن ٱلله تعالىٰ يوصف بذلك ، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين ، مع أن ٱلله تعالىٰ يوصف بذلك ، فثبت : أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات ، فيكون المعنىٰ : أن شيئاً من الذوات لا يساوي ٱلله تعالىٰ في الذاتية ، فلو كان ٱلله تعالىٰ جسماً ؛ لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة ، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية ـ أعني : في كونها متحيزةً طويلةً عريضةً عميقةً ـ فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلةً لذات ٱلله تعالىٰ في كونه ذاتاً ، والنص ينفي ذلك فوجب ألا يكون جسماً [1] .

ومجمل القول : اتفق العلماء علىٰ أن ٱلله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ولـٰكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنىٰ الصحيح وهو ما نفاه القرآن ، ودلَّ عليه العقل من أن خصائص الرب تعالىٰ لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيءٍ من صفاته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ ردّاً علىٰ المماثلة المشبهة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رداً علىٰ النفاة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق ؛ فهو المشبه المبطل المذموم . ومن جعل صفات المخلوق ؛ مثل صفات الخالق ؛ فهو نظير النصارىٰ في كفرهم ، ويراد به : أنه لا يثبت لله شيئاً من الصفات [2] . وأن علماء الأصول أقاموا البرهان

---

(1) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 416 .

(2) شرح العقيدة الطحاوية ، ج 1 ص ، 99 .

القاطع علىٰ تماثل الأجسام في الذوات ، والحقيقة ، وإذا ثبت هـٰذا ؛ ظهر : أنه لو كان إلـٰه العالم جسماً ؛ لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام ؛ إلا أن هـٰذا باطل بالعقل ، والنقل .

أما العقل ؛ فلأن ذاته إذا كانت مساويةً لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصحُّ علىٰ سائر الأجسام ، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق .

وأما النقل ؛ فقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ فهـٰذا تمام الكلام في تقرير هـٰذا الدليل وعند هـٰذا يظهر : أننا لا نقول بأنه متىٰ حصل الاستواء في الصفة؛ لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة ، إلا أننا نقول : لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية ، فلو كانت ذاته جسماً ؛ لكان الجسم مساوياً لسائر الأجسام في تمام الماهية ، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له ، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي ، لا اعتبار الصفات القائمة بها ، فظهر بالتقرير الذي ذكرناه : أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة ، خلافاً لمن كان بعيداً عن معرفة الحقائق ، فجرىٰ علىٰ منهج كلمات العوام .

وبناء علىٰ قاعدة : (الخليفة يستمدُّ صفاته الحسان من صفات مستخلفه) فإن البصير بالإضافة هو المستبصر في أمره بأمر خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم ، وهو من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين . قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ (1) .

بناء علىٰ هٰذه الآيات الكريمة فإن الخليفة هو البصير بالأمور الآتية :

1 ـ بصير بفلاحه ؛ أي : قيامه بالأعمال الخيرة التي يقدم علىٰ أدائها بإخلاص وإيمان ووعي تام بما يترتب عليها من جزاء في مرضاة الخالق عز وجل ، ولذا فالفلاح هو التوفيق ، والفوز بالأعمال الحسنة ، ولهٰذا : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حكم اعترافي بأنهم قد أفلحوا بما قَدِموا عليه من أفعال الخير التي كانت علىٰ علم البصير المطلق جل جلاله ، ولذا فإن المؤمنون هم الذين قد أفلحوا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

2 ـ البصير بالإضافة هو الذي يرىٰ إعجاز الآيات التي يقرأها في صلاته ، فيخشع لله وحده ، ولذا فالبصير هو المدرك لمعقبات ما يقرأ من آيات قرآنية فيزداد خشوعاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ .

3 ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ ، هم : الخلفاء الذين يخشون البصير المطلق الذي يعلمون بوحدانيته ، ويؤمنون بها ، ويعلمون : أنه يعلم ما يعلمون وما لا يعلمون ، ويتوبون إليه خاشعين ، فما لا يعنيهم من قول ، أو فعل ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يجرِّحون به أحداً ، وذلك لعلمهم بأمر البصير الذي يعلم أمرهم ، ولا يغفل عن كبيرة ، ولا صغيرة إلا أحصاها ، وعدَّها عدّاً ، ولأن الذنوب تسجل اللغو ذنباً فهم عن اللغو معرضون .

---

(1) المؤمنون ، 1 ـ 17 .

4 ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ هم المؤمنون حقاً ؛ الذين بإيمانهم يُبصرون ، ويستخلفون في الأرض ، يخشون ٱلله ، ويعملون علىٰ إحقاق الحق ، فيُخرجون الزكاة طهارة عمَّا يملكون ، وطهارة لأنفسهم بالطاعة التامة لله ربِّ العالمين .

5 ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ طاعةً لأمر ٱلله تعالىٰ ، وتهـٰذيباً لأخلاقهم وتمسُّكاً بفضائل المجتمع المستخلف في الأرض علىٰ القيم والفضائل الخالدة بمحبة ٱلله عز وجل ، فالمبصرون بالإضافة هم الممسكون لفروجهم عن الحرام ، وذلك لأجل حفظ النوع بعد طاعة ٱلله في أمره ، ولهـٰذا فهم المستخلفون بالحلائل لا بالمحرمات ، والحلائل هي المستثناة ، وهي : ﴿ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ .

6 ـ ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فمن ابتغىٰ ألاَّ يكون من المستخلفين ؛ فهو من العادين الذين يتعدَّون حدود ٱلله في أمره ونهيه ، والبصير من العباد هو الذي يُبصر الحق ، فيتبعه ، ويعلم الحق ، فيطيعه ، ولذا فهو المنتهي عما نهىٰ ٱلله عنه ، والطائع له بالمطلق .

7 ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ الرعاية : انتباه ، وعناية ، واهتمام من أجل السلامة والحفظ من كل حاجة أو سوء ، ولذا فالمبصرون هم الذين لأماناتهم وعهودهم راعون . أي : محافظون علىٰ العهد ، وراعون للأمانة حفظاً بعدم النقض ، أو الخيانة مع الرعاية التامة لذلك .

8 ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ البصير هو المدرك للحق فيتبعه ، ولذا فالذين يحافظون علىٰ صلواتهم هم الخلفاء الذين التزموا بأمر الطاعة لله

وحده لا شريك له ، ولهـٰذا فهم المداومون علىٰ أدائها في أوقاتها لإدراكهم : أنها الحق الذي يستوجب الطاعة التامة . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (1) .

9 ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ : الذين يمتلكون الصفات الحسان السابقة الذكر هم المبصرون الذين سيرثون جنة الفردوس بالخلود فيها أبداً ، ولذا فمن يعمل صالحاً في الدنيا يوحِّد ٱلله طاعة تامة لا شريك له ، ويتزكىٰ ، ويصلي ، ويصوم ، ويؤدي الفرائض ، وينتهي عن النواهي المنهي عنها ، فيفوز بالجنة ، وهو من الوارثين .

10 ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ : العودة إلىٰ أصل خلق الخليفة وهو الطين الذي هو من أديم الأرض ، ومن مكوناتها ، ولهـٰذا فالبصير هو الذي يُدرك أصل خلقه ، فيقدِّره ، ويعرف خالقه ، فيعبده واحداً أحداً لا شريك له ، ويعرف من أبلغه بالمعجزات ، أو جاء بها ، فيصلي ويسلم عليه ، ويتبع سنته في مرضاة ٱلله ، ولهـٰذا فللأرض أهمية ، فيعمل البصير علىٰ إصلاحها ، ولا يُفسد ، ولا يسفك الدماء فيها بغير حق ، وللخالق الطاعة التامة بالوحدانية ركوعاً وسجوداً حتىٰ الفوز برضاه ، ويتَّبع السنة الشريفة حتىٰ يتشرف باتِّباع الحق هو كما هو ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (2) .

11 ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ : البصير المطلق جل جلاله يبيِّن للبصير

---

(1) العنكبوت ، 45 .
(2) الحشر ، 7 .

بالإضافة ممَّا خُلق والكيفية التي بها خلق ، والتطورات والتغيرات التي تصاحبه في كل فترة زمنية وفي كل مرحلة عمرية ليبصر القدرة التي خلقته ، والقوة التي لا تماثلها قوة حتىٰ يؤمن ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ القرار المكين : هو رحم المرأة ، المقر المناسب لنمو الجنين والحفاظ عليه مع وافر العناية والرعاية التي لا تجعله في حاجة لسواه مادام في نموه الجنيني في القرار المكين .

12 ـ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ : تطوُّر وتغيُّر جديد علىٰ الجنين يضاف إلىٰ التغير السابق ، أي : أصبح علىٰ حالة من التماسك والتعلق بالدورة الدموية للأم ، فيتغذىٰ من غذائها .

13 ـ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي : بدأ التشكل من اللحم يأخذ صورة ؛ ليقترب من مرحلة أخرىٰ تضيف إليه شيئاً جديداً . ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (2) . وحتىٰ لا توسوس الأنفس وتظن في غير محله فإن الخالق هو الذي خلق الأشياء ، وخلق من الأشياء خلقاً آخر ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين !

14 ـ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ : بدأ الهيكل يأخذ شكل لإظهار الصورة بدلاً من كتلة اللحم الخالصة التي تكونت من العلقة . إن المتتبع لخطوات الخلق إذا كان بصيرا يدرك الإعجاز في كل مرحلة من مراحل الخلق ، والنمو ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين !

15 ـ ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ : لا يدرك هـٰذه المعجزة إلا بصير ذو عقل

(1) السجدة ، 27 .
(2) ق ، 16 .

وبصيرة حتىٰ يرتقي إلىٰ معرفة الكيفية التي بها تتم عملية الخلق ، وهي القدرة المطلقة للخالق المطلق عز وجل ، (فكسونا) : تعني : لقد تمت تغطية العظام باللحم المستمد من المضغة المستمدة من العلقة القارة في المكين المستقر في رحم الأم التي هي في أصل خلقها من طين .

16 ـ ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ : أصبح الجنين مولوداً متكاملاً له صفة الإنسان الذي قال عنه جل جلاله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [1] . ولهٰذا تبارك ٱلله أحسن الخالقين ، والتبارك هنا مضاعفة المحاسن ؛ حتىٰ يصبح الخليفة موصوفاً بأحسن التقويم إذا ما قورن بغيره من الخلائق .

17 ـ الذي لا بصيرة له لا يدرك المعجزات في صور الخلق المتعددة كما هو مبين في مراحل التطور تلك ، والمبصر فقط هو الذي يُرِيكَ الكيفية التي بها تم خلقه ، وهٰذه ميزة تميزه عن بقية المخلوقات التي لم تدرك ما يدركه مَنْ خُلِق في أحسن تقويم ، ومع ذلك فالمؤمن المستخلف في الأرض يعلم : أن النهاية مرحلة من مراحل التطور التي بها تُطوىٰ المسافة بين الدنيا وزخرفتها ، وبين الآخرة والجنة التي هي غايته المطلقة ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [2] .

18 ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ : الخليفة البصير كما أدرك مراحل الخلق والتطورات والتغيرات التي تصاحبها نمواً ؛ يدرك أيضاً : أنَّ الموت مرحلة من مراحل النمو التي تؤدي إلىٰ يوم البعث ، ؛ لتكون الحياة الحيوان لمن اتقىٰ فوزاً بالجنة ، وتكون جهنم لمن كفر ،

---

(1) التين ، 4 .

(2) المؤمنون 15 .

وأشرك بربه الواحد الأحد عذاباً شديداً .

19 ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ : تنبيه لا يدركه إلا مبصر ، الذي يعلم من علمه تعالىٰ : أنه خالق السموات السبع وهي : الطرائق السبع والأراضي السبع ، والتنبيه يقصد به : الخليفة في الأرض فقط ، والطرائق السبع هي أعلىٰ من الأرض وفي هٰذا العلو الذي يملؤه ٱلله المبصر المطلق ، فهو لم يكن بغافل عما عملت أيدي الناس وما أضمرت نفوسهم ، وما ظنت عقولهم في الأرض السفلىٰ ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، والحمد لله رب العالمين الذي جعل لنا بصراً ، وبصيرةً ندرك بها الآيات العظام ، وندركه بها واحداً أحداً لا شريك له ، ونخلفه بالطاعة والإيمان لا إلٰه إلا هو !

والذي يجب الانتباه إليه أن يكون الخليفة بصيراً فيما يُقال ، وفيما يُبصر ، وفيما يُسمع ، ويتذوق ، أو يلمس ، وذلك لوجود معانٍ وراء كل معرفة ، ومعرّف ، أو معرَّف به ، فالبصير هو من يتمكن من إدراك الظاهر والتعامل معه وفقاً لقاعدة إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ومعرفة الكامن والتعامل معه بميزان العدل دون ظن في غير محله ، أو حكم في غير محله ، ولهٰذا فالبصير هو الذي يتبيَّن أولاً ، ويقول رأياً ، أو يصدر حكماً ثانياً .

ولأن ٱلله واحد فالبصير بالإضافة دائماً لا يراه إلا كذلك ، واحداً أحداً ، ومع أنه لا يتماثل في شيء ، ولا يقارن بشيء إلا أن الخليفة هو الوحيد الذي يستمدُّ صفاته من صفات خالقه في القول ، والسمع ، والفعل ، والعمل ، والسلوك ، ولهٰذا فهو المصلح في الأرض دون غيره ، وهو بصير بقوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ ولهٰذا : فالخليفة لا يخلف ٱلله في وجوده ، بل يخلفه باستمداد صفاته منه .

و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ تدل علىٰ أن خالق الأشياء ليس كمثله شبيه ،

ولذا فالشيء مخلوق والله خالق والفرق كبير بين الخالق والمخلوق . وفي حرف التشبيه الدليل الدال علىٰ كونه منزَّهاً عن المثل ، وهـٰذه الآية دالة علىٰ نفي المثل [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [2] والمثل الأعلىٰ هو في ذاته التي لا يرتقي للوصف بها أحد ، ويقتضي إثبات المثل فلابدَّ من الفرق بينهما ، فنقول : المثل هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهية ، والمثل هنا في الآية هو الذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفاً في تمام الماهية .

وختم جل في علاه الآية السابقة بقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وهي الدليل علىٰ أن السَّماع مغاير لتأثر الحاسة ، وذلك أنَّا إذا سمعنا الصوت ، علمنا : أنه من أيِّ الجوانب جاء ، فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه ، وهـٰذا يدل علىٰ أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء . وأما الرؤية فالدليل علىٰ أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة ، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه ، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة ، والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة ، وهـٰذا يدل علىٰ أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع ، وإذا ثبت هـٰذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر في حق ٱلله امتناع السمع والبصر في حقه .

فإن قالوا : هب : أنَّ السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر ، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق ٱلله تعالىٰ ممتنعاً ؛ كان حصول السمع والبصر في حق ٱلله ممتنعاً .

فنقول : ظاهر قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ يدل علىٰ كونه سميعاً بصيراً ، فلم يجز لنا أن نعدل عن هـٰذا الظاهر إلا إذا قام الدليل علىٰ أن الحاسة

---

(1) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 419 .
(2) الروم ، 27 .

المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر ، والتأثر في حق ٱلله تعالىٰ ممتنع ، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعاً ، وأنتم المدعون لهـٰذا الاشتراط ، فعليكم الدلالة علىٰ حصوله ، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلىٰ أن تذكروا ما يوجب العدول عنه ، فإن قال قائل : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ يفيد الحصر ، فما معنىٰ هـٰذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين ، بصيرين ؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين علىٰ سبيل الكمال ، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ، فهـٰذا هو المراد من هـٰذا الحصر [1] .

والخلفاء علىٰ أرضه يجعلون ما قاله ٱلله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده واتباعه بالإيمان والعمل به بالوجوب : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ففي هـٰذا الإثبات ما يقرر معنىٰ النفي ، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال ، فهو سبحانه وتعالىٰ موصوف بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله ليس كمثله شيء في صفاته ، ولا في أسمائه ، ولا في أفعاله مما أخبرنا به من صفاته ، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه كما قال رسوله الصادق في دعاء الكرب : « اللهُمَّ أني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همِّي ، وغمِّي » [2] . لا شيء يعجزه من النفي المذموم ، فإن ٱلله تعالىٰ قال : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [3] ، فنبه سبحانه وتعالىٰ في آخر الآية علىٰ دليل انتفاء العجز ، وهو كمال العلم والقدرة فإن العجز إنما ينشأ إما من

(1) للمزيد ينظر تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 420 .
(2) شرح العقيدة الطحاوية ، ج 1 ص ، 110 .
(3) فاطر ، 44 .

الضعف عن القيام بما يريده الفاعل ، وإما من عدم علمه به والله تعالىٰ لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو علىٰ كل شيء قدير . قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (1) . ولأن ٱلله واحدٌ أحدٌ فهو بطبيعة الحال لا يكون له مثيل أو شبيه ، ولـٰكن يكون هو المتصف بصفات منه تعالىٰ . فالذي يستمد صفاته من صفات عليا يكون مع العليين ، والذي يستمد صفاته التي بها يُعرف من صفات دنيا يكون مع الذين هم في أسفل السافلين . ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (2) .

ولأن الإنسان أكثر شيء جدلاً ، فهو المختلف عن بقية المخلوقات الأخرىٰ التي آمنت تسليماً فما من شيء إلا ويسبح باسمه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (3) . إذاً كل شيء يسبح بحمده إلا الذي كان أكثر شيء جدلاً لا يسبِّح إلا بعد إيمان ، ومع أن ٱلله قد ميزه بأحسن التقويم إلا أنه بذلك التقويم الخارق إذا ما قورن بغيره من المخلوقات يشكُّ أحياناً في غير محله ، ويظنُّ وهو يعلم أن بعض الظن إثم ، فيضل السبيل الحق الذي اختاره البصير الذي ببصيرته استخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض ، وعهد له الوراثة في الجنة .

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ، ج 1 ص ، 111 .
(2) البقرة ، 30ـ33 .
(3) الإسراء ، 44 .

وعليه فالجدل بالحجة يؤدي إلىٰ الاتفاق ، والتفاهم ، والتفهُّم والجدل بغيرها لا يؤدي إلا إلىٰ المعصية القاصية عن الاستخلاف ، ووراثة الجنة .

والفهم الذي يجب هو ما يحصله العقل ، ويحيط به ، ولا ينشغل بما هو أكبر وأعلىٰ وأجل ؛ لأن ٱلله تعالىٰ لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالىٰ والمبصر وحده يعرفه سبحانه بصفاته ، وهو أنه أحدٌ ، صمدٌ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (1) ، وهو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (2) ، و﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) .

ففي قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ نفىٰ المثل ، وأثبت الصفة ، وإثبات الصفات تنبيهاً علىٰ أنه ليس نفي التشبيه مستلزماً لنفي الصفات ، ومما يوضح هـٰذا : أن العلم الإلـٰهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده ، فإن ٱلله سبحانه ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ولهـٰذا لا مجال من حيث المقارنة ، فالمقارنة تسمح بمقارنة أرنب بأرنب ، وغزالة بغزالة ، ورجل برجل ، وهـٰكذا ، وذلك بوجود مبررات التشابه ، أما استمداد الصفات والأفعال من الواحد للكثرة فهـٰذا متاح مع صفات الخالق عندما تدركه العقول هو كما هو ، وكذلك يمكن أن يستمد الشبيه من الشبيه سلوكاً حسناً أو سلوكاً غير حسن ، وهنا يكون الفرق : أن الخليفة لا يستمد من خالقه إلا الصفات

---

(1) الإخلاص ، 3 ـ 4 .

(2) البقرة ، 255 .

(3) الحشر ، 23 ـ 24 .

الحسان ، وذلك لانعدام غيرها من الصفات من ذاته ، إما من الشبيه ، فالشبيه يمتد بين الكفر والشرك والظن والإثم والمغفرة والتوبة والإيمان ، ولهٰذا : لكلٍّ سلوكٌ ، وفعل ، وعمل . فمن استمدَّ صفاته من خالقه وسلوكه وفعله من سنة الرسول الكريم ؛ كان قدوة حسنة من القدوة الحسنة .

والحديث في هٰذه المسائل يطول ، فكلما أراد الإنسان الخروج منها رجع إليها ، وهٰذا من عجيب هٰذه المسائل ؛ لأنها محل نظر وتوقف ، ربما كان التوقف سبيلاً لدخول الوساوس الشيطانية ، ولأن الوقوف عندها يكون بعدها طرق الباب ، ومن ثَم الولوج فيها ، ولٰكن الأولىٰ بنا أن ننظر في ملكوته ، وننظر في خلقنا ، وكيف تطورنا من التراب إلىٰ النطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والنشوز بالعظام إلىٰ أن أصبحنا خليفة بأحسن التقويم ، وتبارك ٱلله أحسن الخالقين ! وعلينا أن نتفحص ببصرنا وسمعنا وحواسنا الأخرىٰ هٰذه النعم التي لا تحصىٰ ، ولنأخذ نعمة البصر وما يتعلق بها من الرؤية ، سواء أكانت الرؤية في جواهرنا أم في مظاهرنا ، وسواء أكانت في الأشياء الدقيقة أم في الأشياء الكبيرة العملاقة .

فإن هٰذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوىٰ والأغذية والنباتات التي هي كذلك فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه علىٰ مَرِّ الدهور ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلىٰ أيسر شيء ، وأقله ، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علماً بجميع ما أُودع واحدٌ من ذلك النوع من الحكم ، والمصالح . هٰذا إلىٰ ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة علىٰ وجود الخالق ، ومشيئته ، واختياره ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ، فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هٰذه الصورة الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هٰذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضاً ، ولا هو مقيض له ، فحصول هٰذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالىٰ

ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه ، وأنه فعَّال لما يريد اختياراً ومشيئة ، فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئاً بعد شيء من أظهر الدلالات ؛ وتأمل كيف أرشد القرآن إلىٰ ذلك في غير موضع بقوله تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) . وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (3) ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4) ، وقول تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) . فتأمل أيها الخليفة في أرضه كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة علىٰ الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها ، ونبه علىٰ الاشتراك والاختلاف فيشير إلىٰ يسير منه فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت ، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها فيما وراء

---

(1) الرعد ، 4 .
(2) البقرة ، 164 .
(3) الروم ، 22 .
(4) النحل ، 10ـ11 .
(5) النور ، 45 .

ذلك ، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك ، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال ، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت ، عجز البشر إلىٰ الآن عن حصره : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ (1) ، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس ، والتباعد عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره ، واشتراك الماشي مع الماشي والزاحف مع الزاحف وتفاوته عنه أعظم تفاوت وكلٌّ من هـٰذه الأنواع له علم وإدراك وتحليل علىٰ جلب مصالحه ودفع مضاره ، فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة علىٰ معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته علىٰ ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعةً منقادةً منساقةً إلىٰ ما خلقها له علىٰ وفق مشيئته وحكمته وذلك أدل شيء علىٰ قوته وبصره وقدرته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل ، فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة .

قال تعالىٰ : ﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (2) ، وقال : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (3) ، فيجمع غايات فعله وحكمة خلقه وأمره إلىٰ غاية واحدة هي منتهىٰ الغايات وهي ألوهية الحق التي كل ألوهية سواها هي باطل ، ومحال ، فهي غاية الغايات ، ثم ينزل منها إلىٰ غايات أخر هي وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة إلىٰ ما دونها : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ (4) فليس وراءه معلوم ولا مطلوب ولا مذكور إلا العدم المحض ، وليس في الوجود إلا ٱلله ومفعولاته ، وهي آثار أفعاله ، وأفعاله آثار صفاته ، وصفاته قائمة به من لوازم

---

(1) النحل ، 18 .

(2) النحل ، 8 .

(3) الحاقة ، 38ـ39 .

(4) النجم ، 42 .

ذاته . والمقصود : أن الغايات المطلوبة العلم بإحاطة علم واحد من عالم واحد ، وفعل واحد من فاعل واحد ، وقدرة واحدة من قادر واحد ، وحكمة واحدة من حكيم واحد ، مطلق لا إلـٰه إلا هو جل جلاله !

تتوحد الربوبية والإلـٰهية ، وتتعدد الصفات والأفعال ، فنلاحظ النظام الواحد والحكمة الجامعة للأنواع المختلفة مع ضدها وتعذرها . ودل افتقار بعضها الىٰ بعض ، وتشبك بعضها ببعض ، ومعاونة بعضها ببعض ، وارتباطه به علىٰ أنها صنع فاعل واحد ، وربٍّ واحد ، فلو كان معه آلهة وأرباب غيره ، لفسدت جميعها ، كما لا ترضىٰ ملوك الدنيا أن يحتاج مملوك أحدهم الىٰ مملوكِ غيره ؛ وهو مثله ؛ لما في ذلك من النقص والعيب المنافي لكمال الاقتدار والغناء . ودل انتظامها في الوجود ووقوعها في ثباتها واختلافها علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها علىٰ انتهائها إلىٰ غاية واحدة ، ومطلوب واحد هو إلـٰهها الحق ، ومعبودها الأعلىٰ الذي لا إلـٰه لها غيره ، ولا معبود لها سواه ! فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات ، وثباتها ، واجتماعها فيما اجتمعت فيه ، وافتراقها فيما افترقت علىٰ إلـٰه واحد ورب واحد ، ودلت علىٰ صفات كماله ونعوت جلاله ، فالموجودات بأسرها كعسكر واحد له ملك واحد وسلطان واحد يحفظ بعضه ببعض وينظم مصالح بعضه ببعض ويسد خلل بعضه ببعض ، فيمد هـٰذا بهـٰذا ، ويقوي هـٰذا بهـٰذا ، وينقص من هـٰذا فيزيده في الآخر : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ ﴾ ويبيد هـٰذا ، فينشئ مكانه من جنسه ما يقوم مقامه ويسد مسده فيشهد حدوث الثاني إن الذي أحدثه ، وأوجده هو الذي أحدث الأول لا غيره وإن حكمته لم تتغير وعلمه لم ينقص وقدرته لم تضعف ، وإنه لا يتغير بتغير ما يغير منها ، ولا يضمحل باضمحلاله ، ولا يتلاشىٰ بتلاشيه ، بل هو الحي القيوم العزيز الحكيم [1] .

---

(1) شفاء العليل ، ج 1 ، ص 231 ، 232 .

هـٰذا إلىٰ ما في لوازم وجودها ، وانتظام بعضها ببعض ، وما يصدر عنها من الأفعال والآثار من حكم وأفعال أخرىٰ ، وغايات أخر حكمها حكم موادها وحواملها كما نشاهده في أشخاصها ، وأعيانها مثال ذلك في أحدوثه واحدة إنك ترىٰ المعدة تشتاق إلىٰ الغذاء ، وتجتذبه إليها ، فانظر لوازم ذلك قبل تناوله ، ولوازمه بعد تناوله ، وما يترتب علىٰ تلك اللوازم من عمارة الدنيا ، فإذا جذبته إليها ؛ أنضجته وطبخته كما تنضج القدر ما فيها فتنضجه الإنضاج الذي تعده لتغذي أجزاء البدن وقواه ، وهي إذا أنضجته لأجل نصيبها الذي ينالها منه ، فهو قليل من كثير بالنسبة إلىٰ انتفاع غيرها به ، فيدفع ما فضل عن غذائها عنها إلىٰ من هو شديد الحاجة إليه علىٰ قدر حاجته من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به ، ولـٰكن قد قصده وأحكمه من هو بكل شيءٍ عليم وعلىٰ كل شيءٍ قدير ، يدبره بحكمته ، ولطفه ، وساقه في المجاري التي لا ينفذ فيها الإبر لدقة مسالكها ؛ حتىٰ أوصله الىٰ المحتاج إليه الذي لا صلاح له إلا بوصوله إليه ، وكانت طبيعة الكبد ومزاجها في ذلك تلي طبيعة المعدة ، وفعلها يلي فعلها ، وكذلك الأمعاء ، وباقي الأعضاء كالكبد للقلب في إعداد الغذاء والقلب للرئة والرئة للقلب في إعداد الهواء وإصلاحه فالأعضاء الموجودة في الشخص إذا تأملتها ، وتأملت أفعالها ومنافعها وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به كشكله ، ووصفه ، ومزاجه ، ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين ؛ علمت علماً يقيناً : أن ذلك صادر عن خالق واحد مبصر ومدبر واحد وحكيم واحد .

ثم انتقل من هـٰذا إلىٰ أشخاص العالم شخصاً شخصاً من النوع الإنساني تجد الحكمة الواحدة الظاهرة في تلك الأفراد الكثيرة قد نفعت بعضهم بعضاً ، وأعانت بعضهم ببعض حارثاً لزارع وزراعاً لحاصد وحائكاً لخياط وخياطاً لنجار ، ونجاراً لبناء ، فهـٰذا يعين هـٰذا بيده وهـٰذا برجله ، وهـٰذا يعينه بعينه ، وهـٰذا بإذنه ، وهـٰذا بلسانه ، وحكمته ، وهـٰذا بماله ؛ وإذ لا يقدر أحدهم

علىٰ جميع مصالحه ، ولا يقوم بحاجاته ، ولا توجد في كل واحد منهم جميع خواص نوعه ؛ فهم بأشخاصهم الكثير كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض قد كمل خواصه الإنسانية في صفاته وأفعاله وصنائعه وما يراد منه ، فإن الواحد منهم لا يفي بأن يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء فجعل ذلك في النوع الإنساني بجملته والله سبحانه قد فرق كمالات النوع في أشخاصه ، وجعل لكل شخص منها ما هو مستعد قابل له بحيث لو قبل أكثر من ذلك ؛ لأعطاه ، فإنه جواد لذاته قد فاض جوده علىٰ العالم كله .

أما النظر في جواهرنا وأنفسنا فلننظر كما قال تعالىٰ : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (1) النفس ليست الروح ولا البدن ، هي شيء آخر ، يتكون من القبول ، والرفض ، والرضا ، وعدم الرضا ، والخوف ، والطمأنينة ، والاتزان ، والقلق ، والوسوسة التي بها تمتلئ الصدور ، فتتسع ، أو تضيق . فالنفس توصف ويتم التعرف عليها بالمخاطبة ، وتؤدي بصاحبها للتفاعل أو عدم التفاعل ، وهـٰكذا تظل علىٰ قيد الحياة إلىٰ أن يتوفاها ٱلله تعالىٰ .

في الآية الكريمة السابقة استغراب تساؤلي : أن الأنفس التي لا تدرك حقيقة أمرها ؛ لم تبصر حالها ، ولذلك الخليفة مع استغراب هـٰذه الآية يستغرب كيف لا يدرك الإنسان نفسه ليبصر أمره ، وما يربطه بالخالق العظيم جل جلاله . يستمر الاستغراب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى

(1) الذاريات 21 .
(2) محمد ، 24 .
(3) الأعراف ، 179 .

ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (2) .

وإذا ما خرجنا من باطن الإنسان ؛ لنبصر ونرىٰ ما حولنا من الأشياء الدقيقة والكبيرة ؛ فإننا يجب أن ننظر إليها بعقلنا وفكرنا وكيف تسير وفق نظام دقيق لا اختلال فيه فهٰذه الكواكب وهٰذه النجوم (الشموس) والمجرات والأجرام بمختلف الأحجام تسير في مسارات علىٰ شكل دوائر تعرف بالمدارات ـ في علمنا الحديث ـ فإذا نظرنا إلىٰ مجموعتنا الشمسية نجدها تسير وفق نظام عجيب ، فكل كوكب له مدة تختلف عن غيره في دورانه حول نفسه وحول الشمس فأقربها يأخذ ثلاثة وثمانين يوماً للدوران حول الشمس ؛ لقربه منها ، أما المشتري فيأخذ مئتين وثمانين سنة ليستكمل الدورة نفسها . ولننظر إلىٰ القمر كيف جعله منيراً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (3) ، وكيف جعل الشمس سراجاً وهاجاً : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (4) . ولنقترب إلىٰ كوكبنا ماذا ينتج عن هٰذه الدورة التي يلفها حول نفسه لنبصر ما نتج عنها الليل والنهار ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (5) . في جميع الآيات الواردة بالمبصرين والتساؤلات التي تتضمنها تربط العقل والإدراك والتبيُّن ،

---

(1) الحج ، 46 .
(2) الأنعام ، 122 .
(3) الفرقان ، 61 .
(4) النبأ ، 13 .
(5) القصص ، 72 .

وذلك لأجل المعرفة عن وعي تام ، وفي معظمها تفطين يستهدف العقول والقلوب والأنفس إلىٰ الانتباه بما هو ملاحظ أو مشاهد وقابل للتعرف عليه ، أو التعرف به كدليل إثبات لا شك فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [1] . الذي خلق كل شيء ، وما ذكر منه في هـٰذه الآية ، ألا يكون هو العزيز الغفار ؟ ! وإلا لماذا خلق كل ذلك لو لم يكن عزيزاً ، ولو لم يكن غفاراً لمن استغفر ، وتاب إليه واحداً أحداً لا شريك له . قال تعالىٰ : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ تلاحم واتصال في حركة دائرية غير منفصلة يحمل الليل علىٰ النهار ، ويحمل النهار علىٰ الليل فيَغْشَىٰ هـٰذا الآخر ، ويغشىٰ الآخر هـٰذا . وما ينتج عن هـٰذا الاختلاف من فائدة كتعاقب الفصول الأربعة ، وما ينتج عن هـٰذه الفصول من معرفة للحساب والأوقات وكل ذلك بتسخير ٱلله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [2] . آية النهار مبصرة بنور ٱلله وشروق الشمس ووضوح النهار للحركة والعمل ، أي : سخر الشمس والقمر لعباده ؛ ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب ، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم ، ولن تجد اختلالاً فيها إلىٰ قيام الساعة ، وأن لكل واحد منها منزلاً ، لا يعدوه ، ولا يقصر دونه ، وإن ٱلله فعل هـٰذه الأفعال وأنعم علىٰ خلقه هـٰذه النعم ؛ ليبين للخليفة : أنه البصير بأحواله وأمره فليتب مخلصاً له الدين ، مصلحاً في الأرض المستخلف فيها ، وفاعلاً للخيرات .

---

(1) الزمر ، 5 .

(2) الإسراء ، 12 .

وأن يكون بصيراً بكل ما يجري حوله حتىٰ لا يقع في المزلات ، والمحظور ، ولا يفسد في الأرض ، ولا يسفك الدماء فيها بغير حق .

وإذا ما ركزنا بنظرنا وبصرنا في البر والبحر ، وتفحصنا الأشياء الصغيرة من فيروسات ، وبكتيريا ، وفطريات ، وطحالب ، وكيف استطاع العلي القدير أن يجعل منها النافع والضار ، فالنافع منها يساعد الإنسان في جوفه علىٰ الهضم مثلاً ، وفي الأرض يساعده علىٰ تخصيب التربة مثلاً . وأما ما كان ضاراً فعلىٰ صغر حجمه يستطيع أن يفتك بالجسم الضخم كالفيل ، أو القوي كالأسد ، فيجعله كأن لم يكن ، وكل ذلك بأمره تعالىٰ القادر القهار ، فقد أرسل علىٰ ذلك المتكبر نمرود حشرةً ضعيفةً تأكل رأسه وهو لا يقوىٰ علىٰ الفكاك مع ما يدعي من جبروت وعظمة ، وإذا ما نظرنا إلىٰ النملة في جحرها كيف تحصل علىٰ قوتها بإذنه تعالىٰ الذي يعلم ما في جوفها ، والدودة في الصخرة الصمَّاء فلا ينقص من رزقها ولا يتأخر أجلها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [(1)] . ففي هٰذه الآية الكريمة : ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ومنها : ألا يعرفون بأنه العزيز ؟ وإذا ما أدركوا ، وتابوا ؛ ألا يعلمون حقيقةً : أنه هو الغفار . فما لهٰؤلاء الكفرة والمشركين والضالين والمنحرفين لا يستغفرون ، ولا يتوبون إليه واحداً أحداً ، وهم يعلمون عدد السنين والحساب ، ويعلمون : أن ما من دابة في الأرض إلا علىٰ ٱلله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ؟

وأما النظر إلىٰ تاريخ الأمم ، والسابقين ففيه أمر منه تعالىٰ ، فقال تعالىٰ : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [(2)] .

---

(1) هود ، 6 .
(2) الأنعام ، 11 .

وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [1] . وهـٰذا الأمر منه تعالىٰ يأمر فيه بالنظر والتبصر في هـٰذه الأرض ، وأخذ العبرة من السابقين ، وحتىٰ لا نقع في الذي وقعوا فيه ، وبما استوجبوا به سخط ٱلله جل جلاله . ولننظر فيما يسرُّ أعيننا ، سواء في المحسوسات كما في قوله تعالىٰ : ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ [2] . وهـٰذا ما أكده العلم الحديث فقد وجدوا أن العين تسر باللون الأصفر الفاقع ، سواء أكان في الأنواع المختلفة من الزهور والأشجار ، أم كان في التربة والأحجار ، وفي غير ذلك من مخلوقاته . أما النظر لما يسرُّ أعيننا في الأشياء الخفية فيجب أن يكون نظرنا ببصيرتنا ، وأن نرقب ٱلله في أفعالنا وأعمالنا ، فيكون لزاماً علينا ألاَّ نغتاب أحداً ولا نذم أحداً ، ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ، ويجب ألاَّ يكون تفكيرنا إلا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالىٰ جل جلاله ، وهـٰذا هو الذي يوصلنا إلىٰ ما يسرُّنا حقيقة .

أما النظر الذي هو نعمة البصر لدىٰ الإنسان فهو من النعم التي لا يستطيع أحدٌ حصرها أو عدَّ نعمائها ، وفضائلها ، فالعينان التي نرىٰ بهما جمال الكون ، وما حواه من نجوم وكواكب ، والأرض وما حوت من جبال ، وحيوانات متوحشة ، وأليفة كبيرة وصغيرة فهي لنعتبر ، ونعمل ما نتقي بهما غضبه ، وننال بهما رضاه ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [3] . النظر إلىٰ الكيفية يُمكِّن من بلوغ الحقيقة ، ويتوِّج بالتقوىٰ ، ولهـٰذا فلننظر حتىٰ نتمكن من بلوغها .

---

(1) النمل ، 69 .
(2) البقرة ، 69 .
(3) الغاشية ، 17 ، 21 .

وحظ خليفته في أرضه أن يحافظ علىٰ هـٰذه النعمة ، وذلك باتباع ما أمر ٱلله به ، واجتناب ما نهىٰ عنه ، فلا ينظر بهما إلىٰ محرم ، أو ممنوع ، وسواء أكان في البيت ، أم في ىالشارع ، أم في الطريق ، أم أمام بيته ؛ فلابد من أن يعطي الطريق حقه كما جاء في الحديث الشريف ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ ! » فَقَالُوا : مَا لَنَا بُدٌّ ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا . قَالَ : « فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ ؛ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا » ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ : « غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَىٰ ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ »[1] .

قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2] . من يتبصر في معاني هـٰذه الآيات الكريمة وهو من المستخلفين في الأرض يدرك : أن الحق مبصرٌ ، وإلا لو لم يكن مبصراً كيف يمكن أن تنتظم هـٰذه المخلوقات العظام ؟ وكيف لها أن تُسبِّح ، وتصلي له ؟ معجزات لا يدركها إلا مبصر . فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمىٰ ببصر البصير : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾[3] . وأما أولئك الذين

(1) صحيح البخاري ، ج 8 ، ص 351 ، رقم 2285 .
(2) النور ، 40ـ43 .
(3) الحديد ، 13 .

يخادعون ٱللَّه فيما يبصرون ؛ فهو خادعهم . قال عز جلاله : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ (1) ، فهم عندما يرجعون إلىٰ الموضع الذي ظهر فيه النور ، فلا يجدون شيئاً ، فينصرفون إليهم : ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (2) . وغير ذلك من نعمه كثيرٌ لا يحصىٰ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ (3) .

والتبصر في آيات ٱللَّه بالباطن يكون بالإيمان العميق بربوبيته العامة التامة فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر علىٰ تلك الأشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه علىٰ كل شيء قدير . إنه يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ (4) ، فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ (6) ، أي لم تكن شيئاً في الخارج ، وإن كان شيئاً في علمه تعالىٰ ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ (7) ، وقوله : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ ؛ رد علىٰ المشبهة ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (8) ؛ فهو سبحانه وتعالىٰ موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبيه ، فالمخلوق وإن كان

(1) النساء ، 142 .
(2) الحديد ، 13 .
(3) إبراهيم ، 34 .
(4) الحج ، 1 .
(5) يس ، 82 .
(6) مريم ، 9 .
(7) الإنسان ، 1 .
(8) الشورىٰ ، 11 .

يوصف بأنه سميع بصير كمستخلف في الأرض بالطاعة فليس سمعه وبصره ، كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه ؛ إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به ، وللخليفة ألا ينفي عن ٱلله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه [1] . إن نفيت شيئاً من ذلك ؛ كنت كافراً بما أنزل علىٰ محمد ، وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه ، فليس كمثله شيء وهو الواحد القهار وهو الأول والآخر سبحانه !

قال تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [3] ، فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر : أن المثل الأعلىٰ المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده ، فمن سلب صفة الكمال عن ٱلله تعالىٰ فقد جعل له مثل السوء ، ونفىٰ عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلىٰ ، و هو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجوبية ، والوجودية ، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلىٰ من غيره ، ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالىٰ أكثر وأكمل ؛ كان له المثل الأعلىٰ ، وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ المطلق اثنان ؛ لأنهما يتكافأان من كل وجه لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر وإن لم يتكافأا ؛ فالموصوف به أحدهما وحده فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلىٰ مثل أو نظير [4] .

واسم البصير هو من الأسماء التي وصفها تعالىٰ بكونها حسنىٰ ؛

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ج ، 1 ص ، 143 .

(2) النحل ، 60 .

(3) الروم ، 27 .

(4) شرح العقيدة الطحاوية ج ، 1 ص ، 144 .

أي : حسان وقد بلغت الغاية في الحسن ، فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فأسماؤه الدالة علىٰ صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض ، بل هو علىٰ سبيل التقريب والتفهم ، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىً وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص ، فله من صفة الإدراك العليم الخبير دون العالم الفقيه ، والسميع البصير دون السامع والمبصر ، وكذلك سائر أسماء ٱلله تعالىٰ يجري علىٰ نفسه أكملها وأحسنها ، ولا يقوم غيره مقامه ، فأسماؤه أحسن الأسماء ، كما أن صفاته أكمل الصفات فلا نعدل عما سمىٰ به نفسه إلىٰ غيره كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ إلىٰ ما وصفه به المبطلون ، ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم : الصانع ، والفاعل ، والمربي ، ونحوها ؛ لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه علىٰ نفسه وأخبر به عنها أتم من هـٰذا وأكمل وأجل شأنا فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته فهو فعَّال لما يريد وبإرادة اليسر لا العسر فهو يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر وهو الرحمـٰن الرحيم البصير بعباده وبما خلق وبكل أمر ، لا إلـٰه إلا هو عز وجل [1] !

وقيل : هل النظر يبقىٰ ، أو يزول يوم القيامة ؟ فكان الرد في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [2] . قوة الإنسان في بصره الذي به يستقرئ ، ويقرأ الأسطر وما بينها من مضامين ودلائل إعجازية ومعارف وعلوم ، فقبل الإيمان يكون الإنسان في غفلة من أمره وبإيمانه يتمكن من معرفة الحقيقة فيتقي ٱلله ربه . وهـٰكذا كان الحال في

(1) شرح كتاب التوحيد ، ج 1 ، ص 572 .
(2) ق ، 22 .

الجاهلية غفلةً عن الحق ، وبعد الإسلام جاء الحق وزهق الباطل بقوة إحقاق الحق ، ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ بالحجة الإعجازية من ٱلله رب العالمين ، ولهٰذا بالإسلام تمت إزاحة الجهل .

قال تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1] . الوجوه الناضرة هي الوجوه المستبشرة باستخلافها في الأرض ، والواثقة ببصيرتها فيما تبصر به وتبصر إليه بأنه قوة في جماله وإعجازه ، فلها من الذوق الرفيع الذي يُمكنها من التعلق بالجميل المطلق الذي تنظر إليه ، أما نظرها إلىٰ ربها فهٰذه تتعلق بالبصر في آياته العظام فترىٰ القمر والشمس والكواكب وكل ما خلق تعالىٰ وهو قابل للمشاهدة ، فتنتقل من خلال ما تنظر إليه إلىٰ الكيفية التي بها خلقت الأشياء التي تنظر فيها ، كالإبل والجبال والسماء المرفوعة بغير عمد تُرىٰ بالعينين والكيفية التي عليها سطحت الأرض .

ولأنه ليس كمثله شيء فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، ولهٰذا فالخليفة هو من ينظر إلىٰ ربه يقيناً وإعجازاً ، ولا ينظر إليه مشاهداً ، فالمشاهد هو الذي له أمثال وأشكال ويتعدد وهٰذه ليست من صفات ٱلله تعالىٰ ، فسبحانه يرانا ولا نراه ، وهٰذه آية تجعل كل ذي عقل يُسلِّم أمره إليه ، ويؤمن به واحداً أحداً سبحانه جل جلاله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

البصير هو ٱلله المهيمن الذي يرانا ويرىٰ كل شيء بالمطلق ، وهو المقيت بكل متجزئ من الجزء والكل ، وهو الذي يعلم ما لا نعلم ، وهو القادر علىٰ الفعل والقدير له في الحركة والسكون ، وهو المؤمن الذي أمن أولياءه من خزي الدنيا ، ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية ، وآتاهم في هٰذه الدنيا حسنة ، وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية ، وهو العزيز الذي شهد علىٰ الخلق بأعمالهم ، وهو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت لا تخفىٰ عليه منهم

---

(1) القيامة ، 22 ، 23 .

خافية إنه بعباده لخبير بصير . ولأنه العزيز الذي لا مغالب له ولا مرام لجنابه ، الجبار الذي له مطلق الجبروت والعظمة ، وهو الذي يجبر كل كسير مما به ، وهو المتكبر الذي لا ينبغي الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه ، العظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه فمن نازعه صفةً منها ؛ أحلَّ به الغضب ، والمقت ، والتدمير ، وهو الخالق البارئ المصور لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (1) ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (2) . وهو الغفار الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة ، وهو القهار الذي قصم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره ، وهو الرزاق الذي لا تنفد خزائنه ، ولم يغض ما في يمينه . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير ، يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تدبيراً متقناً محكماً يرزق من هـٰذه الدنيا من يشاء من كافر ، ومسلم أموالاً ، وأولاداً ، وأهلاً ، وخدماً ، ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته قضىٰ ذلك قضاء حتماً مبرماً وأشرف الأرزاق في هـٰذه الدار ما رزقه عبده علىٰ أيدي رسله وخلفائه من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدىٰ المستنير ، وهو الفتاح الذي يفتح علىٰ من يشاء بما يشاء من فضله العميم يفتح علىٰ هـٰذا مالاً ، وعلىٰ هـٰذا ملكاً ، وعلىٰ هـٰذا علماً ، وحكمة ، ولذا فهو البصير العليم الذي يعلم ما لا نعلم ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو !

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (3) ، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

(1) التغابن ، 2 .
(2) لقمان ، 28 .
(3) الجمعة ، 4 .

ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] ، إنه عز وجل البصير العليم الذي أحاط علمه بجميع المعلومات من ماض وآت ظاهر وكامن ومتحرك وساكن ، وجليل حقير ، علم بسابق علمه عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين ، ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] ، ما من جبل إلا ويعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا ويدري ما في قعره ، وما تحمل من أنثىٰ ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك علىٰ ٱلله يسير ، وهو القابض الباسط فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه ، ويبسطه علىٰ من يشاء فيوسع عليه ، وكذا له القبض والبسط في أعمال عباده وقلوبهم ، كل ذلك إليه ؛ إذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير الخافض الرافع الضار النافع المعطي المانع ، فلا رافع لمن خفض ، ولا خافض لمن رفعه ، ولا نافع لمن ضر ، ولا ضار لمن نفعه ، ولا مانع لما أعطىٰ ، ولا معطي لمن هو مانع ، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهما علىٰ خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء من هو مانعه ؛ لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] ، ولذا فإن البصير هو المعز المذل الذي أعز أولياءه المؤمنين في الدنيا والآخرة وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة الظاهرة ، وأذل أعداءه في الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم الدائرة ، فما لمن والاه

(1) فاطر ، 2 .
(2) الأنعام ، 59 .
(3) الأنعام ، 17 .

وأعزه من مذل ، وما لمن عاداه وأذله من ولي ولا نصير وهو السميع البصير ، لا كسمع ، ولا بصر أحدٍ ، وهو القائل لموسىٰ وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ (2) .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ ﴾ ، أي : الذي خلق كل شيء ، ولا ولد له ولا صاحبة ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالوحدانية ، وأنه لا إلـه إلا هو اللطيف الخبير .

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ ﴾ تعني : لا تلاحقه مطلقاً ، وهو يخلقها ويتحكم في أمرها ، ولذا فهو مدركها وبالغ أمرها والعليم بأسرارها وخفاياها والقادر علىٰ إظهارها وإخفائها ، وهي لا تدركه بشيء ، فسبحانه هو البصير الذي يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار ! ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ ، اللطيف : هو من يعلم بكل خافية ويعلم بكل ظاهر وباطن : (ما تظهره الصدور وما تخفيه) وبلطفه يمهل ، ولا يهمل حتىٰ يتيح لمن يراد له أن يكون خليفة أن يكون ، ولذا فهو الخبير بكل أمر ، فهو يعلمه ويعرفه ، ولا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماوات العلىٰ وما بينهما وما تحت الثرىٰ ، وهو الطيف الخبير .

﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ ، يعني : الحجج البينة التي تدركون بها الهدىٰ . والبصائر : هي البينات التي يُستدل بها علىٰ إحقاق الحق وإزهاق

---

(1) طه ، 46 .

(2) الأنعام ، 102ـ104 .

الباطل ، والحجج التي اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ : مثل قوله تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [1] ؛ ولهٰذا قال : ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي : فإنما يعود وبال ذلك عليه ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] .

والبصائر هي مجموع الحِكم ، والحجج ، والدلائل المحسوسة ، وكذلك الحواس التي بها تتم عمليات الإدراك ، كالسمع ، والبصر ، واللمس ، والذوق ، والشم ، والعقل الذي به تتم عمليات المشاهدة والملاحظة من خلال ما يقوم به من ربط للظاهر والباطن . وعليه يتم استخلاف الإنسان ببصائره التي تمكنه من الإدراك الواعي ، والتمييز الواضح ، والإقدام علىٰ ما يجب في مرضاة البصير المطلق ، والابتعاد عما لا يرضيه ، جلَّ جلاله !

البصير هو الذي يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [3] .

البصير جل جلاله أمره مؤسس علىٰ الفعل (كن) والفعل هٰذا قوته

(1) الإسراء ، 15 .
(2) الحج ، 46 .
(3) السجدة ، 5ـ10 .

تتجاوز قوة احتساب الزمان ، فهو الذي خلق السمـٰوات والأرض في ستة أيام أي : إنه صاحب الأمر لأن تكون السمـٰوات والأرض في ستة أيام ، ولهـٰذا كانت الأيام التي بها الخليفة يَعُدُّ ما يستطيع عدَّه من المخلوقات التي لا تحصىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (1) . ولهـٰذا فبديع السماوات والأرض إذا قضىٰ أمراً يقول له : كن ، فيكون . ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (2) . ولذا فهو مدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض بقوله (كن) . ولذلك فما يأمر به ٱلله في الزمن (الآن) بالأمر (كن) لو حسبه الإنسان لظنه بأيامه يساوي ألف يومٍ ، مع أنه سبحانه يجعله كائناً في الزمن (الآن) الذي بيده أمره .

ومما تقدم فإن التعداد الزماني ، من حيث الحركة والسكون من خلال دوران الكواكب والنجوم ، يتعلق بحساب المخلوق ، ولا يتعلق بحساب الخالق .

فقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ لأن له الأسماء الحسنىٰ والأفعال الحسنىٰ ، فهو بطبيعة الحال يخلق ما يشاء بالأفعال الحسان ، فهو لا يخطئ ولا يغفل ولا ينام ولا تأخذه سِنَةٌ ، وهو الحي القيوم ، وهو بكل شيء عليم وبصير وقدير سبحانه الأول والآخر واحد أحد لا شريك له ! إنه خالق الأشياء ، وبدأ خلق الإنسان من الطين في أحسن تقويم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ ثم بدأت دائرة الاستخلاف تتسع لتصلح الأرض ولا تفسدها ولا تسفك الدماء فيها بغير حق ، وهـٰذه من الصفات الحسان التي

---

(1) الأعراف ، 54 .
(2) البقرة ، 117 .

بها يستخلف الإنسان الذي فيه نفخة من روح ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذه الروح هي المكون للصفات الحسان التي بها يتم الاستخلاف في الأرض وورثة الجنة . فروح ٱلله هي المكوّن لصفاته وأفعاله الحسان التي من تجسدت فيه قولاً وفعلاً ؛ كانت فيه نفخة من روح ٱلله عز وجل .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ الذي له الصفات الحسان ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ، هو الذي جعل السمع والأبصار والأفئدة ، وهي قليل من كثير من فضل ٱلله علىٰ الخليفة الشاكر له والحامد له علىٰ فضله ونعمائه ، والمُسبِّح باسمه في إصلاح الأرض التي خلقه منها جل جلاله في أحسن تقويم .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ الضلال غير الهداية فمن ضل في الأرض أفسد فيها ، أو سفك الدماء فيها بغير حق ، ومن اهتدىٰ كان مؤمنا لله خليفة ، ولهـٰذا من يضلل في الأرض يخسر الجنة في الآخرة مما يجعله من الخاسرين يوم لقائه ربه ، ويومها لا ينفعه الندم . ولذا قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾

---

(1) المائدة ، 105 .

(2) الكهف ، 104ـ108 .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[2] . سبحانه وتعالىٰ لا يظلم أحداً ، فمن اهتدىٰ فإنما اهتدىٰ لنفسه ومن ضل فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وعليه فمن صفات ذاته تعالىٰ البصر ، وهو المحيط بجميع المبصرات ، وإثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات له ، وهاتان الصفتان هما مضمون اسميه : السميع ، البصير . قال ٱلله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ ﴾[6] . قال ابن جرير : و ذلك بمعنىٰ المبالغة في المدح كأنه قيل : ما أبصره ، وأسمعه ! وتأويل الكلام : ما أبصر ٱلله لكل موجود ، و ما أسمعه لكل مسموع ، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء ! ثم روىٰ عن قتادة في قوله تعالىٰ : ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ ﴾ : فلا أحد أبصر من ٱلله ، و لا أسمع ، ولا مجال للمقارنة بين خالق مطلق لا إلـه إلا هو واحد أحد لا شريك له ، وبين مخلوق لا يخرج في امتداده مهما امتد عن دائرة النسبية ذات الحيز المحدود . و قال ابن زيد : ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ ﴾ يرىٰ أعمالهم ، و يسمع ذلك منهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[7] ، وقال

---

(1) الصافات ، 71ـ76 .
(2) النجم ، 2 .
(3) النساء ، 58 .
(4) الشورىٰ ، 11 .
(5) الحج ، 61 .
(6) الكهف ، 62 .
(7) النساء ، 58 .

البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ : أي ما أبصر ٱلله بكل موجود ، و أسمعه لكل مسموع ! أي : لا يغيب عن سمعه و بصره شيء . و قال تعالىٰ لموسىٰ و هارون عليهما الصلاة والسلام : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (1) ، قال ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أسمع دعاءكما فأجيبه ، و أرىٰ ما يراد بكما ، فأمنعه ، لست بغافل عنكما ، فلا تهتمَّا . و قال تعالىٰ لهما في موضع آخر : ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (5) ، و قال تعالىٰ : ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ (6) . نحن فيما عرضنا من آيات لا نريد إثبات السمع والبصر ، بل نريد من ذلك إظهار السمع والبصر المطلق حق مطلق ، فالبصير هو ٱلله ، هو كما هو سبحانه وتعالىٰ .

ورُوي عن أبي موسىٰ رضي ٱلله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبَّرنا ، فقال : « اربعوا علىٰ أنفسكم » . فإنكم لا تدعون أصماً ، ولا غائباً تدعون سميعاً بصيراً قريباً » . ثم أتىٰ علي و أنا أقول في نفسي لا حول ولا قوة إلا بالله فقال : « يا عبد الله بن قيس ! قل : لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » (7) . وعن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ قال

(1) طه ، 46 .
(2) الشعراء ، 15 .
(3) الزخرف ، 80 .
(4) التوبة ، 105 .
(5) العلق ، 14 .
(6) المجادلة ، 1 .
(7) البخاري ، الجهاد والسير رقم (٢٩٩٢) .

اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي ، أو وقرشيان ، و ثقفي ، كثيرة الشحم بطونهم قليلة الفهم قلوبهم ، فقال أحدهم أترون أن ٱلله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1) .

الخليفة البصير :

هو عميق البصر والبصيرة ، وهو المتمكِّن من بلوغ الأشياء والتعرف عليها ، وهو الذي يتبيَّن الأمر قبل الخوض فيه ، وهو المحتكم بما حكم ٱلله ، وهو العادل بإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، إنه الذي يتعلم ويعلم ويعرف ويتعرف ، ثم يقول أو يفعل بعد ذلك : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (2) وقـــولـــه تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (3) هـٰؤلاء هم المبصرون حقا ، وهـٰؤلاء هم المستخلفون في الأرض ، وهـٰؤلاء هم الوارثون .

اللهُمَّ إنَّا بك آمنا ، وعليك توكلنا ، وأولينا أمرنا إليك فاحفظنا من شرور

(1) فصلت ، 22 .
(2) النساء ، 94 .
(3) الحجرات ، 6 ، 7 .

الحادثات ، ومن كل وسواس خناس من الجنة والناس والحمد لك وحدك لا شريك لك !

ولذا فالخليفة البصير هو الناظر إلىٰ الأشياء بعين الحق ، فلا ينكر شيئاً ولا يتعجب من شيء ، فهو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين وصفاته بعين اليقين وذاته بحق اليقين فالغائبات له حضور ، والمستورات له كشف .

فالخليفة هو السميع لأوامر ونواهي البصير المطلق ولذا فهو في نفسه بصير وفي أبنائه بصير وفي زوجه ووالديه بصير ، ولمن له حق عليه بصير ، وفي أداء عباداته بصير ، وفي تقلُّبِه حين ينام وحين يقوم بصير ، يصلي لله رب العالمين ، ولهٰذا لا يركع ولا يسجد لسواه ، يصوم ويزكي ويتصدق ويحج ويجاهد في سبيل إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل ، في خشيته لله بصير ، وفي إدراك آياته بصير .

وعليه فالبصير بالإضافة هو المدرك للبصير المطلق ، فهو يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلىٰ الآيات وإلىٰ عجائب الملكوت والسمٰوات ، فلا يكون نظرة إلا عبرة ، قيل لعيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ : هل أحد من الخلق مثلك ؟ فقال : « من كان نظره عبرة ، وصمته فكرة ، وكلامه ذكراً ؛ فهو مثلي »[(1)] . ولأن الخليفة بصير فهو الطائع لا العاصي وهو يعلم أن ٱلله عز وجل يراه فيتقيه حق تقاته إيماناً بقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ

(1) المقصد الأسنىٰ ج ، 1 ص ، 91 .

ﭐلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) .

اللهُمَّ يا البصير نسألك أن تبصر حالنا ، وتتقبل دعاءنا ، وتختم بالصالحات أعمالنا ، وتتوفنا وأنت راض عنا ، نحن الضعفاء ، وأنت البصير القوي ، نحن الفقراء ، وأنت البصير الغني !

اللهُمَّ إننا نسألك يا البصير أن تقلب قلوبنا نحو عبادتك ، وارزقنا الخير كله ، واجعل الحياة لنا داراً للإيمان ، والآخرة داراً للخلود في جنتك يا البصير بنا وبأحوالنا !

اللهُمَّ إنا نسألك النظر إلىٰ وجهك الكريم ، والشوق إلىٰ لقائك فلا تحرمنا يا أرحم الراحمين !

اللهُمَّ يا البصير ، سبحانك وبحمدك ، توكلنا عليك في أمورنا كلها ، وأنت بصير بها ، فاغفر لنا ، وعافنا وارزقنا ، واقض حاجتنا ، ويسر أمرنا يا ٱلله !

اللهُمَّ متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعل بصرنا يا البصير مشغولاً بالنظر إلىٰ عظمتك ، وقدرتك ، ورحمتك . ومكنا يا البصير بالنظر الذي أنعمت به علينا أن ننظر إلىٰ آياتك العظام حتىٰ نعرف ونحن مؤمنون كيف خلقت الإبل ، ونصبت الجبال ، ورفعت السماء وسطحت الأرض !

اللهُمَّ اجعلنا متذكرين ومتعظين بكل أمر أمرتنا به ، واجعلنا من العاملين عليها ، ولا تجعلنا من الجاهلين ، واجعلنا من الطائعين ، ولا تجعلنا من العاصين ، ومن المسبحين بحمدك الذاكرين لأسمائك ، وصفاتك الحسان لا مِنَ الغافلين !

✍ ✍ ✍

(1) آل عمران ، 102ـ108 .

الحَكَمُ جلّ جلاله

الحَكَمُ : هو مَنْ بيده الأمر والنهي ، وهو ٱلله العادل في ملكه ، ولأنه مالك الملك فهو بطبيعة الحال أن يكون حكماً ، ولذا فالحكم هو الذي يلم بالمطلق بمستوجبات الحكم فيما يحكم ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ الحاكم العدل ، والحَكَم العدل في حُكْمه .

قال الشاعر :

أقـادَت بنـو مـروانَ قيسـاً دمـاءنـا وفي الله إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عَدْلُ [1]

والخليفة الحكم هو الذي يفصل بين الناس ليُعرف الخير من الشر ، والحق من الباطل ، والله ـ جلَّ وعلا ـ هو الحكم المطلق الذي ميز بين النقائض عموماً وبين الحقّ والباطل خصوصاً .

ويرتبط الحكم بالعدل في مواضع كثيرة من القرآن كما في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [2] .

(1) الجمهرة ، ج 1 ، ص 292

(2) المائدة ، 95.

وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (1) .

إنَّ اقتران الحكم بالعدل أمر لا يشك فيه عقل ، فالله هو العدل وهو الحكم ، ومن بديهيات ما يقبل العقل اقتران الحكم بالعدل وبخلاف ذلك لن تعمر الأرض ، ولا يمكن للبشرية أن تتعايش وتتطور وتبني الحضارة التي وصلت إليها الآن وستصل إليها فيما بعد ، هـٰذا كله بمعادلة الحكم العدل .

وأول ما يجب علىٰ الإنسان الوقوف عليه في اسم ٱلله (الحَكَمْ) رسم الكلمة ووقعها علىٰ النفس ، حيث تُشعرك بالقوة والحزم فتشدك لتتبين معانيها وتلتمس الطريق إلىٰ إدراك حقيقتها ، وذلك بإثارة التساؤلات عن الكيفية التي يكون فيها الحكم عدلاً ؟ والإجابة علىٰ مستوىٰ الخليفة هي أن يتوخىٰ الخليفة أموراً بعينها ، منها :

أولاً : لا يقبل أن يكون حكماً إلا بما شرع ٱلله ؛ أي : أن يستمد قواعد احتكامه مما أنزل ٱلله له من آيات تشريعية تبين له الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، والمحبب والمفضل من المكروه ، والواجب اجتنابه ، وأن يتبين بدون استعجال . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ

(1) النساء ، 58 .

قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) .

يتحقق العدل لمن يروم إشاعته بالحكم بما شرع ٱلله ، فالحَكَمُ البصير بعباده ، والرحيم بهم شرع من الأحكام ما يمكِّن بني آدم من العيش في الأرض وتعميرها والخلافة عليها ، وهي أحكام ترضاها النفوس وتعجب بها الألباب لما فيها من دقة ومن رحمة وخير ، والحكم سبحانه يقول : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) .

ونصَّ الذكر الحكيم علىٰ مصادر الحكم بالعدل ، وبصيغةٍ مؤكدةٍ تقوم علىٰ استخدام فعل الأمر الملزم (احكم) ، متبوعاً بلا الناهية دلالة علىٰ حتمية الوجوب ، وانتفاء الجواز ، يقول عزَّ من قائل : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (3) .

والنص واضح صريح ، فمصدر الحكم الكتاب مع تحذير بيِّنٍ بالابتعاد عن الهوىٰ وعن الأحكام العاطفية ، ويتضح : أن آفة الحكم اتباع الهوىٰ من قبل الحاكم ، وعلىٰ الخليفة في الأرض تجنب الوقوع فيما نبه ٱلله نبيه إلىٰ عدم

---

(1) المائدة ، 42 ، 45 .

(2) الإسراء ، 17 .

(3) المائدة 48ـ50 .

جواز الأخذ به ، وبخلاف ذلك يقع الإنسان في الظلم كما تنص الآية الكريمة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) .

ومن مصادر الحكم العدل السنة الصحيحة ، فهي ممَّا يستند عليه الخليفة في الحكم إن أراد أن يكون حكماً عدلاً ، وفي القرآن إشارة تدل علىٰ ذلك : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (2) .

ثانياً : أن يكون الحكم محايداً ، فلا يميل إلىٰ طرف دون آخر لا لحبٍ ولا لبغض ، وهـٰذا رب العزة الحكم العدل يُعلِّم الإنسانَ درساً عظيماً ليكون حيادياً في الخصومة ، وذلك في قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع فرعون ، يقول عز وجل : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (3) .

فالله سبحانه يقدِّم لخليفته في الأرض المثل الأعلىٰ في الحياد ، فبالرغم من كون موسىٰ رسول ٱلله وهو ضعيف خائف ، وفرعون عدو ٱلله وهو قوي ظالم إلا أنه سبحانه عامل الطرفين في هـٰذه الخصومة علىٰ حدٍّ سواء ، فقد طلب ٱلله من موسىٰ وأخيه أن يحاورا خصمهما باللِّين وذلك بسبب طغيان سابق ، فقال سبحانه لموسىٰ عن فرعون : (إنه طغىٰ) بالفعل الماضي ، وفي ذلك حكمة ؛ لأن استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغىٰ) أو الفعل

---

(1) المائدة ، 45 .

(2) النساء ، 65 .

(3) طه ، 43ـ50 .

المضارع للمستقبل (سيطغىٰ) فيه حكم مسبق من ٱلله علىٰ فرعون مع علمه سبحانه : أن فرعون سيبقىٰ علىٰ طغيانه لـٰكن ٱلله يريد أن يعلِّم موسىٰ عليه الصلاة والسلام وخلفاء ٱلله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة ؛ لأن ذلك خلاف الحياد الذي يدعو إليه الحكم العدل .

ثالثاً : المساواة ، الحكم العدل سبحانه يساوي بين عباده ، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقربون به إليه ، وليس أدلَّ علىٰ ذلك من تعامله سبحانه وتعالىٰ مع أنبيائه ، فعندما دعا سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لذريته أجابه ٱلله تعالىٰ إجابة تشع بالمساواة ، يقول عز وجل : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، فذرية إبراهيم علىٰ شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد ٱلله ، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلىٰ إبراهيم إن هم ظلموا أحداً من الناس ، فالأولىٰ بالخليفة أن يساوي بين رعيته ، فلا يقرب أحداً لنسبٍ ، أو لمودة ، ويباعد آخر لقطيعةٍ ، أو عداوة ، وإنما الرعية سواء .

والمساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل ، مع من تحب أو من تكره ، وهـٰذا ما يدعونا إليه الحكم العدل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

يعني بذلك جل ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ، لتكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم ، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم ، فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم

---

(1) البقرة ، 124 .

(2) المائدة ، 8 .

لعدواتهم لكم ، ولا تقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم ، ولـٰكن انتهوا في جميعهم إلىٰ حدِّي ، واعملوا فيه بأمري .

فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحكم ، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم ، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبهم ، فهم سواء ، فتحقيق العدل يتمُّ بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوىٰ ، وتستند علىٰ الوحي الذي يوحىٰ .

رابعاً : التدقيق في الأحكام ، وهو مما أرشد ٱلله سبحانه عباده إليه بالآيات الكريمة التي ننهل منها دروساً نتدبر من خلالها معنىٰ الحكم العدل ، ومن ذلك الآيات الكريمة التي تروي قصة سيدنا داود في الحكم بين الخصوم : ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (1) .

يخاطب ٱلله في هـٰذه الآية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، هل أتاك يا محمد خبر الخصمين اللذين تسلَّقا السور ، ودخلا عليه في مكان عبادته ، لا من الباب ، وعندما دخلوا عليه بهـٰذه الطريقة الغريبة خاف منهم ، واضطرب ، قالوا : لا تخف ، نحن خصمان ظلم بعضُنا بعضاً ، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل ، لا تجُرْ في حُكمك وأرشِدنا إلىٰ الحق : إن هـٰذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقال أعطِني إياها لتكون في كفالتي ،

---

(1) ص ، 21ـ25 .

وغلبني بكلامه وحججه . قال داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر : لقد ظلمك يا هـٰذا حين طلب ضمَّ نعجتك إلىٰ نعاجه ، إن كثيراً من الشركاء والمتخالطين ليجور بعضهم علىٰ بعض ، إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ، ولـٰكنهم قلة نادرة . وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، وعرف داود : أن الأمر ما هو إلا امتحان من ٱلله ، فطلب المغفرة ، وخرَّ ساجداً لله ، وأناب إليه بالتوبة ، فغفرنا له تعجُّله في الحكم [1] .

فالعجلة يمكن لها أن توقع الخليفة في الخطأ ، والأولىٰ له أن يتأنىٰ ، ويدقق ، ويستمع إلىٰ الخصوم ، ثم يصدر حكمه الذي يراه .

خامساً : الابتعاد عن الظلم ، ٱلله الحكم يقول عن نفسه : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [2] ، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له ، ولذا فهو لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل ، الذي لا يجور ، تبارك وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه الغني الحميد .

وعلىٰ الخليفة أن ينتهي وينهىٰ من معه عن الظلم ، مدركاً وموقناً : أن عاقبة الظلم في غاية الخطورة ، فقد أشارت الآيات الكريمة إلىٰ العواقب الدنيوية والأخروية للظلم ، ومن تلك الآيات قوله تعالىٰ : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [3] .

يقول الآلوسي : المراد : أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد . ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم [4] ، فالظلم علة قطع الدابر وهو أثر الظالم من نسلٍ ، أو عملٍ .

---

(1) تفسير القطان ، ج3 ، ص 161 .
(2) الحج ، 10.
(3) الأنعام ، 45.
(4) تفسير الآلوسي ، ج 5 ، ص 332

ومن عواقب الظلم إيقاظ الفتن وعلىٰ صعيد واسع ، حيث تتسع الفتن لتشمل الظالم وغيره ، وذلك لأمرين :

الأول : حكمته عز وجل .

الثاني : سكوت الناس عن الظالم كما تشير الآية الكريمة : ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [1] ، فالسكوت عن الظلم ظلم جزاؤه شيوع الفتن بين الناس ، فقد أُمروا ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب [2] ، يقول المولىٰ سبحانه : ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [3] .

أما قوله تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [4] . فإنه يدل علىٰ أن الظلم من أسباب الهلاك .

ويرىٰ ذوي الألباب من تغير حال بعض العباد وتبدل حالهم من الخير إلىٰ الشر ما يعتبرون به في الدنيا استعداداً للآخرة ، وهـٰذا وعيد من ٱلله لكل ظالم وفي كل زمان ، يقول الحكم العدل سبحانه : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [5] . والآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ، ولا أنكىٰ لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين ، وذلك قوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ ، وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وإطلاقه . وقوله : ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ حين عهد

(1) المائدة ، 79 .
(2) تفسير ابن عبد السلام ، ج 2 ، ص 218 .
(3) الأنفال ، 25 .
(4) الكهف ، 59 .
(5) الشعراء ، 227 .

إليه : وكان السلف الصالح يتواعظون بها ، ويتناذرون شدتها [1] .

وتوعد ٱلله سبحانه الظالمين ، فقال : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [2] ، وعلىٰ من يرجو لقاء ربه أن ينتهي عن الظلم ويتراجع ، ولتحقيق ذلك علىٰ الخليفة ألاَّ يسمح للظلم بأن ينال من عباد ٱلله ، وذلك بأن ينصر المظلوم موقناً بنصر ٱلله في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك ، ولا أدل علىٰ ذلك من قول ٱلله : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [3] .

والمتدبر لآيات ٱلله ليسعد أيما سعادة بوعد ٱلله جزاءً لنصرة المظلوم ، كما يخاف كل الخوف ؛ وهو يقرأ وعيده .

وإذا كانت الآيات الكريمة قد بينت ما للظلم من عواقب ، فإنها تركت تحديد الثواب دلالةً علىٰ عظمته ، يقول المولىٰ عز وجل : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [4] .

ومعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ﴾ أي : الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء علىٰ العمل لا علىٰ العلم ، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيماً له ؛ لأنه شارعه ، فقال : ﴿ مَن يَنصُرُهُۥ ﴾ أي : يقبل مجداً علىٰ الاستمرار علىٰ نصر دينه ، ورسله

(1) تفسير الزمخشري ، ج 5 ، ص 54
(2) النحل ، 85 .
(3) الحج ، 40 .
(4) الحديد ، 25 .

ذلك النصر : ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ من الوعد والوعيد ، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك ، أو غائباً عن كل ما أوجب له النصرة .

فكيف إذا أصبح الإنسان ظالماً وأراد التوبة ؟ الجواب : إن سبيل ٱلله واسع ، والظالم له أن يعود بأمرين :

الأول : أن يستغفر ٱلله ، لا باللسان فقط ؛ وإنما بالقول ، وبالعمل وذلك بأن يرفع الظلم عمن ظلم نادماً ، ثم التوجه إلىٰ ٱلله لطلب المغفرة .

الثاني : ترك الظلم وعدم الإصرار عليه ، كما يُعلِّمنا ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

والحكم مصدر الحُكم ، وحَكَمَ بينهم ، يَحْكُمُ ؛ أي : قضىٰ [2] ، فالله سبحانه هو الذي يقضي بين عباده : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [3] . وعليه ينبغي أن نميز بين شيئين :

الأول : **الحَكَمُ** : وهو مصدر لكل حُكم ، وهو الحاكم بأمره لا بأمر غيره ، وتعود الأمور إليه دون سواه .

الثاني : **الحُكم** : هو النص الذي يحتوي ، ويتضمن الكلمة والجملة والمعاني التي بها يتم التشريع ، وعليها تستند القرارات .

وقد نصت الآيات الكريمة علىٰ نماذج للأحكام التي يريد الحكم سبحانه إفهامها لخليفته في الأرض ، وعلىٰ مستويين :

الأول : نماذج للأحكام العادلة ، وهي تلك الأحكام التي شرعها ٱلله

---

(1) آل عمران ، 135 .

(2) لسان العرب ، 12 ، ص 140 .

(3) النمل ، 78 .

ليصلح بها أحوال الإنسان منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [1] ، فمصدر الأحكام سبحانه شرّع لنا من الأحكام ما ترضاه النفوس ، وتقبله العقول ، لما فيها من مراعاة للحق ، وإرضاء لنفسية المجني عليه ، وتهذيب للجاني ، وردع مَنْ تسول له نفسه القيام بأي اعتداء ، وعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يحرص أيّما حرص علىٰ أن تراعي أحكامه أحوال الناس وبما يرضي ٱلله ، وأن تكون الغاية منها إحقاق الحق ، وليس لغايات أخرىٰ .

وعلىٰ الخليفة إصدار أحكام دقيقة وواضحة ومعلنة امتثالاً لأحكام الحكم سبحانه ، مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] .

ومعنىٰ الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي : إن الحر إذا قتل الحرَّ ، فَدم القاتل كفءٌ لدم القتيل ، والقصاصُ منه دون غيره من الناس ، فلا تجاوزوا بالقتل إلىٰ غيره ممن لم يقتل ، فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غيرَ قاتله . ومع أن الدين الإسلامي جاء بغاية تحرير العبيد ، إلا أنه في البداية قَبِلَ بأن يكون العبد بالعبد والحر بالحر ، وذلك للبدء مع العباد من حيث هم بغاية بلوغ ما يجب أن يكونوا عليه ، وهو بلوغ الحرية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ

(1) المائدة ، 45 .

(2) البقرة ، 178 .

مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [1] .

والفرض الذي فرضَه ٱلله علينا في القصاص ، هو ما وصفتُ من ترك المجاوزة بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلىٰ غيره ، لا أنه وجب علينا القصاص فرضاً وجُوب فرضِ الصلاة والصيام ، حتىٰ لا يكون لنا تركه . ولو كان ذلك فرضًا لا يجوز لنا تركه ، لم يكن لقوله : ﴿عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ معنىٰ مفهوم ؛ لأنه لا عفو بعد القصاص ، فيقال : « فمن عفي له من أخيه شيء » [2] .

والثاني : نماذج للأحكام الباطلة التي لا تنم عن تأمل ، ولا عن علم ، ولا عن عقل ، والحكم يرينا نماذج لتلك الأحكام السطحية لتكون مثلاً لخليفته فلا يقع في مثلها ، يقول عز من قائل : ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ [3] .

تساؤلات استغرابية بأسباب جهل الكاذبين الذين وصفوا الملائكة بالإناث ، وأن ٱلله يلد ، وقد اصطفىٰ البنات علىٰ البنين ، ولذلك يسود الآيات

(1) النساء 92 ، 93 .
(2) الطبري ، ج 3 ، ص 357 .
(3) الصافات ، 149 ـ 156 .

تعجب علىٰ هـٰؤلاء ، فهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ؛ لم يعلموه بخلق ٱلله علمه في قلوبهم . ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر (1) .

أما قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ (2) .

فلا شك : أن فيه من العبر التي يجب علىٰ الخليفة الاعتبار بها لتلافي إصدار الأحكام الفاسدة ، والمطلوب التمييز لكي لا يجعل المطيع لله من عبيده ، والعاصي له منهم في كرامته سواء . يقول جلَّ ثناؤه : لا تسوُّوا بينهما ؛ فإنهما لا يستويان عند ٱلله ، بل المطيع له الكرامة الدائمة ، والعاصي له الهوان الباقي (3) .

ويتعجب الحكم من حكمهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنه لا يصدر من عاقل إذ معنىٰ مالكم : أي شيء حصل لكم من خلل الفكر ، وفساد الرأي (4) ؟ !

وتتوالىٰ الآيات التي يعظنا الحكم سبحانه بها ، لتكون عبرة علىٰ مر السنين ، ومن خليفة إلىٰ آخر ، ومنها قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (5) .

---

(1) الزمخشري ، ج 5 ، ص 488 .
(2) القلم ، 34ـ39 .
(3) الطبري ، ج 23 ، ص 552 .
(4) الآلوسي ، ج 21 ، ص 186 .
(5) الأنعام ، 136 .

الحَكَمُ سبحانه رؤوف بالعباد يمهل عباده عسىٰ أن يعودوا عما اقترفوا من ذنوب ، فهو الرحيم وهو الحليم وهو الغفور ، لذلك فإن ٱلله يؤخر إنفاذ أحكامه بحق المذنبين من عباده رحمة منه بهم ، وإمهالهم لعلهم يستغفرون ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (1) .

ولـٰكن هـٰذا الترك والإمهال لم يكن مطلقاً لأنه سيصبح عند ذاك حاشاه سبحانه إهمالاً ، وهـٰذا خلاف الرحمة والرأفة والمغفرة ، بل اختار سبحانه أن ينبه عباده إلىٰ ظلمهم وذنوبهم قبل إنفاذ الحكم فيهم بعدة أمور يعلمها سبحانه ، ومنها ما نبهنا إليها في كتابه الحكيم كبعث الرسل بالكتب التي تبين للناس ما لهم وما عليهم ، يقول الحكم سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (2) .

وهـٰذه الكتب فيها آيات واضحة وتفصيلية ، تُمكّن الإنسان من إدراك المحظورات التي تجعله في موطن الخطر ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (3) ، وهـٰذا أمر كتبه الحكم علىٰ نفسه ؛ لكي لا يدَّعي البشر حجة مفادها عدم التبليغ ، يقول سبحانه : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (4) ، وعلىٰ الخليفة أن يُعلم الناس بوضوح حدود المعاملة بينهم بما يرضي ٱلله ، ويمهلهم لينفذوا أمره ثم بعد ذلك ينفِّذ الحكم كما علمه ٱلله .

ومن إشارات الحكم سبحانه إرسال الآيات ، ومنها أن يصاب الناس

---

(1) النحل ، 61 .
(2) الأنعام ، 51 .
(3) طه113 .
(4) النساء ، 165 .

بالبلاء تذكيراً لهم بذنوبهم ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (1) .

والبأساء : التعب المحاط بالقنوط مع فقدان مشبعات الحاجة . ولذا في البأساء القحط ، والجوع . والضراء : المرض ، ونقصان الأنفس والأموال ، لأجل أن يتذكروا مالك الملك ، فيدعوه ، ويستغفروا لذنوبهم ، ويتوبون إليه .

ويعم هٰذا البلاء ليشمل الناس في بواديهم ، وفي حواضرهم تنبيهاً من ٱلله سبحانه لهم علىٰ إصرارهم علىٰ الذنوب ، كما فعل سبحانه مع آل فرعون تعليماً لمن بعدهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (2) .

وقال ابن عباس ـ رضي ٱلله عنه ـ : أما السنون ؛ فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم . وأمّا نقص الثمرات ؛ فكان في أمصارهم . والحكمة في ذلك لأن الناس في حال الشدّة أضرع خدوداً ، وألين أعطافاً ، وأرق أفئدة (3) .

هٰذا كله من رحمة ٱلله بعباده ، فهو اللطيف الخبير بأحوالهم ، فإذا أصر العبد علىٰ ذنبه أنزل ٱلله عليه عذاباً أقل وطأةً من عذاب الآخرة لعله يتنبه ويعود إلىٰ الصراط المستقيم ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (4) .

فإذا بلغ الأمر مداه وانتهىٰ العبد إلىٰ ربه انفرد ولم يبق له قريب أو نصير أو شفيع كما ينص قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

---

(1) الأنعام 42 .
(2) الأعراف 130 .
(3) الزمخشري ، ج 2 ، ص 275 .
(4) السجدة 21 .

شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (1) ، يقول الطبري في تفسيره لهٰذه الآيـة : واضمحلـت الـرشـا ، والشفـاعـات ، وارتفـع بيـن القـوم التعـاون والتناصر ، وصار الحكم إلىٰ العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها (2) .

فلا بد إذاً من جعل الشفاعات في الإحكام من المستقبحات عند الخليفة ، لأنها ستخل بميزان العدل عنده ، فتخفف علىٰ المذنب ، وتزيد في ظلم المظلوم الذي ينتظر من الخليفة أن ينتصر له إلا أن الشفاعة حرمته من ذلك .

ومن الأمور التي يجب علىٰ الخليفة التنبه إليها الحزم في إنفاذ الأحكام التي أصدرها ، وعدم تأجيل أيٍّ منها ، وهٰذه صفة الحكم سبحانه نعقلها من قوله : ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3) . بطبيعة الحال الحكم المطلق بيده الأمر (أي أمر) ولذا فهو يحكم كما يشاء فيما يشاء متىٰ شاء ، وحكمه أمر نافد بقوله للشيء كن فيكون ، فسبحانه لا إلٰه إلا هو الملك المتعال العادل في ملكه !

وحَكَمَ الشيء ، وأَحْكَمَهُ كلاهما منعه من الفساد . قال الأزهري وروينا عن إبراهيم النخعي : أنه قال حَكِّم اليَتيم كما تُحكِّمُ ولدك أي : امنعه من الفساد ، وأصلحه كما تصلح ولدك ، وكما تمنعه من الفساد (4) .

ارتبط منع الفساد من قبل الحكم سبحانه بخلق الإنسان ، حيث كان من أول الموضوعات التي أثيرت في الحوار بين رب العزة وبين ملائكته ، وهٰذا

---

(1) البقرة 48 .
(2) الطبري ، ج 1 ، ص 35 .
(3) البقرة 117 .
(4) اللسان ، ج 12 ، ص 140 .

يدفعنا للتساؤل : لماذا ذكرت الملائكة في أول ما ذكرت الفساد مع تأخيرٍ لسفك الدماء ؟ لابد : أن العليم سبحانه وضع في ملكوته للمفسدين عذاباً شديداً أذهل الملائكة بشدته الأمر الذي جعلها تسأل ربها عن ذلك ؛ يقول المولىٰ سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

إنَّ الملائكة إذ قال لها ربها : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لم تُضف الإفساد وسفك الدماء في جَوابها ربَّها إلىٰ خليفته في أرضه ، بل قالت : « أتجعل فيها من يُفسد فيها » ؟ وغير مُنْكَر أن يكون ربُّها أعلمها : أنه يكون لخليفتِه ذلك ذرّيةٌ يكون منهم الإفساد ، وسفك الدماء ، فقالت : يا ربنا « أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء » (2) .

وتسأل الملائكة ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً .

قال ابن جرير : فكان تأويل الآية خليفة مني ، يخلفني في الحكم بين خلقي ، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة ٱلله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه ، والخليفة الفعلية من قولك : خلف فلان فلاناً في هـٰذا الأمر : إذا قام مقامه فيه بعده (3) ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (4) .

(1) البقرة ، 30.
(2) الطبري ، ج 1 ، ص 453.
(3) ابن كثير ، ج 1 ، ص 218.
(4) يونس ، 14.

والفساد ضد الصلاح ، كما أنه مرحلة تلي الطغيان ، أي : إذا طغىٰ الإنسان تحول إلىٰ الفساد كما تشير الآية الكريمة : ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [1] .

وقد منع الحكم سبحانه الفساد بعديد الآيات وبأكثر من أسلوب تنبيهاً منه وتحذيراً ، ووعيداً لعباده ، ومنها :

1 ـ أشار سبحانه إلىٰ كرهه عز وجل للفساد ، فقال : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [2] .

2 ـ التذكير بما أحل ٱلله من الطيبات في الدنيا بمقابل التذكير بكراهيته سبحانه للفساد : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [3] .

3 ـ التحذير من الفساد الخفي ، وهو أن يبدو الإنسان مصلحاً بقوله ، وأما فعله فهو المنبئ بفساده ، يقول سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [4] ، فعلىٰ الخليفة أن يتقصىٰ عن أفعال الناس عموماً ومَنْ حوله خصوصاً ؛ ليتبين له المفسد منهم من المصلح ، فيقرب المصلحين ، ويبعد ، ويعاقب المفسدين .

4 ـ الوعيد بالعذاب للمفسدين ، يقول الحكم سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(1) الفجر ، 11 ، 12 .
(2) المائدة ، 64 .
(3) القصص ، 77 .
(4) البقرة ، 204 ـ 205 .

وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ (1) .

5 ـ مكافأة منع الفساد ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2) . أما الأسلوب الآخر الذي اختاره الحكم سبحانه ليكون لنا عبرة تدفع بنا إلىٰ منع الفساد ؛ فهو بالإصلاح والدعوة إليه وحثنا عليه وترغيبنا فيه ، فقد ربط ٱلله سبحانه بين الإصلاح والرزق الحسن المبارك فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (3) .
كما بشَّر الحكم سبحانه المصلحين بالأمن في الدنيا ، فلا بأساء ، ولا ضراء ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (4) .

والذي يعين الخليفة علىٰ منع الفساد هو إيمانه بقضية الإصلاح مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (5) وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (6) وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (7) .

إن كل صلاح نقدره بالعقل بالنسبة إلىٰ شخص عارضه صلاح فوق ذلك أو

(1) النحل ، 77.
(2) القصص ، 83.
(3) هود ، 88.
(4) هود ، 117.
(5) النساء ، 128 .
(6) المائدة ، 39 .
(7) الأنعام ، 48 .

فساد مثل ذلك بالنسبة إلىٰ شخص آخر فلئن كان الصلاح يقتضي وجوده بالنسبة إلىٰ ذلك الشخص ؛ فالفساد يقتضي عدمه بالنسبة إلىٰ شخص آخر ، فالسمُّ في أصحاب السموم صلاح ، وفي غيرهم من الحيوانات فساد ، فلو كان الصلاح اقتضىٰ وجوده ؛ فالفساد اقتضىٰ عدمه .

إن أفعال ٱلله تعالىٰ اشتملت علىٰ الخير ، وتوجهت إلىٰ الإصلاح وأنه لم يخلق الخلق لأجل الإفساد ، ولذا فالصلح خير ، ولأنه خير خلق الإنسان لفعله ، ولأنه كذلك جعل ٱلله الإنسان خليفة ليصلح ما استطاع ولا يفسد فيها ويسفك الدماء بغير حق .

ولأنه الحَكَمُ فهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها ، ينظمها ويسويها ويهدي إليها ويحفظها لأجل الخير ويهلكها إن أريد بها شراً . فقد أعطىٰ كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطىٰ العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه . والحق : أن ٱلله تعالىٰ راعىٰ الحكمة فيما خلق ، وأمر تفضلاً ورحمة لا وجوباً ، وهـٰذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة ، فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته [1] ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [2] .

وما من معتبر إلا ويقف مذهولاً أمام خَلق الإنسان ، لاسيما في ملازمة الشكل الخارجي لإرادة الفعل الداخلي ، فلولا هـٰذه اليد بأصابعها الخمسة لما كانت الأرض علىٰ ما هي عليه الآن من عمارة وحضارة ، ولولا العقل

(1) الآلوسي ، 12 ، 170 .
(2) السجدة ، 7 .

المتضمن في أحسن تقويم لما تحركت اليد للبناء والعمار ، يقول الخالق تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (1) .

والله عز وجل أحكم الخلق بأن خلق كل شيء في هـٰذه الدنيا وأتقن خلقه ، فهو سبحانه يعرف كل ما يتعلق بهـٰذا الخلق من إنسان إلىٰ حيوان ونبات وأكوان ومجرات وغير ذلك ، فهو الحكم سبحانه يقول عن خلقه وعلمه بهم : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

وآيات إتقان الحكم سبحانه لا تحصىٰ ولا تعد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (3) ، سبحان الحكم القدير خلق ، وأتقن ، فلو تنبه ذو اللب إلىٰ دقة حركة الكواكب ، وما يقابلها من دقة في الزمن الذي يسير الحياة علىٰ الأرض ؛ لكفاه أن يؤمن بالله الخلاق العليم .

إنه الحكم الذي يعلم مالا نعلم سبحانه جل جلاله ، فهو يهدي من يشاء

---

(1) المؤمنون12 ، 14 ،

(2) الأنعام ، 101 .

(3) يس 33 ، 40 .

ويضل من يشاء ويشفي من يشاء ويجبر من يشاء وقد اصطفىٰ من شاء كيف شاء ، وقد أنزل الكتاب والحكمة ، وقد أحيا وأمات ، ويبشر المؤمنين أن لهم جنات قال تعالىٰ : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1) .

ومن آيات إتقان الحكم سبحانه قوله : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (2) .

أي : أفلا ينظرون إلىٰ الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلق أكثر الأنواع .

وحَكَمَ الشيء : هيمن عليه ، وأحاط به ، وتحكَّم في أمره ، والله سبحانه هو المحيط بملكه ، وبخلقه ، وبكل شيء ، ومهما حاول البشر بما يجتهدون فيه من العلم الوصول إلىٰ حقيقة الأشياء والىٰ المعرفة التامة بها ؛ فإنهم سيبقون عالمين بها وجاهلين بتمام وكمال عللها ، وأسبابها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ

---

(1) البقرة ، 25ـ29 .

(2) الغاشية17 ،

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [2] . وعليه فإن علم ٱلله الكامل محجوب عن البشر ، فهم في دائرة النسبية لم يؤتوا منه إلا قليلا ، ولذا فالحكم هو المحيط بعلمه ، ولا يحاط بأيِّ علم قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] .

فعلم ٱلله خاص بجلاله ، وحتىٰ من اختصهم ٱلله بعلم يفوق علم البشر العاديين لم يحيطوا بعلم ٱلله ، وإنما وهبهم من علم الكتاب ، يقول سبحانه : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [4] .

والإحاطة هي الإلمام الكامل وإدراك الشيء بكماله ظاهراً وباطناً [5] ، والحكم سبحانه محيط بأفعال البشر وبأخلاقهم وبمكنوناتهم ، يقول

(1) البقرة ، 120 ، 121 .

(2) الإسراء ، 85_87 .

(3) البقرة ، 255 .

(4) النمل 40 .

(5) التعريفات 1 ، 2 .

سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (1) .

والحكم سبحانه أحاط بخلقه بما يفوق قدرتهم علىٰ المنع ، فهو محيط بهم بعلمه ، يقول سبحانه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ (2) .

وإحاطة الحكم سبحانه كلية من حيث النوع ومن حيث العدد ، فهو سبحانه حكم محيط بالأشياء إحاطة تامة ، عارف بكل دواخلها وخوارجها ، يقول سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ (3) .

أي : عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن من خلق وظواهرهم ، ويجازي كل أحد علىٰ فعله بحسب ما يليق به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فإن قيل قوله : ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ يقتضي أن تكون علومه متناهية ، قلنا : قوله : ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ يقتضي أن يكون علمه محيطاً بكل شيء من الأشياء فهـٰذا يقتضي كون كل واحد منها متناهياً بالنسبة له جل جلاله وغير متناهي بالنسبة لنا نحن المستخلفين في الأرض ، وذلك لأن خلق ٱلله تعالىٰ لا نعلم منه إلا القيل ولهـٰذا لن نحيط بعلمه وهو علىٰ كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

وهو محيط بكل الأشياء فلا يخفىٰ عليه أيٌّ منها ، يقول سبحانه من حكم

(1) ق 16 .
(2) الإسراء 60 .
(3) فصلت 53 - 54 .

محيط : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (1) .

وإحاطة الحكم سبحانه بخلقه مستمرة دائمة ، لا موقوتة ولا موقوفة ، وسورة البروج توضح ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ (2) .

ومما يدل علىٰ الاستمرارية استخدام الفعل المضارع (تكذيب) دلالة علىٰ استمرار الكافر بالإنكار لدعوة الحق ، مما يستدعي دوام الإحاطة منه سبحانه بكل هـٰؤلاء فهو الدائم سبحانه ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم ﴾ تعني من أمامهم ، ومن خلفهم ، فهي لا تقتصر علىٰ الخلف فقط . مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (3) و(محيط) بهم بالقدرة والقوة المطلقة ، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس ٱلله بعدم فوت المحاط المحيط إذا سدَّ عليه مسلكه بحيث لا يجد هرباً ، أو إفلاتاً منه . وفي التأويلات : النجمة محيط ، والمحيط لا يفوته المحاط ، ولا يفوت المحيط شيءٌ لإحاطة ٱلله سبحانه عند العارفين بالكافرين من الموجودات كلها عبارة عن تجليه بصور الموجودات ، فهو سبحانه بأحدية جميع أسمائه سارٍ في الموجودات كلِّها ذاتاً ، وحياةً ، علماً ، وقدرةً إلىٰ غير ذلك من الصفات والمراد بإحاطته تعالىٰ هـٰذا السريان ، ولا يعزب عنه ذرة في السموات والأرض . وقالوا هـٰذه الإحاطة ليس كإحاطة الظرف بالمظروف ولا كإحاطة الكل بأجزائه ولا كإحاطة الكليِّ بجزيئاته ، بل كإحاطة الملزوم بلازمه ، فإن التعينات اللاحقة لذاته المطلقة إنما هي لوازم له

(1) الطلاق 12 .
(2) البروج 19 ـ 20 .
(3) الكهف 79 .

بواسطة ، أو بغير واسطة ، وبشرط ، أو بغير شرط ، ولا تقدح كثرة اللوازم في وحدة الملزوم ، ولا تنافيها [1] .

وحَكَمْتُ السَّفِيه ، وأَحْكَمْتُه : إذا أَخذت علىٰ يده [2] ، أي منعته من الإضرار بالناس سفهاً ، وفي هـٰذا الكون من السفهاء ما لو تُرك علىٰ هواه ؛ لظهر الفساد في البر والبحر ، فلابدَّ من حَكَمٍ يأخذ علىٰ يد هـٰؤلاء السُّفهاء ، ومَنْ غير ٱلله سبحانه قادر علىٰ ذلك ؟ !

والسَّفَهُ ، والسَّفاهُ ، والسَّفاهةُ : نقيضُ الحِلْم ، وسَفِهَتْ أحلامُهم . وسَفُهَ الرَّجلُ : صار سفيهاً . وسَفِهَ حِلْمَهُ ، ورأيَهُ ، ونفْسَه : إذا حملها علىٰ أمرٍ خطأ [3] ، وقولُ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [4] . يشير القرآن الكريم إلىٰ أنواعٍ من السفه أخذ عليهما الحكم سبحانه ، الأول سفهٌ لا إرادي وهو ما لم يكن فيه القصد والإصرار غاية ، وإنما ظهر لدون ذلك ، ومثاله سفه الطفولة ، أو الشيخوخة ، وربما يكون لعلة عضوية كنقص العقل ، أو الجنون أحياناً ، أو بأسباب مرضية .

وقد أخذ الحكم تعالىٰ علىٰ هـٰذا السفه أخذ الحكيم العادل فوضع قيوداً منظمة لتصرف هـٰؤلاء تناسب ما هم فيه ، فقال : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [5] .

ينهىٰ الحكم تعالىٰ عن تَمْكين السفهاء من التصرّف في الأموال التي جعلها ٱلله للناس قياماً ؛ أي : تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها . ومن

---

(1) تفسير حقي ، ج 17 ص 161 .
(2) اللسان ، ج 12 ، ص 140 .
(3) معجم العين ، ج 1 ، ص 260 .
(4) البقرة 130 .
(5) النساء 5 .

هاهنا يُؤْخَذُ الحَجْرُ علىٰ السفهاء ، وهم أقسام : فتارة يكون الحَجْرُ للصغر ؛ فإن الصغير مسلوب العبارة . وتارة يكون الحجرُ للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة يكون الحجر للفَلَس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل ، وضاقَ ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغُرَماءُ الحاكمَ الحَجْرَ عليه ؛ حَجَرَ عليه .

وقد يكون أخذ الحكم علىٰ يد السفيه رحمة به ، ولحماية حقه ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [1] .

سَفِيهًا : أي عاجزاً أحمق . قاله ابن زيد ، أو جاهلاً بالإملال . قاله مجاهد ، أو مبذراً لماله ومفسداً لدينه . قاله الشافعي . أَوْ ضَعِيفًا : أي : صبياً ، أو شيخاً خرفاً [2] . أما نحن فنؤكد علىٰ الضعف الذي تتعدد أسبابه ، من طمع ، وخيانة ، أو نفاق ، أو ضلال ، وسوء نية ، أو غير مدرك ، أو غير قادر ، أو كان سفيهاً لا يقدِّر الأمر ، والظرف ، والزمان ، والمكان .

وهنا يأتي تدخل الحكم سبحانه لحفظ الحقوق لاسيما تلك التي يسهل علىٰ بعض البشر التطاول عليها ، فأخذه هنا رقابةً فهو الرقيب ، ورحمةً فهو الرحيم ، وحفظاً فهو الحافظ ، ومهيمناً فهو العزيز الودود الملك القدوس جل جلاله !

ومن رحمة الحكم سبحانه بعباده تصنيفه لبعض ذنوبهم علىٰ أنها سفهٌ ، وأخذه عليهم في هـٰذه الحالة جاء بصيغة الترغيب والترهيب ؛ إذ قدم الرحمـٰن الرحيم قبوله للتوبة ممن أذنب ، وأخّر سبحانه منع القبول رحمة بعباده ؛

(1) البقرة 282 .
(2) الآلوسي ، ج 2 ، ص 386 .

ليوقنوا : أن ربهم غفور رحيم ، فيعودوا إليه تائبين مستغفرين ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (1) .

التوبة مِنْ : تاب ٱلله عليه : إذا قبل توبته ، وغفر له . يعني : إنما القبول والغفران واجب علىٰ ٱلله تعالىٰ لهٰؤلاء ، و(بِجَهَالَةٍ) في موضع الحال أي : يعملون السوء جاهلين سفهاء ؛ لأنَّ ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه ، والشهوة ، لا مما تدعو إليه الحكمة ، والعقل (2) .

أما النوع الثاني من السفه فهو قلة المعرفة بوضع الأمور مواضعها ، وهو ضعف الرأي ، وقد يكون سفه غير متعدٍّ ، وإنما ينصبُّ رأيه علىٰ التفسير (3) ، وإلىٰ هٰذا النوع أشار الحكم سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴾ (4) .

السَّفَه : خفة العقل ، والشَّطط : مجاوزة الحد في الظلم ، وغيره : إذا أبعد فيه ؛ أي : يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه .

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد ، وليس في اللفظ ما يدل علىٰ أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات ، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم ، فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلىٰ التعطيل ، ومجاوزة

---

(1) النساء 17ـ18 .
(2) الكشاف ، ج 1 ، ص 391 .
(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 193 .
(4) الجن 4 .

الحد في الإثبات تفضي إلىٰ التشبيه ، وإثبات الشريك ، والصاحبة ، والولد ، كلا الأمرين شطط ، ومذموم [1] .

وأخذ الحكم سبحانه علىٰ هـٰذا النوع من السفه جاء بطريقة التعريض للمنع ، فليس للإنسان الخوض بما لا يعلم ، فكيف إذا تطاول في القول بما لا يعلم ؟ !

أما النوع الثالث من السفه ؛ فهو سفه الكفار والمعاندين ، وأخذ الحكم عليه شديد ؛ لأنه نابع من إصرار الكافر المعاند علىٰ الرفض لكل أشكال الإيمان جهلاً منهم بالخالق ، وعدواناً علىٰ عباده المؤمنين ، يقول عنهم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

الضعفاء في اعتقاداتهم ، واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم من الشكّ الذي لا يؤدي إلىٰ يقين ، والظنّ الذي ليس فيه حسن نية ، والريْب في أمر ٱلله ، وأمر رسوله ، وأمر نبوته ، وفيما جاء به من عند ٱلله ، وأمر البعث ، لإساءَتهم إلىٰ أنفسهم بما أتَوْا من ذلك ؛ وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون . وذلك هو عَيْنُ السَّفه ، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرىٰ : أنه يُصلحُ ، ويُضيِّع من حيث يَرىٰ أنه يحفظ ، فكذلك المنافق : يَعصي رَبَّه من حيث يرىٰ أنه يطيعُه ، ويكفرُ به من حيث يرىٰ أنه يُؤمن به ، ويسيء إلىٰ نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها ، كما وصفهم به ربنا جلَّ ذكره ، فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ـ دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه ، وبرسوله وثوابه وعقابه ـ ﴿ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 16 ، ص 76 .
(2) البقرة 13 .
(3) تفسير الطبري ، ج 1 ، ص 295 .

والتكبر علىٰ آيات ٱلله ، وتكذيب رسله من علامات السفه التي توعد الحكم سبحانه من يسلك سبلها وعداً مهلكاً يضيِّع فيه المرء آخرته ، وذلك بصرف ٱلله لهم عن فهم وإدراك الكتب السماوية مما يعني البقاء علىٰ الضلالة ، يقول سبحانه : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (1) . الآيات المعجزات العظام التي بين أيدي الناس والتي في الآفاق والتي في أنفسهم والتي في السمٰوات والأرض والنجوم والكواكب والتي في الحركة والسكون والتي في السمع والبصر والتي في النبات والبحار والمحيطات والحيوانات ، كلها تُرىٰ ويحسُّ بها ومع ذلك هم عنها غافلون .

ومن آيات أخذ الحكم سبحانه إقرار القصاص ، ولولا هٰذا الأخذ علىٰ يد السفهاء ؛ لكانت الأرض غابةً يأكل فيها القوي الضعيف ، يقول الحكم تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (2) ، جعل ٱلله هٰذا القصاص حياة ، ونكالاً وعظةً لأهل السفه والجهل من الناس . وكم من رجل قد هَمَّ بداهية ، ولولا مخافة القصاص لوقع بها ، ولٰكن ٱلله حَجز بالقصاص بعضهم عن بعض ؛ وما أمر ٱلله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة ، ولا نهي ٱلله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا ، والدين (3) .

وعلىٰ الخليفة إدراك ما لإقامة القصاص علىٰ المذنبين من أهمية ، فهي طاعة لله ، وتنظيم للحياة ، وذلك بمنع السفهاء من العبث بأرواح الناس ، أو بأموالهم ، وأوطانهم .

---

(1) الأعراف 146 .

(2) البقرة 179 .

(3) تفسير الطبري ، ج 3 ، ص 382 .

وحَكَمَ الرجلُ ، يَحْكُمُ حُكْماً : إذا بلغ النهاية في معناه مدحاً لازماً [1] ، وما من مؤمن إلا يعلم : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ تنتهي عنده المعارف بالأشياء فلا يبلغ مداها أحد سواه ، فهو العليم : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] .

وتتهاوىٰ أمام قدرته كل القوىٰ والخوارق فهو القوي : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [3] .

وتعجز عن الوصول إلىٰ رحمته ومغفرته وفضله قدرة ، فهو المنان الرحيم : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [4] .

فمن ذا يبلغ مداه سبحانه وتعالىٰ الحيُّ القيوم الآخرُ ؛ الذي ينادي ؟ وما من مجيب سواه لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار .

والحكم العدل جل جلاله حدَّ الحدود ، وشرَّع الشرائع لخلقه رحمة بهم وخوفاً عليهم ، وحفظاً لهم ، وصوناً لمصالحهم في الدنيا والآخرة ، ذلك أن الحدود في الأصل هي الفواصل بين الأشياء حتىٰ يتبين بعضها من البعض الآخر ، فكان الحكم العدل جلت حكمته أن شرَّع هـٰذه الشرائع وحدَّ هـٰذه الحدود ليبين للناس الحلال من الحرام ، وكذلك الإباحة ، والمنع ، والواجب ، والمستحب ، والمندوب ، والمكروه ، مما يراعي أحوال العباد ومصالحهم بحيث يعرف كل ذي حقٍ حقه ، وبذلك تفض المنازعات والخصومات بما أوضحه الحكم جل جلاله في حقوقه علىٰ خلقه ، وفي حقوق

---

(1) لسان العرب ، ج 12 ، ص 140 .
(2) البقرة 32.
(3) هود 66.
(4) الحجر 49 .

الخلق فيما بينهم ، وقد فصل ٱلله القول الحق بقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (1) فالله أعدل الحاكمين ؛ لأنه أعلمهم بما كان وما سيكون ، وهو أحكم الحاكمين سبحانه ، لا إلـه إلا هو جل جلاله !

لقد كان من عدالة الحكم العدل ، وعلمه تعالىٰ : أنه أول ما أوحىٰ إلىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام ، قوله تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (2) فالقراءة أول العلم والمعرفة ، وهي التي تؤدي إلىٰ الناس علم دينهم ، ودنياهم ، وهي مكتفية بنفسها ، لا تحتاج إلىٰ غيرها ، وهي الجليس الذي لا يمل ، والصديق الذي لا يكذب ، والرفيق والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا تعاملك بالمكر ، ولا تخدعك بالنفاق ، ولا تحتال لك بالكذب ، فتشحذ الطباع ، وتبسط اللسان ، وتنير العقل ، وتبلغ بها الحاجة لما تمكنك من معرفة كل ما أمر به ٱلله تعالىٰ من واجبات ، وما نهىٰ عنه من مناهٍ ، وبذلك تتبين الفصل بين ما تحب وترضىٰ ، وبين ما تأنف وتأبىٰ فيما يرضىٰ الحكم بما حكم ، والحكم علىٰ صراط مستقيم ، صراط ٱلله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . والعدل : هو الميل ، والميل عين الاستقامة ، حيث لا تكون استقامة إلا عن الميل فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين ، فلا بدّ أن يميل بالحكم مع صاحب الحق ، وإذا مال إلىٰ واحد مال عن الآخر ضرورة ، وهنا نقول : ليست الاستقامة ما يتوهمه البعض ؛ إذ إن الاستقامة من الحكم هي الانحياز والميل إلىٰ صاحب الحق ، لذلك فالحكم العدل ، عدل عن الباطل وابتعد عنه ، ومال إلىٰ الحق وانحاز إليه ، ولذلك فالخليفة

---

(1) هود 45 .

(2) العلق 1 - 5 .

الذي أراده ٱلله تعالىٰ أن يستخلفه في الأرض حكماً ، هو بالضرورة يتصف بصفات من استخلفه نسبياً ؛ إذ أن مكارم الأخلاق التي أمر بها الحكم المطلق في وجوبها فرضاً علىٰ خليفته أوجبت عليه الانحياز إلىٰ الحق والعدول عن الباطل حتىٰ يستقيم الميزان .

ومن أجل استقامة الميزان فقد استخلف الحكم عز وجل خليفة في الأرض ، يفصل بحكمه بين الخلق بالحق والعدل ، فمن القضاة نجد مثلا من لا نستطيع أن نسميه حكما لعدم اتصافه بما ذكرنا من صفات الحكم العدل نسبياً ، فنجد بعض هـٰؤلاء القضاة يعكسون المعنىٰ ، ويغيرون المفاهيم بالانحياز والعدول ، وعندما يصبح الأمر كذلك فيكون هـٰذا التصرف هو ظلمٌ ، وجورٌ في حق إنسان ، لباطل إنسان آخر كان له تأثير علىٰ القاضي ، ولا نقول علىٰ الحكم ؛ لأن هـٰذا القاضي عدل إلىٰ باطل صديقه علىٰ حساب حق خصمه ، فنصره عليه ، وسواء نصره ، أو خذله ، أو اعتنىٰ به ، أو أهمله فمردُّ ذلك إلىٰ الحكم العدل يوم القيامة ، فالحكم يفصل بالحكم يوم القيامة بين عباده بما أعلمهم ، وأنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة والنواميس الوضعية الحكمية كلُّ ذلك من الاسم الحكم العدل بحكمه بالحق وإقامة الملة الحنيفية ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [1] . فهـٰذه دعوة من النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : يا رب احكم بيني وبين مَنْ بلَّغتُهم الوحي بالعدل حتىٰ لا يستوي المؤمنون والكافرون . أي : اقض بيننا وبين من كفر بالعدل المظهر للحقوق التي جرىٰ حكم ٱلله فيها في الأزل ، وإن أخر العذاب رحمة منه ليتوب من يتوب ، فيتوب ٱلله عليه ؛ لأن رحمته غير متناهية وإن كانت أنواعها مئة كما قال رسول الله ﷺ : « إن لله مئة رحمة ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن ، والإنس ، والبهائم ،

(1) الأنبياء 112 .

والهوام ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش علىٰ ولدها ، وأخَّر ٱلله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » [1] .

إن حكمة الحكم وعدله وإنصافه جعلت الحدود بين الناس قائمةً ، وهـٰذه الحدود التي شرَّعها الشارع عز وجل ، إنما هي من إنصاف الحكم لخلقه ؛ إذ لو تُرك الحبل علىٰ الغارب ؛ لتعطلت المصلحة العامة ؛ التي نصبت من أجلها إقامة الحدود التي لا يمكن الشفاعة فيها كحدِّ السارق ، والزاني ، وحقوق ٱلله علىٰ الإطلاق ، ولكل من هـٰذه الحدود لها منافعها ، وفوائدها ؛ لما تؤدي من إقامة العدل من الحكم علىٰ الجانح ، وكذلك الردع والزجر للآخرين ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] فالذي يسرق ، والتي تسرق ، الحكم فيهما أن تقطع أيديهما جزاءً بما ارتكبا ، وهـٰذا القطع هو عقوبة لهما ، وزجراً وردعاً لغيرهما . وذلك الحكم لهما من ٱلله ، والله غالب علىٰ أمره ، حكيم فىٰ تشريعه ، يضع لكل جريمة ما تستحق من عقاب رادع مانع من شيوعها ، فالقطع هو جزاءٌ لهما علىٰ ما فعلا من فعل السرقة ، وعقوبة رادعة لهما من العود مرة ثانية إلىٰ هـٰذا الفعل الشنيع ، وهو ردع لغيرهما ؛ لكي لا يقتدي أحد بهما ، وهنا نحب أن ننوه علىٰ أن الذين يطعنون في حكم الحكم العدل مما شرعه في قطع السارق ، بأنهم يقولون هـٰذه جريمة ، حيث يقولون كيف يقطع هـٰؤلاء المسلمون يد من يسرق ؟ ! وللرد علىٰ هـٰؤلاء من ثلاثة جوانب :

أولاً : إن قولهم هـٰذا فيه تعدٍ علىٰ الحكم العدل جل جلاله ، واتهام بالظلم من طرف خفي في مهاجمة الإسلام ودين الحق الذي ارتضاه ٱلله تعالىٰ

---

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص 311 .
(2) المائدة 38 ، 39 .

لخلقه ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (1) فالحكم الذي ارتضىٰ هٰذا الدين لخلقه ، وأمر خليفته باتباعه وتطبيق شرائعه لعلمه تعالىٰ : أن هٰذا الحُكم من الحَكم العدل المقسط الذي ما كان ظلاماً للعبيد ، وإنما هو رحمةٌ بهم ، وحفظٌ لحقوقهم .

ثانياً : إن هٰؤلاء يرجمون بالغيب بغير علم ؛ لأنهم جهلوا شروط تطبيق هٰذا الحد من الحدود التي أمر بها الحَكَمُ ، أو أنهم يعرفونها ، ويحرفونها ؛ إذ إنه لا يقطع السارق إلا إذا توفرت شروط القطع المجمع عليها من علماء المسلمين ؛ التي فصلها رسول ٱلله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي : أن يكون السارق بالغاً عاقلاً راشداً غير مجنون ، ولا معتوه ، وأن تبلغ السرقة حدَّ النصاب المقدَّر وفقا لمعطيات الشريعة ، وأن يكون المال في حرزٍ حصين ، ليس علىٰ قارعة الطريق ، وليس مالاً سائباً ، وأن لا تكون في هٰذا المال شبهة ، أي إن كان السارق شريك في المال في تجارة ، أو أنه أحد ورثة هٰذا المال ، وغير ذلك من الشبهات فلا يقام عليه الحد كما يظن البعض ظناً في غير مكانه ، لذلك فالحَكَمُ بالإضافة المكلف بإقامة الحدود ، يعلم من الحَكَمِ المطلق بما علمه من شرائعه حدود الإنصاف في إقامة حدود الحَكَمِ المطلق من أجل إعمار الأرض ، وإصلاح أحوال الناس .

ثالثاً : إن النتائج المترتبة علىٰ إقامة هٰذا الحد أعظم من أن تعد وتحصىٰ ؛ لما تؤدي من انتشار الأمن الذي يؤدي إلىٰ الرخاء ، فعندما يكون المجتمع آمناً مطمئناً تزدهر الحياة ، وترتقي بالمجتمع لما يكون من الخدمات العامة من التعليم والصحة ، وما يعود عليه من نفع في البيع والشراء والتجارة ، فيعرف بذلك كل ذي حق حقه ، ويقف عند حدّه ، فالحَكَمُ بالإضافة ، الذي يقيم هٰذه الحدود ، ويعرف الناس بها ، استحق أن يكون خليفة ٱلله في

(1) المائدة 3 .

الأرض ؛ لأنه وقف عند حدود ٱلله تعالىٰ الذي أمر بعدم الاقتراب منها ، أو التجاوز عليها ، حيث أكد الحكم عز وجل علىٰ ذلك في مواضع كثيرة مثل قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) فهٰذه الحدود وضعها ٱلله للناس وأمرهم بالمحافظة عليها . ولا تقربوها لتتجاوزوا أوامرها ، وقد أوسع ٱلله فىٰ بيانها للناس علىٰ هٰذا النحو ؛ ليتقوها ، ويتجنبوا تبعاتها ، وقرن الالتزام بها بالتقوىٰ التي هي صفة خليفة ٱلله في أرضه ، فحُكم الحَكَمِ أوجب حقوقاً للناس علىٰ بعضهم البعض ، وأوجب حقوقاً له عز وجل ، فحقوق الحكم العدل منهيٌّ عن الاقتراب منها ، أو الاعتداء عليها كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (2) فأحكام ٱلله المقررة ، منع الحكم العدل من أن تخالفوها ، أو تتجاوزوها ؛ لأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه وظالم للمجتمع الذي يعيش فيه .

وأما ما هو حقٌّ للعبد فإن ٱلله قد ندب فيه إلىٰ العفو ، والتجاوز في أمور أحكم تشريعها رحمة بالعباد كدية القتيل ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (3) فالخطاب هنا من الحكم العدل بما أوجب ٱلله تعالىٰ علىٰ الخليفة ، وعلىٰ من يجري مجراه ، ويقوم مقامه من إقامة القصاص في فرض استيفائه إذا أراد ولي الدم ذلك ، فالقاتل العمد عليه تسليم نفسه عند مطالبة ولي المقتول بالقصاص ، وذلك ؛ لأن القاتل ليس له أن يمتنع عن القصاص لكون ذلك حق من حقوق العباد علىٰ بعضهم ، وهو بخلاف الزاني ، وشارب

(1) البقرة 187 .

(2) البقرة 229 .

(3) البقرة 178 .

الخمر ، فإن لهما الهرب من الحدود ؛ لكون ما عليهما من الحق هو حق ٱلله تعالىٰ ، وهنا يتجلّىٰ أمر الحَكَمِ عز وجل بما شرع وأوصىٰ خليفته به ؛ إذ إنه « من الشرائع التي فرضها علىٰ المؤمنين أحكام القتل العمد ، فقد فرضنا عليكم القصاصَ بسبب القتل ، ولا تأخذوا بظلم أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد ،والذكر الذي لم يقتل بالأنثىٰ ، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه ، فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول ، وكذلك العبد بالعبد ، والأنثىٰ بالأنثىٰ ، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء فىٰ القتل بقتل القاتل للتشفي ، ومنع البغي ، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ، ودفعوا بالتي هي أحسن ، فآثروا العفو عن إخوانهم ؛ وجب لهم دية قتيلهم ، وعلىٰ أولياء الدم إتباع هـٰذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل ، أو تعنيف ، وعلىٰ القاتل أداء الدية دون مماطلة أو بخس ، وفىٰ حكم القتل الذي فرضناه علىٰ هـٰذا الوجه تخفيف علىٰ المؤمنين بالنسبة إلىٰ حكم التوراة الذي يوجب فىٰ القتل القصاص ليس إلاَّ كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلىٰ الذين يدعون إلىٰ العفو من غير تعرض للقاتل ، فمن جاوز هـٰذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم فىٰ الدنيا والآخرة »[1] .

والحَكَمُ لعدله جل جلاله ، شرع مع هـٰذه العقوبة ، الجنوح إلىٰ العفو ، فالعفو يكون من الولي ، وهنا يبرز دور الخليفة كونه حكماً بالإضافة ، فعندما يجنح الولي إلىٰ العفو يقوم الخليفة بإرضائه حقناً للدماء ، وعدم إظهار الضغينة والكراهية ، وأما الحكمة من الحكم في ذلك ، فإن المظلوم هو المقتول ؛ وقد مات ، والمطالب قد يتقدَّم بالشكوىٰ التي يمشي بها إلىٰ الخليفة الحَكَمِ بالإضافة رافعاً علىٰ من ظلمه تلك المظلمة ، فجعلت الدية كالإحسان لوليِّ الدم لعلَّ ذلك الشاكي إذا بلغه إحسانه لذوي رحمه يسكت عنه ، ولا يطالبه عند ٱلله الحكم العدل بشيءٍ من دمه يوم القيامة ؛ « لأن الحُكم العدل

(1) النخب ج 1 ، ص 43 .

يسكن الأصوات عن ٱلله عز وجل ، وإن الحُكم الجائر تكثر منه الشكاة إلىٰ ٱلله تعالىٰ »[1] . مع أن من وراء ذلك هو رفع الأحقاد ، ونشر الرحمة بين العباد بما شرع الحكم من أمور ، يحكم بها الخليفة ، لأجل تخفيف هول الموقف يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الحكم العدل : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ والخلافة هي النيابة عن الغير لأكثر من سبب ، فهي إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف ، فالأول ، والثاني يستحيلان علىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وأما الوجه الثالث فهو تشريف الإنسان من الخالق عز وجل في خلافته في أرضه ، وهـٰذا استخلاف علىٰ الملك في الأرض ، والحكم فيما بين أهلها ، فجعله أهلاً للتصرف النافذ الحكم في الأرض .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الحكم المطلق ، استخلف خليفته في الأرض ، فنهاه عن مناهٍ ، وأمره بأوامر ، فمن أطاعه فيما نهىٰ ، وأمر ؛ فهو الحكم بالإضافة ، حيث أمره ألا ينزل ما ولاه إياه من الأحكام في الدماء والفروج والأموال عن منزلته العظمىٰ من حقوق ٱلله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، وبيناته المبينة في آياته المحكمة ، وأن يجعل مخافة الحَكَمِ المطلق عز وجل ، وشرائعه التي شرّعها في الفصل بين العباد قبلة لوجهه ، وإليها يتوجه في الأمور كلها ، وعليها يكون قطب الرحىٰ فيما يرضىٰ الحكم بما حكم ، فيحكم بالحق ويقضي بالقسط ، ولا يحكِّم الهوىٰ علىٰ العقل ، ولا القسط علىٰ العدل ، إيثاراً لأمر ٱلله عز وجل ؛ حيث يقول : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[2] .

---

(1) حلية الأولياء ، ج 2 ، ص 171 .

(2) ص 26 .

فالحَكَمُ المطلق جعل الإنسان خليفةً عنه في أرضه ، وأمره بالحكم بين الناس بما شرع له ، فلا يسير في الحكم وراء الهوىٰ ، فيحيد بذلك عن سبيل ٱلله ، فالذين يحيدون عن سبيل ٱلله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عما أُمروا به في الدنيا ، فيجازيهم عليه في الآخرة . لذلك كان الحكم بالإضافة خليفةَ ٱلله في أرضه بين عباده باتباع ما وجب عليه ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) . وهـٰذه دعوة من أجل المحافظة التامة علىٰ أداء حقوق ٱلله ، وتأدية الشهادة بين الناس علىٰ وجهها الحق ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم علىٰ أن تجانبوا العدل معهم ، بل يجب أن تلتزموا العدل والحق ، فهو أقرب سبيل إلىٰ خشية ٱلله والبعد عن غضبه ، واخشوا ٱلله فىٰ كل أموركم ، فإنه عليم بكل ما تفعلون ، ومجازيكم عليه .

والخليفة قد يكلف من يجد عنده الأهلية في أن يكون حكماً ، فيوجهه ويأمره بإعزاز أمر ٱلله تعالىٰ والشدِّ علىٰ يد المخالفين في تنفيذ أحكامه وأقضيته ، والقصر من عنان كل متطاول علىٰ الحكم ، والقبض بالحق المفترض لله عز وجل ، وكذلك يأمره بترك المجاملة ، والمحاباة لذي رحم ، وقربىٰ ، فالحكم لله ، ولخليفته في أرضه ، والمستكين له لحكم ٱلله ، وحكم وليه يستكين للحق ، والعدل ، والحكم ، والمتطاول عليه ، والمباين عن الجماعة والمخالف لما هو عليه عامة الناس حقيق بالإذلال والرد إلىٰ الصراط المستقيم ، وكذلك يأمره بتقوىٰ ٱلله تعالىٰ ، وأن لا يستحي من الحق ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ ﴾ (2) فالخليفة حاكم ، والحاكم حَكَمٌ

(1) المائدة 8 .
(2) الأحزاب 53 .

بالإضافة ، فإذا جلس للحكم بين الناس ، يعلم : أن عليه أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية الواضحة للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه ، وأستاره ، ويفتح لهم أبواب مجلسه وأبواب قلبه ، ويحسن لهم انتصابه ، وهيأته ، ويقسم بينهم لحظه ، وطرفه ، ولفظه قسمةً لا يحابي فيها قوياً لقوته ، ولا يردي فيها ضعيفاً لضعفه ، بل يميل مع الحق ويجنح إلىٰ جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته ، ويَذْكُرُ بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه هو ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان ؛ الذي قال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [1] .

إن من أركان الحُكم العادل الذي فرضه الحكم العدل ، هو ركن الشهادة وتأديتها علىٰ وجهها ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [2] لذلك وجب علىٰ الخليفة وهو الحكم بالإضافة ، أن تتجلىٰ أمامه صفات الحكم المطلق عند الفصل بين الخصوم من استدعاء الشهود ، والإدلاء بما يعرفون ، وهو دون شك صاحب فراسة في الوقوف علىٰ الحق ، واليقين من سمات الوجوه ، فينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع ، وبهم يقطع في منافذ القضايا ، ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً ، ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً ، ويسأل عن مذاهبهم في الحياة ، وتقلبهم في سرهم وجهرهم ، والجلي والخفي من أمورهم ، فمن وجده منهم في العدالة ، والأمانة ، والنزاهة ، والصيانة ، وتحري الصدق ، والشهادة بالحق علىٰ الشيمة الحسنىٰ ، والطريقة المثلىٰ ؛ أبقاه . وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولىٰ ، وأن يطالع الخليفة بما يبدو له فيمن

---

(1) آل عمران 30 .

(2) البقرة 283 .

يُعَدِّله ، أو يرد شهادته ولا يقبله : ليكون في الأمرين من الرد والقبول على المحجّة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ، فيأمن في هٰذه السبيل كل خلل يداخله ؛ إذ إن الشهادة أساس الأحكام ، وإليها يرجع الحكام ، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالإحكام ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾ (1) إن العدل هو نظام الوجود الكوني ، وهو القانون الإلـٰهي الذي سنَّه الحَكَمُ المطلق من أجل خير الخلق ومصلحتهم بحيث لا يختلف عليه عاقلان ، فالذين يذعنون للحكم العدل ، ولدعوة خليفته ، يكونون مراقبين لأنفسهم فىٰ الإذعان للعدل ، ومراقبين للناس ، في إنصاف المظلوم ، ويكونون قائمين بالقسط لا لرغبة غني ، أو لعطف علىٰ فقير ؛ لأن ٱلله هو الذي جعل الغني غنياً ، والفقير فقيراً ، وهو أولىٰ بالنظر في حال الغني أو الفقير ، ولأن الهوىٰ هو الذي يميل بالنفس عن الحق ، فلا تتبعوه لتعدلوا ، وإن تتولوا إقامة العدل أو تعرضوا عن إقامته ؛ فإن ٱلله يعلم ما تعملون علماً دقيقاً ، ويجازيكم بعملكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ (2) فهٰذه صفات الحكم العدل يتصف بها الخليفة اتصافاً نسبياً ، ويعكسها أخلاقاً علىٰ الناس بحيث إنهم يتنزّهون عن شهادة الزور ، وأنهم إذا وجدوا من إنسان ما لا يُحمد من قول أو فعل لم يشتركوا فيه ، ويترفعوا بأنفسهم عن مثل هٰذه الأخلاق .

ومن عدل الحَكَمِ ورحمة منه بعباده : أنه قال : ﴿ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا

(1) النساء 135 .
(2) الفرقان 72 .

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) فهٰذه المحرمات التي بينها ٱلله تعالىٰ كونه حكماً مطلقاً ، فينبغي أن تهتموا بها وتبتعدوا عنها : لا تجعلوا لله شريكاً في ملكه وحكمه وإرادته ، بأي نوع كان من أنواع الشرك ، ولا تسيئوا إلىٰ الوالدين ، بل أحسنوا إليهما إحساناً بالغاً ، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقرٍ نزل بكم ، أو تخشون نزوله مستقبلاً ، لأنكم لستم أنتم الرازقين ، بل نحن الذين نرزقكم ، ونرزقهم ، ولا تقربوا الزنىٰ ، فهو من الأمور المتناهية في القبح ، سواء منها ما ظهر للناس حين إتْيانه ، وما لم يطلع عليه إلا ٱلله ، ولا تقتلوا النفس التي حرم ٱلله قتلها لعدم أمر موجب للقتل ، إلا إذا كان القتل بحقٍّ تنفيذاً لحكم القضاء . أمركم ٱلله أمراً مؤكداً باجتناب هٰذه المنهيّات التي تقضىٰ بديهة العقل بالبعد عنها ، فالله سبحانه وتعالىٰ لأنه حَكَمٌ قد حرم قتل قوم مشركين يكفرون بالله تعالىٰ ويجعلون له الصاحبة والولد من اليهود والنصارىٰ إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وأباح قتل مسلم فاضلٍ قد تاب وأصلح لزنىٰ سلف منه وهو محصن . والحَكَمُ جلَّ شأنه جعل هٰذه الأمة أمة وسطاً ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (2) لقد قضت مشيئة الحكم أن اختار أمة من خلقه وهداها إلىٰ الطريق الأقوام ، وجعلها أمة عدولاً خياراً بما وفقها إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكون مقررة الحق بالنسبة للشرائع السابقة ، إنها الأمة الوسط التي تشهد علىٰ الناس جميعاً ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، فتبدي فيهم رأيها ، فيكون هو الرأي المعتمد ، وتزن قيمهم وتصوراتهم وشعاراتهم ،

---

(1) الأنعام 151 .

(2) البقرة 143 .

فتفصل في أمرها ، فتقول : هٰذا حق منها ، وهٰذا باطل ، لا التي تتلقىٰ من الناس تصوراتها ، وقيمها ، وموازينها ، وهي شهيدة علىٰ الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم ، وبينما هي تشهد علىٰ الناس هٰكذا ، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كونه حكماً بالإضافة ، هو الذي يشهد عليها ، فيقرر لها موازينها وقيمها ، ويحكم علىٰ أعمالها وتقاليدها ، ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيها الكلمة الأخيرة . وبذلك تتحدَّد حقيقة هٰذه الأمة ووظيفتها لتعرفها ، ولتشعر بضخامتها ، ولتقدر دورها حق قدرها ، وتستعد له استعداداً لائقاً ، وإنها لَلأمة الوسط بكل معاني الوسط ، سواء من الوساطة بمعنىٰ الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنىٰ الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي .

إن ٱلله تعالىٰ تقدَّست أسماؤه ، وجلَّت صفاته هو الحَكَمُ العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تكن حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً ، فهو الذي يفصل بين عباده بالحق يوم الفصل ليجازي الذي آمنوا أحسن ما عملوا ، والذين كفروا لهم عذاب مقيم ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (1) فقد قضىٰ الحَكَمُ عز وجل : أن الذين خرجوا علىٰ العدل والإنصاف : أنهم خالدون فىٰ النار ما دامت السموات والأرض ، لا يخرجون منها إلا في الوقت الذي يشاء ٱلله إخراجهم فيه ، ليعذبهم بنوع آخر من العذاب ، وأما الذين رزقهم ٱلله السعادة ، فيدخلون الجنة خالدين فيها من أول لحظة ، بعد انتهاء موقف الحساب إلىٰ ما لا نهاية ، ويعطي ربك هٰؤلاء السعداء فىٰ الجنة عطاء عظيماً مستديماً ، غير منقوصٍ ، ولا مقطوع .

---

(1) هود 106 ـ 108 .

وربَّ قائل يقول : إن الخلود لأهل الجنة فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، فهـٰذا من كرم ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن كيف يجوز علىٰ ٱلله الحَكَم العدل أن يكون ذلك لأهل النار ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (1) وقد علموا أنها لا تفنىٰ أبداً . فإن قيل كيف يجوز علىٰ الحكم العدل أن يعاقب علىٰ جرم منقضٍ بعقوبةٍ غير منقضية قيل : هو الجزاء علىٰ السواء ، وكما أنه اقتصرت مدة أعمارهم علىٰ الكفر في دار الدنيا ، وهي حياة ؛ وجب أن لا يقصر عنه العذاب مدة أعمارهم في الآخرة ، وهي حياة أيضاً ، وكذلك أهل الجنة ، هـٰذا من جهة ، وأما من جهة أخرىٰ فقد تفضل الحكم علىٰ خلقه بأن جعل جزاء أعمالهم بخواتيمها ، فبعزته لقد أنصفنا ، وزادنا علىٰ النَّصَف بهـٰذا ؛ لأنه من يكون كافراً جاحداً فإن التقدم في العمر والسن والتجربة تمنحه فرصة العودة إلىٰ الهدىٰ الصواب ، ومن كان مؤمناً عاصياً يكون أمامه فرصة التوبة والإنابة ، إن ٱلله كان تواباً رحيماً .

الحمد لله الحكم العدل الهادي عباده صراطاً مستقيماً ، الحاكم الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ، المثيب من قدم خيرا من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ، ولا خلال ، الرقيب علىٰ ما يصدر من أفعال العباد ، فيفصل بينهم بالحق يوم التنادي ، ولا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد ٱلله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه والٍ . وله الحمد حيث يؤول كل شيء إلىٰ زوال ، وإن تراخىٰ العمر وطال ، فيبقىٰ وجهه ذو الإكرام والجلال ، ويبقىٰ الحكم العدل ، والربّ الذي قوله الفصل ، وبيده الفضل .

اللهُمَّ إنك الحكم ونحن الطائعين لحكمك فاجعلنا بحكمك علىٰ الصراط

---

(1) المائدة 37 .

ثابتين ! اللهُمَّ إنك الحكم العليم بما أعلنّا وما أخفينا ، والمحيط بما لم نأت وما أتينا ، اللهُمَّ لا تسلَّط عدوَّك وعدوَّنا علينا ، وأنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا ، فالحمد لك يا أحكم الحاكمين الذي خلق كل شيء فأحسن التقدير ، ودبر الخلائق فأكمل التدبير ، وقضىٰ بحكمته علىٰ العباد بالسعادة والشقاوة : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ربنا إليك أنبنا ، وإليك المصير !

اللهُمَّ إنك الحكم وسعت كل شيء عِلْماً ، عليك تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا فافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ! اللهُمَّ إنك الحكم تفصل بين الحق والباطل فاجعل الحق لنا حُجَّة ، وتفصل بين الخير والشر فاجعلنا من أهل الخير ولا تجعلنا من أهل الشر ، وتفصل بين الحلال والحرام ، فاجعلنا من أهل الحلال ، ولا تجعلنا من أهل الحرام ، وتفصل بين الجنة والنار فاجعلنا من أهل الجنة ! اللهُمَّ يا الحكم بحكمك عمَّرت الأرض رزقاً ، وخلقاً فاجعلنا فيها أغنياء مطمئنين آمنين ومصلحين لا مفسدين ! اللهُمَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ فاجعلنا من الذين يحتكمون بشريعتك ، ويطيعون أمرك طوعاً لا كرهاً ! اللهُمَّ إنك الحكم وحكمك نافذ فاجعلنا من المقسطين الذين يخافونك ، ويتقونك ، ولا تُسلِط علينا ظالماً لا يخافك ، ولا يتقيك ! اللهُمَّ إننا عبادك ، وأنت اللطيف الخبير !

العَدْلُ جلّ جلاله

العدل : مبدأ باعتباره الأول بذاته ، وغاية باعتباره الآخر بذاته ، ومصدر : باعتباره الأول ، والآخر بذاته ، والعدل فعل في ذاته ، وصفة حسنة في ذاته . فمن حيث اللغة مصدر يشتق منه اسم الفاعل : « العادل » وغيره من المشتقات ، والعادل المطلق هو ٱلله جل جلاله ، ومن يتبع هـٰذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حق ، ولهـٰذا تكون الإضافة إلىٰ العدل الذي هو فعل من أفعال العادل المطلق ، وصفة كاملة له ، به يتصف بالكمال والجمال ، ولهـٰذا فخلفاءه في الأرض هم المضافون إلىٰ العدل الذي هو من عنده عز وجل . وتكون العملية :

أولاً : **العدل** : صفة حسنة من صفات العادل ، وهي المستمدة منه ، فلو لم يكن العادل في ملكه ؛ ما كان للعدالة والعدل مصدراً .

ثانياً : **العادل** : وهو مصدر العدل ، والعدالة ، والمتحكم بهما في خلقه وملكه ، وهو الذي بيده الأمر والنهي ، فالعادل هو الذي لا توجد في قواميسه إلا الرحمة ، ولا توجد فيها المظالم .

ثالثاً : المضاف إلىٰ العدل وهو الخليفة : ولأن العدل صفة حسنة فلا يتصف به إلا عادل محسن ، والعادل المحسن هو الخليفة الذي أخذ بصفات العدل التي ترضي ٱلله تعالىٰ ، ويعمل بها فلا يظلم ؛ ولهـٰذا فهو المضاف المتصف بصفة العدل قولاً ، وسلوكاً ، وفعلاً . قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [1] . فالخليفة هنا هو المضاف في قوله : ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ والعدل بصيغة المصدر صفة من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ولأنه جلَّ وعلا القادر علىٰ تحقيق العدل المطلق في كافة الأماكن ، والأزمنة في آنٍ واحد فلا يحدُّه حدود ولا يقيده قيود فقدرته مطلقة ، وعدله يحيط بملكه وملكوته ، لذا فقد احتفظ لذاته باسم « العدل » مصدراً لا اشتقاقاً ، ولأنه العدل فهو مصدر لا يظلم ، ولا يجور ؛ لأن في ذلك تناقض ، فالعدل المطلق ليس عنده ظلم ، وحتىٰ يُبَسِّط لنا معنىٰ العدل ألقىٰ علىٰ مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظاً تدل علىٰ العدل ، وتهدي إليه ، منها : الصراط المستقيم ، والقسط ، والميزان ، ومثقال ذرة ، وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبيَّنها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقق الخلافة ، ولمن أراد أن يكون من الخلفاء لهٰذا الاسم .

ولأنه العدل فهو جلَّ وعلا لا يحكم بالجور ، لأن الجَوْرُ نَقِيضُ العَدْلِ ، وضِدُّ القَصْدِ [2] ، والميزان الإلٰهي لا يغادر شيئاً إلا ويحصيه بالقسط أو بالقسطاس المستقيم ، والقُسْطاسُ ، بالضم ، والكسر : المِيزانُ ، وأقْوَمُ المَوازينِ ، أو هو ميزانُ العَدْلِ [3] ، أيُّ ميزانٍ كان ، القِسْطُ ، بالكسر : العَدْلُ ، والعَدْل من المَصَادِرِ المَوْصُوفِ بها [4] ، والله هو العدل ينصف صاحب الحق ، فيعطيه حقه ؛ لذا فالإِنْصَافُ : العَدْلُ ، والعْدلُ : ضِدُّ

(1) الطلاق ، 2 ، 3 .
(2) القاموس المحيط ج 1 ، ص ، 377 .
(3) القاموس المحيط ج 2 ، ص 106 .
(4) القاموس المحيط ج 2 ، ص 232 .

الجَوْرِ والظلم ، وما قامَ في النُّفوسِ : أنه مُسْتَقِيمٌ ؛ فهو عدل ، كالعَدالَةِ ، فهو عادِلٌ من عُدولٍ ، وعَدْلٍ ، بلَفْظ الواحِدِ ، وهـٰذا اسم للجَمع . رجُلٌ عَـدْلٌ ، وامـرأةٌ عَـدْلٌ . وعَـدَّلَ الحُكْـمَ تَعـديـلاً : أقـامَـهُ [1] ، واسْتَقَامَ : اعْتَدَلَ [2] .

إذاً العادل في ملكه هو ٱلله عز وجل ، وهو العادل المطلق ، والعادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل المستمدة من العادل المطلق ، والتي بها اندمج عدلاً في قوله ، وفعله ، وسلوكه ، وأحكامه .

ولا يجوز في حق العدل الجور ؛ لأن الجَوْرُ نقيضُ العَدْلِ ، وكذلك المتحققون بالعدل الذي أراده ٱلله لا يجورون ، ولا يميلون عن عدله تعالىٰ وذلك لأن الجور ظلم ، وكل ما مال فقد جارَ ، وجارَ عن الطريق عَدَلَ ، والجَوْرُ : المَيْلُ عن القصدِ وجار عليه في الحكم : ظلمه [3] .

فالعدل المطلق لا يجور ، ولا يميل عن الطريق المستقيم ، وكيف ذلك وهو الذي خلق الطريق المستقيم ؛ ليستقيم الخليفة ، أو العادل المشتق من العدل ، وقد أمر ٱلله العدل النبي ﷺ بالاستقامة وهو الذي لم يمل عن الحق ولم يظلم فقال ٱلله عز وجل للنبي ﷺ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [4] .

فهـٰذه وصية جامعة تحث علىٰ العدل المطلق لمن أراد أن يلحق بركب

(1) القاموس المحيط ج 3 ، ص 131 .
(2) القاموس المحيط ج 3 ، ص 276 .
(3) لسان العرب ج 4 ، ص 153 .
(4) الشورىٰ ، 15 .

العدل ، فالله العدل يأمر النبي ﷺ أن يستقيم كما أمره علىٰ منهج العدل الذي أنزله إلىٰ الإنسان بوصفه الخليفة علىٰ أرضه في كتب سماوية أنزلت منذ آدم عليه الصلاة والسلام مروراً بسيدنا نوح ، وإبراهيم ، وموسىٰ ، وداود ، وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، وكل هـٰذه الشرائع والكتب لا محالة تحضُّ علىٰ العدل ، وهـٰذا زمان الخلافة المحمدية فمن أراد أن يلحق بركب العدل فعليه باتباع نبي العدل علىٰ شريعة العدل ، والاكتفاء بما أنزل علىٰ النبي الذي أُمر ليعدل ، فعدل ، وحتىٰ لو كانت هناك أفكار تستحق الدراسة في المناهج الأخرىٰ ، والأديان الأخرىٰ إلا أنها قد جُمعت جميعها في الشريعة المحمدية الكاملة ، ولهـٰذا عاتب النبي ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله عنه ـ عتاباً شديداً لمَّا قرأ في كتب أهل الكتاب ليزداد نوراً علىٰ نور . فقد ورد في الحديث الشريف عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله : « أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُابِ ، فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا بْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ! لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ ، فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي ! »[1] .

فالنبي ﷺ وهو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوىٰ يقسم بالله لو أن موسىٰ بن عمران كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعه ﷺ لما في المنهج المحمدي من الكمال في الأسس التي بها يصل الخليفة إلىٰ العدل ، وهـٰذا ما عمل به الفاروق الخليفة العادل الذي أصبح مضرب المثل في العدل ؛ لأنه عمل بالمنهج المحمدي الذي أساسه العدل ، والذي يشمل في الوقت نفسه المناهج السابقة المنزلة علىٰ سائر الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام جميعاً .

---

(1) مسند أحمد ج 30 ، ص 173 .

العدل صفة العادل المطلق ، وصفة الحاكم بحكمه تعالىٰ ، ولذلك اتخذ الخليفة العدل حكماً بعد مشاورة ، وليس حكماً سابقاً عليها أو متغافلاً عنها ، والمشورة في الدين الإسلامي أخذ الرأي في كل أمر يتعلق بمصير العباد دون إنابة عنهم في شيءٍ إلا إذا كانوا قُصَّراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [(1)] ، ويقول ابن منظور : « شاورهم : تعني استخرج آراءهم » [(2)] . وهناك من يقول : « هي تلقيح الرأي بآراء متعددة » [(3)] . وهـٰذا يدل علىٰ أن الشورىٰ في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقاً للجميع الذكور والإناث ، ولذلك يستوجب ممارسة الشورىٰ في الأمر . والأمر هو : كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات ، سواء كان هـٰذا الأمر سياسةً داخليةً ، أم خارجية ، أو كان هـٰذا الأمر حالة سلم ، أم حالة حرب ، وسواء كان اقتصاداً ، أو علاقاتٍ اجتماعية ، ولذلك في الآية السابقة يخاطب ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ رسوله الكريم ، ويلزمه بالمشاورة في الأمر ، أي وكأنه يقول ، في وجودك يا رسول ٱلله لا ينبغي أن تقرر أيَّ شيءٍ يتعلق بالناس نيابة عنهم ، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورىٰ معهم . ولذلك كانت الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ موجهة إلىٰ رسول الله ﷺ لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلَّق الأمر بهم .

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [(4)] . إذاً بكل وضوح : إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول ﷺ كان في حالة شورىٰ بين الرسول

---

(1) آل عمران ، 159 .

(2) تفسير الجلالين . بيروت ، دار الفكر ، ص 94 .

(3) محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة ، أخبار اليوم ، ج3 ، ص 1840 .

(4) الشورىٰ ، 38 .

والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم . أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورىٰ يقررون ما يشاؤون فيه ، وينفذونه كما يشاؤون ، ولهٰذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر . وكلمة أمرُهُم ، تتكون من جزأين هما : (أمْرُ) و(هُمْ) ، فالأمر هو ما سبق تبيانه ، أما(هُمْ) فجاءت مطلقة أي كل من هم علىٰ علاقة ارتباط مع الأمر ، وهٰذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية ، بل الوجود فقط للكل دون استثناء . وكلمة (بينهم) الظرفية تعني أن تقتصر الشورىٰ في الأمر علىٰ الذين يعنيهم الأمر فقط ، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية ، ولتأكيد هٰذا الاقتصار قال عزَّ وجلَّ : (بينهم) ، ولم يقل : بين الحاكم والمحكومين ، أو بين السادة والعبيد ، أو بين المسؤول ، وغير المسؤول .

ولذا فمن العدل الحثُّ عليه ، والعمل به في كل حين وفي كل زمان . فالعدل هو العدل واحد لا اثنان ، إنه صفة لواحدٍ أحد لا شريك له بيده الملك والحكم وهو علىٰ كل شيء قدير ، فالعدل صفة لا تقتصر علىٰ المجال السياسي بل العدل يمتد في كلِّ المجالات القيمية الستة الآتية :

أولاً ـ مجال العدل الاجتماعي :

ويحتوي علىٰ اثنتي عشرة علاقة قيمية هي :

(علاقة الأمة ، والوطن ، والمجتمع المحلي ، والأسرة ، والعلاقة الزوجية ، وعلاقة الأخلاق ، وعلاقة الكرم ، وعلاقة البخل ، وعلاقة الصداقة ، والعلاقة بالجنس الآخر ، وعلاقة السلوك الاجتماعي) .

إن مجال العلاقات القيمية الاجتماعية مجال بنائي يكوِّن الشخصية الاجتماعية المتفاعلة ، والمتعاونة كلَّما تم تشرب هٰذه القيم بإرادة ومعرفة واعية ، وإذا لم يتم ذلك بإرادة ؛ فإن السلوك المناقض للبناء قد يكون هو

سلوك الصدارة ، ولذا فإن التفاعل الموجب الذي تنتجه الاثنتا عشرة قيمة هو الذي يقوي عاطفة الانتماء والروابط القيمية الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ويجعل الضمير (نحن) هو السائد بينهم بدلاً للضمير (أنا) الذي في كثير من الأحيان يؤدي إلىٰ الصدام ، والفرقة . ويحتوي مجال العلائق القيمية الاجتماعية علىٰ الآتي :

1 ـ علائق قيمية طبيعية تستوجب العدل : كالعلاقة الأسرية ، والعلاقة العائلية ، والعلاقة القبلية ، وعلاقة الأمة التي تكوِّن الذات العامة المشتركة للأفراد ، والجماعات ، وتغرس في نفوسهم عاطفة الحبِّ ، وروح الانتماء .

2 ـ علائق قيمية ضرورية تستوجب العدل : كالعلائق بين رفاق العمل ، ورفاق الحرف والمهن ، ورفاق التعليم والتعلم ، وهـٰذه العلائق قد تكون بين بني الأمة ، أو مع الآخرين ، فعندما تكون بين أبناء الأمة ، أو الوطن تحتويها عاطفة الأصل ، والانتماء ، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المهنة ، وعاطفتها المؤقتة .

3 ـ علائق قيمية اختيارية تستوجب العدل : كالعلاقة مع رفاق المناشط الرياضية ، والفنية ، والمسرحية ، والموسيقية ، والثقافية ، أو رفاق الحفلات ، والرحلات السياحية . أيضا عندما تكون هـٰذه العلائق الاختيارية بين أفراد الأمة وجماعاتها فإن عاطفة الأصل والانتماء هي التي تسودها ، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المناشط المتنوعة وعاطفتها المؤقتة .

ثانياً ـ مجال العدل الاقتصادي :

يحتوي هـٰذا المجال علىٰ خمسة علائق قيمية تستوجب سيادة صفة العدل بين عناصرها التي تشترك فيها ، وهي :

(العلاقة الاقتصادية ، والإبداعية ، والعملية ، والتقنية ، والعلاقة الإنجازية) .

هٰذه العلائق القيمية كلٌّ منها يؤدي إلىٰ الإنتاج سواء كان هٰذا الإنتاج ماديا (إنتاج السوق) الذي تترتب عليه قيم البيع والشراء ، وارتفاع مستوىٰ الدخل ، أو انخفاضه ، أو إنتاجاً معرفياً (إنتاج المعلومة والفكرة) التي تثري ما سبق ، وتدعم ما في الآن ، وتسعىٰ لصناعة المستقبل . ولذا فإن التقنية (مولود الفكرة) تتطور ، وتتنوع وتتجدد ، مع كل جديد .

في خماسي تحليل القيم الذي قدمناه إضافة جديدة للقراء والذي سجلت براءته الفكرية باسمنا [1] ، يعتبر هٰذا المجال العلائقي مجالاً لتحقيق المنفعة القابلة للقياس بالإنتاج الذي يتطلب إدارة ملاحِقة (تلاحق المنتجين لتمدهم بالخدمة التي تمكنهم من زيادة الإنتاج) ، وإدارة تتفهم ظروفهم ، ومتطلباتهم كما تتفهم احتياجات المستهلكين .

إنَّ مبدأ المنفعة جعل الإنسان في حالة منافسة مع الآلة بدلاً من منافسته للآخر من بني جنسه ، ولذا أصبحت الآلة تحل محل الإنسان غير القادر علىٰ المنافسة في العملية الإنتاجية ، فإذا كان الجهد المبذول يقلُّ قيميَّاً عن العائد منه لابد وأن تكون الخسارة هي المبعدة عن ميادين المنافسة الحرة .

ولذا فإن تحليل مجال العلائق القيمية الإنتاجية يمكِّن البحَّاثة من التعرف علىٰ حالات المنتجين بعدل من حيث الجهد ، والإنتاج ، والإشباع ، والمنفعة ، وفقاً للآتي :

1 ـ جهد يؤدي إلىٰ الإنتاج يؤدي للإشباع ويحقق منفعة .

---

(1) عقيل حسين عقيل ، خماسي تحليل القيم ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ، 135 ، ص 2003 .

2 ـ جهد يؤدي إلىٰ الإنتاج ولا يؤدي للإشباع لا يحقق منفعة .

3 ـ جهد يؤدي إلىٰ الإنتاج ، يؤدي إلىٰ الزائد عن الإشباع ، يحقق الفائض عن المنفعة .

4 ـ جهد لا يؤدي إلىٰ الإنتاج لا يؤدي للإشباع ، ولا يحقق منفعة .

5 ـ لا جهد يؤدي إلىٰ الإنتاج لا إشباع ولا منفعة .

وعليه فمن العدل أن يكون الإنتاج العام ملك عام ، وتوزيعه حق عام وفقاً للحاجة والجهد المبذول ، ووفقاً لحقوق القصر علىٰ من لهم حق عليهم .

ثالثاً ـ مجال العدل السياسي :

يحتوي مجال العلائق القيمية السياسية علىٰ العلائق القيمية الآتية :

(علاقة الحرية ، الاستقلالية ، علاقة الموقع ، والسلطة ، وعلاقة السياسة ، والفكر) .

تكمن في هـٰذه العلائق القيمية الست عناصر القوة الداعمة للإرادة والقامعة لها في وقتٍ واحدٍ ، وهـٰذا ما يجعل السلوك البشري في حالة تماثل مع الفعل أو في حالة تناقض معه . مما يؤدي إلىٰ التفاعل والمشاركة والوحدة ، أو يؤدي إلىٰ الرفض ، والتمرد ، والصدام ، أو أن يؤدي إلىٰ الخنوع ، والإدعاء ، والنفاق السياسي .

ولذلك تتباين اختيارات المبحوثين من مجتمع لآخر ومن موضوع لآخر ، فما يراه البعض مناسباً ، أو مفضَّلاً في اختياراتهم للبدائل القيمية قد لا يراه البعض الآخر كذلك ، أو أنهم يرون ما هو أفضل ، ولذا فمن العدل ألا يجبر الأفراد علىٰ ما لا يرغبون ، وإن أجبروا ؛ فلا مفر من الصدام ، والخصام الذي يفرق بين المرء وزوجه .

إن تحليل مجال العلائق القيمية السياسية يؤدي إلىٰ معرفة اتجاهات

الأفراد ، والجماعات ، والمجتمعات ، وميولهم ، ومدىٰ تمسكهم بالقيم التي تكوِّن شخصياتهم ، أو تهدُّها ، ونظراً لوجود الفروق الفردية في القدرات ، والاستعدادات ، والمهارات ؛ فإنه بالضرورة أن يكون لكل فرد رغباته التي من العدل أن تحترم ويقدر أصحابها ، ولا يفرض عليهم مالا يرغبون أو ما لا يفضلون ، ومن العدل أن تراعىٰ قدرات الأفراد وميولهم وحاجاتهم المتنوعة والمتطورة .

ولأن مجال العلائق القيمية السياسية ذو صلة بالقرار وأساليب اختياره ، وبالتنفيذ وطرق اعتماده ، فإنه بلا شك ذو صلة بالإرادة التي تتميز من خلالها كل شخصية وكل جماعة ومجتمع ، وهـٰذه القيم تؤكد علىٰ الآتي :

1 ـ روابط اجتماعية طبيعية ، تؤدي إلىٰ مجتمع الذاتية ، تحقق الشخصية العاطفية .

2 ـ روابط منفعية تؤدي إلىٰ مجتمع الأنا تحقق الشخصية الفردية (الشخصانية) .

3 ـ روابط فكرية ، تؤدي إلىٰ مجتمع الفكرة ، تحقق الشخصية الموضوعية (العقلية) .

4 ـ روابط سياسية تؤدي إلىٰ مجتمع الاختراق تحقق الشخصية الانسحابية .

5 ـ روابط إنسانية تؤدي إلىٰ المجتمع الإنساني تحقق الشخصية الاقترانية (المنطقية) .

رابعاً ـ مجال العدل النفسي :

يحتوي هـٰذا المجال علىٰ العلائق القيمية الآتية :

(علاقة الشخصية ، وعلاقة إثبات الذات ، والعلاقة الضميرية ، وعلاقة الواجب ، وعلاقة الحقيقة ، وعلاقة الواقع ، والعلاقة الجنسية) .

هـٰذه العلائق تؤثر في علائق أخرىٰ ، وتتأثر بها ، تفيد في التحليل النفسي للأفراد والجماعات والمجتمعات من خلال التعرف علىٰ اتجاهاتهم وميولهم والقيم التي يتمسكون بها أو التي يحيدون عنها مما يجعلهم يتخذون مواقفَ وأدواراً متباينة تختلف من وقت لآخر .

ولتحليل مجال العلائق القيمية النفسية ينبغي أن يهتم البحاثة بمعرفة علم الخفايا الذي يجعل من الأفراد متفاعلين ، ومتفائلين ، أو منطويين ، ومتقوقعين في حالة إقدام ، أو إحجام ، وفي حالة مشاركة ، أو في حالة عزلة ووحدة . إن معرفة علم الخفايا يمكِّن البحَّاثة من معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الأفعال المرتكبة ، ولذا فهو علم معرفة الباطن (الجوهر) ، الذي يتطلب تحليل شخصية المبحوث تحليلاً نفسياً غير مباشر ، فالسلوك الظاهر قد لا يعبر عن حقيقة الكامن ، ولذا يلتجئ المحلل أو الباحث إلىٰ استخدام الأساليب الإسقاطية في دراسة بعض المواضيع المتعلقة بالشخصية .

إنَّ النفس البشرية تقوىٰ وتضعف بالكلمة أو بالفعل أو بالسلوك ، وتتأرجح بين الخيال الممكن والخيال غير الممكن تارة ، وبين المتوقع وغير المتوقع تارة أخرىٰ ، عندما تضعف تضطرب ، وعندما تقوىٰ تطمئن . معايير اختياراتها القيمية في بعض الأحيان تتمركز علىٰ الأفعال الأنانية ، وفي بعض الأحيان الأخرىٰ تتمركز علىٰ الذاتية ، أو الموضوعية ، وفي حين آخر تتشتت الذات بين الميول إلىٰ الأنانية ، أو الميول إلىٰ الموضوعية ، وهـٰذا يعني أن مجال العلائق القيمية النفسية قد تندمج فيه مكونات الشخصية مما يجعل عناصر الذاتية جزءاً لا يتجزأ من عناصر الأنانية ، أو عناصر الموضوعية ، وهـٰذا يتماثل مع قطاعات خماسي تحليل القيم الذي يمكِّن البحَّاثة من معرفة محتويات النص ، أو الخطاب ، أو الشخصية قيد البحث والدراسة .

إن القيم التي يحتويها مجال العلائق النفسية تنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير التي يتمركز عليها التفكير الإنساني ، حيث الكل يسعون إلىٰ نيل

الاعتراف والتقدير وعلىٰ جميع المستويات : مستوىٰ الحاكم ، ومستوىٰ المشارك ، ومستوىٰ المحكوم ، ومستوىٰ الحر ، ومستوىٰ العبد ، فالعبد كغيره من البشر يبحث عن قيمة الاعتراف والتقدير ، أن يعترف له سيده بأنه مخلص لكي يزيد في الطاعة ، وأن يقدره علىٰ هـٰذا الإخلاص ، والابن الذي يطيع والديه في غير معصية ٱلله عز وجل يريد أن ينال منهما الاعتراف والتقدير ؛ لكي يستمر في هـٰذه الطاعة ، وهكذا الحاكم يسعي إلىٰ أن ينال الاعتراف ، والتقدير من رعيته بأن النظام الذي يترأسه هو الأفضل ، وأن يقدروا هـٰذا التفضيل ، أو أن يقدروا الظروف التي لم تمكِّنه من تحقيق خطابه أيام الدعاية الانتخابية ، وهكذا المحكومون يسعون لنيل الاعتراف ، والتقدير من الحاكم علىٰ تحملهم فترة حكمه وأن يقدِّرهم علىٰ هـٰذا التحمُّل . ولذلك فإن البدائل القيمية لهـٰذا المجال العلائقي تستوجب استخدام الخماسي في التعرف علىٰ السلوك الذي يتغير حاله من شخص لآخر ومن ظرف لظرف خاصة وأن السلوك البشري يسعي إلىٰ تحقيق الاعتراف والتقدير في مقابل إشباع الحاجة ، كما هو مبين في الآتي :

ـ سلوك يعترف بالحاجة ويقدِّرها ، يحقق الرضا ، ويؤدي إلىٰ إثبات الذات .

ـ سلوك لا يعترف بالحاجة ، ولا يقدِّرها ، يحقق الاضطراب ، ويؤدي إلىٰ الانسحابية .

ـ سلوك يعترف بالزائد عن الحاجة ، ويقدِّره ، يحقق الرضا ، ويوصف بالعقلية .

ـ سلوك لا يتدخل فيما لا يعنيه ، يحقق الرضا ، ويوصف بالمنطقية .

ـ سلوك لا يُفعل إلىٰ لمصلحة ، يحقق الرضا ، ويوصف بالشخصانية .

وعليه فمن العدل أن لا يتم الإغفال عن المستوىٰ القيمي الذي تكون عليه

شخصية الأفراد والجماعات والمجتمعات حتىٰ يتم التمكن من تفعيل مشاركة الشخصية وفقاً للحالة التي هي عليها ومدىٰ سلامتها وملاءمتها لقبول الفعل أو رفضه ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [1] النفس الأمَّارة بالسوء لا يمكن أن ينتصر أصحابها ، وهـٰذا ما ألم باليهود في زمن رسول الله ﷺ الذين لم يتقوا ربهم بما جاء به محمد صلوات ٱلله وسلامه عليه . ولذلك جاء قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ أي : خافوا يَوْمًا ﴿ لَّا تَجْزِى ﴾ أي : لا تغني ﴿ نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ فيه ﴿ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ والعدل هنا يعني : الفداء ، ولهـٰذا لا يمكن أن يحل أحدٌ محل آخر في ممارسة حقوقه ، وأداء واجباته ، وحمل مسؤولياته ، وفي كل مـا يحقـق لـه الـرضـا النفسـي ، أو يحقـق لـه الشقـاء ، فعلـىٰ سبيـل المثال : المستعمر لا تدخل نفسه الفرحة إلا علىٰ حساب الذين بلدانهم احتلت من قبله ، ولذا ما يرضي النفس المستعبِدة ليس هو ما يرضي النفس المستعبَدة . ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب ٱلله .

خامساً ـ مجال العدل الذوقي :

يحتوي مجال العلائق القيمية الذوقية علىٰ العلائق التي تتجاوز بالعقل البشري من حالة الإحساس بالمشاهد إلىٰ حالة الإحساس بالمجرد ، وهي :

(العلاقة الوجودية ، والعلاقة الدينية ، وعلاقة السعادة ، وعلاقة الجمال ، وعلاقة الفن ، وعلاقة الأدب ، وعلاقة الطبيعة) .

فالقيمة الحسية بالجميل علىٰ سبيل المثال لا تقتصر علىٰ النظر إلىٰ المشاهد فقط بل تتعداه إلىٰ الإحساس بقيمة الجمال المجرد (الذي يكمن في الجميل) . الذوق رفعة في الحس تؤدي إلىٰ سمو عقلي ومعرفي يُمكِّن الإنسان من الاطلاع علىٰ الكامن والإحساس به مثل كمون النغمة في المعزوفة ،

---

(1) البقرة ، 123 .

وكمون الصور البلاغية في المقطوعة الشعرية ، وكمون السيناريو في النص ، وكمون القصة في اللوحة الفنية ، وكمون النشوة في السعادة ، وكمون الإعجاز في آيات الخالق .

وعليه فإن مجال العلائق القيمية الذوقية يحتوي علىٰ سبعة علائق يتمِّم بعضها البعض في تفطين العقل الإنساني من الغياب إلىٰ الحضور ، ومن المشاهد إلىٰ المجرد (من النظر إلىٰ المخلوق إلىٰ النظر إلىٰ الكيفية التي خلق بها وخلق عليها) مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ (1) . وردت تساؤلات أربع في هـٰذه الآيات الكريمة ، فيها من الاستغراب ما يلفت الانتباه : لِمَ هـٰؤلاء لا ينظرون إلىٰ الكيفية التي بها خلقت الإبل ؟ والكيفية التي بها رفعت السماء ؟ والكيفية التي بها نصبت الجبال ؟ والكيفية التي بها بسطت الأرض . أي : لِمَ هـٰؤلاء يقصرون نظرهم علىٰ المشاهد فقط الذي تراه أبصارهم ، ولا يمدون تفكيرهم وعقولهم إلىٰ معرفة الكيفية التي بها تمت هـٰذه المعجزات ؟ مما جعل الخلفاء يمدونها من المشاهد إلىٰ المجرد ؛ حتىٰ آمنوا ، واتقوا ، وأدركوا : أن وراءها خالق عظيم قادر علىٰ الفعل كيف يشاء متىٰ شاء سبحانه لا إلـٰه إلا هو ! به آمنوا ، وعليه توكلوا ، وبعلمه استناروا ، وبكتابه المحفوظ اهتدوا ، فاستخلفوا بذوقهم الرفيع في الأرض ؛ ليصلحوها .

ولذا فإن للذوق أثر علىٰ السلوك والفعل حيث يجعل الإنسان في حالة بهجة وإيمان وتفاؤل وعطاء ، أو في حالة راحة وتعجب واستبصار ، أو في حالة تقرُّب وخضوع وترويح ، والذوق كمحقق للرفعة الحسية والروحية يتطلب التذكر والتفكر والتأمل .

---

(1) الغاشية ، 17ـ21 .

يعدُّ هـٰذا المجال العلائقي مجالاً لتحقيق السمو القيمي الرفيع الذي يبرز أهمية الذوق العقلي ، والوجداني لِما يشاهد ، ولِما يلاحظ ، وعندما يتحقق هـٰذا السمو تصبح اللَّذَّة ذوقاً حسياً يحقق المتعة ، فعندما تسبح في البحر وقت الغروب تربطك متعة الشفق الذي يلونك مع ماء البحر وصفاء السماء بسترة لونه الذهبي الذي لا عيار له إلا الذوق ، حينها بإمكانك أن تكتب علىٰ السماء ما تشاء ، وأنت تسبح في البحر ، وتُسبِّحُ بحمد ربك ، وبإمكانك أن تجول بين عالم الواقع ، وعالم الأمل دون أن تترك العوم .

سادساً ـ مجال العدل الثقافي :

ولأن لكل مجتمع ثقافة وخصوصية فمن العدل أن لا يتم إطغاء ثقافة علىٰ أخرىٰ إلا بالحق ، وهـٰذا المجال يحتوي علىٰ العلائق القيمية الآتية :

(العلاقة الثقافية ، علاقة العلم ، علاقة التحصيل ، علاقة الصحة ، علاقة الطعام ، علاقة الزمن ، علاقة الرياضة) .

إن قيم هـٰذا المجال العلائقي هي دائماً في حالة حركة وامتداد فكري ؛ حيث إنها تتأثر بالمزيد المعرفي الذي يثريها ، ويجعلها قادرة علىٰ أن تثري السلوك المصاحب لها في كل ظرف ، وإن تفاعل الإنسان مع القيم الثقافية تجعله في حالة تميُّز كلَّما تمكَّن معرفةً وسلوكاً ، ومع أن الإلمام بالقيم الثقافية يفتح آفاقاً واسعة أمام امتداد التفكير الإنساني إلا أنه قد يشكل عائقاً أمام سرعة الامتداد غير الواعية التي كانت قبل المزيد المعرفي ، وذلك لأن المزيد المعرفي يؤدي إلىٰ الإحجام عن السلوكيات غير الموضوعية (التي كانت تُفعل علىٰ حساب الآخرين) ، فبالثقافة تفك القيود ، وبها توضع قيود (تُفك من قيد الجهل المعرفي ، وتوضع به) ، والإلمام بمجال القيم الثقافية يؤدي إلىٰ حسن الفعل ورفعة السلوك واستيعاب الآخر بإرادة كما هو لا كما ينبغي أن يكون علية .

مجال العلائق القيمية الثقافية مجال امتدادي تمتد فيه القدرات والملكات العقلية الإنسانية من حالة السكون إلىٰ حالة الحركة الواعية التي تمكِّن الإنسان من التمييز والتفضيل ، وتمكنه من الممارسة السلوكية عندما تتطابق المفاهيم مع الأفعال المرغوبة التي تؤدي إلىٰ ظهور الأنموذج ، وتبرز الاتجاهات المعرفية والأفكار الخاصة والعامة (المنغلقة والمنفتحة) ، فتبرز الشخصية علىٰ المستوىٰ الاجتماعي ، أو علىٰ المستوىٰ الإنساني . وعليه : فإنَّ مجال العلائق القيمية الثقافية يعتمد كثيراً علىٰ معرفة الأثر القيمي وأساليب تقديره عن طريق تطبيق الخماسي علىٰ موازين اختيارات المبحوثين للبدائل القيمية لكلِّ علاقة من علائق هـٰذا المجال الثقافي .

عندما تقتصر قيم مجال العلائق الثقافية علىٰ المستوي الشخصي فإنها تؤدي بالضرورة إلىٰ بناء شخصية الأنا ، وعندما تمتد القيم لتحتوي مميزات الأمة (الدين ، والأعراف ، واللغة) فبالضرورة تؤدي إلىٰ بناء الذات الاجتماعية التي تكوِّن العاطفة الاجتماعية ، وعندما تستوعب الآخر كما هو لا كما ينبغي أن يكون عليه ؛ فإنها ستؤدي إلىٰ بناء الشخصية الموضوعية ، ويحتوي الخماسي أيضا علىٰ معيار قيمي يؤدي إلىٰ تكوين ومعرفة الشخصية الانسحابية (عندما تكون في حالة تراجع من مستوىٰ الذات إلىٰ مستوىٰ الأنا) ، ويؤدي في الوقت ذاته إلىٰ بناء ومعرفة الشخصية المنطقية (التي تتمسك بالقيم العامة للمجتمع ، أو الأمة ، وتستوعب قيم الآخرين دون أن تتخلَّىٰ عن قيم أمَّتها الموجبة) .

باتباع سلوكيات من شأنها إكمال العدل مثل صلة القربىٰ لدىٰ الإنسان من أبناء جلدته من إخوة ، وأخوات ، وأعمام ، وعمَّات ، وأخوال ، وغير ذلك ، وقربىٰ عامة للجيران ولو كانوا علىٰ غير الملة ، وصلة أبناء آدم جميعا لما بين البشر من قربىٰ قد نُسيت وعفا عليها الزمان ، والوفاء بالعهد والصدق مع النفس ومع الآخرين ؛ لأن ٱلله العدل هو الذي أمر بذلك ، وقد أحاط

بقلوب العباد وما يخطر فيها من هواجس ، فهـٰذا ، وغيره من متممات العدل يقول ٱلله تعالىٰ :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [1] .

جاء أمر العدل مطلقاً دون اقتصار علىٰ عدل بذاته ، وتبعه أمر الإحسان مطلقاً ، وتبعهما أمر الإيتاء لذي القربىٰ مطلقاً حيث وجوبية الحق بالإتباع والطاعة . ولأنها أوامر من عند ٱلله فاتباعها والأخذ بصفاتها طاعة لله تعالىٰ وأخذ بصفاته ، وعدم الأخذ بها عصيان لا يقدم عليه إلا كافر فليتقي الإنسان ربه بالطاعة التامة له واحداً أحداً لا شريك له . ولهـٰذا فالخلفاء هم الذين إذا حكموا هم يعدلون بالحق ، وللإحسان هم فاعلون ، وللعطاء لأصحاب الحقوق عليهم من ذي القربىٰ وافون ، وهم الذين ينهون عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وجميع هـٰذه المواعظ من الرحمـٰن الرحيم العادل في ملكه ، ولأن هـٰذه المواعظ والأوامر هي في اللوح المحفوظ فإن التذكير بها يستوجب العودة إليها وإلىٰ الأسرار التي تكمن من ورائها . ثم أمر تعالىٰ بإيفاء العهد وعدم نقض الأيمان بعد توكيدها والله تعالىٰ شاهد علىٰ ذلك ، فليتقِ الإنسان ربه ، ويتبع أوامره ، ويبتعد عما نهىٰ عنه ، ويحمده ، ويشكره علىٰ فضله .

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ ، قَالَ : دعاني عمر بن عَبْد العزيز ، فقال : « صف لي العدل ، فقلت : بخ ! سألت عَنِ أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ، ولكبيرهم ابنا ، وللمثل منهم أخاً ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس عَلَىٰ قدر ذنوبهم ، وَعَلَىٰ قدر أجسادهم ، ولا تضربن بغضبك سوطاً

(1) النحل ، 90 ـ 91 .

واحداً متعدياً ، فتكون مِنَ العادين »[1] .

ومن الأمانة العدل لأنه بإقامة العدل يستقر المجتمع ويأمن الفرد علىٰ نفسه ، وعرضه ، وماله ، وتسود روح المحبة بين الجميع ، والله العدل يأمر بأداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل ، فيقول تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل إذا حكمتم الناس ، فالحكم بين الناس له اشتراطات :

أولاً : وجود طرفين أو أكثر فرادىٰ أو جماعات أو مجتمعات .

ثانياً : وجود اختلاف علىٰ موضوع لهم علاقة به .

ثالثاً : وجود عادل .

رابعاً : القبول بالحَكم (أن يكون مرضيا للأطراف المختلفة أو المتنازعة أو المتخاصمة) .

خامساً : قبول الحَكم بأن يحكم بينهم حيث لا إكراه .

ولهـٰذا جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ . فيه مسألتان :

المسألة الأولىٰ : اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهـٰذا هو الأمانة ، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان علىٰ غيره حق فأمرت من وجب عليه الحق بأن يدفعه إلىٰ من له ذلك

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ، ص 114 .

(2) النساء 58 ، 59 ،

الحق ، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ، ودفع المضار ، ثم يشتغل بغيره ، لا جرم أنه تعالىٰ ذكر الأمر بالأمانة أولاً ، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق ، فما أحسن هـٰذا الترتيب ؛ لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط .

المسألة الثانية : أجمعوا علىٰ أن من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ ﴾ والتقدير : إن ٱلله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، فلا تميلوا فإن في الميل بغير حقٍّ ظلمٌ ، وبهتان كبير . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . ولأنه أمر فالخليفة مطيع له .

وفي القرآن الكريم المنهج الذي أحاط بما في الكتب السابقة ومن أراد أن يقيم العدل فعليه أن يقتدي بهـٰذا المنهج الذي أنزل ليكون هادياً للخليفة في إقامة العدل علىٰ الأرض ، وهـٰذا لأنه الكتاب الذي لم ولن يدخله تحريف بنقص أو زيادة لأنه قد أُحكم من لدن حكيم خبير . يقول ٱلله تعالىٰ مخاطباً الجميع ومؤكداً علىٰ أن المنهج الوحيد القادر علىٰ تحقيق العدل في صورته المثلىٰ هو الكتاب الذي أنزل علىٰ خير نبي ، وعلىٰ خير أمة : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] .

وقال ٱلله تعالىٰ حاثًّا علىٰ العدل بوسائله المتعددة ، وأساليبه المختلفة من

---

(1) النحل ، 90 .

(2) يونس ، 37ـ39 .

أمر بمعروف ونهي عن منكر وإعراض عن الجاهلين الذين تخلفوا عن ركب العدل ، ولم يرض أن يكون من الخلفاء الذين يتحلون بصفة العدل اشتقاقاً تحلياً بصفة العدل من مصدره وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [2] . فثبت : أن القرآن مشتمل علىٰ تفاصيل جميع العلوم الشريفة ، العقلي منها ، والنقلي ، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب ، فكان ذلك معجزاً ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

أما قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فتقريره : أن الكتاب الطويل المشتمل علىٰ ما تعرضه كتب العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل علىٰ نوع من أنواع التناقض ، أما هـٰذا الكتاب الحكيم فلا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، إنه المحفوظ بعدل الله وقوته وحفظه ، ولذلك لا شك في ما جاء به من آيات عظام حيث لكل آية إعجاز لا يقدر عليه بشر . ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [3] . بطبيعة الحال لو كان من عند البشر ؛ لكان الاختلاف باختلاف اللغات والأديان والثقافات والأذواق والأعراف والعادات والقدرات والاستعدادات التي هي الأخرىٰ تختلف من شخص لآخر ، وكذلك باختلاف الاتجاهات والمصالح والأطماع والحاجات ودرجات إشباعها .

وقد عاد بلفظ الاستفهام علىٰ سبيل الإنكار ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ثم إنه تعالىٰ ذكر حجة أخرىٰ علىٰ إبطال هـٰذا القول ، فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

(1) الأعراف ، 199 .
(2) النحل ، 90 .
(3) النساء ، 82 .

مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (1) وهـٰذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (2) . وهنا تظهر عدة أسئلة منها :

السؤال الأول : لم قال في سورة البقرة : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن ﴾ وقال ههنا : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ .

والجواب : أن محمداً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رجلاً أمياً ، لم يتتلمذ علىٰ أحد ولم يطالع كتاباً ، فقال في سورة البقرة : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعني فليأت إنسان يساوي محمداً عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدم التتلمذ وعدم مطالعة الكتب ، وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هـٰذه السورة ، ولذا حيث ظهر العجز ظهر المعجز . فهـٰذا لا يدل علىٰ أن السورة في نفسها معجزة إنه أمر تسليم بالنسبة للمؤمن ، ولـٰكنه يدل علىٰ أن ظهور مثل هـٰذه السورة من إنسان مثل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدم التتلمذ والتعلم معجز ، ثم إنه تعالىٰ بين في هـٰذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة ، فإن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا ، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هـٰذه السور ، فلا جرم قال تعالىٰ في هـٰذه الآية : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ولا شك أن هـٰذا ترتيب عجيب في باب التحدي ، وإظهار المعجز .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ هل يتناول جميع السور الصغار والكبار ، أو يختص بالسور الكبار .

الجواب : هـٰذه الآية في سورة يونس وهي مكية ، فالمراد مثل هـٰذه

---

(1) يونس 38 .

(2) البقرة ، 23 .

السورة ، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه [1] .

ونقول نحن الآن في القرن الواحد والعشرين : هل يستطيع أي إنسان علىٰ وجه البسيطة أن يأتي بمنهج يحقق العدل ، وينصف الفقير من الغني ، والضعيف من القوي ، والمرأة من الرجل ، أو أن يأتي لنا بمنهج يساوي مساواة حقيقية بين بني البشر ، فقد قال ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الناس كأسنان المشط » [2] . وقال ٱلله تعالىٰ في سورة النحل في الآيات السابقة الذكر : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ ، فجمع ٱلله في هٰذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً ، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً ، وفي الآية مسائل :

ـ يقول تعالىٰ : فإلىٰ ذلك الدين الذي شَرَع لكم ، ووصّىٰ به نوحا ، وأوحاه إليك يا محمد ، فادع عباد ٱلله ، واستقم علىٰ العمل به ، ولا تزغ عنه ، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة . (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ) : فإلىٰ هٰذا القرآن فادع واستقم .

ـ وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يقول تعالىٰ : ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكُّوا في الحقّ الذي شرعه ٱلله لكم من الذين أورثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم ، فتشك فيه ، كالذي شكوا فيه .

يقول تعالىٰ : وقل لهم يا محمد : صدّقت بما أنزل ٱلله من كتاب كائناً ما كان ذلك الكتاب ، توراة كان ، أو إنجيلاً ، أو زبوراً ، أو صحف إبراهيم ،

---

(1) تفسير الرازي ج 8 ، ص 283 .

(2) مسند الشهاب القضاعي ج 1 ، ص 310 .

لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب ، وتصديقكم ببعض [1] .

ـ وقوله : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [2] . جاء الأمر لسيدنا محمد ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ بأن يدعو بما أُمر ، بدعوته المستقيمة ، وبالعدل لن يتبع أهواءهم ، وطلب منه أن يُعلِمهم بما آمن به من عدل ، وبما يدعو ولمن يدعو . يقول تعالىٰ : وقل لهم يا محمد : وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب ، فأسير فيكم جميعاً بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه [3] .

وبما أن النبي ﷺ جاء بالصدق والعدل إذاً فالخليفة الذي يسير وفق منهجه يكون متخلقاً بالعدل ، والعدل لا يكون في الحكم بين الآخرين فقط ولـٰكن من صوره الحكم أو التحكم في النفس لخيرها وخير من هم مسؤولون منها ، وفي هـٰذا نتذكر الحديث المشهور الذي قاله سيدنا سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء ، وأقره سيدنا رسول الله ﷺ والذي وجهه فيه لأن يكون عادلاً في تقسيم اهتماماته بين ربه ونفسه وبدنه وزوجه ولا يجور بإعطاء نصيب أكبر لجانب علىٰ جانب آخر ، وهـٰذا ما حدث مع الصحابي الجليل أبي الدرداء الذي وجهه سيدنا سلمان الفارسي توجيهاً يحضه علىٰ العدل ، فعَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : آخَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ ، فَرَأَىٰ أُمَّ الدَّرْدَاءِ متبدلةً ، فَقَالَ لَهَا : مَا شَأْنُكِ ؟

---

(1) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 451 .

(2) الشورىٰ ، 15 .

(3) تفسير الطبري ، ج 21 ، ص 516 .

قَالَتْ : أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا . فَجَاءَ أَبُو الدرداء ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ : كُلْ قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّىٰ تَأْكُلَ ، قَالَ : فَأَكَلَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ ، قَالَ : نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ ، فَقَالَ : نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ : قُمْ الآنَ ، فَصَلَّيَا ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « صَدَقَ سَلْمَانُ »[1] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

وقد ورد حديث يدور حول المعنىٰ ذاته يوجه فيه رسول العدل صلىٰ ٱلله عليه وآله وسلم عبد الله بن عمرو بن العاص حتىٰ لا يفرّط في العبادة ويكون من المعتدلين فعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ يقول : قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَمْ أُخْبَرْ : أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ ، وَتَصُومُ النَّهَارَ ؟ » قُلْتُ : إِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ . قَالَ : « فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ؛ هَجَمَتْ عَيْنُكَ ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ حَقًّا فَصُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ »[3] ، وقد ورد الحديث فيه زيادة توضح جوانب أخرىٰ من حياة الإنسان مثل العلاقة بالزوج ، والنفس ، والبدن ، والروح .

وعليه فالعدل : هو المحقق للاتزان النفسي والوجداني والبدني وذلك بمراعاة ما يجب والأخذ به ، ومراعاة ما لا يجب والابتعاد عنه ، وذلك لأن كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلىٰ ضده ، وفي المجال النفسي تطمئن النفس

---

(1) صحيح البخاري ، ج 7 ، ص 76 .
(2) القصص 77 .
(3) صحيح البخاري ج 4 ، ص 328 .

برجوعها لله تعالىٰ العادل المطلق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴾ [1] ، ورضا النفس لا يتحقق إلا بالعدل ، ولذلك فمن يظلم العباد يشقىٰ في الدارين ، ومن يعدل بما يحقق له الاتزان النفسي والبدني يتحقق له الرضا بعمله الصالح في الأرض ويفوز بالجنة ، ولذا فإن العادل المطلق يخاطب النفس المطمئنة مباشرة بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ثم يأمرها بالرجوع إلىٰ بارئها جل جلاله فتطيعه عدلا ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [2] . تسوية النفس اعتدالها ، وسوَّاها : عدلها ، وبعدله لها أطمأنت ، وبالاطمئنان ألهمها ٱلله فجورها ، وتقواها ، حتىٰ أنها تبيَّنت أمرها ورشدت بمعرفة ما يجب ، فتزكت ، وعرفت ما لا يجب فانتهت عنه ، وبهـٰذا فهي النفس العادلة التي تحيد عن الشيء ، وتبتعد عنه اتباعاً لأمر العادل المطلق ، وهدايةً بما جاء به عز وجل ، لأجل أن تأخذ بما أمر جل جلاله .

فهـٰذا هو العدل في أبهىٰ صوره مع النفس والجسد والروح ومع ٱلله ومع الغير ، ولهـٰذا أمر النبي ﷺ أن يأمر بمثل ذلك وأن يدعو إليه ، وأن يستقيم علىٰ ذلك المنهج يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] .

قوله ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أي : فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم ، فادعُ الناس إليه .

---

(1) الفجر ، 27ـ29 .
(2) الشمس ، 7ـ10 .
(3) الشورىٰ ، 15 .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي : واستقم أنت ، ومن اتبعك علىٰ العدل ، وعبادة ٱلله ، كما أمركم ٱلله عز وجل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ يعني : أعدل ، ولا تلتفت إلىٰ المشركين فيما اختلقوه ، وكذبوه ، وافتروه من عبادة الأوثان ، فإنها زائلة ، وفاقدة لصفة الديمومة والبقاء ، فأنت أيها الخليفة تعبد الحيَّ الذي لا يموت ، ولا يبيد ، ولا يفنىٰ .

وقوله : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي : آمنت بالعدل ، وصدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء علىٰ الرُّسل ، ولهٰذا من العدل ألا نفرِّق بين كتبه ورسله الذين قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وقوله : ﴿ كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ ﴾ جاء العدل صراحة مباشرة للتأكيد علىٰ كل المضامين السابقة الذكر ، ولأنه خليفة لله في الأرض ؛ فهو المطيع لأمره وليس له بد إلا العدل بين العباد فيما هم فيه مختلفون ، أو مختصمون .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ وهٰذه عين العدل أن يكون ٱلله للجميع ، وليس لأحدٍ ، كما هو حال المشركين الذين اتخذوا من دونه أرباباً .

وقوله : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ لا يُظلم أحدٌ ، فمن عمل صالحا فله ومن عمل طالحا فله ، وهٰذه عدل من عادل لا يظلم ، أي بظهور الحق تبيَّن الأمر من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن ضلَّ ؛ فما ربك بظلامٍ للعبيد .

وقوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ لقد ظهر الحق عدلاً وافياً ، فلا حجة بعده بيننا وبينكم ؛ أي : بعد أن تبين الحق ، فلا داعي للمحاجة ، الحق نور لا يخفىٰ عن مبصرٍ ، ولا بصيرة .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ فيما اختلفنا فيه بعد ظهور الحق ، فالعادل المطلق يجمع بيننا علىٰ الحق ، فلا داعي للاختلاف ، وعلينا بتقواه ، وعدم

الشرك به إلـٰهاً واحداً عادلاً في ملكه .

وقوله : ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ كل شيء يعود إليه ، المستقبل وعلم الغيب يعلمهما بالتمام والكمال العادل الذي بعدله يجمع بيننا ، ولهـٰذا فهو مرجع الكل بفضل القضاء العادل ، فالمصير إليه وحده لا شريك له .

و الله العدل يأمر بإقامة العدل ، فيقول عز وجل : ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [1] القِسْطاس ، والقُسطاس أعدل الموازين ، وأقومها [2] . ولذا فمن العدل أن تُعيَّر الموازين ؛ ليتم العدل بها بين الناس إذا احتكموا لمن يكيل بينهم ، أو ليكيل بميزانه ، فليتق ٱلله ربه بعدله .

وفي أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ أسماء قريبة من الاسم العدل وتعطي نفس الدلالة ، فالمُقسِطُ هو العادِلُ ، يقال أَقْسَطَ يُقْسِطُ ، فهو مُقْسِطٌ ؛ إذا عدَل . وقَسَطَ ، يَقْسِطُ ، فهو قاسِطٌ : إذا جارَ ، فكأَن الهمزة في أَقْسَطَ للسَّلْب كما يقال شَكا إِليه ، فأَشْكاه ، وتقَسَّطُوا الشيءَ بينهم : تقسَّمُوه علىٰ العَدْل [3] ، والسَّواء .

والقِسْط بالكسر : العَدْلُ وهو من المصادر الموصوف بها كعَدْل يقال مِيزانٌ قِسْط ومِيزانانِ قسط ومَوازِينُ قِسْطٌ . وقوله تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ [4] أي ذواتِ القِسْط وقال تعالىٰ ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [5] .

---

(1) الإسراء 35 .
(2) لسان العرب ، ج 6 ، ص 176 .
(3) لسان العرب ، ج 7 ، ص 377 .
(4) الأنبياء 47 .
(5) الإسراء 35 .

وقال : ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (1) .

يقال : هو أَقْوَمُ المَوازِين . ويقال : قُسْطاسٌ ، وقِسْطاسٌ . والإقساطُ ، والقِسْطُ : العَدْلُ . ويقال : أَقْسَطَ ، وقَسَطَ : إذا عدَلَ . وجاءَ في بعض الحديث : « إذا حكَمُوا ؛ عدَلوا ، وإذا قسَموا ؛ أَقْسَطُوا » أَي : عَدَلُوا .

لذا فمن لم يحكم بالعدل ويعمل به فهو من الملعونين من ٱلله والملائكة والناس أجمعين ، أما الخليفة فهو الذي يَرحَمُ ويُرْحَم ولا ينقض العهد ويحكم بالعدل اتباعا للعدل المطلق الذي هو من عند ٱلله جل جلاله وهو المنزل في القرآن الكريم .

وعِدْل الشيء : ما يساويه ، ويطابقه ، ويفدي الإنسان نفسه بدفعه مثل الفدية . وهـٰذه من معاني العدل بالإضافة ومن الوسائل التي يتحقق بها العدل ، والخليفة يعمل علىٰ المساواة ، وعلىٰ نشر الرحمة ، والمودة ، والحكم بالعدل ؛ لينشر أنوار العدل في الأرض محلِّ الخلافة .

وفي أسماء ٱلله الحسنىٰ العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوىٰ فيَجورَ في الحكم وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ وهو أَبلغ منه لأَنه جُعِلَ المُسَمَّىٰ نفسُه عَدْلاً .

والعَدْلُ الحُكْم بالحق ، يقال : هو يَقْضِي بالحق ، ويَعْدِلُ ، وهو حَكَمٌ عادِلٌ ذو مَعْدَلة في حكمه .

والعَدْلُ من الناس المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه ، ورجل عَدْلٌ وعادِلٌ جائز الشهادة . ورَجُلٌ عَدْلٌ رِضاً (2) ومَقْنَعٌ في الشهادة قال ابن بري :

---

(1) الشعراء ، 182 ، 183 .

(2) لسان العرب ، ص 403 .

وبـايَعْـتُ لَيْلـىٰ فـي الخَـلاء ولـم يَكُنْ شُهودٌ علىٰ لَيْلىٰ عُدُولٌ مَقَانِعُ

ورَجُلٌ عَدْلٌ بيِّن العَدْلِ والعَدَالة وُصِف بالمصدر معناه : ذو عَدْلٍ قال في موضعين : ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (1) ، وقال : ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (2) ، ويقال : رجل عَدْلٌ ، ورَجُلانِ عَدْلٌ ، ورِجالٌ عَدْلٌ ، وامرأة عَدْلٌ ، ونِسْوةٌ عَدْلٌ كلُّ ذلك علىٰ معنىٰ : رجالٌ ذَوُو عَدْلٍ ، ونِسوةٌ ذوات عَدْلٍ ، فهو لا يُثَنَّىٰ ، ولا يجمع ، ولا يُؤَنَّث ، فإِن رأَيته مجموعاً ، أَو مثنىٰ ، أَو مؤنثاً ؛ فعلىٰ : أَنه قد أُجْرِي مُجْرىٰ الوصف الذي ليس بمصدر . وقد حكىٰ ابن جني : امرأَة عَدْلة أَنَّثوا المصدر لما جرىٰ وصفاً علىٰ المؤنث وإِن لم يكن علىٰ صورة اسم الفاعل ولا هو الفاعل في الحقيقة ، وإِنما اسْتَهْواه لذلك جَرْيُها وصفاً علىٰ المؤنث . وقال ابن جني قولهم : رجل عَدْلٌ وامرأَة عَدْل إِنما اجتمعا في الصفة المُذَكَّرة ؛ لأَن التذكير إِنما أَتاها من قِبَل المصدرية ، فإِذا قيل : رجل عَدْلٌ ؛ فكأَنه وصف بجميع الجنس مبالغةً .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ والعَدْلُ في القول ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾ والعَدْل : الفِدْية قال ٱلله عز وجل : ﴿يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ والعَدْل يحتوي في مضمونه العودة للأمر الطبيعي ، وذلك بالعدول عن سابق سالب كعدول المشرك عن شركه ، والكافر عن كفره بالعودة للأمر الطبيعي وهو الإيمان بالواحد الأحد العادل في ملكه .

قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَي : يُشْرِكون . وأَما قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ العلاقات الزوجية علاقات ثنائية في دائرة (المَثنىٰ) وبالتالي تجاوز العدد عن الزوجين الذكر والأنثىٰ يصبح في دائرة المجموع ، والمجموع يتنوع ، ويتعدد ويتمايز

---

(1) المائدة 5 .

(2) الطلاق ، 65 .

ويتخاصم ويميل (أي : يحيد) عن الصواب في بعض الأحيان إذا تعارضت المصالح أو الرغبات والشهوات ، وهٰذه غرائز في حالات الزواج كل زوجة تعتبرها حق طبيعي لها ، وقد تكون ظروف الحاجة متزامنةً ، والزواج استئناس وألفة ومحبة تتعلق بالمشاعر والأحاسيس فمن يمسها دخل في الخطوط الحمراء ، ولذا فالخصام والمشاكل ستكون إلا إذا تنازل أو قبل طرف بالتنازل للطرف الآخر تفاديا للمشكل وعلىٰ حساب حاجاته ، وغرائزه ، واعتباره .

وعَدَلْت فلاناً بفلان إذا سَوَّيْت بينهما ، وتَعْدِيلُ الشيء : تقويمُه . وقيل : العَدْلُ تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتىٰ تجعله له مِثْلاً ، والعَدْلُ والعِدْلُ والعَدِيلُ سَواءٌ أَي : النَّظِير ، والمَثِيل . وقيل هو المِثْلُ ، وليس بالنَّظِير عَيْنه [1] ، وفي التنزيل : ﴿ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ ﴾ قال مُهَلْهِل :

علىٰ أَنْ ليْسَ عِدْلاً من كُلَيْبٍ إذا بَرَزَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُور

والاعْتِدالُ : تَوَسُّطُ حالٍ بين حالَيْن في كَمٍّ أَو كَيْفٍ كقولهم : جِسْمٌ مُعْتَدِلٌ : بين الطُّول والقِصَر ، وماء مُعْتَدِلٌ : بين البارد والحارِّ ، ويوم مُعْتَدِلٌ : طيِّب الهواء ضدُّ مُعْتَذِل بالذال المعجمة .

قال ٱلله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [2] . العدل هنا اتزان وتساوي بالدقة التي خُلق عليها الخليفة في أحسن تقويم ، ولهٰذا العادل جميل وجعل الجمال فينا وفيما خلق بعدله سبحانه لا إلٰه إلا هو جل جلاله ! ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ ﴾ [3] إنه صاحب المشيئة فكيفما يشاء يركب ما شاء كيف يشاء .

ومن قرأَ ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ فشَدَّد ، قال الأَزهري : وهو أَعجبُ الوجهين إلىٰ الفراء وأَجودُهما في العربية ، فمعناه : قَوَّمك ، وجَعَلَك مُعْتدلاً مُعَدَّل الخَلْق

(1) المصدر السابق ، 404 .

(2) الانفطار 7 .

(3) الانفطار 8 .

وهي قراءة نافع وأَهل الحجاز . قال : واخْتَرْت عَدَّلك لأَنَّ المطلوب الاثنتين التركيب أَقوىٰ في العربية من أَن تكون في العَدْل لأَنك تقول عَدَلْتك إِلىٰ كذا وصَرَفتك إِلىٰ كذا وهٰذا أَجودُ في العربية من أَن تقول عَدَلْتك فيه وصَرَفْتك فيه وقد قال غير الفراء في قراءة من قرأ (فَعَدَلك) بالتخفيف إِنه بمعنىٰ فَسَوّاك ، وقَوَّمك من قولك : عَدَلْت الشيء ، فاعْتَدل ؛ أي : سَوّيْته ، فاسْتَوَىٰ .

العَدْل : الفِداء ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ أَي تَفْدِ كُلَّ فِداء [1] .

وقيل : العَدْل المِثْل وأَصله في الدِّية ، يقال : « لم يَقْبَلوا منهم عَدْلاً ولا صَرْفاً » أَي : لم يأْخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلاً واحداً أَي : طلبوا منهم أَكثر من ذلك . وقيل : العَدْل الفريضة . وقيل : النافلة وقال ابن الأَعرابي : العَدْل : الاستقامة ، وسيذكر الصَّرْف في موضعه . وفي الحديث : « من شَرِبَ الخَمْر لم يَقْبَل ٱللهُ منه صَرْفاً ، ولا عَدْلاً أَربعين ليلة » قيل : الصَّرْف الحِيلة ، والعَدْل : الفِدْية . وقيل : الصَّرْف الدِّية ، والعَدْلُ : السَّوِيَّة . وقيل : العَدْل : الفريضة ، والصَّرْف : التطَوُّع .

وعليه لو لم يكن العدل مطلقاً من قوة مطلقة ؛ ما كان للحق وجود . ولولا الحق المطلق ؛ ما كان للحق عبيد يؤمنون ، وما كانت له قواعد تقاس بالدقة المتناهية وفقاً للموازين المخلوقة من الخالق الحق جل جلاله .

ولهٰذا كان الفداء حق وعدل ، وكانت المساواة في الحقوق والواجبات والمسؤوليات بين المواطنين عدل من العدل المطلق .

وقال زهير :

وأَقْصَــرت عمَّــا تَعلميــنَ وسُــدِّدَتْ   علـيَّ سِـوىٰ قَصْـدِ الطَّـريـق مَعـادِلُـه

---

(1) المصدر السابق ، ص 403 .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِمَكَّةَ ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (1) قَالَ الْمُشْرِكُونَ : وَمَا يُغْنِي عَنَّا الإِسْلَامُ وَقَدْ عَدَلْنَا بِاللهِ وَقَدْ قَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ . فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (2) .

يُظهر العدل عدله بعدم تسوية الخليفة التائب بغير التائب لله تعالىٰ ، فالذي تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً يجازيه ٱلله عدلاً بتبديل سيئاته حسنات ، ويغفر له ، ويرحمه في الدار الدنيا بالاستخلاف فيها ، وبالآخرة بالفوز بالجنة ، ولهٰذا فالخلفاء هم الذين لا يشهدون الزور ، ولا يمرون باللغو ، وإذا مروا يمرون كراماً ، وهم الذين بربهم يُذكرون ، ويتذكرون لأجل أن يجتنبوا أي عمل فيه أثم أو ذنب أو غفلة ، وذلك لأنهم يتذكرون في خلق السمٰوات والأرض ويؤمنون أن العادل لم يخلقها عبثاً ، ويخرون له طاعة تامة ركعاً ، وقياماً ، فالخلفاء يوقنون بالحق ، ويطيعونه في كل كبيرة وصغيرة ، ويستغفرون ربهم ، ويتوبون إليه ، ويدعون ربهم بأن تكون أزواجهم وأبناؤهم قرة أعين لهم حتىٰ يستمر استخلافهم بالحق وعلىٰ الحق المُبين طاعة لله تعالىٰ ، ويزدهم تقوىٰ حتىٰ يكونوا قدوة حسنة للمتقين ربهم فيسيرون علىٰ

---

(1) الفرقان 68 .

(2) الفرقان 70ـ76 .

هداهم مصلحين في الأرض غير مفسدين ولا سافكي الدماء فيها بغير حق ، وهـٰؤلاء هم المجازون بالجنة أي بأعمالهم الخيرة في الأرض يفوزون بالجنة وهي الغاية الكبرىٰ للخليفة ، وهي المقر الدائم بعد الحياة الدنيا الفانية .

عن جابر الجعفي ، قال : كان علي بن الحسين يذكر عن النبي ﷺ : أنه كان إذا ختم القرآن حمد ٱلله بمحامده وهو قائم ، ثم يقول : الحمد لله رب العالمين [1] ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [2] . لا إلـٰه إلا ٱلله ، وكذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً ، لا إلـٰه إلا ٱلله ، وكذب المشركون بالله من العرب والمجوس واليهود والنصارىٰ والصابئين ، ومن ادعىٰ لله ولداً أو صاحبة أو نداً أو شبيهاً أو مثلاً أو سمياً أو عدلاً ، فأنت ربنا أعظم من أن نتخذ شريكاً فيما خلقت ، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ، ٱلله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان ٱلله بكرة وأصيلاً . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [4] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [5] .

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 5 ، ص 93 .
(2) الأنعام ، 1 .
(3) الكهف ، 1 .
(4) سبأ ، 1 .
(5) فاطر ، 1 .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (2) .

هـٰذه الآيات ، وآذان المؤذن في الجنة هي حمدٌ علىٰ عدلٍ ، وشكرٌ علىٰ مغفرة ، وتوبةٌ وفضل من عدل مطلق ، بأنهم وجدوا ما قاله ٱلله حقاً ، فلا تبديل لكلام ٱلله ، وكان حكمه في الطائعين المستخلفين في الأرض والذين لم يستخلفوا فيها العدل الكامل ، وكان عدله حكماً مرضياً ، وذلك لارتباطه بالأعمال ، فمن عمل عملاً صالحاً فاز بالجنة ومن كفر كانت له جهنم دار خلود ، والحمد لله علىٰ عدله وفضله وجوده وكرمه وتوبته ومغفرته ولا إلـٰه إلا ٱلله والله أكبر !

اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق واجعلنا للمتقين إماما واجعلنا من الوارثين في الجنة أنت مولانا بك آمنَّا وعليك

(1) النمل ، 59 .

(2) الأعراف ، 44ـ51 .

توكلنا وأولينا أمرنا وأمر أسرنا وما نملك إليك فاحفظ وارحم واغفر وأنت خير الراحمين ، والحمد لله رب العالمين !

ومما سبق يتبين لنا أن العدل المطلق هو ٱلله ، والعدل لا يتحقق إلا به ؛ لأنه أسرع الحاسبين ، والعليم الخبير ، والحكم الذي لا يحكم عن هوىٰ ، ولا يميل ، وكيف يميل وهو الذي خلق الصراط المستقيم ؟ يقول ٱلله تعالىٰ علىٰ لسان المعصوم من الظلم ﷺ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (1) .

فالله العدل علىٰ صراط مستقيم والخليفة العدل بالإضافة علىٰ صراط مستقيم ومن يسيرون علىٰ خطىٰ الخليفة أمروا أن يقولوا في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (2) .

والله يضع من أراد أن يسير علىٰ خطا الخليفة علىٰ الصراط المستقيم ، فطريق العدل علىٰ الطريق المستقيم لكي يكون من الخلفاء المتحققين بنور الاسم العدل . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (3) .

وقال : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (4) .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي : مثلاً آخرَ يدل علىٰ ما دل عليه المثلُ السابقُ

(1) هود ، 56 .
(2) الفاتحة ، 6 .
(3) الأنعام 38 ـ 39 .
(4) النحل 76 .

علىٰ وجه أوضحَ وأظهرَ وبعد ما أبهم ذلك لتنتظرَ النفسُ إلىٰ وروده ، وترقبه حتىٰ يتمكَّن لديها عند ورودِه فضل تمكن بيِّن ، فقيل : ﴿ رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ وهو من وُلد أخرسَ لاَّ يَقْدِرُ علىٰ شيء من الأشياء المتعلِّقةِ بنفسه أو بغيره بحدْس ، أو فراسة لقِلة فهمِه ، وسوءِ إدراكِه . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ ﴾ ثِقَلٌ وعِيالٌ علىٰ مَوْلاهُ ، أي : علىٰ مَن يعوله ويلي أمرَه ، وهـٰذا بيانٌ لعدم قدرتِه علىٰ إقامة مصالحِ نفسه بعد ذكر عدم قدرتِه علىٰ شيء مطلقاً ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أي : حيث يرسله مولاه في أمر ، بيانٌ لعدم قدرتِه علىٰ إقامة مصالحِ مولاه ولو كانت مصلحةً يسيرة ، وقرئ علىٰ البناء للمفعول ، وعلىٰ صيغة الماضي من التوجه . ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ بنُجْح وكفايةِ مُهمٍّ البتةَ .

﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾ ما فيه من الأوصاف المذكورةِ ، ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ ، أي : مَنْ هو مِنطيقٌ فهِمٌ ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناسَ بحثهم علىٰ العدل الجامع لمجامعِ الفضائل ، ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة عدمُ استحقاقِ المأمورية ، وملخصُ هـٰذين استحقاقُ كمالِ الآمرية المستتبعِ لحيازة المحاسنِ بأجمعها [1] .

والله نهىٰ عن ضرب المثل لله أي : جعل شبه له ، أو مثيل ، وذلك يدخل في باب من يعدل بالله أي : يعادله بمثيل . تعالىٰ ٱلله علواً كبيراً علىٰ ما يصفون فقال ٱلله : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [2] يعني : لا تشبهوا ٱلله بخلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه ، ولهـٰذا دائماً وبالمطلق لا مجال للمقارنة مع ٱلله في شيء ، ولذا فالقاعدة تقول : (الخالق يرىٰ ما خلق

(1) تفسير أبي السعود ج 4 ، ص 141 .
(2) النحل 74 .

والمخلوق لا يرىٰ خالقه) ولهـٰذا بالمطلق الخالق أفضل من المخلوق من غير مقارنة ، ولأن الخلق كلهم عبيده ، وفي ملكه فكيف يُشبّه الخالق بالمخلوق ، أو الرازق بالمرزوق ، أو القادر بالعاجز . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ ﴾ : يعني ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له وأنتم لا تعلمون . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا ﴾ [1] لما نهاهم ٱلله سبحانه وتعالىٰ عن ضرب الأمثال ، لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالىٰ لنفسه مثلاً ، فقال تعالىٰ : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان ، كمثل من سوّىٰ بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر ، قد رزقه ٱلله مالاً فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف يشاء ، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال ، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية ، فكيف يجوز للعقل أن يسوي بين ٱلله عز وجل الخالق القادر علىٰ الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر علىٰ شيء البتة ؟ وقيل : هـٰذا مثل ضربه ٱلله للمؤمن والكافر المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر علىٰ شيء هو الكافر ، لأنه لما حرم نفسه من عبادة ٱلله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر علىٰ شيء ، وقيل : إن الكافر لما رزقه ٱلله مالاً فلم يقدم فيه خيراً ؛ صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً ، والمراد بقوله : ﴿ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا ﴾ ، المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة ٱلله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة ٱلله ، وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ ﴾ فأثابه ٱلله الجنة علىٰ ذلك . فإن قلت : لم قال : عبداً مملوكاً لا يقدر علىٰ شيء ، وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر علىٰ التصرف ؟ قلت : إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً ؛ لأنهما من عباد ٱلله ، وقوله : ﴿ لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾

(1) النحل 75 .

احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف ، لأنهما يقدران علىٰ التصرف واحتج الفقهاء بهـٰذه الآية علىٰ أن العبد لا يملك شيئاً . ﴿ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ﴾ ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الأحرار والعبيد ، والمعنىٰ كما لا يستوي هـٰذا الفقير البخيل ، والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي ، والمؤمن الطائع ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ ﴾ حمد ٱلله نفسه ؛ لأنه المستحق لجميع المحامد ، ولأنه المنعم المتفضل علىٰ عباده ، ولكي يحمده الحامدون ويشكره الشاكرون من خلفائه في الأرض ، وهو الخالق الرازق لا هـٰذه الأصنام التي عبدها هـٰؤلاء ، فإنها لا تستحق الحمد ؛ لأنها جماد عاجز ، لا يد لها علىٰ أحد ، ولا معروف ، فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره ، فيجب علىٰ جميع العباد حمد ٱلله ؛ لأنه أهل الحمد والثناء الحسن . ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ ﴾ يعني : الكفار ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يعني : إن الحمد لله لا لهـٰذه الأصنام . ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ ﴾ هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم ، والأبكم الذي لا يَفهم ولا يُفهم . ﴿ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ هو إشارة إلىٰ العجز التام والنقصان الكامل ، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ ﴾ أي : ثقيل علىٰ من يلي أمره ويعوله . وقيل : أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة ، يقال : كَلَّ السكين : إذا غلظت شفرته . وكَلَّ اللسان : إذا غلظ فلم يقدر علىٰ النطق ، وكَلَّ فلان عن الأمر : إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه ، فقوله : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ ﴾ أي : غليظ ثقيل علىٰ مولاه ﴿ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أي : حيثما يرسله ، ويصرفه في طلب حاجة ، أو كفاية مهم ﴿ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ ﴾ يعني : لا يأت بنجاح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ﴾ يعني من هـٰذه صفته (هو) يعني صاحب هـٰذه الصفات المذمومة ﴿ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ فالذي يأمر بالعدل هو سليم الحواس نفّاع ذو كفايات ، وذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير ، وذلك فالذي يأمر بالعدل مؤمن مستخلف في الأرض ، ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ علىٰ سيرة صالحة ودين قويم ، وهو المتماثل في

الخلق مع أحسن تقويم ، ولذا فالآمر بالعدل عالم قادر مستقيم في نفسه حتىٰ يتمكن من الأمر بالعدل ، وهـٰذا مثل ثان ضربه ٱلله لنفسه ، ولما يفيض علىٰ عباده من إنعامه ، ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد ، لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل ، وهي كلٌّ علىٰ عابديها ، لأنها تحتاج إلىٰ كلفة الحمل والنقل والخدمة (1) .

فالله هو العدل ولا يتحقق العدل ، إلا به ومنه ، فلولا أن العدل هو ٱلله ؛ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، فهو العدل اسماً وصفة وفعلاً ، وهو العدل في توزيع الأرزاق وإنزال المطر وإنبات النبات وشروق الشمس وغروبها ومستوىٰ حرارتها ، فكل شيء عنده بمقدار ، وعدله المطلق يغطي جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة ، ويشمل شتىٰ مناحي الحياة للإنسان من المهد إلىٰ اللحد ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأنه العدل ، وقد فطر المخلوقات علىٰ العدل ، ولأنه العدل المطلق فهو جلّ وعلا لا يظلم أحداً ولو بمقدار ذرة. يقول العدل المطلق في كتابه العزيز : ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (2) .

فمن العدل أن يُخْرِجَ الغني جزءاً من مال ٱلله الذي استخلفه فيه حتىٰ يشعر الفقير بالأمن إزاء توفير متطلبات الحياة ، وأن يكون هـٰذا الإنفاق نابعاً من قناعة صادقة من قِبَل الغني دون رياء ، وحبٍّ للظهور بمظهر المنفق البار المؤمن ؛

---

(1) تفسير الخازن ج 4 ، ص 197 .

(2) النساء ، 38ـ42 .

لأن ذلك السلوك يضعه في حزب الشيطان ، ومن يكن الشيطان له صاحب ؛ فبئس الصحبة ، ولأن ٱلله العدل ، فهو يجازي علىٰ الإحسان بالإحسان ، ويجازي بمثقال الذرة ؛ لأنه العدل المطلق . قال تعالىٰ : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ (1) ، ويذكرنا ٱلله في الآية السابقة بأنه لا يظلم ، ومن لا يظلم فلابد : أنه العدل المطلق ، والذي يشهد علىٰ ذلك الرسول الكريم ﷺ بل يشهد علىٰ الأمم جميعها لأنه المبعوث للناس كافة ، ومبعوث للثقلين : الإنس والجن ؛ لذا فقد أوجب ٱلله ـ من باب العدل حتىٰ تتحقق الشهادة العظمىٰ ـ علىٰ النبيِّ ﷺ أن يبلغ رسالته لجميع الأمم في كل مكان علىٰ الأرض ؛ حتىٰ لا تكون هناك حجة للناس علىٰ ٱلله ، وهـٰذا عدل مطلق بدين مطلق للكافة رحمة ، فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها .

والله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وهـٰذا العلم المطلق أحد أدوات تحقيق العدل المطلق ؛ لأنه لو لم يكن علمه محيط بكل متحرك وساكن ؛ لما توفر العدل ، ولنأخذ علىٰ سبيل المثال : الكلمة التي يعرفها العامة والتي تجري علىٰ ألسنة أهل العدل في الأرض (القضاة) فإنهم يحكمون بالبراءة لعدم توفُّر الأدلة ، أمّا العدل المطلق والعلم المطلق ، فعلمه يحيط بكل شيء ، فيقول تعالىٰ : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (2) .

وهنا قد يطرأ علىٰ ذهن القارئ سؤال ، وهو : كيف يتمكن الخليفة من أن يكون في ركب العدل المطلق ؟ نقول : إنه إذا التزم بالمنهج الذي أراده العدل المطلق كما أنزل دون زيادة ولا نقصان ؛ فإنه يرىٰ بنور العدل المطلق ، ويستطيع أن يفجِّر من قواه الباطنية ، أو أن يرىٰ ببصيرته ما لم يره غيره ، وهو

(1) الرحمـٰن ، 60 .
(2) غافر ، 19 ، 20 .

ما يسمىٰ بالبصيرة ، أو الإلهام ، أو الرؤية بنور الاسم الذي تخلق به ، أو من خلال الرؤية الجامعة بنور ٱلله ؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؛ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [1] قَالَ : لِلْمُتَفَرِّسِينَ » [2] .

ونور ٱلله توفيقه للخليفة الذي يلقي في قلبه النور ، فيعدل ، ويحقق العدل الإلـٰهي ؛ فعن أبي سعيدٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بتوفيق ٱلله » [3] . وقد جاء في تفسير المتوسمين : الذين يتفرسون ، ويرون بنور ٱلله وتوفيقه :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . المتوسمون هم المتصفون بالصفات ، والخصال الحميدة ، المتميزون عن غيرهم من الذين ينظرون وكأنهم لا يبصرون ، وهـٰذه من صفات الخليفة الذي يبصر في نفسه حتىٰ يرىٰ الحقيقة التي تجعله يعمل عملاً صالحاً في مرضاة ٱلله تعالىٰ ، وهو الذي يعتبر من كل أمر ، ويتذكر ، ويتفكر في خلق السمـٰوات والأرض ؛ وهو مدرك لقوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [4] . ولذلك فالخليفة هو المتفرس الذي ينظر في آيات ٱلله ، فيتعظ ، ويستغفر ، ويتوب ، ويحمد ربه ، ويشكره علىٰ ما أنعم عليه من نعم وفضائل ومكارم حسان ، وهو المعتبر بقلبه إيماناً تامّاً به واحداً أحداً لا شريك له والمحتكم بأمره وحكمته تعالىٰ مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [5] .

---

(1) الحجر ، 75 .
(2) سنن الترمذي ج 10 ، ص 399
(3) أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ج 1 ، ص 162
(4) آل عمران ، 191 .
(5) البقرة ، 269 .

ومن أراد أن يتحلَّىٰ بنور العدل المطلق عليه أن يدرب نفسه علىٰ الصبر في معرفة الحق الذي يُمكِّنه من بلوغ الحقيقة ، وبهـٰذا الشكل نصل إلىٰ أن ٱلله هو العدل المطلق ؛ لأنه يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، ولا يستطيع ذلك إلا هو جلَّ وعلا ، ومن هنا فالعدل المطلق لله ؛ لأنه عنده الموازين القسط التي يعطي من خلالها كل عبد حقّه ، وهو الغني عن الموازين ، ولـٰكنه من باب رحمته أراد أن يقيم الحجة علىٰ خلقه بما يستطيعون فهمه من قوانينهم التي يتعاملون بها ، فجاء لهم علىٰ سبيل المثال بألفاظ تتناسب وعقولهم وإدراكهم ، وهـٰذا لا يمنع من ووجود الموازين القسط ؛ لتكون لله الحجة الدامغة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ (1) .

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ الموازين جمع : ميزان ، والقسط : العدل . أي : نقيم الموازين العادلة التي نزن بها صحائف الأعمال ونحضرها أو الأعمال باعتبار التجوهر والتجسم وجعل الموازين باعتبار تعدد الأعمال أو لأن لكل شخص ميزاناً . وبذلك يضع العادل المطلق موازين ليستمدَّ منها العادل بالإضافة إلىٰ مقاييس تُمكِّن من إصدار أحكام محايدة لأجل ترسيخ العدالة بين الناس ، وسيادة صفة العدل في الفعل ، والسلوك .

ووصف الموازين بالقسط ؛ لأنها قد لا تكون مستقيمةً . ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي : لأجل جزائه : ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْـًٔا﴾ حقاً من حقوقها ، علىٰ أن يكون مفعولاً ثانياً لتظلم ؛ لأنه بمعنىٰ تنقص ، وتنقص يتعدىٰ إلىٰ مفعولين ، يقال نقصه حقه . من الظلم بل يوفىٰ كل ذي حق حقه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر علىٰ أن يكون مفعولاً مطلقاً ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي : العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾

(1) الأنبياء 47 .

والمثقال : ما يوزن به من الثقل أي : مقدار حبة كائنة من خردل ، وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ بقصر الهمزة من الإتيان ، والباء للتعدية أي : أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن ، والتأنيث لإضافته الىٰ الحبة . ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد علىٰ علمنا وعدلنا .

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الميزان حقٌ ، ووجهه : أن ٱلله تعالىٰ يحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجات الأعمال عند ٱلله ، فتصير مقادير أعمال العباد معلومةً للعباد حتىٰ يظهر لهم العدل في العقاب ، أو الفضل في العفو ، وتضعيف الثواب (1) .

وعليه ، توزن الأعمال بميزان الإخلاص العدل ، فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقْبَل ، ولا عدل فيه ، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق ، فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل ، وتوزن الأنفاسُ فما فيه حظوظ ، ومساكنات لا يُقْبَل . ويقال : ينتصِفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقم الضعيفُ من القوي . ويقال : ما كان لغير ٱلله يَصْلُح للقبول . ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله ، فَمَنْ لم يرحم عبادَه في دنياه لا يَرْحَمهُ ٱلله ، ومن لم يُحسِن إلىٰ عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومَنْ ظلم غيره كوفئ بما يليق بسوء فعله .

وقوله : ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي : بالعدل يُجازي المظلومين ، وينتقم من الظالمين ، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ، ومقياس الحَبَّة ، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار ؛ فسيلقىٰ جزاءه ، ويجد عِوَضَه ، ويتقي ربه في كل قول وفعل وسلوك يقدم عليه ، أو ينوي قوله ، أو القيام به .

قال تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

(1) تفسير حقي ، ج 8 ، ص 200 .

لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [2] .

بناء علىٰ ما تقدم فإن العدل المطلق هو لله تعالىٰ ، أما العادل النسبي فهو الخليفة ، والسبب أن العدل المطلق لا يتحقق علىٰ يد بشر ، فهو صفة إلـٰهية لا تقارن بقول عادل ، ولا فعل عادل ولا سلوك عادل ، فالعادل هو الفاعل بما يرىٰ ، ويسمع ، ولأنه كذلك ؛ فهو لا يمكن أن يرىٰ ، أو يستمع بالمطلق ، ولهـٰذا كانت النسبية متلازمة في جميع أحكامه وأفعاله وأقواله وسلوكياته . والملك لله وحده والعدل لله وحده ، والصفات الحسان بالمطلق لله وحده وبالنسبية للعادل المستخلف في الأرض . ولأنه عادل جعل الذكر والأنثىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [4] . ولأنه عادل جعل الحق في مواجهة الباطل حتىٰ يدمغه فيزهق . ولأنه عادل خلق الليل والنهار والأشجار والثمار والجنة والنار ، والرحمة والاستغفار . فسبحانه يعلم الغيب بعدله ، ويعلم السر في باطنه وظاهره ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

---

(1) سبأ 1ـ5 .

(2) الزلزلة ، 1ـ8 .

(3) الذاريات ، 49 .

(4) النجم 45 .

اللهُمَّ باسمك العدل ندعوك أن تجعل العدل بيننا رحمة ، فلا يظلم أحدنا الآخر ، ولا يتكل أحدنا علىٰ غيرك ، واجعلنا من الذين يوفون الكيل ، ولا يطففون الميزان ، ولا يطغون علىٰ العباد ولا يظلمون أحداً ! اللهُمَّ اجعل العدل في نفوسنا يقيناً ، ونزهة تُروِّض الأنفس ، وتطمئنها ، وتبرئ من النار ، وتدخل الجنة !

اللهُمَّ إن اسمك العدل ، وقولك العدل ، وفعلك العدل ، وغايتك العدل ، فاجعلنا باسمك وقولك وفعلك وغايتك علىٰ العدل ثابتين ، واهدنا صراطك المستقيم ، إنك بنا رؤوف رحيم يا ٱلله !

اللهُمَّ إننا نشهد : أن العدل حق ، فاجعله لنا حقاً حتىٰ لا نُظلم ، واجعله بيننا حقاً عنه لا نغفل ! اللهُمَّ اجعلنا من الذين يؤدون الأمانات إلىٰ أهلها وإذا حكموا بين الناس حكموا بالعدل ، واجعلنا علىٰ طاعة قولك : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (1) !

اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق ، واجعلنا للمتقين إماماً ، واجعلنا من الوارثين في الجنة ، أنت مولانا ، بك آمنَّا ، وعليك توكلنا ، وأولينا أمرنا إليك ، فالحمد لك !

(1) النحل ، 90ـ92 .